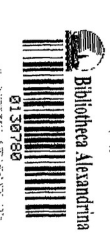


تاريخ اليونان

الجزء الأول

تأليف
الدكتور محمد كامل عياد



دار الفكر

تاريخ اليونان

تاريخ اليونان

الجزء الأول

تأليف
الدكتور محمد كامل عيّاد

الطبعة الثالثة
١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم ..

اقـدمت على اعـادة طبع هـذا الجزء مـن (تاريخ اليونان) بعـد أن نفدت نسخ الطبعتين الأولى والثانية واشتد الطلب عليـه من طلاب الجامعات وجمهور المثقفين ..

ولا بـد لي هنـا من التقـدم بالشكر الجزيل الى الزمـلاء الاسـاتذة الـذين ما فتئوا يعربون عن تقـديرهم للكتـاب وينوهون بمـا تضمنه مـن معلومات غزيرة ومناقشـات مستفيضـة ومقـارنات دقيقـة وتبـويب حسـن وأسلوب سهل ، واضح ، ومن اهتمام بكل نواحي الحضـارة اليونانيـة واظهار علاقتهـا بالاحـداث السياسية .

ورجائي أن يجـد فيـه القراء الجـدد شيئاً من الفائـدة والمتعـة ، وأن يغفـروا لي ما يلاحظونـه من اخطـاء ونقـائص ، والسلام .

دمشق ، شوال ١٤٠٠ / أيلول ١٩٨٠

محمد كامل عيـاد

المدخل

أ) أهمية التاريخ اليوناني :

ان أهم موضوع تاريخي يستحق عنايتنا، بعد تاريخنا القومي ، هو تاريخ اليونان • وترجع خطورة الموضوع الى امور عدة وهي :

١) ان هذا الموضوع تكثر الاخبار والوثائق والاثار المتعلقة به والذي استطاع لذلك العلماء التوسع في دراسته وتوصلوا الى توضيحه أكثر من أي موضوع آخر •

٢) اننا في تاريخ اليونان نجد أنفسنا تجاه حضارة من أرقى الحضارات البشرية فنطلع على مبادىء نشأتها ونتتبع مراحل تطورها السريع ونشاهد عهد ازدهارها ونتعرف الى القيم التي أبدعتها •••• ثم نكشف عيوبها ونقاط الضعف فيها ونرى مظاهر تفسخها وانهيارها • ولهذا السبب فان دراسة تاريخ اليونان من أكثر الموضوعات فائدة لفهم تطور الحياة البشرية عامة وادراك عوامل تقدمها وتأخرها •

٣) هناك علاقات وثيقة مباشرة بين تاريخ اليونان وبين تاريخ الشرق القديم • فقد بدأ اليونانيون حياتهم التاريخية باقتباس أسس الحضارة وعناصرها عن المصريين والبابليين والفنيقيين ، كما انهم أسسوا كثيرا من

المستعمرات على شواطىء آسية الصغرى ومصر وبرقة ثم استولوا في عهد الاسكندر على جميع بلاد الشرق الادنى والاوسط فشيدوا فيها المدن والمعابد وأسسوا المدارس والمكتبات ونشروا لغتهم وحضارتهم •

٤) بعد قيام الدولة العربية ـ الاسلامية نرى تراث الحضارة اليونانية يعود في عهد العباسيين فيلعب دورا هاما في تطور الفكر العربي ـ الاسلامي وفي تقدمه الفلسفي والعلمي •

٥) وأخيرا فان التراث اليوناني كان له أعظم الاثر في نشأة الحضارة الغربية الحديثة ، بل ان هذا الأثر ما زال بارزا ، ملموسا في جميع مظاهر هذه الحضارة المسيطرة اليوم على العالم كله •

وسنقتصر فيما يلي على بحث الناحيتين الاخيرتين :

ب) التراث اليوناني في الحضارة العربية ـ الاسلامية :

لما فتح العرب المسلمون بلاد الشام ومصر وافريقية الشمالية وفارس كانت الحضارة السائدة بين سكان هذه الاقطار هي الحضارة الهيللينية ـ البزنطية • وأهم المراكز لهذه الحضارة كانت في الاسكندرية وحران وجنديسابور •

وقد اشتهرت مدينة (جنديسابور) في جنوب ايران بمدرسة الطب التي أسسها فيها أسرى الروم على عهد سابور الاول وظلت تدرس فيها العلوم اليونانية باللغة الآرامية الى العهد العباسي فاتصل بها المسلمون خاصة بعد ان استدعى أبو جعفر المنصور ، لمعالجة مرض في معدته ، رئيس أطبائها (جورجيس بن بختشوع) • ثم ان هارون الرشيد أمر (جبريل بن بختشوع) حفيد (جورجيس) بتأسيس (بيمارستان) في بغداد على نمط بيمارستان جنديسابور ، وهكذا بدأ الطب اليوناني ينتقل الى العرب المسلمين وانتشرت ترجمة الكتب اليونانية في هذا العلم الى اللغة العربية •

وأما مدينة (حران) (في منطقة الجزيرة بين الرها ورأس العين) التي عاصرت اليونان والرومان وسكنها في عهد الاسكندر كثير من المقدونيين وأطلق عليها رجال الكنيسة اسم (هيلينوبوليس) ثم انتشرت فيها ديانة خاصة هي مزيج من العقائد البابلية واليونانية القديمة والافلاطونية الحديثة واتخذ سكانها لانفسهم اسم (الصابئة) في عهد المأمون حتى يعتبروا من أهل الكتاب ويسمح لهم بالمحافظة على عقيدتهم مقابل دفع الجزية ـ ان مدينة (حران) هذه قد أصبحت في العهد العباسي من منابع الثقافة اليونانية وظهر منها كثير من العلماء أمثال (ثابت بن قرة) و (ابن سنان) وأسرة هلال الصابي الذين قاموا بترجمة المؤلفات اليونانية الى اللغة العربية •

واخيرا تأتي الاسكندرية التي كانت عاصمة مصر في زمن اليونانيين ونشأ فيها المذهب الفلسفي المعروف باسم (الافلاطونية الحديثة) ••• وهذا المذهب الذي أسسه (افلوطين) يجمع بين آراء افلاطون والفلسفة الرواقية والعقائد الروحانية الشرقية • وكانت الاسكندرية مركزا هاما للحركة الفكرية في العهد الهيللينيستي فحافظت على تراث اليونان واستطاعت أن تتقدم به خطوات كبيرة الى الامام في بعض النواحي وقد اتصل العرب المسلمون بمدرسة الاسكندريةمنذ العهد الاموي ـ أي قبل النهضة العلمية ـ فلم تلعب دورا هاما في الحضارة العربية ـ الاسلامية ولم يشتهر من علمائها في العهد الاسلامي سوى (اسطفان الاسكندري) الذي ترجم بعض كتب الكيمياء لخالد بن يزيد بن معاوية ثم الطبيب (ابن اجر) الذي اسلم على يد الخليفة عمر بن عبد العزيز وصحبه الى بلاد الشام وأصبح طبيبه الخاص •

انها الحاجة العملية أي معالجة الامراض ، هي التي دفعت العرب في بادىء الامر الى اقتباس الطب اليوناني • وكان من الطبيعي أن تسوقهم دراسة الطب وترجمة كتب (ابقراط) و (جالينوس) الى الاطلاع أولا

على العلوم القريبة من الطب أي الطبيعيات ثم على العلوم الاخرى من رياضيات ومنطق وفلسفة . وكان أكثر الباحثين يجمعون بين هذه العلوم كلها . فقد كان الكندي ، وهو أول مشاهير الفلاسفة العرب في الوقت نفسه عالما بالفلك والكيمياء والفيزياء والرياضيات . كذلك كان الفلاسفة الكبار : الفارابي وابن سينا وابن رشد يشتغلون بالطب والطبيعيات والرياضيات .

وتدل جميع الظواهر على أن الاندفاع في سبيل ترجمة كتب المنطق وما بعد الطبيعة اليونانية كان نتيجة لما شعر به علماء الاسلام من الحاجة الى مجادلة خصومهم المسيحيين واليهود والمجوس بالحجج والبراهين ذاتها التي كان هؤلاء يستندون اليها وأعني بذلك قواعد المنطق ومبادىء الفلسفة التي وضعها اليونان والتي كانت شائعة في بلاد الشرق منذ فتوح الاسكندر . وقد كان للمعتزلة أثر كبير في تشجيع حركة الترجمة . ومن المعروف ان الخليفة المأمون الذي كان من أنصارهم قد أسس (دار الحكمة) في بغداد لهذه الغاية .

لقد أعجب العرب المسلمون بالعلوم والفلسفة اليونانية واندفعوا الى دراستها . يقول الجاحظ : « لولا ما أودعت لنا الاوائل في كتبها وخلدت من عجيب حكمتها ودونت من أنواع سيرها حتى شاهدنا بها ما غاب عنا وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا فجمعنا الى قليلنا كثيرهم وأدركنا ما لم نكن لندركه الا بهم لما حسن حظنا من الحكمة ولضعف سبيلنا الى المعرفة .» ويصرح الفارابي في كتابه (الجمع بين رأى الحكيمين) : « لولا ما أنقذ الله أهل العقول والاذهان بهذين الحكيمين ـ أي أفلاطون وآرسطو ـ ومن سلك سبيلهما ممن أوضحوا أمر (الابداع) بحجج واضحة ، مقنعة لكان الناس في حيرة ولبس ... »

وتتجلى لنا الرغبة في الاستعانة بالفلسفة لدعم العقيدة الدينية لدى (اخوان الصفاء) الذين يصف لنا أبو حيان التوحيدي خلاصة مذهبهم

كما يلي : « ... وكانت هذه العصابة قد تألفت بالعشرة وتصافت بالصداقة واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة ، فوضعوا بينهم مذهبا زعموا انهم قربوا به الطريق الى الفوز برضوان الله ، وذلك أنهم قالوا : الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة لانها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية . وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال ... وصنفوا خمسين رسالة في أجزاء الفلسفة علميها وعمليها .... »

ومن أكبر المتحمسين للفلسفة اليونانية بين علماء العرب العباقرة نذكر الحسن بن الهيثم الذي كتب في ترجمة حاله يقول :

« اني لم أزل منذ عهد الصبا مرويا في اعتقادات الناس المختلفة وتمسك كل فرقة منهم بما تعتقده من الرأي فكنت متشككا في جميعه ،موقنا بأن الحق واحد وأن الاختلاف فيه انما هو من جهة السلوك اليه فلما كملت لادراك الامور العقلية انقطعت الى طلب معدن الحق ووجهت رغبتي وحرصي الى ادراك ما به تنكشف تمويهات الظنون وتنقشع غيابات المتشكك المفتون ، وبعثت عزيمتي الى تحصيل الرأي المقرب الى الله جل ثناؤه ، المؤدي الى رضاه ، الهادي لطاعته وتقواه ، فكنت ، كما قال جالبنوس — « لست اعلم كيف تهيأ لي منذ صباي ، ان شئت قلت باتفاق عجيب وان شئت قلت بالهام من الله وان شئت قلت بالجنون أو كيف شئت أن تنسب ذلك — اني ازدريت عوام الناس واستخففت بهم ولم التفت اليهم واشتهيت ايثار الحق وطلب العلم ، واستقر عندي انه ليس ينال الناس من الدنيا شيئا أجود ولا أشد قربة الى الله من هذين الامرين .. فخضت لذلك في ضروب الآراء والاعتقادات وانواع علوم الديانات فلم أحظ من شيء منها بطائل ولا عرفت منه للحق منهجا ولا الى الرأي اليقيني مسلكا جددا ، فرأيت انني لا أصل الى الحق الا من آراء يكون عنصرها الامور الحسية وصورتها

الامور العقلية ، فلم أجد ذلك الا فيما قرره ارسطوطاليس من علوم المنطق والطبيعيات والآلهيات التي هي ذات الفلسفة •••• »

على الرغم من أن حركة الاقتباس عن الفلسفةاليونانية قد لقيتمعارضة شديدة من علماء الدين الذين أدركوا خطر النظريات الفلسفية على العقائد الموروثة وعلى الرغم من ان الغزالي قام في كتبه الكثيرة وعلى الاخص «المنقذ من الضلال » و « تهافت الفلاسفة » يكفر الفلاسفة ويحذر من آرائهم فان التفكير العربي الاسلامي قد اخـذ الشيء الكثير من العلوم اليونانيـة وفي مقدمتها المنطق والرياضيات والطب وما بعد الطبيعة .• وقد تسربت الثقافة اليونانية الى العلوم العربية نفسها وصبغتها صبغة خاصة كما نرى ذلك في أسلوب علماء الكلام الذين اتبعوا أساليب منطقآرسطو وصاروا يستخدمون المصطلحات والتعـابير الفلسفية كالجوهـر والعرض والكيفيـة والكميـة والضرورة والامكان • كذلك نلاحظ تأثـير (آرسطو) في ترتيب كتـاب (سيبويه) وتبويبه واستعماله للقياس في أشكاله المتنوعة • بل ان طريقة البحث عند الامام الغزالي نفسه تدلنا على خضوعه لتأثير الفلسفة اليونانية •

بالاستناد الى أهمية الدور الذي لعبه التراث اليوناني العلمي والفلسفي في تكوين الحضارة العربيـة الاسـلامية يذهب بعض المستشرقين أمثـال (بيكر Becher) و (شيدر Schaeder) الىأنه عند التمييز بينالحضارات المختلفة ودراسة تاريخ كل منها على حدة لابد لنا من ادخال الشرقالعربي ضمن الحضارة الاوروبية ، لان العناصر الاساسية التي تكونت منها كل من حضارة اوروبا الحديثة والحضارة العربية ـ الاسلامية هي مشتركةوأهمها اولا : الديانة السماوية وثانيا : التراث اليوناني ـ الروماني • واذا كان هناك اختلاف في عروق الشعوب التي قامت على اكتافها كل من الحضارتين فان هذه الشعوب كلها قد عاشت جنبا الى جنب واختلط بعضها بالآخر في مناسبات تاريخية عديدة حتى أصبح من الصعب أن نجد بينها عرقا صافيا •

على أنه لابد من الاعتراف مع (بيكر) بأن التراث اليوناني لم ينتقل الى العرب المسلمين في شكله الاصلي وانما ظهر لهم في ثوب الهيللينستية المتأخرة أي في صورة المسيحية الشرقية واليهودية اللاحقة على التوراة أي بعد أن شاعت فيه الروح الدينية ــ السماوية ثم ان تراث الاوائل كان في الشرق دائما مادة فحسب ، كما يقول (بيكر) ولم يبد له على أنه فكرة أو مبدأ أو نموذج أسمى يثير قوة الابداع الذاتية فيه بخلاف ما كان الامر عليه لدى الاوروبيين في عهد النهضة وكما ظهر في الوقت الحاضر. وأخيرا فان العرب المسلمين لم يهتموا بالتراث اليوناني كله ، بل اقتصروا على اقتباس بعض النواحي المعينة منه . يقول (بيكر) : « لقد كانت هناك عوامل تاريخية وعرقية ونفسية جعلت العرب لايعنيهم من كتب اليونانيين الا ما كان معترفا به من الجميع وما كان في الوقت نفسه يلائم طبيعتهم وأعني بذلك النزعة العقلية ــ المنطقية . ولذلك فان كل شيء كان نصيب الروح اليونانية في صدوره أكثر من نصيب العقل اليوناني مثل الشعر الغنائي والادب الروائي وما كان يونانيا بحتا كآلهة (هوميروس) ومؤلفات المؤرخين اليونانيين ــ ان كل هذه الاشياء ظلت أبوابها موصدة امام الشرق ... لقد اقتصرت حاجة الشرق الفنية من تراث اليونان على هندسة البناء وما يشبهها من الفنون غير الشخصية . وقد بقي النحت يعتبر في نظر الشرق عارا وحمقا . وبينما أصبح جمال عالم الصور القديم وصورة الانسان الكامل العاري نموذجا حسيا حيا لصورة الانسان الجديد عند الاوروبيين ، نرى علم الحس الحي في الشرق قد اختفى وراء التجريدات العقلية أو فني في العلاقات الغرامية الفردية .. » ويعلل (بيكر) ذلك بقوله : « ان الشرق تنقصه النزعة الى تصوير الذات تصويرا مشخصا سواء عن طريق الفنون من نحت ورسم أو عن طريق الرواية المسرحية » .

وفي الحقيقة فانه مما يستلفت النظر أن نرى العرب المسلمين يعتنون

بترجمة جميع الكتب التي عثروا عليها في العلوم الرياضية والطبية والفلسفية في حين أنهم لم يشعروا بالرغبة في الاطلاع على آثار الفن والادب عند اليونان ، وبينما انتقلت اليهم بعض النوادر والامثال والحكم لا نجد لديهم أي شيء من مؤلفات المؤرخين والكتاب الروائيين وأقوال الخطباء اليونانيين.

عند البحث في أسباب هذه الظاهرة يذهب الاستاذ احمد أمين الى أن العلوم العقلية ، التي يضبطها المنطق ، مشتركة بين جميع البشر بخلاف الادب أو الفن الذي هو لغة العواطف وصورة الحياة الاجتماعية . والعواطف ليس لها منطق يضبطها كما أن الحياة الاجتماعية تختلف من أمة الى أخرى . ثم يشير احمد أمين الى أن الروح الوثنية في الادب والفن اليوناني وذكر آلهتهم المتعددة وتصويرها وعبادة الابطال — ان كل ذلك مما لا يمكن أن يستسيغه الذوق الاسلامي .

ومهما كانت الاسباب فقد ضاع على الشرق ، كما يقول (بيكر) ، هذا الميدان الفسيح بأكمله وحرم بذلك من الاطلاع على أسمى ما أبدعته عبقرية اليونان .

ومما يؤسف له حقا أن العرب المسلمين لم يطلعوا على مؤلفات المؤرخين اليونانيين ولا سيما كتب (هيرودوت) و (توكيديديس) التي تشتمل على كثير من الاخبار الموثوقة والمعاصرة ومن الاحكام الموزونة والنظرات العميقة . صحيح انه قد ظهر بين العرب المسلمين عدد كبير من المؤرخين الذين استطاعوا بجهودهم الخاصة ودون حاجة الى الاقتباس أن يدونوا حوادث التاريخ التي وصلت اليهم بطريقة ربما تفوق طريقة المؤرخين اليونانيين في استقصاء الاخبار ودقة تمحيصها ومقارنتها والربط بينها . ولكن هؤلاء المؤرخين العرب لم يعرفوا شيئا عن تاريخ اليونان وعما تضمنه من وقائع خطيرة ودروس قيمة . انهم قد اقتصروا على رواية أخبار أساطيرية عن الاسكندر الكبير دون أن يتساءلوا عن العصور التي سبقت

عهده والتي عاش فيها علماء وفلاسفة يعرف العرب المسلمون الشيء الكثير عن آرائهم مثل فيثاغوراس وابقراط وسقراط وافلاطون •

يتلخص لنا من كل ما تقدم أن العرب المسلمين قد اقتبسوا من التراث اليوناني بعض النواحي المعينة التي شعروا بالحاجة اليها والتي اعتقدوا بأنها تلائم طبيعتهم وتتفق مع نظرتهم الى الحياة فمزجوها بما لديهم من عناصر الحضارة وأبدعوا منها شيئا جديدا خاصا بهم •

ج) التراث اليوناني في الحضارة الاوروبية الحديثة :

اذا كان العرب المسـلمون في العصر العباسي قـد نظـروا الى تراث الاوائل نظرة خاصة جعلتهم يختلفون في الحكم على قيمته ويقتصرون على اقتباس بعض أجزائه دون الاخرى ويفسرون ما اقتبسوه حسب مفاهيمهم الذاتية ، فان الامر مع الاوروبيين لا يختلف عن ذلك : ان موقف الامم الأوروبية تجاه التراث اليوناني لم يكن واحدا في كل العصور وكل البلدان• وكما ان الاختلاف ما زال محتدما في الوقت الحاضر بين علماء التربية حول توجيه الثقافة ، هل يجب أن تستند الى تعليم اللغتين اليونانية واللاتينية وأن تقوم بتدريس الآداب والفنون القديمة وتدعو الى اتباعها أم هل يجب أن تعنى باللغات القومية والعلوم والفنون والآداب الحديثة وحدها ــ كما ان الاختلاف مازال محتدما حول هذا الموضوع كذلك كانت نظرة المتأخرين الى تراث الاوائل تتبدل من عصر الى عصر ومن أمة الى غيرها ، بل ومن كاتب الى آخر • فبينما نرى (مارتين لوتر) يقول : « ان حكمة اليونان حيوانية ، اذا بالكاتب الالماني (ويلهلهم فون هومبولدت) يدّعي بأنه ليس من شيء في العالم الحديث يمكن مقارنته بما كان عند الاوائل وأن الفرق بين القدماء والمتأخرين كالفرق بين الآلهة والبشر • وبينما يذهب الفيلسوف الالماني (هردر) الى أن اليونان كانت مهد الفكرة الانسانية وحب الشعوب يصرح العالم الكبير (فون ويلامووِيتس) بأن مفهوم الانسانية كان بعيدا

عن اليونانيين حتى أن لغتهم لاتعرف كلمة تعبّر عن ذلك • وقد تساءل الشاعر الالماني (شيللر) : « ما هي اليونانية ؟ » ثم أجاب : « انها العقل والاعتدال والوضوح • » ولكن الفيلسوف الالماني (نيتشه) يعارض ذلك كل المعارضة عندما يتبرأ من الحماقة الالمانية على حد قوله ، التي تنسب الى اليونانيين جميع الفضائل وتعتبرهم شعبا وسطا كل شيء لديهم بمقياس• واذا رأينا الفيلسوف (لوتزه) يعلن بأن الفضل في تأسيس العلم يرجع الى اليونانيين فان عالما كبيرا مثل (دوبوا – ريمون) يخالفه في ذلك قائلا : ان الفكر اليوناني ينقصه التأمل الهادىء الذي ينتقل من وصف الحوادث الواقعية الجزئية الى الحقائق العامة ويسير بذلك في الطريق الامين الذي يصل بنا وحده الى المعرفة العلمية • وبينما يقول الفيلسوف الفرنسي (تين) عن اليونانيين أنهم كانوا ينظرون الى الحياة كوسيلة للسرور والملذات نرى المؤرخ السويسري(بوركهاردت) يصفهم بأنهم كانوا يشعرون بالألم والأسى شعورا قويا ، عميقا ويحسنون التعبير عن ذلك •

هكذا يستطيع كل واحد أن يجد لدى اليونان ما يحتاج اليه أو يرغب فيه – وبصورة خاصة يستطيع أن يجد نفسه •

ليس هناك من شعب يمتاز تاريخه بالشمول والحركة وكثرة التقلبات مثل اليونانيين • وهذا دليل على عبقريتهم الخاصة التي تساعد المتأخرين على أن يجدوا لديهم كل شيء • والفرق بين النبوغ والعبقرية هو أن النابغة انما يبرز في ناحية معينة يمكن معرفتها والاحاطة بها بينما العبقري يحلق في كل الاجواء والانحاء : فهو معقد ، كثير المعاني مثل الكون والحياة •

لقد تعددت التفسيرات واختلفت القيم في الحكم على اليونانيين • وهي كلها مغلوطة وصحيحة في الوقت نفسه • ذلك لأن كل واحد منها قد اقتصر على ناحية معينة ونظر الى اليونانيين من وجهة خاصة • ولعل أهم شيء في

الحضارة اليونانية هو أنها كانت دوما القالب الجميل الذي استطاع كل عصر وكل انسان أن يفرغ فيه مثله الاعلى ••

لاشك في أن التراث اليوناني قد لعب دورا خطيرا جدا في نشأة الحضارة الاوروبية الحديثة وفي تطورها خلال العصور الماضية •

ان حضارة اليونانيين لم تنقرض بانهيار دولهم ودخول الرومان بلادهم ، بل انتقلت كميراث ثمين الى سائر الامم في الشرق والغرب • فان المستعمرات اليونانية المنتشرة في كل ناحية من حوض البحر الابيض المتوسط كانت قد زرعت بذور هذه الحضارة بين السكان في آسية الصغرى وبلاد الشام ومصر وبرقة وايطالية وفرنسة واسبانية وشواطىء البحر الاسود • وكانت فتوحات الاسكندر من أهم العوامل التي ساعدت على نشر هذه الحضارة وترسيخها في جميع أقطار الشرق الادنى • وكان مرفأ الاسكندرية على عهد البطالمة مصدرا للأفكار كما كان مصدرا للبضائع • إنه من متحف الاسكندرية ومكتبتها كانت تشع آراء الفلاسفة والمتصوفةوالعلماء والشعراء اليونانيين وتنتشر بين الباحثين والطلاب في كافة انحاء العالم •

وقد اقتبس الرومان الميراث اليوناني في شكله الهيللينيستي فكان كتابهم الروائيون يقلدون المؤلفين اليونانيين المتأخرين ، كما كان شعراؤهم يتبعون أساليب « الاسكندريين » وأوزانهم وموضوعاتهم • على أن الرومان بعد أن أتقنوا الدروس التي تعلموها من اليونانيين استطاعوا أن يعبروا عن روحهم القومية بأشعار خالدة • وقد قال شاعرهم الاكبر (فيرجيل) : « ان غيرنا يسكبون المعادن في قوالب بديعة تكاد تنبض منها الحياة وينحتون المرمر حتى يكاد ينطق ويتحرك • كذلك فانهم يستطيعون معرفة حركاتالكواكب في السماء ـ أما أنت يا روما فليكن عملك حكم الشعوب وليكن فنك أن تنشري السلام وتبقي على المغلوب وتقهري بالسيف كل معاند ، مغرور ••»

وقد مزج الرومان في ادارة امبراطوريتهم الشاسعة بين الانظمة

اليونانية والشرقية • ولا شك في أن اتساع الامبراطورية الرومانية قد ساعد كثيرا على انتشار الحضارة الهيللينيستية في كثير من البلاد لم تكن قد وصلت اليها قبـلا •

ثم قامت الامبراطورية البزنطية فجمعت بـين الحضارتين اليونانيـة والشرقية ونقلت قسما كبيرا من التراث اليوناني الى الشرق الادنى من جهة والى الاقوام السلافية من جهة ثانية • وقد انتقل هذا التراث الى العرب بعد الفتوحات الاسلامية بواسطة المسيحيين النساطرة والسريان ونشطت حركة الترجمة الى اللغة العربية وتولى علماء العرب وفلاسفتهم تفسير المؤلفات اليونانية وشرحها فأخذها عنهم بعد ذلك الاوروبيون في الاندلس وجنوب ايطالية وصقلية ثم في بلاد الشام أثناء الحروب الصليبية فكان ذلك من أهم العوامل في قيام حركة النهضة الاوروبية • وقد اندفع الاوروبيون منذ ذلك الحين الى احياء التراث اليوناني ولم يقتصروا على الناحية العلمية ـ الفلسفية ، مثل العرب المسلمين ، بل اهتموا أيضا بالتراث الفني والادبي ، ثم لـم يكتفوا بالتفاسير والشروح الهيللينيستية بل رجعـوا الى الاصـول والنصوص اليونانية نفسها • وانتهى الامر الى سيطرة الفكر اليوناني على الحضارة الحديثة حتى قال أحد الكتاب المعاصرين ان جميع الامم المتمدنة ليست سوى مستعمرات يونانية في كل ما يتعلق بالنشاط الفكري • ولم يكن الشاعر الالماني الاكبر (غوته) الا لسان حال جميع الاوروبيين حين قال : « ليكن كل منا يونانيا باسلوبه الخاص •• ولكن لا مفر لاحد من أن يكون يونانيا • »

وفي الحقيقة يستحيل فهم أي ناحية من الحضارة الاوروبية الحديثة دون الرجوع الى أصولهـا في التراث اليوناني • لنـأخذ مثلا : اللاهوت والعبادات المسيحية فان أكثر عناصرها مقتبسة من العقائد الصوفيـة عنـد اليونانيين ولاسيما مذهب (اورفيوس Orpheus) ثم من التعاليم اليونانية عن

ابن الاله الذي يموت في سبيل انقاذ البشر ويبعث حيا بعد الموت ، وكذلك من الطقوس اليونانية في حفلاتهم الدينية وما يتخللها من مراسيم التطهير وتقديم القرابين وتناول الطعام المقدس المشترك أضف الى ذلك العقائد اليونانية عن جهنم والارواح والسماء والنظريات الرواقية ثم الافلاطونية الحديثة في العقل والخلق ونهاية العالم ، بل ان الاعتقاد بالجن والتعاويذ والايام المشؤومة قد أخذه الاوروبيون أيضا عن اليونان •

ولا ريب في أن الفكرة الديموقراطية التي تعتبر الامة مصدر السلطة وتجعل الحكومة مسؤولة تجاه الشعب وتفسح المجال أمام جميع المواطنين لمعالجة الشؤون العامة وابداء الرأي فيها وتدعو الى اشتراك المحلفين في المحاكم وتتمسك بمبادىء الحرية في التفكير والكلام والكتابة والاجتماع قد نشأت أولا في اليونان ولعبت دورا هاما في تاريخهم وكان لها تأثير عميق في العصور الحديثة •

وما نراه اليوم لدى الغربيين من اهتمام بالجسم البشري والعناية بصحته ورشاقته عن طريق الالعاب الرياضية والمباريات (الأولمبية) ثم ما نسمعه عن الدعوة الى الحياة الطبيعية الطلقة والى التمتع بالحواس والجمال وما نقرأه عن نظرية الوراثة وتحسين النسل كل ذلك يرجع الفضل فيه الى تأثير اليونانيين •

ولننتقل الى الآداب الاوروبية الحديثة • فانه لايمكن ادراكها دون الرجوع الى تراث اليونان • ان الحروف التي تكتب بها جميع اللغات الاوروبية قد انتقلت من اليونانيين بواسطة الرومان • وقسم كبير منمفردات هذه اللغات مشتق من أصل يوناني • وطرائق الادب وأساليبه وأنواعه كالشعر الغنائي والقصصي والخيالي ثم القصة والمقالة وتراجم الاحوال وفي الدرجة الاولى : الروايات المسرحية (الدراما) الجدية (المأساة) والهزلية (الكوميديا) جميعها موروثة عن اليونانيين • بل ان الروايات القديمة

نفسها ما زالت تؤلف أغنى قسم من الآداب الحديثة • وما زال الكتاب المحدثون يستقون منها موضوعات رواياتهم وشخصيات أبطالها •

كذلك الفنون الجميلة من موسيقى وروايات غنائية (اوبيرا) وتمثيل ونحت ومعمارى قد اقتبسها الاوروبيون عن اليونان وما زالوا يتبعون فيها طرائقهم وأساليبهم • وما يسمونه الطريقة المدرسية (الكلاسيكية) في الادب والفن انما يقصد منها تقليد اليونانيين واتباع أساليبهم • ومن يتجول في المدن الاوروبية والامريكية يشاهد في كل مكان أبنية فخمة من المرمـر تزينها الاعمدة والتماثيل ، لابد أن يحسبها لاول وهلة معابد يونانية قديمة نقلت من اثينة ، ولكنها ليست سوى أبنية حديثة شيدت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على طريقة الفن المعماري اليوناني واتخذت قصورا للبورصة أو متاحف أو دورا للتمثيل •

امتاز اليونانيون بحبهم للتفكير العقلي المنظم وباندفاعهـم الى تعليـل مظاهر الطبيعة كلها تعليلا واقعيا ، موضوعيا • ولذلك فقد استطاعوا أن يتحرروا من سيطرة العقائد الغيبية (الميتافيزيكية) وأن يفتحوا الطريق للبحث العلمي المستقل ولتقدم المعرفة الانسانية • انهم قد وضعوا أسس الحساب والمثلثات وبلغوا في علم الهندسة الى درجة من الكمال لم يكن في امكان غيرهم التقدم أكثر منها حتى عهد (ديكارت) و (باسكال) • ونظرية (ديموقريطس) في الجوهر الفرد (الذرة) هي التي ألهمت علماء الطبيعة الحديثين ومهدت لهم الطريق الى التقدم الهائل في الفيزياء والكيمياء • وقد توصل (آرخميدس) الى كثير من الاختراعات الميكانيكية التي جعلته يصبح قدوة ومرشدا للمخترعين في العصور الحديثة • والنظريات المستحدثة في الفلك وفي تطور الكون مستوحاة من الفلاسفة والعلماء اليونانيين أمثال (آنا كساغوراس) و (أمبيدقلس) و (آرستاخوس) و (هيبارخوس) • ويرجع الفضل الى (ابقراط) في تحرير الطب من الخرافات . وهو الذي

زاد في شرف المهنة بأن وضع القسم الخاص بالاطباء وفرض عليهم ضرورة التمسك بالمبادىء الاخلاقية والقيم الانسانية •

على أن أهم ميدان يتجلى فيه تأثير الميراث اليوناني هو موضوع الفلسفة • ومن المعروف ان العلم اليوناني نفسه لم يكن سوى محصول التفكير الفلسفي الذي يمثل لنا رغبة اليونانيين الجامحة في دراسة الطبيعة ومعرفة حقيقة الانسان • وقد جمع اليونانيون بين حب الاطلاع وبين روح النقد ، كما اعتقدوا أن هناك نظاما يسود العالم وأنه في استطاعة الانسان ادراك هذا النظام بعقله • كذلك كان اليونانيون يؤمنون بالوحدة والتناسب والانسجام في كل الامور • وقد دفعهم هذا الايمان الى تأسيس المنطق ثم في الوقت نفسه الى التمسك بفكرة الكمال في الاشكال الفنية • ان مبادىء الوحدة والتناسب والانسجام هي الاساس عندهم سواء في فن المنطق أو منطق الفن •

لقد بحث فلاسفة اليونان في كل المشاكل التي يمكن أن تعترض البشر • ولذلك فان جميع النظريات الفلسفية عند العرب أو عند الاوروبيين منذ العصور الوسطى حتى العصر الحاضر يمكن ارجاعها اليهم • اننا نجد لديهم المذهب الواقعي والمذهب الخيالي والمذهب المادي وفكرة الوجدانية ووحدة الوجود والالحاد وقد سبقوا (قانت) الى نظرية نقد العقل و (نيتشه) الى مبدأ انكار الاخلاق و (فرويد) الى نظرية التحليل النفسي • وقد ظلت مباحث اليونانيين الفلسفية تثير العقول وتشغل الافكار في جميع العصور : من عهد الرومان الى الآباء المسيحيين وعلماء اللاهوت في القرون الوسطى الى فلاسفة العرب الى زنادقة عهد النهضة ، الى المفكرين الثائرين في القرن الثامن عشر الى فلاسفة العصر الحاضر على اختلاف نزعاتهم • ان الناس في جميع هذه العصور لم يكونوا يدرسون مؤلفات

افلاطون وآرسطو على اعتبارها وثائق تاريخية بل ليستخرجوا منها نظريات تساعدهم على حل مشاكل عصرهم •

اننا ، اذا استثنينا الآلات الحديثة ، نكاد لا نجد شيئا في الحضارة الاوروبية الا ويمكننا ارجاعه في الاصل الى اليونانيين • فالمدارس وأنواع الرياضة البدنية وعلم الحساب والهندسة والتاريخ والخطابة والفيزياء وعلم الحياة والتشريح وحفظ الصحة والطب والشعر والموسيقى والتمثيل والفن القصصي والروايات المسرحية الجدية والهزلية والفلسفية واللاهوت والتصوف والمذاهب الفلسفية والنظريات الاخلاقية والسياسية وأشكال الحكم الارستوقراطية والديموقراطية والديكتاتورية والبلوتوقراطية ـ كلها اما أنها ظهرت لاول مرة لدى اليونانيين أو انها انما تطورت وبلغت درجة الكمال بفضل جهودهم • ولاتزال الامم الاوروبية كلها تسمي هذه الامور بأسمائها اليونانية القديمة •

وكذلك جميع المشاكل التي تشغل الافكار في الوقت الحاضر مثل تحرير المرأة وتحديد أفراد الاسرة وتحسين النسل ، ثم الاصطدام بين القديم والجديد في الاخلاق والموسيقى ونظام الحكم أو النزاع بين الدين والعلم أو النضال بين الطبقات أو الحروب بين الأمم أو الخصومة بين الديموقراطية والديكتاتورية أو التباين بين الفردية والاشتراكية ـ كل ذلك قد أثار خواطر اليونانيين فاندفعوا الى البحث فيه ومناقشته وسبقوا أهل هذا العصر الى اقتراح الوسائل اللازمة لمعالجته •

فتاريخ الحضارة اليونانية من شأنه أن ينير الافكار حول هذه المشاكل ويهيء العقول لفهمها ومجابهتها وايجاد الحلول لها • فالحضارة اليونانية مازالت حية في اوروبا • وهي تتجلى في كافة خطرات الفكر الأوروبي • واذا كان الباحثون لايجهلون عيوب هذه الحضارة ونقائصها ، مثل حروبها الداخلية الوحشية المدمرة وتمسكها الرجعي بالرق واضطهادها للمرأة

بوتجردها عن القيود الاخلاقية وفكرتها الفردية المتفسخة وفشلها المريع في التوفيق بين الحرية والنظام ، فان هؤلاء الباحثين يعرفون من جهة ثانية كذلك فضلها في الدعوة الى مبادىء العقل والحق والحرية والجمال ، وهم عندما يقدمون على دراسة التاريخ اليوناني انما يريدون الاستماع ، من خلال صخب المنازعات السياسية ، الى أصوات (صولون) و (سقراط) و (افلاطون) و (أوريبيديس) و (فيدياس) و (ابيقور) و (آرخيميديس) وامثالهم من العباقرة الخالدين •

الفصل الأول

بلاد اليونان

حوض البحر الأبيض المتوسط :

قال أفلاطون : « لقد انتشرنا ، نحن اليونان ، على شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، كما تنتشر الضفادع على ضفاف الغدير • »

وفي الحقيقة فان المسرح الذي تعاقبت عليه أدوار التاريخ اليوناني لم يقتصر على شبه جزيرة اليونان ، بل كان يشمل بلادا كثيرة هاجر اليها اليونانيون واستقروا فيها • وقد كانت جزر بحر ايجه وشواطىء آسية الصغرى المجاورة تؤلف دوما جزءا متمما لبلاد اليونان وقد سكنها اليونانيون منذ مبدأ تاريخهم ، كما أسسوا المستعمرات في جنوبي ايطالية وصقلية وفي برقة وعند مصب النيل ثم على شواطىء بحر مرمرة والبحر الأسود في الشمال ثم في فرنسة واسبانية في الغرب • وهكذا فان شبه جزيرة اليونان نفسها لم تكن سوى جزء صغير من العالم اليوناني •

لقد سكن اليونانيون في كل الجهات من البحر الأبيض المتوسط الذي أصبح حقا بحيرة يونانية •

ونحن اذا أردنا أن نعرف العوامل الجغرافية التي أثرت في تاريخ اليونان فلا بد لنا من البحث في حوض البحر الأبيض المتوسط كله •

انا ، عندما نتكلم عـلى تأثير العوامل الجغرافيـة في تاريخ اليونان ، لا نرمي الى القول بأن موقع البحر الأبيض المتوسط ومناخهوطبيعة الأراضي المحيطة به هي وحدها قد خلقت الحضارة اليونانية • وقد كتب الفيلسوف الألماني (هيجل Hegel) يقول « إن الاتراك سكنوا بلاد اليونان عصورا طويلة دون أن يبدعوا شيئا يشـبه حضـارة اليونان » • بل هاهم أحفـاد اليونانيين يسكنون البلاد نفسها ، ولكن ما أعظم الفرق بينهم وبين أجدادهم ذلك لأن الحضارة تتوقف على ظروف تاريخية خاصة كانت متوفرة في مبدأ التاريخ اليوناني ولكنها تبدلت اليوم •

على أن العوامل الطبيعية الجغرافية ، اذا لم تكن وحدها كافية لخلق الحضارة فلا شك في أنها تساعد كثيرا على نشأة الحضارة وتطورها ، كما انها تؤثر تأثيراً عميقا في تكييفها وتكوين قسم كبير من صفاتها وطبعها بطابع خاص •

فما هي مميزات حوض البحر الأبيض المتوسط الذي كان مهدا لأقدم المجتمعات البشرية والذي تعاقبت على شواطئه كثير من الحضارات الراقية ؟

ان حوض البحر الأبيض المتوسط ألطف منطقة في العالم وأصلح مكان لسكنى البشر • لذلك فقد كان دوما هدفا للشعوب التي تهاجر اليه من الصحارى المحرقة في الجنوب أو الغابات الباردة في الشمال • وليس هناك بقعة أخرى على وجـه الأرض يمكن أن تضاهي حوض البحـر الأبيض المتوسط بالمحاسن التي أغدقتها عليه الطبيعة فمياه البحر هنا هادئة أثناء القسم الأعظم من السنة ، والأراضي حوله جذابة ، كريمة • والسماء صافية ، جميلة أي جمال •

يمتاز ، حوض البحر الأبيض المتوسط قبل كل شيء بلطافة المناخ واعتدال الطقس وصفاء الجو • هنا تتعاقب الفصول بانتظام : في الشتاء تهطل

الأمطار التي تغذي الأرض ، وفي الربيع والخريف تهب الرياح المعتدلة التي تنعش الانسان وتثير فيه النشاط . ان الانسان في هذه المنطقة يستطيع ان يعيش في الهواء الطلق أثناء القسم الأعظم من السنة بفضل الشمس المشرقة ، الدافئة التي لاتبلغ حرارتها في الصيف ، مع ذلك ، درجة عالية يمكن أن تنهك الأعصاب وتشل الحركة ..

على أن الأراضي على شواطىء هذا البحر وفي جزره ليست خصبة بقدر السهول التي تسقيها الأنهار الكبيرة مثل الغانج أو السند أو الدجلة والفرات أو النيل . أضف الى ذلك أن فصل الجفاف في هذه المنطقة كثيرا ما يبدأ قبل الأوان أو يستمر أكثر من المعتاد . ولذلك نرى الفلاحين هنا لا ينقطعون عن العمل ويعتادون على الصبر والجلد ويضطرون الى العناية بالزيتون وكروم العنب حتى يمكنهم بذلك تعويض ما يخسرونه في زراعة الحبوب وحتى لاتذهب جهودهم في حراثة الأرض سدى .

ثم ان هذا البحر بشواطئه مستقل عن البلاد المجاورة : تفصله عن المناطق الشمالية مجموعة من السلاسل الجبلية هي جبال (البرنس) و (الآلب) و (دالماتسيا) و (البلقان) . ومن جهة الشرق تحميه جبال (أرمينية) و (طوروس) وبادية الشام . أما في الجنوب فان الصحراء الكبرى تفصله عن سائر أنحاء القارة الافريقية . الا انه على الرغم من ذلك ليس منعزلا بالمرة عن بقية أقطار العالم ، بل هناك عدد كاف من الممرات والمنافذ التي تسمح بالاتصال والتي كانت تتسرب منها دوما مختلف الشعوب لتسكن على شواطئه . فهو بحيرة داخلية يسهل التنقل بين شواطئها بسبب كثرة الجزر والخلجان والرؤوس التي كانت في الأزمنة القديمة تساعد على معرفة الطريق ثم بفضل الرياح المنتظمة التي تدفع السفن الشراعية . وهذه العوامل تسوق الناس الى الملاحة التي ظهرت في البحر الأبيض المتوسط قبل أي مكان آخر وبلغت درجة كبيرة من التقدم منذ أقدم العصور .

ان البشر في حوض البحر الأبيض المتوسط لابد لهم ، لتأمين معيشتهم ، من السعي والاجتهاد والاشتغال بالملاحة والتجارة والصناعة الى جانب الزراعة . انهم مدفوعون الى الحركة والنشاط ـ ولكن بصورة معتدلة لاتمنعهم من التمتع بمحاسن الطبيعة والانصراف الى التفكير والتأمل . وهكذا فان الشروط اللازمة لنشأة الحضارة وتطورها وتقدمها متوفرة في هذه البقعة من العالم أكثر من أي مكان اخر ...

٢ ـ شبه جزيرة البلقان :

هناك ثلاثة أشباه جزر كبيرة تمتد من القارة الاوروبية الى أحضان البحر الأبيض المتوسط كأنها جسور تربط أوروبة بقارتي آسية وافريقية ، تلك هي : ١) شبه جزيرة (ايبرية) في الغرب ، ٢) شبه جزيرة ايطالية في الوسط ، ٣) شبه جزيرة البلقان في الشرق .

وأشباه الجزر الثلاثة هذه كلها جبلية . ولكن هناك فرقا كبيرا بين تكوين الجبال في ايطالية واسبانية من جهة وفي شبه جزيرة البلقان من جهة ثانية . ان جبال ايطالية واسبانية تتصف بوضوح تقسيماتها وانتظام هيكلها . فنرى في ايطالية أولا : سلسلة جبال الآلب تمتد على شكل قوس يحمي حدودها الشمالية ، وثانيا : سلسلة جبال (الآبنين) التي تؤلف العمود الفقري لشبه الجزيرة . أما في اسبانية فاننا نشاهد من جهة سلسلة جبال (البرنس) التي تفصل هذه البلاد عن بقية القارة الاوروبية ومن جهة أخرى عدة سلاسل تتفرع عن جبال (البرنس) وتمتد بصورة متوازية في شبه الجزيرة وبينها كثير من السهول الشاسعة ..

على العكس من ذلك في شبه جزيرة البلقان التي ليس من حاجز واضح يفصل بينها وبين بقية القارة الاوروبية : فان جبالها مضطربة ، بعيدة عن التناسق والانتظام . انها تتألف في الشمال من سلاسل جبال متعددة تنحدر الى الجنوب ولكنها سرعان ما تصطدم بسلاسل جبال أخرى تتجه

من الشرق الى الغرب • وقد نشأ عن هذا الاصطدام الجيولوجي كثير من التموجات والعقد والانكسارات ، كما ازدادت الانهدامات والانخفاضات عددا وعمقا ، فكانت النتيجة أن أصبحت بلاد البلقان مؤلفة من مقاطعات عديدة ، منعزلة بعضها عن بعض يسكن في كل منها شعب غريب عن الآخر، عدو لجيرانه ، حريص على استقلاله ، قادر على حماية نفسه • وقد كانت هذه البلاد منذ عصور ما قبل التاريخ ولا تزال حتى اليوم مجموعة متنافرة من الأجناس واللغات والأديان • ولذلك فان الرومان ثم البزنطيين وأخيرا الاتراك الذين فتحوا هذه البلاد وحكموها قرونا طويلة لم يستطيعوا أبدا توحيدها والتوفيق بين سكانها ••

٣ ـ شبه جزيرة اليونـان :

بلاد اليونان شبه جزيرة صغيرة تتفرع عن شبه جزيرة البلقان الكبيرة• وبقدر ما يظهر على شبه الجزيرة الكبيرة من الضخامة والاتساع والغلاظة والتكتل فان شبه الجزيرة الصغيرة تتصف ، على العكس من ذلك ، بالضيق والنحافة والخفة والتفكك • ان بلاد اليونان مقطعة الأوصال متفرقة الأجزاء، ويمكن القول انه بينما تتألف شبه جزيرة البلقان من كتلة عظـام غليظة تتكون شبه جزيرة اليونان من مجموعة أعصاب دقيقة •

تلتصق شبه جزيرة اليونان بالقارة الاوروبية بواسطة كتلة جبلية هي امتداد لجبال الآلب الدينارية • ومن امتداد هذه الكتلة في داخل البحر الأبيض المتوسط يتكون هيكل البلاد اليونانية • تبدأ حدود هذه البلاد بمقاطعة (تسالية) • أما تراقية و (مقدونية) الواقعتان الى شمال هـذه المقاطعة فان القدماء أنفسهم لم يكونوا يعتبرونهما من بلاد اليونان ، بل ان القدماء كانوا على خلاف في ادخال مقاطعة (ابيروس) نفسها ضمن حدود بلادهم • على أن الرأي السائد يقضي باعتبارها من أرض اليونان • وفي الجنوب تنتهي أرض اليونان بشبه جزيرة (البيلوبونيز) •

انها بلاد صغيرة لا يزيد طولها على (٤٠٠) كيلو مترا وعرضها على (٣٠٠) كيلو مترا • ولكنها واقعة في مكان ممتاز جدا • فهي في نقطة متوسطة بين اوروبة وآسية وافريقيـة ، قريبة من مراكـز الحضـارات الشرقية ، القديمة ، معرضة لجميع المؤثرات الخارجية • ان موقعها هذا يدفعها الى الاتصال بالبلاد المجاورة والاقتباس عنها او التأثير فيها • وقد كان اليونان أول أمة أوروبية اتصلت بالشرق واقتبست عنه ثم أثرت فيه •

لقد تم الاتصال عن طريق بحر ايجة والجزر المتناثرة في كل جهاته ثم عن طريق البحر الأبيض المتوسط •

ان بحر ايجة يحيط به البر من كل أطرافه تقريبا • فهو يشبه بحيرة تؤلف ، بما فيها من جزر وما يحيط بها في الشرق من شـواطىء آسـية الصغرى جزءا متمما لبلاد اليونان •

ما هي الصفات العامة لهذه البلاد التي تتألف من شبه جزيرة اليونان وجزر بحر ايجة وشواطىء آسية الصغرى ؟

يمكننا ان نلخص هـذه الصفات بثلاث • فهي : أ) بلاد بحريـة ، ب) جبلية ، ج) ذات اقليم ممتاز •

أ ـ البحـــر :

ان بلاد اليونان محاطة بالبحر الأبيض المتوسط ، وفي الدرجة الاولى ببحر ايجة الذي يؤلف بحيرة ضمن البحر الأبيض المتوسط • وقد قلنا أن هذا البحر نفسه يشبه بحيرة كبيرة خلقتها الطبيعة لتكون صلة وصل بين مختلف البلاد الساحلية في هذه المنطقة •

وليس هناك بقعة أخرى على وجه الكرة الأرضية أصلح من هذا البحر لاتصال البشر بعضهم ببعض ولتسهيل التبادل التجاري بينهم ولانتشار الحضارة وتمازج الثقافات •

وهذه الصفات تتجلى بصورة خاصة في بحر ايجة • فهو يعانق البر ويتداخل مع الأرض في عدد لايحصى من الخلجان العميقة على شواطىء شبه جزيرة اليونان وآسية الصغرى ، كما أن الأرض نفسها تترامى في أحضانه وتقفز الى أعماقه بالرؤوس وأشباه الجزر الكثيرة التي تبرز منها وتمتد الى داخله ثم بالجزر التي تتناثر وتتوزع في كل أنحائه والتي لايقل عددها عن الخمسمائة •

في الزاوية الشمالية من هذا البحر نجد مضيق (الدردنيل) ومضيق (البوسفور) اللذين لايعتبران حاجزا فاصلا ، بل صلة وصل بين آسية وآوروبة • ثم نرى في وسط هذا البحر الرؤوس وأشباه الجزر تمتد من شواطىء آسية الصغرى وشبه جزيرة اليونان بصورة متقابلة تقرب المسافة بين القارتين وتشير الى الرابطة الجيولوجية التي كانت بينهما قبل حادث الانهدام • وأخيرا هناك مجموعة من الجزر ، هي الآثار الباقية لتلك الرابطة الجيولوجية ، مصفوفة الواحدة الى جانب الأخرى كأنها جسور يسهل الانتقال عليها من قارة الى أخرى •

ان أكبر هذه الجزر وأهمها هي (كريد) التي ليست حلقة في الجسر الذي يربط بلاد اليونان بآسية الصغرى وسواحل سورية فحسب ، بل انها تستخدم أيضا كمحطة في الطريق الى مصر • وقد كانت السفن تنتقل بين (كريد) من جهة ومصر وسورية من جهة ثانية منذ أقدم العصور • وهكذا تلتقي في بحر ايجة القارات الثلاث ويلتصق بعضها ببعض •

ان البحارة الذين يسافرون في هذا البحر لا يغيب البر عن أنظارهم من جميع الجوانب حيثما اتجهوا • انه يمكن من رأس (مالية) في جنوب شبه جزيرة (البيلوبونيز) رؤية جبال (كريد) ومن شرقي جزيرة (كريد) تشاهد جبال (رودس) ، كما اننا نستطيع من جزيرة (رودس) أن نرى شواطىء آسية الصغرى • وأكثر الجزر في بحر ايجة قريبة

بعضها من بعض الى درجة أن الانتقال من احداها الى الأخرى لايستغرق أكثر من ساعة أو ساعتين • وهذه الجزر كان يقصدها في بادىء الأمر صيادو السمك وقرصان البحر الذين اتخذوها ملأجىء يسهل الدفاع عنها واستخدموها كمراكز حصينة تصلح للاشراف على الطرق البحرية ومراقبتها الى مسافات بعيدة • وهي ، على الرغم من صخورها الجرداء تغري البشر على الاقامة بها في جميع الفصول ، لما تمتاز به من صفاء الجو ولطافة الاقليم ورطوبة الطقس ، ثم لكثرة أشجارها المثمرة ولا سيما كروم العنب والتين • كما ان شواطئها غنية بالأسماك • وفي بعض هذه الجزر تكثر المعادن والحجارة الثمينة كالذهب في (سفنوس) و (تاسوس) ، والعقيق في (ميلوس) ، والمزمر الممتاز في (تاكسوس) و (باروس) • ويوجد فيها جميعا أحسن أنواع الغضار لصنع الأواني الخزفية •

ولعل أهم شيء اجتذب البشر الى بحر ايجة هو وجود هذه الجزر ، انها جزر جميلة حقا • ولايمكن للبحارة ، مهما يعتورهم من العذاب والاضطراب ، الا أن ينسوا همومهم وأن يشعروا بسرور عميق عندما يشاهدون هذه الكتل الصخرية ترتفع على سطح البحر اللامع كأنها معابد شاهقة تنعكس عليها مختلف الألوان والظلال • هناك قليل من المناظر الطبيعية على وجه الكرة الارضية أبدع من هذه الجزر وأحب الى النفس • وكل من يتجول على سفينة شراعية في بحر ايجة يدرك بسهولة لماذا بلغ الأمر باليونانيين ، الذين سكنوا شواطىء هذا البحر وجزره ، الى أن يعشقوها أكثر من الحياة وأن يعتقدوا ، مثلما فعل سقراط ، بأن المنفى بعيدا عنها أصعب حتى من الموت •

ان لكل جزيرة وكل رأس وكل خليج في بحر ايجة شكلا خاصا ومظهرا مختلفا يمكن تمييزهما من بعيد • وبذلك أصبحت هذه الجزر والرؤوس والخلجان نقاطا معينة واشارات طبيعية لامجال للضلال بينها •

فهي تهدي البحارة الى معرفة الطريق وتغنيهم عن البوصلة التي لم تكن في عهد اليونانيين قد اكتشفت بعد .

أضف الى ذلك التيارات الدائمة في بحر ايجة.فان هناك تيارا يجري في وسطه من الشمال الى الجنوب ويعاكسه من الجنوب الى الشمال تياران على جانبيه . وهذه التيارات المائية تساعد السفن على السير في الذهاب والاياب على السواء .

وأخيرا يجب أن نذكر الرياح التي تخضع في البحر الأبيض المتوسط كله الى نظام ثابت وقواعد معينة اكتشفها الملاحون اليونانيون منذ أقدم العصور عن طريق الملاحظة والتجربة ، واستندوا اليها في تحديد مواعيد أسفارهم وتعيين اتجاهاتها .

كل هذه العوامل قد ساعدت اليونانيين على تعلم فن الملاحة .

ان مخيلة سكان الجزر القدماء كانت قد ملأت البحر بالمخلوقات العجيبة ، الضخمة ، الوحشية ـ كما نرى ذلك في الرسوم التي اكتشفت في (كريد) . وكانت القبائل اليونانية ، بعد أن هاجرت من موطنها الأصلي ووصلت الى شواطيء بحر ايجة ، قد نسيت حتى اسم البحر ، فوقفت تجاهه في دهشة وذهول ، وشعرت بالخوف من اعماقه المجهولة . الا أنه لم تمض مدة طويلة حتى اطمأن اليونانيون الى البحر واقتحموا عبابه وأصبحوا بحارة ماهرين . وكان ضيق بلادهم وفقر أرضها في مقدمة العوامل التي دفعتهم الى الانتشار في البحر . فبدأووا بصيد السمك ثم أخذوا يتدربون على الملاحة في محاذاة الشواطيء حتى برعوا فيها وصاروا يتجولون في عرض البحار ويسافرون الى أقصى الأقطار . وقد تقدموا في صناعة السفن حتى فاقوا أساتذتهم المصريين والفينيقيين فاخترعوا أنواعا جديدة من السفن الكبيرة ، التجارية والحربية ، التي تحتوي على ثلاثة صفوف من المجاذيف يقوم (١٥٠) من البحارة بتحريكها علاوة على قوة الأشرعة .

وأخيرا بلغ الأمر باليونانيين الى أن ينظروا الى البحر كبيئة طبيعية معتادة يعيشون فيها ولا يعتريهم أي خوف مهما بعدت المسافة عن بلادهم ٠

يروي لنا المؤرخ اليوناني (اكسنوفون Xenophon) في كتابه (آنا بازيس) أن حملة العشرة آلاف من الجنود المرتزقة الذين رافقوا الأمير (قورش) الى بلاد فارس والذين تولى (اكسنوفون) نفسه قيادتهم في طريق العودة الشاقة مدة أشهر عديدة عبر جبال الأناضول في اتجاه الشمال ـ يروي لنا أنه عندما وصلت الحملة الى رأس جبل يطل على شواطىء البحر الأسود وشاهد افرادها من بعيد الأمواج المتلاطمة ، صرخوا جميعا بصوت واحد : « تالاسا ، تالاسا ، » (أي البحر ، البحر ،) وأخذوا يعانقون بعضهم بعضا من شدة الفرح ونسوا كل همومهم وأتعابهم السابقة ـ ذلك لأنهم ، بعد أن بلغوا البحر ، اطمأنوا من قدرتهم على معرفة الطريق والعودة الى بلادهم ، مهما بعدت ٠

انه في بحر ايجة قد تم التعارف والتقارب بين اليونانيين ، فاتصل بعضهم بالآخر وشعروا بالرابطة القومية الجامعة وأخذوا يتعاونون في بسط سيطرتهم الاقتصادية ونفوذهم الثقافي على حوض البحر الأبيض المتوسط كله ، انهم كانوا يذهبون الى (قبرص) للتنقيب عن المعادن والى موانىء البلاد الشرقية لجلب العطورات والى مصر وبرقة لاستيراد مختلف المنتوجات ٠ وكانت المضايق تدعوهم الى التجول في البحر الأسود للحصول على الحبوب من بلاد (السكيت) ٠ لقد كانوا يجوبون البحار من خليج الى آخر ومن جزيرة الى أخرى ويتنقلون من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب ويسافرون مرة الى البلاد المتمدنة ومرة الى الأقوام المتوحشة يتاجرون ويستعمرون وينشرون أفكارهم وعاداتهم حتى أصبحت حضارتهم تشمل حوض البحر الأبيض المتوسط بأجمعه ٠٠٠

ب) الجبـال :

على أن بلاد اليونان ليست بحرية فحسب ، بل هي جبلية أيضا • وهذه الصفة الثانية لم تكن أقل تأثيرا من الصفة الأولى في حيـاة السـكان وتطورهم التاريخي •

ان الأراضي الجبلية تبلغ ثمانين في المائة من مجموع مساحة البلاد • وهذه النسبة تزيد حتى على ما يقابلها في (سويسرة) • واذا كانت جبال (الآلب) المركزية أعظم من جبال اليونان وأكثر ارتفاعا فان الانتقال من مكان الى آخر أسهل في (سويسرة) مما في اليونان• واذا كانت (سويسرة) أيضا قد قسمتها الجبال الى مقاطعات مستقلة فان هذه المقاطعات ليست منعزلة كل العزلة بعضها عن بعض ، بل ان الطبيعة قد ربطت بينها وهي تدفعها الى التساند والتعاون في سبيل الدفاع المشترك • بخلاف ذلك بلاد اليونان : فان الانهدامات والانخفاضات الشديدة قد قلبت جبالها ، التي لايزيد ارتفاعها أبدا على ثلاثة آلاف مترا ، الى حواجز منيعة ، متشابكة يتيه الانسان بينها ولا يستطيع في الغالب اجتيازها •

تتكون أرض اليونان من مجموعة جبال مختلفة الأشكال ، متداخلة ، كثيرة الانكسارات والانهدامات ، تختلط فيها المرتفعات والانخفاضات •

وعلى كل حال نستطيع أن نميز أربع سلاسل جبال أساسية :

١ ـ سلسلة من الجبال البللورية تمتد في شكل قوس من (تراقية) و (مقدونية) وتشمل شبه جزيرة (خالكيديك) والقسم الشرقي من مقاطعة (تسالية) • وفي هذه السلسلة يقع جبل (اوليمب) ، وهو أعلى جبل في اليونان يبلغ ارتفاعه (٢٫٩٨٥) مترا •

٢ ـ سلسلة جبال (البندوس) التي تتألف من طبقات كلسية وتمتد من الشمال الى الجنوب بين مقاطعتي تسالية و (أبيروس) •

٣ ـ كتلة من الصخور الحوارية تمتد من جنوبي (تسالية) الى اليونان الوسطى وتشمل جزيرة (أوبوئة) • من هذه الكتلة يرتفع جبل (اوتريس) (١٫٧٣٨ مترا) وجبل أوتة (٢٫١٥٢ مترا) وجبل (بارناس) المشهور (٢٫٤٥٩ مترا) •

٤ ـ السلسلة الجنوبية الكبيرة التي تبدأ شمالا من شبه جزيرة (البيلوبنيز) على هيئة هضبات ثم تتفرع في الجنوب الى ثلاثة شرايين • وتبلغ أعلى ارتفاع لها في جبل (تايجيتوس) (٢٫٤٠٩ مترا) • وهذه السلسلة الجبلية نفسها هي التي تعود الى الظهور في جزيرة (كريد) ثم تنتهي في آسية الصغرى •

ان حوادث الانهدام والانكسار والتصدع التي تعاقبت على هذه السلاسل الجبلية قد مزقت شملها • وكان من نتيجة ذلك : أولا • ـ أن انفصل عدد كبير من الجزر عن بقية الأرض ؟ ثانيا : ساعدت هذه الحوادث الجيولوجية على نفوذ البحر الى داخل البر من كل الأطراف في خلجان كثيرة وعميقة ، وعلى الأخص في خليجي (سارونيك) و (قورنت) ، اللذين يشطران بلاد اليونان الى قسمين مستقلين ، يمكن أن نعتبر قطعة الأرض الصخرية بينهما حاجزا فاصلا أكثر منها صلة وصل • وقد كان القدماء على حق في تسميتهم القسم الجنوبي بجزيرة (بيلوبس) ، لأن الاتصال بين شبه جزيرة (البيلوبونيز) وبين بقية البلاد كان دوما عن طريق البحر في الخليجين اللذين يسهل اجتيازهما بالزوارق • وهناك أمكنة لا يزيد فيها عرض خليج (قورنت) على كيلو مترين • كما أن الانتقال من خليج الى آخر كان سهلا بسبب انخفاض برزخ (قورنت) الذي لا يزيد على ستة كيلو مترات والذي كان القدماء قد اخترعوا طريقة لجر السفن من فوقه • والنتيجة الثالثة : ان حوادث الانهدام والانكسار كانت سببا في تجزئة البلاد كلها الى عدد لا يحصى من السهول والوديان •

على أن هذه المستطيلات الصغيرة ، الضيقة من الأرض التي تفصل بينها جبال عالية تعزل بعضها عن الآخر ليست صالحة لسكنى جماعات كبيرة من البشر تستطيع تأليف دولة واحدة . واذا استثنينا مقاطعة (تسالية) فانه ليس هناك في بلاد اليونان أي سهل يزيد طوله على (٢٠) كيلو مترا وعرضه على (١٢) كيلو مترا . ان أكثر الوديان والسهول تشبه خنادق ضيقة تنهمر منها السيول أو تجري فيها بعض الأنهار الصغيرة .

والآن لنستعرض المقاطعات اليونانية وأهم السهول فيها :

هناك في الشمال مقاطعة (تسالية) التي هي عبارة عن أرض منخفضة تحيطها الجبال من كل جانب والتي تكاد تكون مغلقة لولا اتصالها بالبحر في خليج (باغازاى) . ان (تسالية) أكثر المناطق اليونانية برودة وهي مشهورة بزراعة الحبوب وتكثر فيها الخيل ، وموقعها خطر جدا لأنها في الطريق بين (مقدونية) واليونان الوسطى ولا بد للجيوش المغيرة من الشمال أن تكتسحها قبل غيرها وتجعلها ساحه للقتال .

والى الغرب من (تسالية) تقطع مقاطعة (ابيروس) التي يفيد اسمها ، كما يقول هوميروس ، الأرض الصلبة . وهي تتألف من هضبات مجدبة ومن بعض الوديان الخصبة ، كما انها اشتهرت في القديم بكثرة الغابات .

ثم تأتي مقاطعة (آتيكة) التي يحيط بها سد من الجبال يعزلها عن الأراضي الداخلية ويدفعها الى الاتجاه نحو البحر . وهي تمتاز عن جميع المقاطعات اليونانية الأخرى بطول شواطئها على بحر ايجة وباتساع سهولها ثم في الدرجة الاولى بكثرة أشجار الزيتون فيها . كذلك المناخ هنا أحسن من أي مكان آخر .

واذا انتقلنا الى شبه جزيرة (البيلوبونيز) في الجنوب نرى في وسطها مقاطعة (آرقادية) التي تتألف من هضبات محاطة بمرتفعات مائلة وعرة تحول

دون اتصال أجزاء البلاد بعضها بالآخر • وأراضي هذه المقاطعات تصلح لرعي الحيوانات وتستخدم كملاجىء حصينة • وحول الهضبات هناك سهول ساحلية تتكون منها مقاطعات (آخائية) في الشمال ثم (اليس) و (مسينة) في الغرب و (لاقونية) في الجنوب و (آرغوليس) في الشرق • وهـذه المقاطعات جميعها تتصل بسهولة مع العالم الخارجي عن طريق البحر ولكنها منعزلة بعضها عن بعض •

كذلك الجزر المحيطة بشبه جزيرة اليـونان تتصف بأنهـا جبليـة ومجزأة • وأخيرا فان الشواطىء الآسيوية أيضا ، التي كانت دوما تؤلف جزءا من العالم اليوناني ، لا تختلف في تكوينها عن شبه جزيرة اليونان • واذا كانت الجبال هناك أقل ارتفاعا والسهول أكثر اتساعا وخصبـا فان السهول منفصلة بعضها عن الآخر ويصعب الاتصال بينها • وهنا أيضا نرى البحر يمتزج مع البر وينفذ الى داخله في كثير من الخلجان العميقة ويدفع المقاطعات المختلفة مثل (فريجية) و (ليدية) و (قارية) و (ليكية) الى الاتجاه نحو البحر لأجل الاتصال بالعالم الخارجي •

يتضح من كل ذلك أن الطبيعة قد فرقت ما بين بلاد اليونان ومزقتها الى أجزاء صغيرة منعزلة لا يمكن أن يسكن في كل منها سوى جماعة محدودة من البشر • وبينما نرى السهول الفسيحة في وادي النيل أوالدجلة والفرات قد ساعدت منذ أقدم العصور على نشأة دول كبيرة موحدة ، فان الحواجز الطبيعية في بلاد اليونان كانت تشجع الروح الانفصالية ،الانعزالية وتدفع الى تأسيس دول صغيرة ، مستقلة ، قائمة بذاتها • وفي الحقيقة حيثما نجد في بلاد اليونان بقعة تمتـد فيها بعض الحقول وغابة صغـيرة وأرض للمرعى ومرفأ للاتصال بالعالم الخارجي اذا بدولة مستقلة لا يزيد سكانها على بضع عشرات الألوف يجتمعون حول مدينـة فيها الســوق والمعبـد والساحة العامة • ان كل مواطن في دول المدن هذه يستطيع ، اذا ما صعد

الى ذروة جبل أن يشاهد بلاده كلها من أولها حتى آخرها • هذه الأرض التي يحيط بها نظره هي الوطن وما وراء ذلك فبلاد أجنبية•وهؤلاء الأفراد الذين يعيشون معه ضمن هذه الدائرة المحدودة هم أقاربه • وعلى الرغم من أن هؤلاء الأقارب لا يتفاهمون بسهولة ولا تنقطع المجادلات والمنازعات بينهم فانهم جميعا يربدون أن تكون مدينتهم أجمل وأكبر وأكثر رفاهية من المدينة المجاورة • وهكذا فان جبال اليونان كانت دوما حجر عثرة في طريق الوحدة القومية • ولم يستطع اليونانيون في جميع أدوار تاريخهم أن يجمعوا كلمتهم ويوحدوا صفوفهم الا مرة واحدة وذلك عندما قاموا لمحاربة الجيوش الفارسية وصد غاراتها عن بلادهم كلها • ولكن حتى في تلك الساعة العصيبة لم يتم التفاهم بينهم الا بعد كثير من التردد والمعارضة كما انه لم يستمر طويلا •

على أنه اذا كانت الجبال قد باعدت بين اليونانيين وأدت الى نشأة دول صغيرة ، عديدة في بلادهم ، كل واحدة منها حريصة على استقلالها الذاتي فان البحر من جهة ثانية كان يساعد على التقارب والتفاهم بين السكان ويهيء الجو اللازم لخلق حضارة عامة ، مشتركة •

ان الصفة البارزة للحضارة اليونانية هي أنها محصول جهود كبيرة ، متنوعة قامت بها جماعات متفرقة ، مستقلة كان أفرادها لا يعملون الا على انماء شخصيتهم الذاتية ، المتناقضة ــ ومع ذلك فقد تولدت من هذه الجهود حضارة واحدة تعتبر من أكثر الحضارات انسجاما •

وما حصل في البلاد اليونانية كافة كان يحدث ضمن كل مقاطعة بمفردها • فان أكثر المقاطعات في اليونان تتكون من ثلاث مناطق مختلفة هي : الشواطيء والسهول والجبال • وسكان كل منطقة لهم طراز خاص في معيشتهم وتفكيرهم • فنرى السهول يسكنها أصحاب الأراضي وأتباعهم من الفلاحين ، وعلى الشواطيء يكثر التجار وأصحاب السفن وصيادو

السمك والعمال والبحارة ، وفي الجبال يعيش الرعاة والفحامون وأصحاب الكروم وعمال المناجم •

ان كل قسم من هؤلاء السكان يؤلف طبقة اجتماعية معينة تتعارض مصالحها الاقتصادية وآراؤها السياسية مع مصالح وآراء الطبقات الأخرى • وقد كان النزاع محتدما بين هذه الطبقات في دولة آثينة بصورة خاصة ، حيث انتظمت في أحزاب سياسية مختلفة وظل المشرعون يحاولون تأمين التوازن بينها واخضاعها لنظام دستوري يكفل حقوقها جميعا — ويضمن الرخاء والحرية لأفرادها ، ومن هنا نشأت لدى فلاسفة اليونان فكرة البحث عن المثل الأعلى للمدينة الفاضلة •••

ج) الاقليم :

الصفة الثالثة التي تختص بها بلاد اليونان هي اقليمها الممتاز • ونقصد بذلك اقليم البحر الأبيض المتوسط الذي يتجلى بالدرجة الأولى في بحر ايجة على أحسن وجه • انه اقليم يتصف بالجفاف في الصيف وباعتدال الطقس في الشتاء وبصفاء الجو واشعاع النور في كل الفصول • في الخريف تتراكم الغيوم التي تمهد لفصل الشتاء وتثور بعض الزوابع الخفيفة • ولا يستمر الشتاء أكثر من ثلاثة أشهر ، وهو ممطر ولكنه ليس باردا حقا • وقلما تتجمد المياه في هذه البلاد • أما في الأشهر الستة الباقية فربيع قصير وصيف طويل ، يمتازان بتلألىء أشعة الشمس البراقة • على أن الرياح التي تهب دوما من البحر تخفف من وطأة الحرارة وتجعل الطقس معتدلا لطيفا • ان تعاقب الفصول بانتظام في حوض بحر ايجة مما ينعش الأجسام والأرواح ويثير النشاط ويزيد فعالية الحياة •

يقول الفيلسوف الفرنسي (تين Taine) : « ان شعبا يعيش في مثل هذا الاقليم يتطور بصورة أسرع من غيره وأكثر انسجاما • فليس هناك

حرارة شديدة تنهك الانسان وتكاد تخنقه ، كما انه لا أثر للبرد القارص الذي يفلج الجسم ويشل حركته • ان الانسان هنا ليس محكوما عليه بالسكون والاستسلام الى الأحلام ، كما انه ليس مضطرا الى الحركة المستمرة والتمرين المتواصل • فاعتدال الاقليم ولطافة الطقس وجمال الطبيعة في بلاد اليونان مما يثير النشاط في النفس دون الاخلال بالتوازن ثم يقود الفكر الموهوب ، الجوّال الى التأمل والعمل معا • »

وقد سبق (ابقراط) العلماء الحديثين الى الكلام على تأثير الاقليم في حياة البشر فقال : « ان اقليم بحر ايجة يعتبر مثلا أعلى في الاعتدال واللطافة واليه يرجع الفضل في قوة اليونانيين وشجاعتهم وحبهم للحرية • »

ثم ان البيئة الطبيعية في بلاد اليونان وصفاء الجو وجمال المناظر وتنوعها ـ ان كل ذلك يؤثر تأثيرا عميقا في نفسية الانسان وعواطفه وذوقه ونظرته الى الكون • فان في الربيع والصيف تزداد السماء هنا زرقة والشمس تلألأ ولمعانا • ويصبح الجو صافيا ، شفافا • في هذه البيئة البراقة تبدو الأشكال واضحة ، جلية وتبرز رسومها بمنتهى الدقة والتحديد فيلاحظ الانسان ما بينها من تناسب وتناسق وانسجام ، ويدرك ما تنطوي عليه من بهاء وجمال •

يقول (شاتوبريان) في كتابه « رحلة من باريس الى القدس) :

« ان كل شيء في بلاد اليونان لطيف ، هادىء ، جميل ـ في الطبيعة كما في آثار الأوائل • والانسان عندما يرى هذه السماء الصافية والمناظر البديعة في (آثينة) و (قورنت) و (ايونية) يكاد أن يلمس السبب الذي جعل بناء (البارتينون) يمتاز بالتناسب والتناسق ، كما جعل آثار النحت القديمة بعيدة عن الفوضى والاضطراب ، يتجلى فيها الهدوء والبساطة • هنا ، في موطن آلهة الفن ، تنهى الطبيعة عن كل ضلال وانحراف ، انها ، على العكس ، تميل بالفكر الى حب التناسق والانسجام •

ولاغرابة في أن يخضع البشر في العصور القديمة لتأثير الطبيعة أكثر مما في الوقت الحاضر • فكان من حسن حظ اليونانيين أنهم عاشوا في بلاد جميلة ، كل شيء فيها يوحي بالثقة والاطمئنان تجاه الطبيعة ويدفع الانسان الى التقرب والى دراستها واكتشاف أسرارها • وهكذا اعتاد اليونانيون على الملاحظة والبحث والتأمل ، فازدادت لديهم الرغبة في المعرفة واتسع أفق الخيال • كما ان ضرورات المعيشة كانت تفرض عليهم التقيد بالواقع ، فساعد ذلك على تقوية الاتجاه العملي عندهم الى جانب البحث النظري ، وبذلك تهيأت الأسباب لانكشاف التفكير المبدع ••

٤ ـ شروط الحياة المادية :

ماهي شروط المعيشة التي أثرت في نظام المجتمع اليوناني وفي تكوين عقل اليونانيين وتوجيه تفكيرهم ؟

اذا كان الاقليم في اليونان يمتاز بالاعتدال واللطافة فان الأرض ، على العكس من ذلك ، مجدبة ، فقيرة • انها بلاد جبلية ، صخرية ، تنقصها التربة المنبتة • ولذلك فان الأراضي الصالحة للزراعة فيها قليلة جدا • وكذلك المراعي الجيدة نادرة للغاية • ومثلها الغابات التي زال أثرها في أكثر المناطق عدا مقاطعة (أبيروس) •

ثم ان بلاد اليونان تنقصها ، قبل كل شيء ، المياه اللازمة للزراعة • وهذا النقص لا يرجع سببه الى قلة الأمطار • فان الكمية التي تهطل منها يبلغ معدلها السنوي أكثر من (٤٠٠) ميليمترا • ولكنها ليست موزعة بصورة متناسبة على مختلف الفصول• انها تنحصر فيأشهر الشتاء القصيرة، بل في أيام معدودات من هذا الفصل • وكثيرا ، ما يحدث أن ينهمر في يوم واحد من المطر ، ما يعادل ربع الكميةالسنوية كلها • ولكن هذه المياه انما تؤلف سيولاً وتصب في البحر فلا تستفيد منها الأرض شيئا •

ينتج عن ذلك أن الأرض في أشـهر الصيف يسـودها الجفـاف المطلق وتنضب الينابيع وتنقطع الأنهار بالمرة أو تنقلب الى جداول حقيرة •

الا أن اليونانيين لايهملون فلاحة الأرض • ان الزارعين يبذلون جهودا جبـارة ليستخرجوا من الأرض المجدبـة كل ما تستطيع انتاجـه ويحاولون بجميع الوسائل الوصول الى أكبر وأجود محصول ممكن • انهم يحرصون على استثمار كل قطعة من الأرض تصلح للزراعةفيعتنون بتحسين تربتها ويستخدمون كافة الطرق الممكنة لاسقائها •

ولكن رغم كل هذه الجهود فان محصول الحبوب لايكفي لاعاشـة السكان ، فكان لابد لهم من التفتيش عن موارد أخرى لتلافي النقص • وقد ساعدتهم الطبيعة على ايجاد مثل هذه الموارد ونقصد بذلك بالدرجة الاولى الأشـجار المثمـرة • فان اقليـم اليونان صـالح لنمـو كروم العنب والتين والزيتون التي لاتحتاج كثيرا الى المطر • وكان اليونانيون يوجهون كل اهتمامهم الى شجرة الزيتون التي نرى شعراءهم يشـيدون بذكرهـا ويبالغون في تمجيدها وتعداد محاسنها • ولا شك في أن الزيتون كان من أهم منابع الثروة في مقاطعة آتيكة بصورة خاصة •

على أن اعتدال الاقليم وجودة الطقس مما يساعد الانسان على تخفيف حاجاته المادية الى أدنى حد ممكن • وقد كان شعراء اليونان يكررون دوما أن شعبهم يطلب من الطبيعة أشياء أخرى غير « الأغذية الأرضية » • ان اليونانيين يريدون قبل كل شيء أن يتمتعوا بالنسيم العليل والشكل الجميل ، بالنور والخضرة والماء • وفي الواقع فان اليوناني قنوع ، متقشف بطبيعته• انه يقتصر في اليوم كله على قليل من الكعك وحفنة من الزيتون والتين وبضع رؤوس من البصل أو الثوم ، وربما قطعة من الجبن أو السمك • وهو لايأكل اللحم الا في الحفلات • واذا شرب قليلا من الخمر فانما بعد اضافة كثير من الماء عليه • ويؤكد أحد الكتاب الحديثين أن ما يأكله عامل

انكليزي واحد يكفي لاعاشة أسرة يونانية مؤلفة من ستة أشخاص •

كذلك يميل اليوناني الى البساطة في لباسه • وقد كان اليونانيون القدماء يقتصرون على رداء من الصوف يلفونه على أجسادهم ولا يضعون شيئا على رؤوسهم الا في أيام الصيف الحارة ، كما انهم يتجولون عادة حفاة الا في الشتاء •

وكانت البيوت اليونانية صغيرة ، متواضعة تقتصر على حوش حوله بضع حجيرات مفروشة بأبسط الأثاثتنصرف فيها النساء الى الأعمال المنزلية ولا يدخلها الرجال الا للأكل أو النوم • فان هؤلاء كانوا يقضون معظم أوقاتهم في الطرقات والأسواق والملاعب والمعابد ، يقصدون الاجتماعات العامة في الهواء الطلق • ان اليونانيين لايميلون الى العزلة ، بل يحبون مشاهدة بعضهم بعضا والانصراف الى المحادثة والمناقشة في كل الموضوعات وعلى الأخص في المسائل السياسية العامة •

هكذا كان اليونانيون يعيشون حياة « طبيعية » تعودهم على الصبر واحتمال الشدائد ، وتزيد في نشاطهم ومقامتهم ، وتنمي مواهبهم وملكاتهم، وتجعلهم لايفقدون الثقة بالنفس مهما اعتراهم من المصاعب •

فوق ذلك فان طبيعة البلاد تولد فيها روح الاقدام والمغامرة : ان رؤوس الجبال في كل مكان تشير الى البحر وتقول لليونانيين : « اذهبوا وانتشروا في العالم » وقد ذهب اليونانيون ـ فأصبحوا قراصنة مجازفين بعد أن كانوا محاربين متوحشين ، وانقلبوا بحارة قديرين بعد أن كانوا رعاة جبليين ، وصاروا تجارا ماهرين بعد أن كانوا فلاحين بسيطين • وقد انكشف ذكاؤهم وتفتحت أذهانهم في الأسفار البحرية والمغامرات التجارية فتعرفوا الى البلاد المعمورة واختلطوا بالأممالتمدنةوأخذوا يستثمرون كنوز بلادهم فاستخرجوا المعادن والاحجار الثمينة وتقدموا في مختلف الصناعات

والفنون كالأواني الخزفية الجميلة والأدوات المعدنية الدقيقة والتماثيل البديعة ثم برعوا في صنع السفن وفن الملاحة .

على هذا الأساس الاقتصادي المتين قامت الحضارة اليونانية .

ولم يستطع اليونانيون التقدم في الحضارة الا بعد أن تغلبوا على المصريين والفنيقيين والقرطاجيين في عالم الملاحة والتجارة والصناعة وبعد أن بسطوا سيطرتهم الاقتصادية على حوض البحر الأبيض المتوسط . ولولا هذا الازدهار الاقتصادي لما توصل اليونانيون الى تلك الدرجة العالية من الحضارة .

فتاريخ اليونان يثبت لنا بأن شعبا صغيرا ، فقيرا يستطيع اذا كان غنيا بالفكر ، أن يسيطر على العالم الى الأبد ...

الفصل الثاني

«كريد» والحضارة الايجية

متى بدأ التاريخ اليوناني ؟ اذا رجعنا الى المؤرخين اليونانيين القدماء نجد ان اليونانيين أنفسهم كانوا يبدأوون تاريخهم الحقيقي بأول العاب أولمبية في سنة (٧٧٦) قبل الميلاد •

ولكن لا شك في أن الشعوب التي تتكلم اللغة اليونانية قد سكنت شبه جزيرة اليونان وجزر بحر ايجة وشواطىء آسية الصغرى قبل هذا التاريخ بعصور عديدة • ويذهب بعض المؤرخين الحديثين الى أن هذه الشعوب قد بدأت تهاجر الى تلك البلاد حوالي سنة (٢٥٠٠ ـ ٢٠٠٠) قبل الميلاد • الا انه ليس هناك من وثائق تاريخية تثبت وجود القبائل اليونانية المعروفة غير بعض النصوص المصرية التي يرجع تاريخها الى القرن الثاني عشر قبل الميلاد • فان هذه النصوص تذكر بين (شعوب البحر) اسمي (دانا ـ ونا) و (آقايوشة) ، اللذين لا يصعب علينا ارجاعهما الى الأصل اليوناني فنرى انهما يشيران الى قبائل (الدانائيين Danaoi) و (الآخائيين Achaeoi ومن المؤكد أن القبائل اليونانية لم تجد شبه جزيرة اليونان وجزر بحر ايجه خالية من السكان • والمصادر اليونانيـة عن هـؤلاء السكان الأصليين مضطربة ، ممزوجة بالأساطير فلا يمكن الاعتماد عليها • الا أن التنقيبات الأثرية الحديثة قد كشفت القناع عن حضارة بعض الشعوب التي سكنت

العالم الايجي قبل اليونانيين والتي كان لها تأثير كبير في نشأة الحضارة اليونانية • ونقصد بذلك في الدرجة الأولى سكان (كريد) ثم سكان (ميكيني) و (تيرنس) في مقاطعة (آرغوليس) • ولذلك لابد لنا قبل المباشرة في دراسة تاريخ اليونان من القاء نظرة أولا : على حضارة (كريد)، وثانيا : على الحضارة الميكينية •••

١ ـ اكتشاف حضارة (كريد) :

يذكر (هوميروس) في (الاوديسة) أن هناك في وسط البحر بلادا غنية ، راقية تسمى (كريد) يسكنها أناس لا يحصى عددهم وفيها تسعون مدينة • عندما كتب (هوميروس) هذه الأسطر في القرن التاسع قبل الميلاد، على الأرجح ، كان اليونانيون قد نسوا ما كانت عليه جزيرة (كريد) من الثروة والتقدم في الحضارة قبل حصار (طروادة) بألف سنة • ولكن الشاعر قد حفظ هذه الذكرى البعيدة التي كانت تتناقلها الأجيال دون أن تعرف عنها شيئا واضحا ـ وربما كان (هوميروس) انما يشير الى حضارة (كريد) عندما كان يتكلم عن العصر الذهبي القديم الذي كان البشر فيه أكثر مدنية والحياة أكثر رفاهية مما أصبحوا عليه في عصره المضطرب •

كذلك يتكلم (آرسطو) عن موقع (كريد) الممتاز في البحر الأبيض المتوسط بين فينيقية وايطالية ومصر واليونان ، ويقول ان ذلكمما ساعد ملوك (مينوس) على السيطرة في بحر ايجة • ولكن قصة (مينوس) التي كان الأوائل يعتقدون بصحتها قد أنكرها المؤرخون الحديثون حتى اواخر القرن التاسع عشر واعتبروها من الأساطير الخيالية •••

في سنة ١٨٧٨ بعد الميلاد اكتشف تاجر كريدي اسمه (مينوس كالوكايرينوس) بعض الآثار القديمة الغريبة في التلال القائمة جنوب مدينة (قانديه) عاصمة (كريد) • وعندما سمع البحاثة الالماني (شليمان Schliemann) ، مكتشف طروادة عن هذه الآثار جاء الى كريد في سنة

١٨٨٦ ، وهو على يقين من أن هذه التلال تستر تحتها قصر (كنوسسوس) الذي تذكره الروايات القديمة وتبالغ في وصف عظمته • وبدأ (شليمان) يفاوض صاحب الأرض لشرائها وللمباشرة في الحفريات ، ولكن هذا تغلب عليه الطمع وأخذ يكثر من المساومة حتى غضب (شليمان) الذي كان هو نفسه بدأ حياته كتاجر قبل أن يصبح منقبا عن الآثار • وبذلك انقطعت المفاوضات •

ثم جاء العالم الانكليزي (آرثر ايفانس Arthur Evans) في سنة ١٨٩٣ الى (آثينة) واشترى من بعض النساء اليونانيات حجارة عليها كتابات غريبة لم يستطع احد من علماء الآثار قراءتها • وقد اهتدى (ايفانس) ، بعد البحث ، الى أن هذه الحجارة منقولة من جزيرة (كريد) • فسافر الى هناك واستطاع أن يشتري قطعة الأرض التي كان (شليمان) قد فاوض من أجلها عبثا • وفي سنة (١٩٠٠) بدأ بالحفريات التي أدت بعد عدة أسابيع الى الكشف عن قصر (مينوس) ، حيث وجدت آلاف من الاختام والألواح الكتابية • وما كاد خبر هذه الاكتشافات ينتشر حتى أسرع علماء الآثار من كل البلاد الى (كريد) وأخذوا يحفرون في كل أنحاء الجزيرة واستطاعوا أن يكتشفوا بقايا كثير من المدن والقصور القديمة •

٢ ــ ادوار تاريخ (كريد) :

ان الآثار التي عثر عليها في (كريد) ، من قصور وتماثيل ورسوم وأختام وأواني خزفية ومعادن وألواح ، ترجع الى عصور متباعدة • فكيف يجب تصنيفها ، وكيف السبيل الى معرفة الأدوار التاريخية التي نشأت فيها ؟ تلك هي المهمة الشاقة التي تولى (ايفانس) القيام بها • ومبادىء التصنيف التي استند اليها هي ملاحظة الطبقة الأرضية التي وجدت فيها الآثار ثم مدى التطور في أساليب صنع الأواني وتزيينها وأخيرا المقارنة بين آثار (كريد) والآثار المشابهة لها في الشكل أو الموضوع التي وجدت في

أماكن أخرى معروف تاريخها • وقد استمر (ايفانس) في الحفريات بكل صبر وتؤدة حتى وصل الى طبقة الصخور الأصلية على عمق ثلاثة وأربعين قدما • فكانت الآثار التي استخرجها من الطبقات السفلى • مما يعود الى العصور الحجرية المتأخرة وهي أواني مصنوعة باليد في أشكال بدائية تقتصر التزيينات فيها على خطوط بسيطة ، ثم مغازل وتماثيل صغيرة للآلهة من الطين، وأخيرا أدوات وأسلحة من الحجر المصقول دون أن يجد شيئا من النحاس أو البرونز • وقد توصل (ايفانس) ، بفضل طريقة المقارنة والاستعانة بالآثار التي وجدت بمصر وما بين النهرين ، الى تقسيم تاريخ (كريد) الى ثلاثة عهود أطلق عليها اسم العهد المينوئي القديم والعهد المينوئي المتوسط والعهد المينوئي المتأخر • ثم قسم كل عهد الى ثلاثة أدوار على النحو التالي :

العهد المينوئي القديم :

الدور الأول	من سنة ٣٫٠٠٠ ــ الى ٢٫٨٠٠ قبل الميلاد
الدور الثاني	من سنة ٢٫٨٠٠ ــ الى ٢٫٤٠٠
الدور الثالث	من سنة ٢٫٤٠٠ ــ الى ٢٫١٠٠

العهد المينوئي المتوسط :

الدور الأول	من سنة ٢٫١٠٠ ــ الى ١٫٩٠٠
الدور الثاني	من سنة ١٫٩٠٠ ــ الى ١٫٧٥٠
الدور الثالث	من سنة ١٫٧٥٠ ــ الى ١٫٥٨٠

العهد المينوئي المتأخر :

الدور الأول	من سنة ١٫٥٨٠ ــ الى ١٫٤٥٠
الدور الثاني	من سنة ١٫٤٥٠ ــ الى ١٫٤٠٠
الدور الثالث	من سنة ١٫٤٠٠ ــ الى ١٫٢٠٠

وتدل التنقيبات على أن سكان (كريد) لم يتوصلوا الى مزج النحاس بالقصدير الا في أواخر العهد المينوئي القديم ، أي حوالي سنة ٢٤٠٠ قبل الميلاد وبذلك يبدأ عصر البرونز في (كريـد) • ويظهر أن الكريديين كانوا يستوردون المعادن من بلاد اليونان الغربية وصاروا يصنعون مختلف الأدوات والأواني من البرونز بكميات كبيرة ويصدرونها الى كل البلدان • وبذلك ازدهرت تجارة (كريد) وازدادت فيها الثروة واستطاع حكامها أن يبسطوا سيطرتهم على بحر ايجه وأن يحافظوا على هـذه السيطرة مـدة ألف عام •

وفي الدور الأول من العهد المينوئي المتوسط أخذ أمراء المدن الكبيرة مثل (كنوسسوس) و (فايستوس) و (مالية) يشيدون القصور ويبنون لأنفسهم المساكن الفخمة التي تشتمل على عدد لا يحصى من الغرف الكبيرة والمعابد الخاصة والمخازن الواسعة ، كما انهم كانوا يمدون القساطل لجلب المياه وتوزيعها داخل المساكن ويحفرون المجاري لتصريفها • ونرى الأواني الخزفية في هذا العهد قد بلغت درجة عالية من التقدم • فهي تمتاز بدقـة الصنعة وجمال النقوش والتزيينات المتعددة الألوان • والجدران أيضا في هذه القصور مزينة بالنقوش والرسوم البديعة •

وفجأة حوالي سنة (١٧٥٠) نزلت بجزيرة (كريد) كارثة غريبة أدت الى تخريب قصر (كنوسسوس) • وقد تضاربت الآراء في حقيقة هذه الكارثة فذهب بعض العلماء الى أن ذلك ربما كان نتيجة هزة أرضية • ولكن ليس من المعقول أن تنحصر الزلزلة في مدينة واحدة • وبحث آخرون في احتمال وقوع غارة أجنبية وقالوا انه في هذا العصر قد حدثت هجرة الأقوام الهندية ــ الاوروبية التي سببت اضطراب الحالة في آسية الصغرى وشواطىء بحر ايجه وأدت الى تنقل شعوبها ، كما هاجم العيلاميون بـلاد الكلـدان ودخل الهكسوس الى مصر • على أنه لم يكن هناك في البلاد المجاورة شعب

يملك أسطولا كبيرا للقيام بهذه الغارة على دولة بحرية قوية مثل (كريد)• ان أقرب الفرضيات الى الصحة هي التي تقول بقيام ثورة داخلية • ويظهر أن هذه الثورة قد عمت كل الجزيرة اذ نرى القصور الأخرى تتعرض الى الدمار بعد مدة من الزمن • وقد وجدت أكوام من الرمال بين أطلال قصر (فايستوس) مما يدل على حدوث حريق •

على أنه لم تمض مدة خمسين سنة حتى أعيد بناء هذه القصور على مقياس أوسع وبصورة أفخم • وكان بعض هذه القصور يتألف من خمس طبقات شاهقة ويحتوي على قاعات عظيمة مزينة بأبدع النقوش والرسوم ، كما بنيت في ساحات هذه القصور مسارح كبيرة للتمثيل والمبارزة •

ثم حوالي سنة ١٤٥٠ تهدمت القصور في (فايستوس) و (هاجياتريادا)، و (تيليسسوس) وغيرها ولم يبق الا قصر (كنوسسوس) • وهذا يدل على أن الجزيرة كلها أصبحت خاضعة لملك هذه المدينة وحده • ولعل الأخبار التي كان يتناقلها اليونانيون عن عظمة (مينوس) انما تشير الى هذا الدور • وفي الحقيقة فان (كريد) قد بلغت بين سنة ١٤٥٠ و ١٤٠٠ قبل الميلاد عصرها الذهبي وذروة مجدها • اننا نرى المصانع التابعة لقصر الملك تتسع لعدد كبير من العمال الماهرين وتحتوي على كثير من الوسائل اللازمة لصنع الأواني الخزفية والأدوات المعدنية والحلي والنقوش والرسوم • ويظهر أن أسطول الملك كان يسيطر على بحر ايجه كله وأنه استطاع القضاء على القرصان • واعتمادا على هذه السيطرة البحرية فقد استغنى الملك عن كل نوع من التحصينات حول المدينة أو القصر • وتدل الآثار التي وجدت في مختلف شواطىء البحر الأبيض المتوسط على أن مصنوعات (كريد) كانت طاغية على جميع الأسواق •

٣ ـ العلاقات بين (كريد) ومصر :

لاتمام هذه النظرة التاريخية الاجمالية من المفيد أن نستعرض أيضا علاقات (كريد) بالبلاد المجاورة وعلى الأخص بمصر •

ان الكتابات المصرية والآثار المادية التي وجدت سواء في مصر أو (كريد) تثبت لنا أنه كانت هناك علاقات وثيقة بين البلدين منذ العصور الحجرية المتأخرة • وأقدم كتابة مصرية يأتي فيها ذكر شعوب (هانيبو) ـ أي الشعوب المحاطة بالمياه ـ ترجع الى عهد السلالة الثالثة أي حوالي سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد • وقد استمرت هذه العلاقات في عهد السلالة الرابعة ثم السلالة السادسة (أي ٢٨٠٠ ـ ٢٤٠٠) • وقد وجد في (كريد) كثير من المصنوعات المصرية ، وعلى الأخص التحف المصنوعة من العاج ، يرجع عهدها الى زمن السلالات المذكور •

ثم نجد الكتابات المصرية في عهد ملوك (طيبة) من السلالة الثانية عشرة (٢٠٠٠ ـ ١٨٠٠) تشير الى شعوب البحر وتعتبرها حليفة للفراعنة• ويظهر أن عدد الأفراد القاطنين في مصر من هذه الشعوب كان كبيرا الى درجة انهم اشتركوا في بناء هرم (سنوسرت الثاني) (١٨٩٦ ـ ١٨٨٧) وهرم (آمنمحت الثالث) (١٨٤٩ ـ ١٨٠١) • ومما يدل على ازدياد العلاقات بين البلدين أن أمراء (كنوسسوس) في هذا العهد قد اقتدوا بالفراعنة في ادخال الليبيين والزنوج الى حرسهم الخاص • فان أحد الرسوم التي عثر عليها في (كنوسسوس) تصور ضابطا كريديا يسير في استعراض عسكري ووراءه جندي أسود •

وكذلك في عهد (الهكسوس) لم تنقطع العلاقات خلافا لما يمكن أن يتبادر الى الأذهان • فقد عثر في (كنوسسوس) على آنية من الحجر تحمل شارة ملك (الهكسوس) (خيان) من سنة ١٦٦٣ قبل الميلاد • وسور

القردة التي نراها في رسوم الكريديين لابد أنها كانت من الهدايا التي أرسلها أحد الفراعنة الى أمراء (كنوسسوس) ٠

وقد أصبحت العلاقات وثيقة للغاية في عهدالسلالة الثانيةعشرة (١٨٥٠-١٢٦٠) حتى ذهب بعض المؤرخين الى أن (كريد) كانت تابعة لمصر ٠ ويستند هؤلاء الى صورة من زمن (تحوتمس الثالث) (١٤٧٥ - ١٤٣٥) تمثل وفود الأمم الأجنبية التي جاءت تقدم الى فرعون الهدايا الثمينة من مصنوعات بلادها وبينها وفد (كريد) يمكن معرفته بسهولة من سيماء وجوه الأعضاء وألبستهم ونوع الهدايا التي كانوا يحملونها ٠ والكتابة الى جانب الصورة تذكر بين الوفود وفدا من أمراء جزر (كفتي) في وسط البحر ٠ وكلمة (كفتي) التي تتردد كثيرا في الكتابات المصرية - وهي مرادفة لكلمة (كفتور) في التوراة - انما تعني ، دون شك ، سكان (كريد) ، وكذلك تذكر هذه الكتابات أن أسطول (كفتي) قد اشترك مع أسطول بيبلوس (أي جبيل) في نقل الأخشاب الى مصر لحساب فرعون ٠ على أن كل ذلك لايبرهن على أن (كريد) قد أصبحت تابعة حقا لمصر ٠ ومن المعروف أن الكتابات المصرية تبالغ في تعظيم الفراعنة وتحاول أن تجعل كل الشعوب خاضعة لهم ٠

لقد كان المصريون في هذا العهد يميزون بوضوح بين سكان (كفتي) أي كريد وسكان (الآزية) أي قبرص ثم سكان جزر بحر ايجة وشواطئه الذين يسمونهم أهل الدائرة ٠ ويظهر أن تقدم الكريديين في فن الرسم أخذ يؤثر في مصر كما نستدل على ذلك من صورة في قصر (آمنحوتب) الرابع في تل العمارنة يتجلى فيها الاقتباس عن الأسلوب الطبيعي الذي كان سائدا في (كريد) ٠

أما العلاقات بين (كريد) من جهة وبين شبه جزيرة اليونانوشواطىء آسية الصغرى وقبرص وسورية من جهة ثانية فانها كانت قوية كما نستدل

من المصنوعات الكريدية التي نعثر عليها بكثرة في تلك البلاد • وقد كانت الصلات التجارية وثيقة جدا مع جزيرة (ميلوس) بصورة خاصة • الا انه ليس هناك وثائق كتابية تساعدنا على تحديد الزمن بالضبط •

٤ ـ حضارة (كريد) :

يتضح مما سبق أن معلوماتنا عن تاريخ (كريـد) قليلة لا تتعـدى بعض الخطوط العامة • وهذا طبيعي ما دمنا لانستطيع بعد قراءة الكتـابات الكريدية • لذلك يجب أن نكتفي بنظرة مجملة على حضارة هذه الجزيرة التي تساعدنا الآثار على معرفة بعض نواحيها •

١) العرق : ما هو العرق الذي ينتسب اليه سكان (كريد) ؟ ان علم الأقوام يقسم العروق البشـرية حسب تكوين الرأس الى ثلاثـة أنـواع : ١) ذوي الجماجم المستطيلة، ٢) ذوي الجماجم المستديرة، ٣) ذوي الجماجم المتوسطة •

وتدل المباحث الأثرية على آنه كان يسكن في حوض البحر الأبيض المتوسط منذ عصور ما قبل التاريخ شعوب من النوعين الأول والثاني وأن العرق السائد كان من ذوي الجمـاجم المستطيلة التـي يتصف أصحـابها بالوجوه المدورة والقامات القصيرة والبشرة السمراء والشعر الأسود المتجعد• الى هذا العرق ينتسب الاسبانيون والليبيون والمصريون • أما النوع الثاني فكان مقتصرا على شواطيء آسية الصغرى وجزر (سيكلاد) •

فاذا دققنا في آثار (كريد) يتبين لنا أن أكثرية السكان كانت تتألف في باديء الأمر من النوع الأول مع وجود أقلية صغيرة من النوع الثـاني ربما كانت قد هاجرت من جزر (سيكلاد) • ولكن في آخر العهود المينوئية انقلبت الآية وطغى على الجزيرة أصحاب الجماجم المستديرة • وهذا يدلنا على أن دولة (مينوس) قد انقرضت بسبب غارة (الآخائيين) و (الدوريين)

من القبائل اليونانية على الجزيرة في القرنين الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد .

ولا نعرف عن لغة سكان (كريد) شيئا سوى أنها ليست من اللغات الهندية الاوروبية ولا اللغات السامية . ويظهر أنها قريبة من لغة (الليكيين) ومن جاورهم من الشعوب القديمة في آسية الصغرى . وتذكر الأخبار ان قسما من السكان في شرق (كريد) كانوا يتكلمون على عهد اليونان لغة غريبة ليس من المستبعد أن تكون هي لغة الكريديين القدماء . ونرى أمثلة منها في الأسماء التي كان يستعملها اليونانيون والتي تنتهي بحروف(سوس) أو (توس) ..

٢) اللباس والزي :

تدل الآثار على أن سكان (كريد) كانوا يعتنون منذ أقدم العصور بستر أجسادهم ويختلفون بذلك عن اليونانيين الذين يميلون الى مذهب العري ، واذا كان الرجال لا يسترون رؤوسهم وأطرافهم في كل الأوقات والنساء يكشفن عن صدورهن في الغالب فان الجميع يحرصون دوما على اخفاء العورات . وكان الرجال اذا أرادوا تغطية رؤوسهم يضعون عمامة أو (طاقية) ، وفي الحرب يلبسون الخوذ . أما النساء فان لباسهن يختلف كل الاختلاف عما نعرفه لدى اليونان والرومان . وهو يشبه كثيرا الثياب المتعارفة في العصور الحديثة . هذا اللباس يتألف من (فسطان) وصدرية . وكان نساء (كريد) يرتدين برانيط جميلة جدا ومتنوعة الأشكال ويكثرن من المجوهرات والزينة . وقد أطلق علماء الآثار على صورة احدى السيدات الكريديات اسم (الباريزية) لما يبدو عليها من الرشاقة والعناية بزي الثياب والزينة كأنها احدى فتيات باريس ...

مثل اللباس كذلك تختلف مساكن الكريديين اختلافا كبيرا عن

مساكن اليونانيين • ان البيوت التي وجدت في (كنوسسوس) تتألف من غرف كثيرة موزعة دون نظام واضح حول ساحة مركزية • وهـذه الغرف تفتح أبوابها الى الجهة الخارجية وهي تتصل بعضها ببعض اما مباشرة أو عن طريق المماشي المتعددة ، كما ان هناك كثيرا من المنافذ الداخلية التي تؤمن حركة الهواء ودخول النور •

وهكذا فان الاختلافات البارزة في تكوين الرأس ثم اللباس والمسكن كلها تدفعنا الى القول بأن السـكان الأصليين في (كريـد) الذين أسسوا الحضارة الايجية لم يكونوا من الشعوب الهندية ـ الاوروبية أو السامية ، بل ينتسبون الى شعوب البحر الأبيض المتوسط الذين يؤلفون عرقا خاصا •

٣) التطور الاجتماعي :

ان الآثار التي اكتشف في (كريد) تساعدنا على معرفة مراحل التطور الاجتماعي والتأكد من صحة الأخبار الأساطيرية المتواترة لدى اليونانيين عن سكان هذه الجزيرة • فقد عثر في مدينة (فاسيليكي) على بيت بني حوالي سنة ٢٨٠٠ قبل الميلاد يحتوي الطابق الأرضي منه على أكثر من عشرين غرفة • ومن المؤكد أنه كان فوقه طابق آخر على أقل تقدير • واذا نظرنا الى البيوت التي بنيت بعد ثلاثمائة سنة من هذا التاريخ نجدها تتألف من اثنتي عشرة غرفة تقريبا • أما في العهد المينوئي المتأخر فاننا نرى هذه البيوت قد أعيد بناؤها على مقياس أصغر وأصبـح كل مسكن لايزيـد على بضع غرف •

ثم من جهة أخرى نلاحظ الظاهرة نفسها في القبور • فقد كشفت الحفريات في مدينة (مسارا) على أكثر من عشرين قبرا يبلغ قطر كل واحد منها عشرة أمتار ونصف المتر ويضم عددا كبيرا من الهياكل العظمية وأواني من أدوار مختلفة • ولكن اذا نظرنا الى المقبرة التي وجدت في (زافو بابورا)

والتي ترجع الى العهد المينوئي المتأخر ، لا نجد قبرا واحدا يضم أكثر من ثلاثة أشخاص •

وهكذا نتوصل من تدقيق بيوت السكن والقبور الى نتيجة واحدة وهي : ان المجتمع كان يتألف في بادىء الأمر من أسراب كبيرة وأن الرابطة القبلية قد تفككت على مر العصور حتى أصبحت الأسرة الصغيرة هي الحجيرة الأساسية في المجتمع ، وبتعبير آخر فان التطور الاجتماعي قد قضى على العصبية القبلية والعائلية وانتهى الى سيطرة الروح الفردية •

٤) حضـارة المدن :

تلك هي نتيجة طبيعية للانتقال من الحياة الريفية في القرى الصغيرة الى الحياة الحضرية في المدن الكبيرة • ويذكر الكتاب اليونانيون أن الآخائيين لما استولوا على جزيرة (كريد) دهشوا من كثرة المدن وضخامتها • ويظهر من التنقيبات الأثرية ان هذه المدن التي يزيد عددها على المائة كانت مكتظة بالسكان • فاننا نجد البيوت متلاصقة الى مسافات بعيدة على جانبي الشوارع الكبيرة والأزقة الضيقة • وقد كانت هذه الشوارع معبدة بالحجارة والجص وحفرت في كل طرف منها المجاري اللازمة لتصريف المياه • وهناك كثير من الرسوم في (كريد) تصور لنا جماهير الشعب الكثيفة تسير أو تتجمع في الأسواق ••

٥) مكانـة المـرأة :

هذه الجماهير في الشوارع والأسواق والملاعب والمسارح لا تتكون من الرجال وحدهم كما كانت الحال في سائر الحضارات القديمة ، بل تشترك فيها النساء أيضا من كافة الطبقات سواء النبيلة أو المتوسطة أو العامة • وتدل جميع الظواهر على أن المرأة في (كريـد) كانت تتمتع بمكانة اجتماعية مساوية للرجل ان لم تكن أعلى منه •

لاشك في أن النساء الكريديات كن يقمن ، مثل غيرهن من النساء ، بكثير من الأشغال المنزلية كنسج الثياب وطحن القمح وعجن الخبز وما أشبه ذلك ، ولكنهن في الوقت نفسه كن يشاركن الرجل في أعمال الفلاحة وصناعة الخزف وغير ذلك من المهن • بل هناك رسوم كثيرة تصور لنا أن المرأة الكريدية كانت تخرج الى الصيد وتركب عجلات السباق وتشترك في الألعاب البهلوانية ومبارزة الثيران • وكانت المقاعد الأمامية في المسارح والملاعب تخصص للنساء كما ان المرأة تقوم في الحفلات والمجتمعات بدور السيدة المحترمة التي يقابلها الجميع بالاجلال • والمعابد الخاصة بالالاهة ــ الأم تنفرد النساء بالاشراف عليها واقامة الطقوس فيها •

٦) نظـام الحكم :

ان القصور الحصينة في مختلف المدن تدلنا على أن السلطة السياسية وسلطة الملك كانت في بادىء الأمر بأيدي رؤساء القبائل والأسرات الكبيرة الذين كانوا يحكمون البلاد حكما اقطاعيا • والرسوم التي ترجع الى الدور الأول من العهد المينوئي المتوسط تصور لنا كيف كان أفراد طبقة الأشراف لايخرجون بين الناس الا وهم يحملون الخناجر في زنانيرهم • ولكن الحالة تبدلت في العهد المينوئي المتأخر فلم يبق أثر للخناجر والحصون مما يشير الى تمركز السلطة في أيدي ملوك (كنوسسوس) وحدهم الذين هدموا قصور الأمراء في المدن الأخرى ووطدوا الأمن في البلاد كما سيطروا على البحر بأسطولهم القوي •

كان اليونانيون يطلقون على ملك كريد اسم (مينوس) • على أننا لا نعرف بالضبط ماذا تعني هذه الكلمة ، هل هي اسم ملك معين وسلالته أم لقب مثل فرعون أو قيصر •

كانت سلطة (مينوس) مستمدة من الاله ، كما في مصر وبابل • فهو

الكاهن الأعظم ممثل الاله ـ الثور ، وشاراته هي : العصا وزهرة الزنبق والطبر المزدوج (البلطة ذات الحدين) ، وكان الرهبان يعلمون الناس بأن (مينوس) من سلالة الاله (فلخانوس) الذي يسميه اليونانيون(زفس) والذي يمثلونه في شكل نصفه انسان ونصفه ثور ، فهو يتلقى القوانين التي يفرضها على الشعب من هذا الاله ، وكان عليه أن يجدد سلطته الالهية في كل تسع سنوات مرة وذلك بأن يصعد الى الجبل المقدس ويدخل مغارة الاله الثور ويتصل به ، وفي هذه الفترة يجتمع الناس عند مدخل المغارة يصلون ويقدمون الضحايا ، فاذا كان الملك قديرا وكريما يخرج من المغارة الى الشعب وقد أصبح مقدسا لدورة جديدة ، أما اذا كان على العكس فان أثره يزول ويتولى غيره العرش ،،

كان الملك يدير البلاد بواسطة عدد كبير من الموظفين والكتاب الذين يسجلون الأعمال اليومية ، وكان لكل واحد من الموظفين الكبار خاتم خاص يوقع به المعاملات ، على أن المسائل الهامة كان يجب أن توقع بخاتم الملك ، وتدلنا الآثار التي وجدت في قصر (كنوسسوس) على أن المعاملات المالية بصورة خاصة كانت واسعة ومعقدة ، وكذلك كان للملك جيش دائم يلبس أفراده الخوذ ويحمل بعضهم الحراب والبعض الآخر الأقواس ، وليس هنالك خيالة وانما بعض العجلات الحربية ،

على أن أهم قوة كان يعتمد عليها الملك هي الأسطول الذي جعله يستغني عن تحصين المدينة والقصر، ويروي المؤرخ اليوناني (توكيديديس) Thukydides ، بالإستناد الى الأخبار المتواترة في عهده « ان مينوس كان أول من اتخذ لنفسه اسطولا كبيرا بسط سيطرته على القسم الأعظم من البحر المسمى بالهيلليني وأنه قد استعمر جزر (سيكلاد) بعد أن طرد منها(القاريين) وفرض عليها حكمه وانتدب أولاده لادارتها ، وهو الذي قضى على القرصان في هذا البحر حتى يستطيع الاستئثار بموارده كلها ، »

وهناك دلائل كثيرة تؤيد ما أورده (توكيديديس) عن سيطرة مينوس البحرية مثل وجود عدة مدن باسم (مينوا Minoa) على شواطىء الأبيض المتوسط ومثل أسماء المدن التي تنتهي بالحروف (انتوس Inthos) أو (سوس Ssoss) •

٧) الحيـاة الاقتصـادية :

ان أراضي (كريد) صالحة لزراعة الحبوب والبقول ورعي الماشية كما تكثر فيها كروم العنب والتين والزيتون ثم أشجار السفرجل والنخيل • وقد كان الزيت يزيد على حاجات السكان من طعام وتنوير وتدهين •فكانت تصدر منه كميات كبيرة الى البلدان الأخرى • كذلك ينبت في (كريد) الكتان والزعفران والخشخاش والسمسم والنعنع • وكان السكان يعتنون بالحدائق ويجمعون فيها مختلف الأزهار الجميلة التي كان الرسامون يتفننون في تصويرها •

وقد تقدمت (كريد) في الصناعة ونشأ فيها كثير من المهن الاختصاصية• فكانت هناك محلات للنجارة أو الدهان أو سكب البرونز أو حفر المجوهرات أو صنع الأواني الخزفية وتزيينهـا • ولم يكن يشتغل في هـذه المحلات شخص واحد أو عدة أشخاص فقط ، بل عدد كبير من العمال • فهي مصانع كبيرة للانتاج على مقياس واسع • ومما يدل على تقدم صناعة الأسلحة أن الخناجر التي كان لايزيد طولها في بادىء الأمر على (١٢) سانتيمترا بلغت في العهد المينوئي المتوسط (٣١) وفي العهد المتأخر (٤٢) سانتيمترا • وقد أصبح العمال في هذا العهد قادرين على صنع سيوف يبلغ طولها (٩٥) سانتيمترا كانت مرغوبة في جميع البلدان •

كان سكان (كريد) يصـدرون مصنوعات بلادهم ومنتوجاتهـا الى البلدان الأخرى لمبادلتها بالمواد التي تنقصهم مثل الخيل من البلاد الآسيوية والعاج من مصر والمعادن والحجارة الثمينة من مختلف البلدان • وهكذا فان

الكريديين كانوا أول أمة اشتغلت بالتجارة على مقياس واسع في حوض البحر الأبيض المتوسط واستطاعت أن تهيىء الشروط اللازمة لتقدم التجارة البحرية بين الأمم •

٨) الديانـــة :

ان ديانة الكريديين مزيج من العقائد الابتدائية التـي تؤمن بوجود أرواح في كل شيء ثم الخرافات والتصورات الخيالية وتمجيد القوى الخفية • وقد كانوا يعبدون الجبال والمغارات والحجارة والأشجار والشمس والقمر والماعز والأفاعي والثيران والحمام ، ويقدسون العدد (٣) • انهـم كانـوا يتصورون الفضاء مملوءا بالأرواح الطيبة أو الخبيثة ويعتقدون بوجود الجن والعفاريت وبنات البحر • وهم انما يقدسون الثيران والأفاعي بصورة خاصة لما تتصف به من القوة التناسلية والقدرة الخالقـة • لذلك فانهـم لما بدؤوا يمثلون القوى الالهية في صورة انسانية اتخذوا رمزا لها الالاهة ــ الأم التي يبالغون في ابراز ثدييها ويحيطونها بمجموعة كبيرة من الأفاعي والزواحف تتلوى ملتفة على ذراعيها وتتسلل الى ثدييها وتختلط بشعرها وتبرز من رأسها •

كان أهل (كريد) يرون في الأمومة سر الطبيعـة ، لأن البشـــر لايتغلبون على الموت الا بفضل التناسل الذي هو قوة المرأة السحرية وهذا ما يدفعهم الى تأليه هذه القوة • فالالاهة ــ الأم هي في نظرهم منبع كل حياة سواء في النبات أو الحيوان أو البشر •

وكان الكريديون يصورون الالاهة ــ الأم وبين ذراعيها ابنها الالهي (فلخانوس) الذي ولدته في مغارة بالجبال • وقد كانوا يعتبرونه تابعا لها ودونها في المرتبة • على أنه مع تعاقب العصـــور ازدادت أهميتـه وارتفعت مكانته وأصبح رمزا لقوة الخصب • وهـو يموت ولكنه يعود الى الحيـاة فيحتفل الرهبان بعيد بعثه • وكانوا أحيانا يمثلونه متقمصا في الثور المقدس الذي يتجلى فيه الخصب •

وقد أطلق في عهد الحكم اليوناني في كريد على الالاهة ـ الأم اسم (ريا Rhea) وعلى (فلخانوس) اســم (زفس Zevs) • وهــذا الزوج من الآلهة يقابل (ايزيس) و (هوروس) في مصر ثم (عشتروت) و (آدونيس) في فينيقية •

في سبيل ارضاء الآلهة كان الكريديون يلجؤون الى الأدعية والتعاويذ ويقومون بطقوس خاصة تحت اشراف الكاهنات ، كما كانوا يستخدمون البخور ليطرد الأرواح الشريرة •

لانجد في (كريد) معابد عظيمة كما في مصر أو بابل • فقد كان السكان يزورون في أوقات معينة بعض الأمكنة المقدسة ، ولا سيما المغارات في الجبال • وكانت العبادات اليومية تقام في البيوت أمام محراب في احدى الغرف يوضع فيه تمثال صغير للآلهة ، وكانوا في الأعياد الكبيرة ينشدون الأدعية ويقيمون الأفراح والألعاب •

وكان الكريديون يظهرون شيئا من العناية بموتاهم • فقــد كانــوا يدفنونهم في توابيت من فخار ويضعون معهم كمية من الأغذية وبعض الأشياء التي كانوا يستعملونها ويحبونها مثل لوحة الشطرنج أو آلة موسيقية أو تماثيل نسائية صغيرة أو تماثيل حيوانات •

٩) الألعـــاب :

كانت الألعاب تحتل مكانا عظيماً في الحياة الاجتماعية • وهي تشمل عدا الحفلات الدينيـــة مختلف الحركات الرياضيـــة ومبـاريات الركض والمصارعة • على أن أحب الألعاب الى الكريديين هي مبارزة الثيران ومايتبعها من حركات بهلوانية يقوم بها رجال ونساء مدربون •

كذلك كان الكريديون مغرمين بلعبة تشبه الشطرنج • وقد وجدت في قصر (كنوسسوس) لوحات من العاج مقسومة الى مربعات مرصعة بالذهب

والفضة معها اثنان وسبعون قطعة من القطـع التي يلعب بها قـد نحتت من المعادن والحجارة الثمينة • وهناك كثير من الرسوم تصور لنا مناظر الصيد في البراري ويشترك في الصيد الرجال والنساء ترافقهم كلاب الصيد •

١٠) الفنون الجميلة :

يمتاز الكريديون بميلهم الى الفنون الجميلة ومهارتهم في الكثير منها• وربما كانت حضارتهم تفوق جميع الحضارات القديمة المعاصرة لها بنزعتها الفنية ـ البديعية • وتدل آثارهم على أن غريزة حب الجمال كانت قوية لديهم وأنها قد ازدادت نموا بتأثير تطور الفردية وازدهار الحياة الاقتصادية • وقد استطاع الكريديون ، بما اتصفوا به من مهارة فطرية وقدرة على الاقتباس أن يبدعوا آثارا فنية رائعة تمتاز بدقة الصنعة وجمال الشكل وطرافة النقوش•

صناعة الخزف :اذا كانت (كريد) محرومـة من المرمر فانهـا تكثر فيها الصخور الكلسية الفاخرة والحجارة الملونة والشفافة ثم الغضار الجيد الذي يصلح للشوى ويسهل تلوينه • وهكذا فان المواد الأوليـة اللازمـة لصناعة الخزف متوفرة • وقد بدأ الكريديون بتقليد الأواني المصرية ثـم تزيينها بالنقوش والرسوم البديعة • وكانـوا يصنعون الجرار والأكواز ، والأقداح والصحون والمصابيح وأواني الزينة • ان هذه الأواني كانت في العهد المينوئي الأول تصنع باليد وتدهن بلون رمادي أو اسود قبل أن تعرض الى النار • وكانت الغاية الأساسية هي صنع أشـياء مفيـدة تصلح للاستعمال • ولكن غريزة حب الجمال أبت ألا أن تجعل من ذلك صناعة فنية • ولذلك نرى الكريديين في العهد المينوئي المتوسط يخترعون دولابا بطيء الحركة يساعد على تكييف الغضار حسب الأشكال المطلوبة • فصارت مصنوعاتهم لاتمتاز بالمتانة فحسب ، بل بالجمال أيضا • وقد تعددت الألوان في هذا العهد فأخذوا يستخدمون عدا الأسود والرمادي جملة من الألـوان البديعة كالبرتقالي والأصفر والزاهي والأحمر في تموجاته المختلفة ويتفننون

في مزج هذه الألوان وانتقاء ما ينسجم منهـا • وفي العهـد المينوئي المتأخر توصلوا الى صنع القيشاني وأنواع النقوش التزيينية اللامعـة • وبعـد أن كانت النقوش تقتصر على خطوط وأشكال هندسية بسيطةأصبحت في الأدوار الأخيرة تمثل مناظر طبيعية وصور حيوانات وعلى الأخص الأسماك ومشاهد من الحياة كمبارزة الثيران أو الحصـاد أو قطف الثمـار • وتكثر رسـوم الازهار بطريقة طبيعية وفي الدرجة الاولىزهرة الزنبقبساقها الطويلةولونها الأبيض الناصع •

وكان صناع الأواني الخزفية يعتزون بمقدرتهم الفنية واختراعاتهـم الذاتية حتى صاروا ينقشون أسماءهم في زاوية من الآنية ويتخذون شارات خاصة كانت معروفة عند التجار في مختلف بلدان البحر الأبيض المتوسط •

التحف والتماثيل : كذلك اعتنى الكريديون بالفنون الدقيقة كنقش الأختام وتزيينها وحفر المجوهرات وصنع الخنـاجر والسـيوف وترصيعها بالذهب والفضة والعاج والأحجار الكريمة • وليس هناك بلاد أخرى في العصور القديمة يمكن مقارنتها بكريد في صناعة هذه التحف •

وقد كان النحت أيضا من الفنون الدقيقة في (كريد) يقتصر عـلى صنع تماثيل صغيرة من الحجارة والمعادن الثمينة أو العاج • ومن أغرب الآثار في هذا الفن تمثال للالاهة ـ الأفعى مصنوع من الذهب والعاج يمتاز بالدقة والبراعة والطرافة •

الرســـم : ولاشك في أن أجمل الآثار الفنية في (كريد) هيالرسوم الكثيرة التي وجدت في كلمكان وبالأخص علىجدران قصر (كنوسسوس)• وعلى الرغم من أن الكريديين كانوا يجهلون قوانين التناظر ونسبة الأبعاد فقد استطاعوا تثبيت الأشكال والحركات في نظرة واحدة شاملة وتصوير النباتات والحيوانات والبشر في قالب طبيعي يتصف بالحياة كما نشاهد ذلك

في رسم « قطف الزعفران » أو « قطة وحشية تصطاد » ثم في الصورة التي اشتهرت باسم « الباريزية » وصورة « الراقصة » وغيرها •

الفن المعماري : أظهر الكريديون ، منذ باديء الأمر ، مهارة كبيرة في الفن المعماري • فانهم كانوا يقيمون حتى بيوت السكن المعتادة على أسس متينة من الحجارة ويبنون الجدران من الآجر المجفف في الشمس ويفرشون الأرض بالبلاط • وكانت بيوت الأغنياء تتألف من عدة طوابق • ولم يكن المعماريون الكريديون يهتمون بالتناظر وانما يحرصون على الوضوح والدقة في التقسيمات الداخلية وعلى الفائدة العملية وأسباب الراحة ويعتنون بجريان الهواء ودخول النور • وقد برعوا في تمديد القساطل والمجاري لجلب المياه وتوزيعها وكانوا يزودون البيوت بحمامات جميلة •

قصر (كنوسوس) : ان الفن المعماري في (كريد) يتجلى بصورة خاصة في القصور التي كانوا يستخدمون لها أحسن مواد البناء كالحجارة الكلسية الناعمة والجبس والأخشاب الثمينة • وقد اجتمعت كل الصناعات والفنون لتشييد هذه القصور وتزيينها وتوفير أسباب الراحة والرفاهية فيها• فكان المعماريون والبناؤون والنحاتون والرسامون وصناع الخزف والمعادن والأخشاب يبذلون غاية جهودهم وكل ما عندهم من مهارة وذوق لخلق مجموعة من القاعات والغرف الملوكية والمكاتب الحكومية والمسارح والملاعب والمعابد لتكون مركزا لحياة البلاد وتاجا يلمع في ذروتها •

وأعظم القصور في (كريد) هو قصر مينوس بمدينة (كنوسسوس) الذي جدد بناؤه في العهد المنوئي المتأخر والذي يمكن اعتباره خلاصة الفن المعماري عند الكريديين • وهو يقوم حول ساحة واسعة طولها (٦٠) مترا وعرضها (٢٩) مترا ويرتفع ثلاثة أو أربعة طوابق يصعد اليها بدرج واسع من الحجارة • ويتألف القصر من بيوت للحرس وملاجيء للخدم ومخازن للأغذية واللوازم ومحلات للصناع ومكاتب للموظفين وغرف

للانتظار وقاعات كبيرة للاستقبال وبهو واسع للعرش وردهة عظيمة لشارة البلطة المزدوجة ومعبد وحجرات للنوم وحمامات• ثم الى جانب ذلك مسرح جوسقان • ونرى في الطابق الأرضي دعائم ضخمة من الحجارة رفع عليها السقف بينما استخدمت لهذه الغاية في الطوابق العليـا أعمدة من أشجار السرو •

ومن يتجول في القصـر ويتنقل بـين الغرف والقاعات وفي الممرات الطويلة والماشي الضيقة لابد أن يضل عن الطريق ويتيه في هذه الشبكة من البناء • وقد اشتهر قصر (كنوسسوس) بـين اليونانيين باسم (لابيرينتوس Labyrinthos) • وهذه الكلمة مشتقة من (لابريس) أي البلطةالمزدوجة وهي شارة الملك التي خصصت لها الردهة الكبرى ، ثم شملت الكلمةالقصر كله وصارت بعد ذلك تفيد لدى اليونانيين معنى دهليز بصورة عامة وتطلق على كل شبكة من الغرف والممرات التي يتيه فيها الانسان •

ولعل أهم ما يثير اعجاب المعماريين الحديثين في قصر (كنوسسوس) هي مجموعة القساطل والمجاري لتوزيع المياه وتصريفها • فانـه في هـذه القساطل تجلب المياه من الينابيع في الجبال وتمدد الى بيوت الخلاء والحمامات داخل القصر ثم تخرج في المجاري • وقد بنيت كلها بصورة دقيقة ،محكمة استطاعت معها أن تبقى حتى اليوم • ويذكر العالم الاثري (موسسو) انه بينما كان ذات يوم يزور أطلال القصر في مدينة (هاجيا تريادا) هطلت أمطار غزيرة فانتظر حتى تنقطع ثم أراد أن يفحص حالة المجاري فرأى أنها ما زالت تؤدي وظيفتها ، وأنها قد ابتلعت كل المياه التي تجمعت في القصر • ويضيف (موسسو) الى ذلك قائلا : « انني أشك في وجود شبكة من المجاري غير هذه يمكن أن تحافظ على حالتها مدة أربعة آلاف سنة » •

ولابد من الاشارة هنا الى العناية الزائدة التي بذلها المعماريون في بناء الحمامات وعلى الأخص حمام الملكة في قصر (كنوسسوس) ، الذي يمتاز

بترتيبه البديع ونقوشه الجميلة • وليس هنـاك أية مبالغـة في قول أحـد المؤرخين الحديثين بأن ملكة (كريد) كانت في سنة (١٥٠٠) قبل الميـلاد تجد في قصر (كنوسوس) من وسائل الراحة والرفاهية والترف ما لم يتوفر لملكة فرنسا في قصر (فرساي) سنة (١٧٠٠) بعد الميلاد •

ومما زاد في بهاء قصر (كنوسوس) النقوش البديعـة والرسـوم الفنية ثم التماثيل الصغيرة والأواني الخزفية التـي تزين الغرف والقـاعات والبهو الكبير ، كما ان الجدران قد دهنت بطريقة جعلتها تشبه المرمر •

التمثيل والموسيقى : ان أقدم المسارح للتمثيـل بالعالم قـد بنيت في (كريد) • والمسرح الذي عثر عليه في قصر (كنوسـوس) قـد نحتت مقاعده من الحجارة • وهو على شكل مدرج في الهواء الطلق ويتسع لأربعمائة أو خمسمائة من المتفرجين • ونستطيع تكوين فكرة عن موضوعات التمثيل بفحص الرسوم التي تصور لنا جمهور المتفرجين من رجال ونساء يشاهدون راقصة تحرك ذراعيها ويتطاير ثوبها بينما يعزف الموسيقيون • وهناك رسوم أخرى تصور مناظر الرقص الشعبي أو الرقص الديني • وتتألف الآلات الموسيقية من المزمار المزدوج والبوق والكنارة والطارة •

الكتابات المينوئية والثقافة

لقد ميز (Evans) منذ البدء ، في الكتـابات الكريديـة التـي تمّ اكتشافها نموذجين • ولقد أطلق على الفئة الأولى اسم الكتابة الهيروغليفيـة (A) وتطابق الدور الأول من العهد المينوئي المتوسط (٢١٠٠ ـ ١٩٠٠) أما الفئة الثانية فلقد سماها بالهيروغليفية (B) وتطابق الدور الثاني من العهد المينوئي المتوسط (١٩٠٠ ـ ١٧٥٠) •

ولقد عرّف (ايفانس Evans) فيما بعد ، رمـوز المجموعـة الأولى بالكتابة التخطيطية A (Linear Script-A-) ورموز المجموعة الثانية بالكتابة التخطيطية B (Linear Script -B-) •

أما بالنسبة للمجموعة الأولى (A) ، فلقد عُثِر على نماذج منها في مناطق مختلفة من جزيرة كريد، وذلك في المواقع العائدة للفترات المينوئية المختلفة • وهذه الكتابات هي منقوشة على لوحات فخارية أو على تماثيل دينية من الحجر والمعدن وكذلك على عددٍ من الأواني الخزفية ، كما أنه عُثِر على نماذج قريبة من هذه الكتابات في مناطق خارج جزيرة كريد ، وذلك على أوانٍ خزفية اُكتُشفت في بعض جزر (السيكلاد) وفي أرخبيل ليباري (Lipari) الواقع شمال جزيرة صقلية • ولكن يجب ان نقول بأن الكتابات التي تم اكتشافها خارج جزيرة كريد لاتتطابق تماماً مع ما تم اكتشافه في الجزيرة نفسها •

والرأي الراجح اليوم ، بأن هذا النوع من الكتابة (أي التخطيطية (A)) كان واسع الانتشار في جمع أنحاء كريد وذلك منذ الدور الثالث للعهد المينوئي المتوسط (١٧٥٠ — ١٥٨٠) ، كما يُعْتَقد بأن هذا الخط قد كان مستعملاً في الفترات الأولى من العهد المينوئي المتأخر (حوالي ١٥٥٠ — ١٤٥٠) • وما زال العلماء يبحثون اليوم ، ما اذا كانت الكتابتان التخطيطيتان (A و B) قد وُجِدَتا معاً أم تعاقبتا زمنياً •

ومازالت الجهود تُبْذَل اليوم لقراءة كتابات المجموعة الاولى (A) وخاصةً بعد أن توصل العلماء الى حل مقبول نسبياً لرموز المجموعة الثانية (B) • ومازال الباحثون يلاقون صعوبات جمة ، وذلك رغم بعض النجاحات الأولية ، في سبيل فك رموز المجموعة الأولى (A) • ولقد اعتقد فريق منهم ، دونما أن يتمكن من اثبات ذلك بشكل حاسم ، ان للكتابات المعنية بالأمر (B) ، علاقة ما باللغات السامية •

ولقد اعتقد (أيفانس Evans) لدى تقسيمه الكتابات الى مجموعتين (A و B) ، لقد اعتقد بوجود علاقات وثيقة بين النموذجين فأرجعها الى أصل واحد وقال ان الطريقتين المختلفتين في الكتابة قد ظهرتا فيما بعد تحت

تأثير عوامل عديدة • ولكن رأي (ايفانس Evans) هـذا ليس مقبولاً بالاجماع اليوم ، رغم ان العلماء لا ينفون وجود بعض التشابه والقرابة بين المجموعتين وخاصةً فيما يتعلق بالمفردات • ويظهر بانه لن يُبت بالأمر نهائياً ، ما لم يتوصل المختصون إلى فك رموز المجموعة الاولى (A) وذلك بشكل مرضٍ •

أما بالنسبة لكتابات المجموعة الثانية (B) ، فلقد عُثِر على نماذج منها للمرة الأولى في سنة ١٩٠٠ وذلك على لوحات فخارية في كنوسسوس • ولم يُعْثَرْ على نماذج منها في مناطق أخرى من جزيرة كريد •

ولقد عُثِر فما بعد على كتابات تمت من بعيد الى خط المجموعة (B) في مناطق مختلفة من بلاد اليونان القارية • فلقد اُكتُشفت جرار تعود الى الفترة الميكينيـــة ، عليهـا كتـابات ، وذلك في طيبة وميكيني وأورخومنا وتيرنتوس)•وفي سنة ١٩٣٩ ، عُثِر في (Pylos) (پيلوس) (شمال غربي شبه جزيرة البيلوپونيز) في القصر العائـد للفترة الميكينية ، عـلى لوحات فخارية نُقِشت عليها أشكال مختلفة من هذه الكتابات ، ويعود تاريخ هذه اللوحات الى حوالي سنة ١٢٠٠ • ثم تتابعت الاكتشافات فتم العثـور عـلى لوحات عائدة الى القرن الثالث عشر في مدينة (ميكيني) ذاتها • ولقد بلغ عدد اللوحات المكتشفة حتى يومنا هذا خمسة (٥) آلاف لوحة تقريباً •

وتحتوي كتابات المجموعة (B) على (٩٠) اشارة• وتتكّون مفردات هذه الكتابات من اشارتين الى ثماني اشارات ، ويفصل المفردات بعضها عن بعض خط شاقولي • ولقد اُسْتُعمِلت الاشارات (الرموز) كما هو الحال في الكتابات السامية ، للدلالة على العدد •

ويقابل كل اشـارة ، مقطع مكوّن من حرف صوتي أو من حرف ساكن أو من حرف صوتي مع حرف ساكنٍ •

أما لغة هذه الكتابات ، فهي ضرب من اليونانيــة الموغلة في القــدم • وأقرب اللهجات التي تَمُتُّ اليها وأدركها يونانيو العصر الكلاسيكي ،فهي لهجتا جزيرة قبرص ومنطقة أرقاديا (في شبه جزيرة البلوبونيز) •

ولقد إنكبَّ العلماء المختصون منــذ اكتشافات (ايفانس Evans) على دراسة هذه الكتابات ، محاولين حل رموزها • ولقد بدأ (ايفانس) نفسه بهذا العمل وحذا حذوه الكثيرون • ولكن الفضل الأكبر بفكّ خط هذه الكتابات يعود الى العالمين مايكل ڤنتريس (Michael Ventris) وجون شادويك (John Chadwick) •

ومما يجب ملاحظته ، أن الصعوبات الجمّة التي لاقاها العلماء اثنــاء فكّهم لرموز كتابات المجموعة (B) نجمت عن عدم وجود نصوص بلغات متعددة ، كما كان الحال مثلاً بالنسبة « لحجر الرّشيد » ، الأمر الذي ساعد شامپليون (Champollion) ويونغ (Young) وغيرهما اثناء حلهم لرموز الهيروغليفية المصرية ، ولكن يجب ان نقول ، بأنه عُثر في قبرص ورأس شمرة وتل عطشانه (الخ) على بعض الكتابات ، تمت بصلة ما الى كتابات المجموعة (B) ، مما سهل قليلاً جهود الباحثين ، إذ ان رموز الكتابات التي تمّ العثور عليها في المناطق المذكور قد فُكّت خطوطها •

إذا كان العلماء قد توصلوا اليوم الى حل جزئي للكتابات المينوئيــة ، وخاصةً ماله علاقة بالمجموعة (B) ، فهذا لايعني بأن معطياتنا عن الحضارة الكريدية قد أخذت طابعاً جديداً • فما زالت مصادرنا عن تلك الحضــارة العريقة ، محصور تقريباً بالآثار المادية التي تمّ اكتشافها حتى الآن • ولاشك ان حل رموز المجموعتين (A و B) بشكل مرضٍ قد يساعدنا عــلى اضفاء لمحات جديدة على حياة الكريديين القدماء •

ورغم اننا لانعرف الشيء الكثير عن الحركة الفكرية ومدى التقــدم العلمي والأدبي في الجزيرة ، يعتقد البعض اليوم بأن الكتابة لم تكن وقفــاً

على الكهان أو على طبقات خاصة من الكتاب الرسميين كما كانت الحال في مصر ، بل ان الجميع كانوا يستطيعون تعلمها سواء التجار أو العمال أو الفلاحون مما يدل على تقدم الثقافة في البلاد • ويظهر انه كانت لدى الكريديين معلومات فلكية وطبية كثيرة كما تدل على ذلك الأخبار التي كان يتناقلها اليونانيون عن التقويم المينوئي ثم ما يذكره الاطباء المصريون عن الأدوية التي اقتبسوها عن الكريديين •• وقد ظل اليونانيون يسمون كثيراً من النباتات بأسمائها الكريدية مما يدل على اكتشافها واستعمالها من قبل السكان •

٥ ـ سقوط (كنوسسوس)
وانهيار حضارة (كريد) :

حوالي سنة ١٤٠٠ ق•م• احترق قصر (كنوسسوس) • وقد لاحظ (ايفانس) عندما كشف عن آثار القصر بأن النيران قد التهمته فجأة بينما كان الصناع يشتغلون والبناؤون يهيئون الكلس فتركوا جميع الأدوات في مكانها • كذلك يظهر أن حفلة رسمية كانت تقام في بهو العرش فاضطر الخدم الى ترك الأواني التي كانوا يحملونها على الأرض أمام الباب • بالاستناد الى مثل هذه الظواهر ذهب بعض العلماء الى أن الحريق كان نتيجة هزة أرضية • ومما يؤيد هذه الفرضية أن مدنا أخرى مثل (غورنيا Gournia) و (بسيرا Pseira) و (زاقرو Zakro) و (بلايقاسترو Palaicastro) قد خرجت تماما في الوقت نفسه • على أن هناك فرضية ثانية تقول بحدوث غارة على القصر • فان المعادن الموجودة في القصر قد أخذت حتى من الغرف التي تراكمت عليها الأنقاض والتي ظلت محافظةعلى حالتها• ومهما كانت أسباب الحريق فالأمر الثابت هو أن قصر (كنوسسوس) والقصور في المدن الأخرى لم يجدد بناؤها كما حدث في العصور السابقة وأن دولة (مينوس) زالت وأن حضارة (كريد) قد قضي عليها • ونرى الكتابات المصرية بعد هذا العهد لا تذكر شيئا عن دولة (كفتي) ، وانما تتكلم

عن سكان « الدائرة » أي شواطىء بحر ايجة . وهناك أدلة كثيرة على انحطاط دولة (مينوس) وتأخرها في ذلك العصر ، فان المؤرخين اليونانيين يروون أخبارا عن محاولة قام بها الكريديون للاستيلاء على (ميغارا) ولكنها انتهت بالفشل . وكان أهل (آتيكا) يدعون بأن (تيزئيون) أحد أبطالهم القدماء قد انتصر على (مينوس) انتصارا باهرا . والحفريات الأثرية تثبت أن شعبا غريبا قد طغى على السكان الأصليين في القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد ، اذ نجد الجماجم المستطيلة التي كانت أكثرية ساحقة في العصور السابقة تصبح أقلية الى جانب الجماجم المستديرة . ويبدو أن قبائل الآخائيين في بلاد اليونان كانت تريد الخلاص من سيطرة (مينوس) على بحر ايجة وشعرت في القرن الرابع عشر انها أصبحت على درجة من القوة تستطيع معها مهاجمة جزيرة (كريد) غير المحصنة . وفي الحقيقة فقد تعاقبت على الجزيرة موجات من الأخائيين حتى أصبح هؤلاء يسيطرون عليها . كانت هذه القبائل اليونانية لاتزال في حالة ابتدائية فلم تستطع انعاش الجزيرة . ونرى رئيس الآخائيين يكتفي بترميم جناح صغير من قصر (كنوسسوس) ويتخذه مسكنا بينما ترك الجوسقين اللذين لم يصبهما التخريب في حالة من الاهمال أدت بهما الى الانهيار تدريجيا . وليس هناك من أثر للتصوير أو لصناعة الخزف الراقية بعد سنة ١٤٠٠ ق.م.

ثم اكتسحت قبائل الدوريين الجزيرة حوالي سنة (١١٠٠) فطمست ما بقي فيها من معالم الحضارة . وقد أصبحت الجزيرة يونانية كلها تتكلم اللهجة الدورية عدا بعض المقاطعات الصغيرة في زاويتها الشرقية .

ما هي أسباب انهيار دولة (مينوس) ؟ ولماذا عجزت عن صد هجمات القبائل اليونانية ؟ هناك عوامل كثيرة أدت الى انقراض الشعوب والحضارات القديمة . ولا يستبعد أن تكون هذه العوامل نفسها مجتمعة قد قضت على حضارة (كريد) . فنلاحظ أولا : أن غابات السرو والأرز التي كانت

تغطي جبال الجزيرة في مبدأ تاريخها قد زالت في أواخر العهود المينوئية وبذلك أصبحت الأرض لاتحفظ مياه الأمطار فتأخرت الزراعة ونقص المحصول • ثانيا : يجب أن لاننسى بأن منتوجات (كريد) كانت في كل الأوقات لاتكفي لاعاشة عدد كبير من السكان• (فهي مثل انكلترا في الأزمنة الحديثة كانت مضطرة الى السيطرة على البحار وتأمين أسواق خارجية لتصريف مصنوعاتها مقابل الحاجات التي تستوردها •) ويبدو أن حروب المصريين والحثيين في سوريا وما عقبها من اضطراب في حالة مصر ، ثم هجرة الميتانيين في آسية الصغرى والآخائيين في شبه جزيرة اليونان وجزر بحر ايجة وتقدم الصناعة الميكينية ـ كلها قد أضرت بتجارة الكريديين وسببت تأخر حياتهم الاقتصادية • ثالثا : ان ازدياد الثروة والرفاهية والانصراف الى الترف والملذات في عصور ازدهار (كريد) قد أدت الى تناقص النفوس والى تفسخ السكان واضعاف نشاطهم وقدرتهم على الدفاع عن أنفسهم •

وعلى كل حال فان انهيار قصر (كنوسسوس) وانقراض دولة(مينوس) وزوال حضارة (كريد) كانت نتيجة للتفسخ والانحلال الداخلي قبل كل شيء • ولولا ذلك لما استطاعت الكوارث الطبيعية العارضة ثم غارات القبائل الهمجية من الخارج ان تقضي على الشعب الكريدي •

واذا ألقينا نظرة عامة على حضارة (كريد) التي عاشت مدة (١٨٠٠) سنة نلاحظ بأنها رغم اقتباسها بعض العناصر من المصريين في بادىء الأمر قد أصبح لها كيان خاص وطابع ذاتي وبلغت درجة عالية من التقدم فيجميع مظاهر الحياة وعلى الأخص في الفنون الجميلة • فالكريديون من أقدم الشعوب التي انتقلت من حالة الهمجية الى حياة مدنية راقية يتمتع فيها الانسان برفاهية العيش ويدرك معنى التهذيب والأناقة ويتذوق جمال الفن• وتدل جميع المظاهر على أن هذه الحضارة تشبه سائر الحضارات في القسم

الشرقي من حوض البحر الأبيض المتوسط وأن هناك روابط كثيرة بينها وبين شعوب آسية الصغرى • وقد كان لهذه الحضارة تأثير عميق في شواطىء بحر ايجة وفي جزره • ومن أبرز آثارها حضارة (ميكيني Mycenae) في شبه جزيرة البيلوبونيز التي حافظت على قسم كبير من تراث الكريديين ونقلته الى بلاد اليونان • ولا شك في أن قبائل الآخائيين ثم الدوريين الذين اكتسحوا جزيرة (كريد) وهدموا قصورها وخربوا مدنها قد اقتبسوا عنها مع مرور الزمن بعض عناصر الحضارة • وتروي أخبار اليونانيين أن (ليكور غوس) المشرع الاسبارطي ثم (صولون) المشرع الآثيني قد اتخذا قوانين كريد قدوة ونموذجا لهما • وعلى كل حال فان مجموعة القوانين التي وجدت منقوشة على الجدران في مدينة (غورتينا) بجزيرة كريد والتي يرجع تاريخها الى أوائل القرن الخامس قبل الميلاد أي الى العهد اليوناني تنم عن تقدم في الحضارة والتفكير • فهي دليل على تأثير التقاليد المتوارثة بين سكان الجزيرة • ولا يستبعد أن تكون هذه القوانين قد أثرت في التشريع اليوناني • ومن المعروف أن (تاليتاس) الذي كان في القرن السادس يعلم الموسيقى في اسبارطة انما هاجر اليها من (كريد) • كذلك نرى بعض النحاتين الكريديين يقومون في العصر نفسه بتعليم الفنانين اليونانيين •

هكذا كانت حضارة (كريد) تتسرب من مختلف الطرق الى بلاد اليونان وتمهد السبيل لنشأة الحضارة اليونانية •

الفصل الثالث

ميكيني وطروادة

١ ـ (شليمان) واكتشاف آثار (ميكيني) و (طروادة) :

انتقلت حضارة كريد الى اليونان عن طريق مدينتي (ميكيني) و (ترينس Tirynthe) في شبه جزيرة البيلوبونيز • على ان هاتين المدينتين كانت قد ضاعت آثارهما لذلك فقد ظل المؤرخون الحديثون حتى منتصف القرن التاسع عشر يعتبرون أشعار (هوميروس) في كتاب (الالياذة) التي تتكلم عن ملوك الآخائيين وقصورهم في (ميكيني) و (تيرنس) ثم عن حروبهم في طروادة ـ لقد ظل المؤرخون يعتبرون كل ذلك من الاساطير الخرافية • هكذا استمر الامر الى أن اكتشف (شليمان) آثار مدينة (طروادة) ثم مدينتي (ميكني) و (تيرنس) •••

ولد (هاينيريخ شليمان Heinrich Schliemann) سنة ١٨٢٢ • وكان والده من المغرمين بالتاريخ القديم • فأخذ يروي الى ابنه،وهو لايزال طفلا ، قصص (هوميروس) عن حصار (طروادة) وعن رحلات (اوديسيوس Odysseus) • يقول (شليمان) انه قد شعر بألم عظيم عندما أخبره والده بأن (طروادة) قد هدمت بالمرة وانها قد ضاعت ولم يبق منها أي أثر يدل على وجودها • ولما بلغ (شليمان) الثامنة من العمر استقر رأيه ، بعد تفكير طويل ، على ان يكرس حياته لاكتشاف المدينة الضائعة • وفي العاشرة من عمره قدم الى والده مقالة كتبها باللغة اللاتينية عن حرب (طروادة) •

كان هذا الوالد رجلا فقيرا فاضطر (شليمان) ، بعد انهاء الدراسة المتوسطة ، الى ان يشتغل كأجير بقال • ولكنه سرعان ما أدرك بأنه لن يتوصل عن هذه الطريق الى الثروة التي كان يعتقد بأنه لابد منها للقيام بالتنقيب عن (طروادة) • فقرر سنة ١٨٤١ الذهاب الى امريكا الجنوبية • على ان الباخرة تحطمت في الطريق ونجا (شليمان) في زورق قذفته الامواج الى شواطىء (هوللاندا) • وقد استطاع ان يجد هناك عملا ككاتب في أحد المحلات التجارية وأخذ يصرف نصف اجره لشراء الكتب ويعيش بالنصف الآخر وبأحلامه الواسعة • وقد ساعده ذكاؤه ومهارته على النجاح فأصبح وهو في الخامسة والعشرين من العمر تاجرا مستقلا ثم اتسعت اعماله بسرعة فلم يبلغ السادسة والثلاثين حتى جمع ثروة كبيرة فترك التجارة وانصرف الى دراسة علم الآثار ، لأنه ـ كما قال هو نفسه ـ لم يكن في هذه المدة ، رغم أشغاله الكثيرة ، قد نسي (طروادة) أو العهد الذي قطعه لوالده بأن يبحث عنها •

كان (شليمان) أثناء أسفاره التجارية في مختلف البلدان قد اتخذ لنفسه قاعدة ان يتعلم لغة كل بلد يقيم فيه • فكان يخاطب السكان بلغتهم ويكتب مذكراته اليومية بتلك اللغة ، ثم عندما يعود الى مقره يكاتب عملاءه بلغات بلادهم • وهكذا تعلم اللغة الانكليزية والفرنسية • والهوللاندية والاسبانية والبرتغالية والطليانية والروسية والسويدية والبولونية والعربية • وبعد اعتزال التجارة سافر (شليمان) الى بلاد اليونان وأخذ يدرس اللغة اليونانية القديمة والحديثة وتوصل بسرعة الى اتقانها وصار يتكلمها بطلاقة كما يتكلم لغته الالمانية • ولما رفضت زوجته الروسية مرافقته الى بلاد اليونان تزوج بفتاة يونانية في التاسعة عشرة من عمرها ولدت له صبيا وبنتا لم يرضى بتعميدهما الا مكرها وأفسد حفلة التعميد بوضعه نسخة من الالياذة على رأسيهما أثناء المراسيم الدينية وبقراءته بصوت عال مائة بيت من شعر (هوميروس) • وقد سمى ابنه باسم بطل الإلياذة (آغاممنون) وابنته باسم

(آندروماخي) زوجة البطل (هكتور) • بل انه اطلق على خادميه أيضا اسمين يونانيين قديمين هما (تلامون) و (بلوبس) ، كما سمى بيته في آثينة (بلليروفون) • حقا انه كان مجنونا بهوميروس •

واخيرا ذهب (شليمان) سنة (١٨٧٠) الى الزاوية الشمالية الغربية من شاطيء آسية الصغرى ، حيث كانت (طروادة) حسب الروايات القديمة • وقرر ان يحفر تحت هضبة تسمى (حصارلق) • وقد ظل يفاوض الحكومة العثمانية مدة سنة حتى نال موافقتها • فبدأ بالحفريات مع ثمانين من العمال كان يشرف عليهم وزوجته الى جانبه من شروق الشمس الى غروبها في برد الشتاء وحرارة الصيف معرضا للرياح الشديدة وزوابع الرمل •

هكذا مضت سنة بكاملها دون أن يعثر على شيء من الآثار • ولكن فجأة كشف العمال بعد ذلك عن اناء كبير من النحاس • فلما فتحه (شليمان) رأى كنزا يبهر الابصار • وبعد ان أرسل العمال للاستراحة نقل الكنز مع زوجته الى الكوخ الذي كان يسكنه • وكان هذا الكنز يتألف من تسعين ألف قطعة من المصنوعات الفضية والذهبية •

أخبر (شليمان) أصدقاءه في أوروبا بأنه قد توصل الى اكتشاف كنز ملك طروادة (بريام) • ولكن علماء التاريخ لم يصدقوا أقواله وأخذوا يهزؤون به واتهمه بعض النقاد بأنه هو الذي وضع هذه الاشياء تحت الارض • على انه جاء بعد ذلك ببعض البحاثة الاثريين المشهورين أمثال (فيرخوف) و (دوربفلد) و (بورنوف) ففحصوا الآثار التي وجدها (شليمان) واشتركوا معه في متابعة الحفريات حتى كشفوا تحت هضبة (حصارلق) نفسها عن تسع مدن الواحدة فوق الاخرى • وعند ذلك اصبحت المشكلة التي تواجه العلماء ليست هي معرفة هل كانت (طروادة) موجودة أم لا ، بل تعيين أي مدينة من المدن التسع هي التي وصفها (هوميروس) في الالياذة والتي يسميها (ايليوس) • وقد ظهر من الحفريات

والابحاث التي قام بها (دوربفلد) وغيره من العلماء ان الكنز الذي اكتشفه (شليمان) وظن انه كنز (بريام) كان في المدنية الثانية حسب الترتيب من تحت الى فوق وان هذه المدينة يرجع تاريخها الى حوالي سنة (٢٤٠٠ ــ ١٩٠٠) ق • م ، أي انها اقدم من (ايليوس) المذكورة في الالياذة بعصور عديدة • والمدينة الاولى تحتها ليست سوى قرية بسيطة من العصور الحجرية قبل سنة (٣٠٠٠) والمدن ذات الارقام (٣) و (٤) و (٥) ثم (٧) و (٨) و (٩) كانت ايضا قرى لا أهمية لها من الوجهة الأثرية التاريخية • أما المدينة السادسة التي يرجع تاريخها الى سنة (١٤٠٠ ــ ١٢٠٠) فهي التي تنطبق عليها أوصاف (الالياذة) •

وهكذا فان (شليمان) قد اكتشف ، مثل (كولومبوس) عالما أغرب من العالم الذي قصده • فالمجوهرات التي وجدها ترجع الى عهد أقدم بكثير من زمن الملك بريام (Periam) وزوجته (هقوبا Hecuba) وقد اثبت (شليمان) ، دون قصد ، صحة بيت للشاعر الروماني (هوراس) يقول فيه « ان كثيرا من الرجال الشجعان قد عاشوا قبل (آغاممنون) • فالحضارة أقدم دوما مما نظن • وحيثما نحفر فلابد ان نعثر على عظام رجال ونساء عاشوا مثلنا واشتغلوا وأحبوا وتخاصموا وأنشدوا الاغاني وأبدعوا أشياء جميلة ــ ولكن أسماءهم ضاعت بتعاقب الزمن ونسينا حتى وجودهم ••• »

لم يكتف (شليمان) باكتشاف طروادة ، بل أراد أن يجد أيضا القصور التي كان يسكنها (آغاممنون) وغيره من ملوك الآخائيين في بلاد اليونان • وقد استرشد بكتاب المؤرخ الهيلليني (بوزانياس) عن رحلته سنة ١٦٠ بعد الميلاد التي يصف فيها مكان مدينتي (ميكني) و (تيرنس) ويبدي استغرابه من ضخامة أطلالهما) •

هناك بدأ (شليمان) الحفريات التي أدت في هذه المرة أيضا الى اكتشاف آثار كثيرة تفوق في أهميتها وقيمتها آثار (طروادة) • فقد كشف

في سنة ١٨٧٦ عن أطلال (ميكيني) وقبورها ؛ ولما جاءه العمال بالهياكل العظمية والأواني الخزفية والمجوهرات والاقنعة الذهبية أرسل في الحال برقية الى ملك اليونان يخبره فيها بأنه قد اكتشف قبر (آغاممنون) • ثم انتقل (شليمان) سنة ١٨٨٤ الى (تيرنس) وكشف عن القصر الكبيروعن جدران السور التي يصفها (هوميروس) • على ان الابحاث التي قام بها (دوربفلد) قد اثبتت ، فيما بعد ، ان القبر الذي اكتشفه (شليمان) يرجع الى عدة أجيال قبل عهد (آغاممنون) •

٢ ـ حضارة (ميكيني) :

في الجهة الشرقية من شبه جزيرة (البيلوبونيز) ، على سفح الجبال حيث يبدأ سهل (آرغوس) تقع مدينــة (ميكيني Mycenae) • ثــم الى الجنوب منها وعلى بعد ميل ونصف من شــاطىء البحر كانت تقوم مدينــة (تيرنس Tirynthus) • في هاتين المدينتين ظهرت أقدم آثار للحضارة على أرض اليونان • ان (تيرنس) هي المدينة الاولى التي تأسست في هذهالبلاد• وهي تقوم على هضبة صخرية قليلة الارتفاع قد حفرت فيها أيدي البشــر وجعلت منها ثلاث درجات • وقد بني قصر الملك في الدرجة العليا • ثــم احيطت المدينة كلها بسور من الحجار الضخمة • وبعض هذه الحجارة يبلغ طولها ستة أقدام وعرضها وعمقها ثلاثة أقدام • ويتراوح ارتفاع السور بين (٢٥) الى (٥٠) قدما • ويروي اليونانيون ان هذا السور قد أمــر تشييده الامير (بروئتوس Proteus) قبل مائتي سنة من حصار (طروادة) فاستدعي لذلك بنائين مشهورين من بلاد (ليكيا) في آســية الصغــرى • ويطلق اليونانيون عــلى هــؤلاء البنائين اسم (سيكلوبس Cyclopes) وهم يتصورونهم في هيئة عماليق لهم عين واحدة مدورة •

والقصر في (تيرنس) يشبه قصر (كنوسسوس) بكثرة غرفه وممراته لتشابكة • ولكنه يختلف عنه أولا : بفقدان الباحة المركزية المكشوفة ، اذ

ان الغرف بنيت حول قاعة واسعة مسقوفة ، وثانيا : الفصل بين القسم الخاص بالنساء والاقسام الاخرى • وعلى الرغم من ان غرفة الملكة ملاصقة لغرفة الملك في وسط القصر فليس هناك اتصال مباشر بينهما ، بل ان لكل منهما مدخلا مستقلا • ومبدأ الفصل بين محلات الرجال وبين « الحريم » قد ظل سائدا لدى اليونانيين في العصور التالية •

أما مدينة (ميكيني) التي تبعد (١٢) ميلا عن (تيرنس) فهي على شكل مثلث • وكانت ايضا محاطة بسور « سيكلوبس » •

وتروي القصص اليونانية أن مؤسسها هو الملك (برسيوس Perseus) في القرن الرابع عشر • ويصف (هوميروس) المدينة بأنها جيدة البناء ، واسعة الشوارع ، غنية يكثر فيها الذهب • وقد كشفت حفريات (شليمان) عن قسم من السور ، وفي زاوية منه أحد مداخل المدينة المشهور باسم « باب السباع » ، حيث نرى تمثالي لبوتين نحتا على صخرة عظيمة ، ولكن رأسيهما قد تحطما • وفي مرتفع من المدينة يقوم قصر الملك الذي نستطيع ان نميز تقسيماته الداخلية بين الاطلال فنعرف مكان البهو الخاص بالعرش ثم المعبد وقاعات الاستقبال والمخازن والحمام ، كما نشاهد الدرجات العريضة التي ترتقي الى الطابق العلوي ثم آثار النقوش التزيينية على الجدران والبلاط الملون على الارض ، وقد كشفت حفريات (شليمان) ، على القرب من « باب السباع » ، عن مقبرة تحتوي على (١٩) من الهياكل العظمية ووجدت على جماجم الرجال تيجان من الذهب وعلى عظام الوجوه أقنعة ذهبية ، كما عثر على كثير من المجوهرات والحلي الذهبية معلقة على صدور السيدات • والى جانب ذلك كان في المقبرة عدد كبير من الاواني الخزفية المزخرفة وقدور من البرونز واناء للشرب في شكل قرن مصنوع من الفضة وقطع اخرى من الحجارة الثمينة والعاج ثم خناجر وسيوف مرصعة • وتكاد تكون جميع التحف في المقبرة مصنوعة من الذهب سواء الاختام أو الخواتم أو

الاقداح أو الاساور أو الاقراط • ان هذه العظام الغارقة في الذهب هي ، دون شك ، عظام ملوكية •••

ان هذه الآثار التي عثر عليها في (ميكيني) و (تيرنس) هي بقايا حضارة قديمة انتشرت في بلاد اليونان وجزر بحر ايجة • ويذهب علماء الآثار الى ان هذه الحضارة قد بدأت حوالي سنة (١٦٠٠) ق•م• واستمرت حتى سنة (١٢٠٠) • على ان تحديد المدة في عصور ما قبل التاريخ ليس من الامور السهلة ولايمكن ادعاء الدقة واليقين فيها • وتدل الظواهر على ان أهم مركز لهذه الحضارة كان في مدينة (ميكيني) ، لذلك أطلق عليها العلماء اسم « الحضارة الميكينية » •

يبدو من تدقيق آثار هذه الحضارة انها قد اقتبست الشيء الكثير عن المصريين ، وان العلاقات بين البلدين كانت وثيقة•فقد عُثر في مقابر(ميكيني) على قطع من الخزف المصري نقش على واحدة منها اسم (آمنحوتب) الثالث (١٤٠٨ – ١٣٧٢) ، وعلى قطعة اخرى اسم هذا الملك مع اسم زوجته (تي Tay) ثم نرى على خنجر ، وجد في هذه المقابر نقوشا تصور نهر النيل وبعض الحيوانات التي لاتعيش الا في مصر • والخنجر من صنع بلاد (ايجة) مما يشير الى ان صانعه قد زار بلاد النيل ، وبالمقابل قد وجدت على جدار في مدينة (طيبة) بمصر صورة تمثل أواني ميكينية • بالاستناد الى هذه العلاقات يذهب بعض المؤرخين الى أنه من المحتمل ان يكون ملوك مصر قد حالفوا (الميكينيين) وارسلوا الى ملوكهم الهدايا ثم حرضوهم على مهاجمة (كريد) • الا انه ليس هناك دلائل كافية تؤيد هذه الفرضية • ومن الواضح ان الحضارة الميكينية قد نشأت تحت تأثير حضارة (كريد)• فان طريقة الفن المعماري في بناء القصور وتزييناتها في (ميكيني) و (تيرنس) تشبه قصر (كنوسسوس) رغم بعض الفوارق الطفيفة التي أشرنا اليها • وكانت الأواني الخزفية ، في بادىء الامر ، اما مستوردة مباشرة من (كريد)

أو مصنوعة على مثال النماذج الكريدية • وأبسط تعليل لذلك هو الافتراض بأن الكريديين قد نزلوا في بعض الاماكن من بلاد اليونان الشرقية واستقروا بصورة خاصة في مقاطعة (آرغوليس) ونشروا حضارتهم بين السكان • واطلاق اسم (مينوا Minoa) على الجزيرة المقابلة لمقاطعة (ميغارا) مما يؤيد هذه النظرية • وفي اسطورة (قدموس) وزوجته (اوروبا) اللذين ينسب اليهما اليونانيون تأسيس مدينة (طيبة) في اليونان يذكر بأن (اوروبا) هي بنت (فنيكس) ووالدة (مينوس) وانّ (قدموس) هو الذي اخترع الكتابة • ولاشك في ان المقصود هنا هواقتباس الكتابة الكريدية • أما ذهاب اليونانيين الى أن (أوروبا) هي أميرة فينيقية فخطأ ناشيء عن تأويل اسم أبيها • ويظهر ان هؤلاء اليونانيين قد نسوا بأنهم قبل ان يتعرفوا الى الفينيقيين بعصور كثيرة كانوا يطلقون على الكريديين اسم (فنيكس) أي « الرجال الحمر » اشارة الى لونهم الحنطي •

على ان الميكينيين الذين يختلفون عن الكريديين في لباسهم ومظهرهم الخارجي قد استقلوا في حضارتهم عن كريد ، فاكتسبت هذه الحضارة مع مرور الزمن طابعا خاصا • فهي قد عاشت مائتي سنة بعد انهيار دولة (مينوس) • ونرى قصر (تيرنس) يجدد بناؤه على مقياس أوسع وبصورة أفخم حوالي سنة ١٣٥٠ ق•م• أي بعد سقوط (كنوسسوس) • وكذلك الامر مع قصر (ميكيني) • وقد زينت جدران القصرين بالرسوم على طريقة الكريديين • الا ان هذه الرسوم لا تصورمناظر الطبيعة أو الحيوانات والنباتات أو مشاهد الحياة العادية كما في قصر (كنوسسوس) ، بل تمثل الجنود وساحات الحرب • ان الحضارة الميكينية لم تكن على درجة منالرقي والترف يمكن مقارنتها بحضارة (كريد) • فالمجتمع اليوناني كان لايزال في حالة بدائية والسكان كانوا منصرفين الى الصيد والحرب والى صناعة الاسلحة في الدرجة الاولى • والأدوات التي كانوا يستعملونها خليط من المصنوعات (القديمة) الحجرية و (الحديثة) البرونزية• وأكثر الصناعات

تقدما في (ميكيني) هي صناعة المعادن ، وعلى الاخص الذهب والفضة اللذين وجدت منهما كميات كبيرة • وأحسن المصنوعات من هذا النوع لم يعثر عليها في (ميكيني) أو (تيرنس) ، بل في مدينة (واڤيو) قرب موقع اسبارطة • فقد وجد في مقبرة الامير كنز من المجوهرات والتحف بينهما قدحان من الذهب الرقيق • والنقوش على هذين القدحين تمثل مناظر لترويض الثيران مقتبسة عن الفن الكريدي وتنم عن مهارة في الصنعةوجمال في الشكل • اما الاواني الخزفية فانها اقل اتقانا ورشاقة ، وان كان (الميكينيون) قد توصلوا الى اختراع انواع جديدة من هذه الاوانيتختلف عن مصنوعات (كريد) بلمعان رسومها • وكانت الفنون الجميلة بصورة عامة في حالة تقهقر ومتأخرة عن المستوى الذي بلغته في (كريد) • اما التجارة فكانت بطيئة في تقدمها بسبب سيطرة القرصان على بحر ايجة • ونرى ملوك (ميكيني) و (تيرنس) أنفسهم يقومون بأعمال القرصنةوكانوا يبنون مدنهم بعيدة قليلا عن شواطىء البحر ليستطيعوا من جهة حمايتها من الغارات المفاجئة ثم لاستخدامها لمهاجمة السفن من جهة ثانية • ولكن يظهر ان هؤلاء الملوك قد أدركوا بعد ذلك فائدة التجارة البحرية في ظل الأمن وعرفوا انها كانت السبب في غنى كريد وازدهارها فأخذوا يمنعون القرصنة وانصرفوا الى التجارة •

ويبدو أن (الميكينيين) كانوا يتبعون (الكريديين) في عقائدهمالدينية، اذ نرى لديهم صورة الحمام المقدس ، والالاهة ـ الأم وابنها الصغير ثم الافاعي • ومما يشير الى التأخر الفكري ان الكتابة التي اقتبست عن (كريد) لم تنتشر بين السكان ، بل اقتصرت على بعض الرسامين الذين كانوا يستخدمونها لتزيين الاواني الخزفية •

ولقد قامت الحضارة الميكينية على اكتاف سكان البلاد الاصليين الذين يسميهم اليونانيون (بيلاسكي Pelasgi) • ومن المحتمل ان يكون هذا

الاسم مشتقا من كلمة (بلاغوس Pelagos) أي البحر ، فهو لذلك يفيد معنى (شعب البحر) • ونحن لا نعرف عن هذا الشعب الا انه من شعوب بحر ايجة وانه يشبه الشعوب القاطنة في آسية الصغرى مثل (الليديين) و (القاريين) و (الليكيين) • وقد اختلطت قبائل الاخائيين اليونانية بهؤلاء السكان الاصليين وفرضت عليهم سيطرتها ولغتها • ورغم تعدد الشعوب واللهجات فانه في هذا العهد أخذت تسود بين الجميع اللغة اليونانية « الفتية، ذات الاصوات الرنانة الحلوة » كما يقول (هوميروس) •••

يمكن ان نجمع بين الحضارة (الكريدية) والحضارة (الميكينية) وحضارة البلاسكيين والليديين والقاريين والليكيين ونطلق عليها كلها اسم الحضارة الايجية • فان هذه الشعوب من عرق واحد ، وهي تتكلم لهجات متقاربة ، وهناك تشابه كبير في طراز معيشتها ومظاهر حضارتها • وترى القبور في كل مكان مبنية على الطريقة نفسها بشكل قبب وحجرات مربعة تحتوي على الاواني والخناجر والسيوف ذاتها • وهذه الشعوب جميعا خاضعة لتأثير بحر ايجة وما يتصف به من اعتدال الاقليم والموقع الممتاز بين القارات الثلاث والشروط الملائمة للملاحة والتجارة ••

بعد ان حملت (كريد) مشعل هذه الحضارة عصورا طويلة وسارت بها خطوات واسعة في طريق التقدم والتكامل انتقل قسم من تراثها الى (الميكينيين) الذين حافظوا على الحضارة في العالم الايجي • وقد بسط (الميكينيون) سيطرتهم التجارية على جزر بحر ايجة وشواطىء آسية الصغرى ، كما اتصلوا بقبرص وسورية ومصر وايطالية واسبانية • وهكذا فقد نقلوا بدورهم حضارة (كريد) الى شبه جزيرة اليونان والى كثير من انحاء البحر الابيض المتوسط ومهدوا السبيل لظهور الحضارة اليونانية •

ولكن يظهر ان (الميكينيين) قد اصطدموا في طريق توسعهم الجارف

بمدينة (طروادة) التي كانت تحرس المضايق وتسيطر على طرق القوافل فاضطروا الى مهاجمتها ونشأت عن ذلك حرب (طروادة) المشهورة •

٣ ـ حصار (طروادة) :

تروي الاساطير اليونانية ان (باريس Paris) ، وهو أجمل أولاد (بريام Priam) ملك طروادة ، زار مرة (مينيلاووس) ملك اسبارطة ثم خطف زوجته (هيلين) المشهورة بالجمال والفتنة • وقد غضب اليونانيون لهذا الاعتداء على شرفهم فجمعوا أسطولا كبيرا مؤلفا من (١٢٠٠) سفينة وجيشا ضخما يبلغ مائة ألف مقاتل ـ وساروا تحت قيادة (آغاممنون) ملك (ميكيني) وأخي (مينيلاووس) وألقوا الحصار على طروادة • وقد اشترك في هذه الحملة أكثر ملوك اليونان وامراؤهم وأبطالهم وبينهم (اوديسيوس) ملك جزيرة (ايتاكا) و (آخيليس) أشجع أبطال اليونانيين • كذلك سارعت الشعوب الحليفة المجاورة لطروادة فأرسلت الجنود لنجدتها وتولى قيادة الجيش البطل (هكتور) أحد أولاد الملك (بريام) •

استمر الحصار عشر سنوات ولم يتمكن اليونانيون من دخول المدينة الا بعد ان لجؤوا الى الحيلة فصنعوا تمثال حصان كبير من الخشب اختبأ في جوفه مائة محارب ، ثم ركبوا السفن وتظاهروا برفع الحصار والعودة الى بلادهم • فخرج أهل طروادة وجروا التمثال الى داخل المدينة كغنيمة وذكرى لانتصارهم • وفي الليل اقاموا المآدب والافراح احتفالا بانتهاء الحصار • وانتهز الجنود في جوف الحصان هذه الفرصة فخرجوا وفتحوا ثلمة في السور دخل منها اليونانيون الذين حرقوا المدينة وقتلوا الرجال وسبوا النساء •

يصف (هوميروس) في الالياذة هذه الحرب وما جرى خلالها من مبارزات بين الابطال واختلافات بسبب النساء واحاديث بين مختلف الشخصيات ، كما يذكر انقسام الآلهة الى حزبين انضم احدهما الى اليونانيين

والاخر الى الطرواديين ثم اشتراك هذه الآلهة في القتال وحبك الدسائس والمؤامرات ٠

وأهم موضوع في الالياذة هو غضب (آخيليس) بسبب اغتصاب الملك (آغاممنون) لحظيته الجميلة (بريزيس Priseis) ٠ وقد انسحب (آخيليس) مع جنوده من القتال واقسم بأنه لن يمد يد المساعدة الى اليونانيين فأدى ذلك الى رجحان كفة الطرواديين مدة من الزمن ولكن لما سمع بأن بطل طروادة (هيكتور) قد قتل صديقه الحميم (باتروكلوس) قرر العودة الى القتال واستطاع ان يقتل (هيكتور) ٠ وهنا تنتهي قصيدة الالياذة ٠

ويذكر لنا الكتاب اليونانيون بعد (هوميروس) ان (باريس) أخا (هيكتور) قد اصاب بعد ذلك (آخيلليس) بسهم فقتله ٠

والآن ما هو نصيب هذه القصة من الحقيقة ؟

ان جميع المؤرخين اليونانيين وشعراءهم كانوا يعتقدون بصحةالروايات عن حصار (طروادة) ٠ أما المؤرخون الحديثون فقد ظلوا ، كما قلنا ، ينكرون حتى وجود هذه المدينة الى ان كشف (شليمان) عن أطلالها٠ومنذ ذلك الوقت أصبح العلماء يعترفون بأن قصة الحصار تستند الى أساس من الصحة وان الابطال الذين اشتركوا في الحرب ليسوا جميعا من عالم الاساطير ٠ فان الكتابات الحديثة في القرنالثالثعشر تذكر اسم(آتاريسياس) كملك (آخياروا) ٠ ومن الواضح ان المقصود بذلك هو (آتريوس Atreus) ملك الآخائيين الذي يروي لنا النسابون اليونانيون بأنه ابن (بيلوبس) ووالد (آغاممنون) و (مينيلاووس) ٠ وبعد ان تزوجالاخوان بنتي ملك (لاقوينا) وهما (قلينيمسترا) و (هيلين) وأصبحا يحكمان بلاد اليونان الجنوبية من عاصمتيهما (ميكيني) و (اسبارطة) أطلق على شبه الجزيرة اسم (بيلوبونيز) أي جزير (بيلوبس) ٠

ثم نجد في كتابة مصرية من عهد (رعمسيس) الثالث (١١٩٨ — ١١٦٦) أول ملوك السلالة العشرين خبرا يقول ان « الجزر » كانت في حالة اضطراب وحركة ٠ ويمكن ان نرى في ذلك اشارة الى حرب طروادة التي اشتركت فيها شعوب بحر ايجة — بالاضافة الى غارة الفلسطينيين الذين جاؤوا من (كريد) واشتركوا مع الليبيين في الهجوم على مصر حوالي سنة (١١٩٦) ٠ وقد تمكن (رعمسيس) الثالث من صدهم فاتجهوا الى بلاد الكنعانيين واستقروا فيها ٠ ومنذ ذلك الوقت اطلق على هـذه البـلاد اسم فلسطين ٠ وقد استطاع العالم الاسكندراني (ايراتوستينيس Erastosthenes بالاستناد الى شجرات الانساب التي نقلها عن المؤرخ اليوناني (هيكاتيوس) أن يحدد تاريخ حصار طروادة من سنة (١١٩٤) الى سـنة (١١٨٣) ٠ ويقول المؤرخ الروماني (بلينيوس Plinius) عند البحث عن (رعمسيس) الثالث انه في عهده سقطت طروادة ٠ فالاخبار المتواترة عن سقوط طروادة حوالي سنة ١١٨٣ يمكن اعتبارها ، اذن صحيحة أو قريبة جدا من الصحة ٠ وهنا لابد من التساؤل من هم الطرواديون ؟٠

تدل جميع الظواهر على ان سكان (طروادة) كانوا خليطا من مختلف الشعوب القاطنة على شواطىء آسية الصغرى ٠ وقد كانت هذه الشعوب في القرن الثالث عشر قبل الميلاد خاضعة لنفوذ الحثيين وحليفة لهم ٠ وتذكر الكتابات المصرية بين حلفاء الحثيين في معركة (قادش) المشهورة في سنة (١٢٨٧) اسم (دردنوى) من طروادة ٠ ونرى (هومـيروس) يطلق الاسـم نفسـه Dardenoi عـلى الطرواديين ٠ ويحتمل ان يكون هؤلاء قد جاؤوا من تراقيه واجتازوا المضايق مع أقاربهم الفريجيين الذين ظلوا في العهد اليوناني يسكنون سهل (سكاماندر Scamander) في القسـم الشمالي من شواطىء آسية الصغرى ٠ ونجـد (هيرودوت) يطلق عـلى الطرواديين اسم (تومريان) ٠ ويدعي (سترابون) ان هؤلاء قد جاؤوا من كريد وسكنوا بلادطروادة ،وذلك على الاغلب بعد سقوط (كنوسسوس)٠

ومما يؤيد هذا الرأي وجود جبل مقدس في طروادة يحمل اسم (ايـدا Ida) مثل الجبل المقدس في كريد ثم نجد بين السـكان ايضا قسـما من (القاريين) و (الليكيين) و (الكيليكيين) • وتدل الآثار التي كشفت عنها الحفريات على ان حضارة طروادة كانت مزيجا من حضـــارة (كريـد) و (ميكييني) مع عناصر من الحضارات الآسيوية • وقد حاول المؤرخون اليونانيون فيما بعد أن يصوروا طروادة كأنها مدينة آسيوية وان يعتبروا الحرب التي جرت فيها كأول فصل من النزاع بين الشرق والغرب الذي تجدد في الحروب الميدية • ولكن يظهر من وصف (هوميروس) بأن سكان طروادة كانوا يتكلمون اللغة اليونانية ويعبدون الآلهة نفسها المعروفة لدى اليونانيين • لذلك يمكننا ان نعتبر هذه البلاد في ذلك العصر جزءا من العالم الايجي

ما هي الدوافع الحقيقية لحرب طروادة ؟ هل نشبت لاسباب أخلاقية أم عرقية أم تحت تأثير عوامل أخرى ؟

يبدي (هيرودوت) ثم بعده الشاعر (اوريبيديس) الشك في ان تكون (هيلين) قد ذهبت الى طروادة وصارت سببا للحرب وظلت تشجع (باريس) على القتال في سبيلها • والكاتبان يعتقدان بأنها اقامت في مصر تنتظر قدوم (مينيلاووس) للبحث عنها • وقد تساءل (هيرودوت) : « هل من المعقول ان يحـارب الطرواديون مدة عشـر سنوات في سـبيل امرأة ؟ » ويعلل (اوريبيديس) حرب طروادة بأنها نتجة لتضخم السكان في بلاد اليونان وحاجتهم الى التوسع • فما أقدم النظرية التي تستند اليها الدول الحديثة في هذا العصر لتبرير سياسة الفتح « المدى الحيوي » !

على انه ليس من المستبعد أن يكون زعماء اليونان قد استخدموا قصة خطف (هيلين) لاثارة حماسة الشعب • فان البشـر يحتاجون دومـا الى الكلمات العاطفية ، الضخمة حتى يقدموا على التضحية بأنفسهم • ان السبب

الحقيقي للحرب هو النزاع في سبيل الاستيلاء على المضايق والسيطرة على الطريق الى السهول الغنية في البحر الاسود • وقد ادرك الجميع اهمية هذا النزاع فلم يتأخر احد من سكان بلاد اليونان عن مساعدة (آغاممنون) ، كما اسرعت شعوب آسية الصغرى كلها الى نجدة (طروادة) •••

تأسست مدينة (طروادة) رقم (٦) في اواخر القرن السادس عشر قبل الميلاد فوق انقاض المدن السابقة وعلى مقياس أوسع منها • واحيطت بسور عظيم ، فخم من الحجارة ، وشيد قصر الملك على ذروة الهضبة كما في (ميكيني) • ويستدل من تدقيق الاطلال ان طريقة البناء تشبه (ميكيني) و (تيرنس) •

ويظهر من وصف الملك (بريام) في (الالياذة) انه كان يحكم شعبه بطريقة عشائرية ، وقد كان لديه عدد كبير من الزوجات اقترن بهن لزيادة النسل وتقوية رابطة العصبية • أما أولاده فكان كل واحد منهم يقتصر على امرأة واحدة ويعيش بعيدا عن الملذات والملاهي ـ عدا (باريس) الجميل ، المرح الذي لم يكن يتمسك بالقيود الاخلاقية •

وقد كان (الطرواديون) ، حسبما يصفهم لنا خصومهم أنفسهم، ألطف معشرا وأكثر نبلا وأقرب الى الفضيلة من اليونانيين الذين أغاروا عليهم • وكان الكتاب اليونانيون يشعرون بهـذا الفارق ونـرى (اوريبيديس) في جميع رواياته يخص الطرواديين بعطفه •

ولكن من سوء حظ هؤلاء (الدرنيين) انهم وقفوا حجر عثرة في طريق التوسع اليـوناني فكان لابـد من اكتسـاخهم • كان ملوك طروادة يسيطرون على سهل (سكاماندر) • الا أن ازدهار مدينتهم وازدياد ثروتهم وقوتهم لا يرجع الى خصب هذا السهل الصغير ومحصولاته أو الى المعادن الثمينة التي تكثر في جهته الشرقية • واليونانيون لم يهاجموا طروادة طمعا في الاستيلاء على هذا السهل أو حبا في تخليص (هيلين) ، بل لأنهم ادركوا

اهمية موقع المدينة الممتاز التي تشرف على مدخل المضايق • فان جميع السفن التي تقصد البحر الاسود لابد من ان تمر امام طروادة• وهي كثيرا ماتضطر للالتجاء الى الشاطىء بسبب الرياح الشديدة التي تعصف من حين الى آخر• وكان اكثر التجار ينزلون بضائعهم في المدينة ويرسلونها الى البلاد الداخلية في آسية الصغرى • وقد كانت طروادة مركزا لطرق القوافل • والآثار التي وجدت بين اطلال المدينة تثبت بأن تجارتها كانت واسعة جدا • فان هنـاك مصنوعات من (تراقية) ومن حوض (الدانوب) ومن (ميكيني) و (كريد) ومن سورية ومصر ، بل من بلاد بعيـدة في قارة آسـية حتى الصين • ويظهر انه كان يقام في المدينة كل عام سوق عامة يشترك فيها التجار من مختلف البلدان • وكان ملوك طروادة يفرضون المكوس والضرائب على جميع البضائع • ومن هنا جاءت ثروتهم •

تشير الكتابات الحثية الى ازدياد قوة الاخائيين في منتصف القرن الثالث عشر • وهي تذكر بان الملك (توداليا) الرابع (١٢٦٣ - ١٢٢٥) قد اضطر الى محاربتهم مدة طويلة اذ اصبحـوا في هذا العهد تحت قيـادة ملكهـم (آتاريسياس) أي (آتريوس) والد (آغاممنون) خصوما أقوياء يزاحمون الحثيين ، وكانوا يسعون الى التوسع في البحر واستولوا على نصف جزيرة قبرص •

مثل هذه الوثيقة من شأنهـا ان تدعم النظريـة التي تقول باصطـدام اليونانيين في مرحلة توسعهم في بحر ايجة ومحاولتهم الوصل الى البحر الاسود بقوة (طروادة) وحلفائها في آسية الصغرى ، فاجتمعت كلمتهم على تحطيم هذا الحصن المنيع وساروا ، تحت قيادة (آغاممنون) في اكثر من ألف سفينة لازالته من طريقهم •

بسقوط (طروادة) ينتهي عهـد الحضـارة الايجية ويبـدأ تاريخ اليونان •

الفصل الرابع

أصل اليونانيين وهجراتهم واحوالهم في عهد الابطال

١ ـ اصل اليونانيين : ان المحاربين الذين حاصروا (طروادة)كانوا يتكلمون اللغة اليونانية • ورغم انقسام هؤلاء الى قبائل وعشائر عديدة فان (هوميروس) يطلق عليهم جميعا اسم (الآخائيين)• وكان الملك(آغاممنون) زعيم الآخائيين يحكم في مدينة (ميكيني) •ومن المعروف ان سكانهاالاصليين كانوا من (البلاسكيين) (Pelasgi) وربما من بعض الكريديين ، الذين ينتسبون جميعا الى عرق آخر رغم اقتباسهم اللغة اليونانيـة • ونرى اتبـاع (آغاممنون) كثيرا ما يأتي ذكرهم في الالياذة تحت اسم (الآرغويين) بالنسبة الى مقاطعة (آرغوس) التي يسكنونها وليس بالنسبة الى أصلهم وعرقهم • ثم ان (الالياذة) تسمى قسما من المحاربين بالدانايين الذين تروي الاساطير اليونانية بان جدهم (داناووس Danaoos) جاء من مصر وسكن في بلاد (آرغوس)• كذلك نلاحظ بان سكان (طروادة) الذين ينتسبون الى شعوب مختلفة يتكلمون أيضا اليونانية •

نستنتج من كل ذلك ان شبه جزيرة اليونان وشواطىء بحر ايجـة كانت في القرن الثاني عشر قد تغلبت عليها اللغة اليونانية • ولكن جميـع الابحاث عن التكوين الفيزيولوجي للسكان الاصليين وعن أسماء الأمكنـة

وعن اللهجات المختلفة تثبت بأن هذه البلاد لم تكن دوما يونانية • ونرى اليونانيين أنفسهم في أساطيرهم وأخبارهم يميزون بين السكان الأصليين وبين القبائل اليونانية التي جاءت الى هذه البلاد من الشمال واستولت عليها • وقد احتفظ اليونانيون في أساطيرهم بذكرى الحضارات القديمة التي وجدوا آثارها في بلادهم والتي اتصلوا بها واقتبسوا عنها ، اذ نجدهم ينسبون تأسيس مدينة (طيبة) الى (قدموس) الذي يقول بعضهم انه فينيقي ويذهب آخرون الى أنه مصري والذي يحتمل ان يكون كريديا ، كما ينسبون تأسيس (آثينة) الى (سقروبس) الذي يدعي بعضهم انه مصري جاء من (سايس) حوالي سنة (١٥٣٣) •

ليس هناك من سبيل الى ان نعرف بالتأكيد الموطن الاصلي الذي هاجر منه اليونانيون ولا ان نحدد بالضبط الوقت الذي تمت فيه الهجرة • والفرضية السائدة بين العلماء تقتصر على القول بأن اليونانيين من الاقوام الهندية ـ الاوروبية ، وانهم جاؤوا من حوض الدانوب وتسربوا عن طريق البلقان الى شبه جزيرة اليونان والى شواطىء آسية الصغرى وانتشروا في جزر بحر ايجة • وقد تمت هذه الهجرة على موجات متعددة وتعاقبت خلال عصور طويلة منذ سنة (٢٠٠٠) تقريبا حتى سنة (١١٠٠) ق•م•

كانت الموجة الأولى تتألف من قبائل الآخائيين الذين يظهر أنهم سكنوا في بادىء الامر ، في جنوب (تسالية) قبل ان ينتقلوا الى شبه جزيرة (البيلوبونيز) ويستولوا على (كريد) ويستعمروا قسما من جزر بحر ايجة • ثم بعد ذلك تسربت تدريجيا قبائل (الايوليين) و (الايونيين) • وقد اختلطت هذه القبائل جميعها بسكان البلاد الاصليين وفرضت عليهم سيادتها ولغتها بعد ان اقتبست عنهم بعض مظاهر الحضارة • أما الموجة الاخيرة في أواخر القرن الثاني عشر فانها كانت أشد عنفا من الموجات السابقة ، وقد جاءت بقبائل (الدوريين) الذين كانوا لا يزالون في دور

الهمجية ، فخربوا كل شيء في طريقهم ولم يتركوا أثرا لمظاهر الحضارة القليلة التي نشأت في العهد الميكيني • تجاه هذه الموجة اضطر (الآخائيون) و (الائوليون) و (الايونيون) الى تغيير مراكزهم والهجرة الى جزر بحر ايجة وشواطىء آسية الصغرى ، ثم الى مختلف الانحاء في حوض البحر الابيض المتوسط •

ان هذه القبائل تختلف في لهجاتها وفي الكثير من عاداتها ، ولكنها قريبة بعضها من بعض وهي ترجع كلها الى أصل واحد وتجمع بينها لغة واحدة وعادات وعقائد متشابهة • وقد أدركت جميعها .هذه الروابط بعد احتكاكها بالشعوب الاخرى الغريبة عنها في اللغة والعرق والعادات والعقائد، فعرفت أنها أمة واحدة واتخذت لنفسها اسم (الهيللينيين) بينما اطلقت على كافة الاقوام الاخرى اسم (برابرة) أي أعاجم لا يتكلمون اللغة اليونانية• يتجلى هذا الشعور بالوحدة القومية في اسطورة (دوقاليون Deucalion فهي تقول ان رئيس الآلهة (زفس) غضب على (بروميتيوس) لأنه علّم البشر استخدام النار فحكم عليه بأن يربط الى صخرة في جبال القفقاس ، حيث يأتي اليه نسر عظيم يفترس كبده كل يوم الى الأبد • كذلك نقم الاله على البشر فأرسل اليهم الطوفان الذي قضى عليهم جميعا عدا (دوقاليون) ابن (بروميتيئوس) ، فقد نجا مع زوجته (بيرها Pyrha) في سفينة رست بهما على جبل (بارناسسوس) • ولما انحسرت المياه قام (دوقاليون) باتمام رسالة والده في اعمار الارض •

واليونانيون ينتسبون الى (هيللين Hellen) ابن (دوقاليون) • ثم كان لهيللين ولدان هما (دوروس) و (أئولوس) وحفيدان هما (ايون Yon) و (آخيئوس Acheus) ومن هؤلاء تنحدر القبائل اليونانية الأربع وهي : (الدوريون) و (الايوليون) و (الايونيون) و (الآخائيون) •

وقد اعتاد المؤرخون القدماء في سبيل تعليل وحدة العرق واللغة عند

الامم ، ان ينسبوا كل شعب وجميع القبائل التي يتألف منها الى جد معين والى أولاده وأحفاده • فكانوا يقبلون الاساطير المتعلقة بذلك كأنها حقائق تاريخية • ونحن انما نهتم بهذه الاساطير لما لها من قيمة أدبية أولا ، ثم لما تتضمنه من عقائد وتصورات كانت سائدة في المجتمعات البشرية يمكن ان تساعدنا على معرفة بعض الحوادث التاريخية •

٢ • ـ الآخائيـون :

يطلق (هوميروس) اسم (الآخائيين) على جميع اليونانيين الذين اشتركوا في حرب (طروادة) مما يدل على ان هؤلاء كانوا في ذلك الوقت أقوى القبائل اليونانية • وقد رأينا أنهم كانوا يسكنون في شبه جزيرة (البيلوبونيز) وان رئيسهم (آغاممنون) كان يحكم في (ميكيني) وان أخاه (مينيلااووس) كان ملك (اسبارطة) • وكانت المقاطعة الشمالية من شبه جزيرة (البيلوبونيز) تسمى (آخايا) نسبة اليهم ، عدا ان هناك مقاطعة أخرى صغيرة تحمل هذا الاسم نفسه في جنوب (تساليا) مما يدل على أنهم كانوا قبلا يسكنون هناك • ونرى مؤرخي اليونان وشعراءهم يقولون عن الآخائيين بأنهم مثل (البلاسكيين) من سكان البلاد الأصليين الذين مازالوا يعيشون فيها منذ أقدم العصور • والكتابات الحثية بعد سنة (١٣٢٥) تذكرهم باسم (آخياوا) وتشير الى أنهم يضاهون الحثيين في قوتهم • وفي كتابة مصرية من سنة (١٢٢٣) يأتي ذكرهم تحت اسم (آقايوشا) بين (شعوب البحر) التي كانت تشترك مع الليبيين في الغارة على مصر وتصفهم هذه الكتابة بأنهم « عصابات من الهمج يحاربون لاملاء بطونهم » •

وقد ذهب (شليمان) الى ان الحضارة الميكينية التي كشفت عنها الحفريات في (ميكيني) و (تيرنس) ينطبق عليها وصف (هوميروس) لحضارة الآخائيين وظل العلماء يتبعون (شليمان) في هذا الرأي حتى سنة (١٩٠١) اذ قام المؤرخ الانكليزي السير (ويليام ريجواي W. Ridgeway

يعارض ذلك ويأتي بنظرية جديدة تقول بأن حضارة (الآخائيين) وان كانت تشبه الحضارة الميكينية من جميع الوجوه ، الا أنها تختلف عنها في أمور جوهرية يلخصها فيما يلي :

١) ان الحديد لم يكن معروفا لدى الميكينيين بينما كان الآخائيون يستعملونه •

٢) ان الآخائيين كانوا يحرقون الموتى كما يذكر (هوميروس) ،ولكن التنقيبات في (ميكيني) و (تيرنس) قد كشفت لنا عن القبور التي كان السكان يدفنون فيها موتاهم •

٣) ان آلهة الآخائيين هي الآلهة الاولمبية التي لانجد لها أثرا لدى (الميكينيين) •

٤) كان الآخائيون يستعملون سيوفا طويلة ودروعا مستديرة ، في حين أننا لم نعثر بين آثار الميكينيين على أسلحة مثل هذه •

٥) هناك اختلافات كثيرة في اللباس والمظاهر الخارجية بين الآخائيين والميكينيين •

بالاستناد الى كل ذلك ادعى (ريجواي) ان الميكينين هم من السكان الاصليين الذين كان اليونانيون يسمونهم البلاسكيين والذين كانوا يتكلمون اللغة اليونانية في حين ان الآخائيين كانوا من (السلت) أو الاوروبيين الشقر الذين بدأووا منذ سنة (٢٠٠٠) يتسربون الى بلاد اليونان عن طريق (تساليا) و (ابيروس) ، والذين جاؤوا بعبادة (زفس) واكتسحوا شبه جزيرة (البيلوبونيز) حوالي سنة (١٤٠٠) ثم تعلموا اللغة اليونانية واقتبسوا كثيرا من عادات اليونانيين وأصبحوا طبقة اقطاعية تحكم السكان الاصليين •

على الرغم مما يظهر على هذه النظرية من الوجاهة فانها تحتاج الى

تحوير من أساسها حتى يمكن قبولهـا • انه ليس بين الاخبـار التي كان يتناقلها اليونانيون ما يشير الى ان الاخائيين شعب غريب أغار على بلاداليونان• وما يذكره (ريجواي) من ازدياد تدريجي في استعمال الحديد وامتداد في طول السيوف واستدارة في شكل الدروع وتبدل في الازياء وتغيير في معاملة الاموات ـ كل ذلك لايكفي لافتراض غارة أجنبية • وأقرب الى الصحة ان نعتبر الآخائيين من القبائل اليونانية كما فعل الكتاب القدماء ونقول بأنهم ، بعد ان تكاثروا في (تساليا) انتشروا في شبه جزيرة (البيلوبونيز) أثنـاء القرنين الرابع عشر والثالث عشر واختلطوا بالبلاسكيين الميكينيين واصبحوا حوالي سنة (١٢٥٠) الطبقة الحاكمة في هـذه البلاد وهم الذين فرضـوا اللغة اليونانية على السكان الاصليين عوضا عن اقتباسها من هؤلاء كمـا يدعي (ريجواي) ، وكذلك بدأت تتغلب آلهتهم الجبلية ـ السماوية على الآلهة الأرضية عند السكان القـدماء • وليس هناك اختـلاف كبير بين الحضـارة الميكينية في آخر ادوارها وبين حضارة الآخائيين التي يصفها (هوميروس) ، لأن التمازج بينهما كان قد تم وبدأت الحضارة الميكينية تنقرض بسبب تكاثر القبائل اليونانية وازدياد نفوذها •••

٣ • ـ حضارة الآخائيين :

بالاسـتناد الى أشـعار (هوميروس) في (الالياذة) و (الاوديسه) نستطيع ان نستخلص الصور التالية عن حالة اليونانيين الآخائيين في الدور الذي يسمونه « عهد الأبطال » أي بين (١٣٠٠ ـ ١١٠٠) ق•م •

كانت قبائل الاخائيين في هذا العهد أقل حضارة من الميكينيين ولكن أقرب الى الحضارة من (الدوريين) الذين اكتسحوا البلاد في آخر هذا العهد •

يمتاز الآخائيون بطول القامات وقوة العضلات • وهم يرسلون شعر رؤوسهم وذقونهم وكانت أثمن هدية يقدمها أحدهم الى عزيز ميت هي أن

يقص شعره ويضعه في النار التي تحرق فيها الجثة • وقد اشتهرت نساؤهم بالجمال والجاذبية وكن يكثرن من الحلي ويتطيبن بالزيوت المعطرة • وكان الرجال والنساء على السواء يسترون الجسم برداء مستطيل يطوى على الاكتاف ويربط « بشكالة » ويكاد لا يبلغ الركبتين • وربما يضيف النساء على ذلك نقابا أو خمارا • وكانوا جميعا حفاة داخل البيوت ويلبسون الخفاف في الطرقات •

كان الآخائيون يشتغلون بالفلاحة فيحرثون الارض ويسقون الحقول ويبذرون الحنطة • وقد كانت أعمال الزراعة شاقة لأن أكثر الاراضي اما جبلية أو مستنقعات • وكان للاغنياء قطعان كبيرة من البقر والماعز والغنم والخنازير • ويكتفي الفقراء بأكل السمك والحبوب • وكانت القرى معرضة دوما لهجمات الحيوانات المفترسة ولذلك كان الاشتغال بالصيد ضرورة عملية قبل ان يصبح ألهية رياضية •••

ان الارض كانت ملكا للعشيرة أو الاسرة وليس للأفراد•وكان رئيس الاسرة انما يشرف على ادارتها ولكنه لايستطيع بيعها • ويأتي فيالالياذة ذكر أراض واسعة تسمى « عامة » يتصرف بها الملك • الا انها في الحقيقة ملك مشترك للجماعة يحق لكل فرد ان يرعى فيها ماشيته • ثم تذكر لنا (الاوديسة) أن هذه الاراضي المشاعة قد قسمت فيما بعد وبيعت الى الأغنياء أو بالاحرى اغتصبت واستملكت من قبل الاقوياء وأصحاب النفوذ • لم يكن الآخائيون يستخرجون المعادن من الارض ، بل يستوردون ما يلزمهم من النحاس والقصدير والفضة والذهب من البلاد الاخرى • وكان الحديد من المواد النادرة الثمينة وكانت الاسلحة كلها مازالت تصنع من البرونز •

يتحدث (هوميروس) عن البنائين والسراجين والنجارين الذين يشتغلون في بيوت من يطلب منهم ذلك • فلم يكن هؤلاء يعملون لبيع مصنوعاتهم في السوق وذلك لأن افراد كل اسرة كانوا في الغالب يضنعون

ما يحتاجون اليه بأنفسهم • ونرى حتى الملك (اوديسيوس) يقوم بصنع الفرش والكراسي لبيته ويفاخر بمهارته في الاعمال اليدوية ـ بخلاف اليونانيين في العصور التالية • كذلك نرى ملكات واميرات مثل (بنيلوبه Penelope) زوجة (اوديسيوس) و (هيلين) و (اندروماخي)يشتركن مع خادماتهن في الغزل والنسج والتطريز وفي أعمال المنزل •

ان الصناع في هذا العهد كانوا احرارا على العكس من العصور التالية• ولم يكن الفلاحون اقنانا مرتبطين بالارض وان كان الملك يستطيع عند الحاجة تسخيرهم للعمل في أرضه مدة من الزمن • وبالاجمال فقد كان الارقاء قلائل كما انهم في المعتاد كانوا يعاملون بالحسنى ويعتبرون من افراد الاسرة ويعتنى بهم في حالة المرض والشيخوخة • وكان كل شخص يمكن ان يصبح رقيقا اذا وقع أسيرا في الحرب أو في غارات القراصنة •

كان المجتمع اليوناني في عهد الآخائيين ريفيا ، محليا • والمدن القليلة التي يرد ذكرها لم تكن في الحقيقة سوى مجموعة قرى تتحد برئاسة ملك أو أمير حول قصر حصين • وكان الاتصال بين المدن والقرى المختلفة صعبا ومحفوفا بالاخطار لفقدان الطرق في الجبال الوعرة ولكثرة المستنقعات والوديان • فكانت البضائع تنقل على ظهور البغال أو الرجال وكان التجار يفضلون طريق البحر رغم القرصان والزوابع • على ان اليونانيين كانوا لا يزالون متأخرين في الملاحة والتجارة بالنسبة الى الفنيقيين الذين بدأوا في هذا العهد يسيطرون على البحر الابيض المتوسط• ولذلك كان اليونانيون اذ ذاك يفضلون القرصنة على التجارة البحرية •

لا نجد عند (هوميروس) ذكرا للنقود • فكان الآخائيون يعتبرون البقر وحدة قياسية للتبادل ويستخدمون سبائك الحديد أو البرونز أو الذهب كبضاعة • على أنهم بدأوا يصنعون سبيكة الذهب بمقياس معين حتى تزن (٥٧) رطلا وأطلقوا عليها اسم (تالانتون Talanton) أي الوزنة • ومن

هنا نشأ فيما بعد الواحد القياسي للمبالغ الكبيرة من المال • وكانت الثـروة لاتقاس بكمية المعادن ، بل بقطعان الماشية وعدد رؤوسها •

عندما نقرأ (الالياذة) نشعر بأن المجتمع اليوناني في عهد الابطال كان في حالة ابتدائية أكثر مما في (ميكيني) وأبعد عن النظام والقانون والقيود الاخلاقية مما في (كريد) • فان الآخائيين قد رجعوا بالحضارة خطوات الى الوراء بالنسبة الى ما كانت بلغته في بلاد بحر ايجة • وتبدو لنا حياتهم ، كما تصفها الالياذة ، فقيرة في الفنون ، بعيدة عن القيم الفكرية ، مقتصرة على العمل أو الانصراف الى الحروب والغارات • انها حياة فتوة وقوة لا تترك مجالا للبحث في آداب السلوك والقواعد الاخلاقية أو المشاكل الفلسفية • لاشك في أن هناك في الالياذة مواقف تدل على عواطف رقيقة ومشاعر نبيلة وفضائل انسانية • فاننا نرى حتى المحاربين الاشداء يتصفون بالكرم والشهامة • وهناك بين أفراد الاسرة حب عميق متبادل وان كان صامتا في الغالب • وكان (آغاممنون) نفسه كثيرا ما تنهمر دموعه في المواقف المؤثرة • ويعتبر اكرام الضيف من الواجبات المقدسة ، لان الغريب والسائل في ذمة الاله (زفس)، كما يقول (هوميروس) • عندما يدخل الضيف بيتا تسرع الفتيات الى غسل رجليه وتعطيه الدهون ورداء نظيفا وتقدم له الطعام والشراب ثم يخصص له مكان ينام فيه ولا يسمح له بالانصراف الا بعد ان تقـدم له هديـــة ••• وللمبارزة والالعاب قواعد يتمسكون بها • ولكن من جهة ثانية نجد لدى الآخائيين كثيرا من القسوة والعادات الوحشية • في حفلات حرق الموتى كانوا يقدمون ضحايا ليس من الحيوانات فحسب ، بل من البشر أيضا • ولما قتل (آخيللس) خصمه (هكتور) أحسن معاملة والده (بريام) ولكنه لم يرض بحرق جثة البطل الا بعد ان ربطها بذيل فرسه وذار بها عده مرات حول النار • وبوجه عام فان الحياة البشرية كانت رخيصة في نظر الآخائيين ، ولم يكن شيء أسهل عليهم من قتل النفس • وكانوا اذا فتحوا مدينة يقتلون

رجالها أو يبيعونهم كارقاء ويسبون النساء ويتخذوهن محظيات اذا كن جميلات أو خادمات مستعبدات اذا لم يكن عندهن شيء من الجمال • وكانت القرصنة تعتبر مهنة محترمة ، فنرى الملوك أنفسهم يهيئون الغارات لنهب المدن والقرى وسلب السفن • ويقول (توكيد يديس) : «ان القرصنة والسلب والنهب كانت الوسيلة الأساسية للمعيشةعند الهيللينيينالقدماء الذين لم يكونوا بعد ليجدوا في مثل هذه الاعمال ما يدعو الى الاستنكار » ، بل على العكس كان ذلك من دواعي الفخر وأسباب المجد ـ كما في العصر الحاضر اذ تقوم الدول القوية باستعباد الشعوب المستضعفة وتستولي على خيراتبلادها دون ان تخجل أو تعترف بارتكاب الظلم • ولما سئل (اوديسيوس) : هل هو تاجر ؟ اعتبر ذلك تحقيرا له ، ولكنه كان يروي مفتخرا بأنه في طريق عودته من طروادة ، عندما نقصت لديه المؤن، قد اغار علىمدينة (ايزماروس) وشحن سفنه بالارزاق ثم نزل عند نهر (أجيتوس) ونهب الحقول الغنية وقتل الرجال وسبى النساء والاطفال الصغار • عدا هذا الميل الى النهب والقتل كان الآخائيون يتصفون بالكذبوتكاد لاتجد بين اقوال (اوديسيوس) كلمة واحدة تتضمن الصدق • وهو في جميع اعماله يميل الى الخيانة والغدر ، فنراه عندما قبض هو و (ديوميدس) على الكشاف الطروادي (دولون) قطعا له وعدا بالامان على حياته اذا اعطاهما الاخبار التي يطلبانها ، فلما فعل ذلك اقدما على قتله • اننا ربما لا نصادف اشخاصا كثيرين بين الآخائيين يمكن مقارنتهم مع (اوديسيوس) في الاعمال غير الشريفة والصفات الذميمة ولكن ذلك ليس لأنهم يترفعون عن مثل هذه الصفات والافعال فهم كانوا دوما يظهرون اعجابهم به وينظرون اليه كمثل أعلى يجب الاقتداء به • ان (هوميروس) يصفه لنا كبطل ويقول ان الالاهة (آثينة) كانت تثني على مهارته في الكذب وتعتبر هذه الصفة من المزايا التي تدفعها الى حبه •

اذا رأينا الآخائيين يختلفون في احكامهم الاخلاقية عنالمفاهيم الحاضرة

فان السبب في ذلك يرجع الى انهم كانوا يعيشون في عالم يسـوده الجوع والخوف والاضطراب ولا بد لكل فرد فيه من ان يكون حارسا على نفسه ومتأهبا بقوسه وحربته لمقابلة خصومه وان يتحمل النظر بهدوء الى الدماء المسفوكة . ان الانسان الفاضل الطيب ، حسب رأي الآخائيين ، ليس هو العامل المجتهد ، الصبور ، الأمين ، النزيه ، اللطيف بل المحارب الشجاع الماهر . والانسان الشرير ، الفاسد ليس ذلك الذي يكثر من الشرب ويكذب ويقتل ويخون ، ولكنه الابله الجبان ، الضعيف .

يقوم المجتمع عند الآخائيين على اساس السلطة الابوية المطلقة . فان رئيس الاسرة يستطيع ان يتخذ لنفسه من الجواري بقدر ما يشتهي ويتصرف بأولاده حسبما يشاء فيحكم عليهم بالموت أو يقدمهم ضحايا للآلهة . على ان الآخائيين لم يكونوا من القساوة في درجة تجعل الاباء يسيئون في كل وقت هذه السلطة التي كانت ضرورية لحفظ نظام المجتمع بسبب فقـدان سلطة حكومية تتولى ذلك . وقد كان الآخائيون ايضا يشعرون بالعاطفة الأبوية ويحبون أولادهم . كذلك لم تكن المرأة دوما ألعوبة في يد الرجل ، بل كثيرا ما تسيطر على زوجها بجمالها ودهائها . ويمكن القول ان حالة المرأة في عهد الابطال كانت أحسن مما صارت اليه في عهد (بريكلس) . فقـد كانت في القديم تلعب دورا خطرا في الحياة العامة . ولم يكن فصل القسم الخاص بالحريم عن قسم الرجال في البيوت ليمنعها من حريـة التجـول والاشتراك في المناقشات الهامة . ثم ألم يستخدم زعماء الآخائيين خطف (هيلين) كوسيلة لاثارة الحماسة في حرب طروادة ؟. ان أكثر حوادث (الالياذة) كان محورها النساء ولم يكن الابطال يعيشون ويحاربون ويموتون الا في سبيل المرأة التي كانت تعلمهم الشهامة وتثير فيهم العاطفة وتوحي اليهم بالمثل العليا .

كان الزواج يتم مقابل مهر يحدد عادة بعدد من البقر يدفعه الخطيب

الى والد الفتاة • ونرى الشاعر يتغنى بالفتيات « اللواتي يجلبن لوالدهن القطعان • » على أن الولد أيضا يقدم مع ابنته شيئا من المال • وتتضمن حفلة الزواج مراسيم دينية ومآدب لافراد الاسرة مع كثير من الطعام والغناء والرقص والالعاب واحاديث اللهو ـ كما هي الحال حتى اليوم في كل المجتمعات • والزوجة هي سيدة البيت وتزداد مكانتها بنسبة عدد أولادها • والحب بالمعنى الصحيح كعاطفة رقيقة ، عميقة متبادلة كان يتولد لدى اليونانيين بعد الزواج لا قبله • فهو ليس لهيبا مؤقتا ، بل ثمرة المعاشرة الطويلة والمشاركة في الافراح والاتراح • ونرى المرأة في عهد الآخائيين مخلصة لزوجها بعكس الرجل •• لم تكن وظيفة النساء تقتصر على الأمومة، بل انهن يقمن بكثير من الاعمال الزراعية والبيتية كطحن القمح وجز الصوف وغزله ونسجه • أما الطبخ فكان يقوم به الرجال • وخلال هذه الاعمال كانت تلد النساء وتتولى تربية الاطفال التي تقتصر على تعليمهم عادات العشيرة وتقاليدها وآدابها وتهيئة البنات للاعمال المنزلية بينما كان الصبيان يتدربون على الصيد واستعمال الاسلحة للحرب ويتعلمون السباحة والحراثة وترويض الحيوانات • ومتى تزوج الفتى يأتي بعروسته الى بيت أبيه ويعيش ضمن الإسرة التي هي أساس المجتمع •

لم يكن الآخائيون يتعلمون القراءة والكتابة • انهم كانوا يفضلون منظر الدم على الحبر • ولا يشير (هوميروس) الى الكتابة الا مرة واحدة وذلك عندما يتكلم على الرسالة التي حملها (بيللروفون) من (آرغوس) الى (ليكيا) والتي يقول بأنها « لوحة عليها اشارات تتضمن في طياتها الموت»• وهو يشير بذلك الى انها كانت تطلب من المرسل أليه قتل حاملها • على انه ليس من الضروري ان تكون هذه الاشارات كتابة بالمرة ، بل ربما كانت رمزا خاصا • ان الحروب والغارات كانت تشغل اكثر أوقات الآخائيين ولا تسمح لهم بالانصراف الى الفن والأدب • وفي أيام السلم النادرة كان الملوك والامراء يجمعون على موائدهم المغنين والشعراء المتجولين الذين

ينشدون قصائد يمجدون فيها أعمال البطولـة • ويقول (هوميروس) عن هؤلاء الشعراء والمغنين بأن آلهة الفن تحبهم أكثر من سائر البشر ولذلك خصتهم بأكبر نصيب من النعمة والنقمة في وقت واحد فهي قد حرمتهم من البصر ولكنها منحتهم موهبة الغناء الشجي • وهنا لابـد من التسـاؤل : ألم يقصد (هوميروس) بذلك التلميح الى شخصه ؟•

لايذكر (هوميروس) شيئا عن الرسم أو النحت ، وانما يقتصر على التنويه بصناعة سكب المعادن في اشكال تصويرية ويسهب في وصف النقوش على درع (آخيلليس) الذي يقول بأنه كان مصنوعا من البرونز على هيئـة دائرة ومرصعا بالفضة والذهب وقد قسم وجهه الى ثلاث دوائر الواحدة داخل الاخرى • وقد نقشت في الدائرة المركزية صورة البحر والارض والسماء والقمر والشمس والنجوم ، وفي الدائرة الثانية مشاهد من حياة السلم مثل حفلة زواج وصورة وفي الثالثة مناظر من حياة الريف كاعمال الحراثة والحصاد وقطف العنب وما يرافق ذلك من رقص وعزف ثم صورة أكواخ الرعاة في الجبال وكيف يتعقب الرعاة مع كلابهم أسـدين افترسـا ثورا • وأخيرا يحيط بكل ذلك صورة الاوقيانوس ••

والطريقة التي نقشت بها هذه المناظر لا تدل على مهارة فنية أو مقدرة ابداعية • الا ان هذا النقص ينطبق ايضا على طريقة الرسم التي كانت شائعة لدى (الميكينيين) والتي كشفت الحفريات عن نماذج كثيرة منها • وكذلك قصور الملوك والامراء الاخائيين ، كما يصفها هوميروس ، هي نفسها التي عثر المنقبون على اطلالها في (ميكيني) و (تيرنس) و (طروادة) • وليس هناك ذكر لأبنية المعابد • أما البيوت العادية فانها بسيطة ، حقيرة مبنية من اللبن المجفف في الشمس وتسقف بالقصب والطين وليس هنـاك شبابيك ولا مطبخ ولا مدخنة وانما يترك ثقب في سقف القاعة المركزية يخرج منه دخان النار المقدسة التي يشعلونها دوما في القاعة ويجلسون حولها في المساء• واثاث البيت مصنوع بصورة بدائية من الخشب الثقيل •••

ان نظام الحكم يقوم على سيطرة القبيلة ويقصدبها مجموعةمن الافراد ينتسبون الى جد واحد ويخضعون لرئيس مشترك • وهذا الرئيس يقيم في قلعة حصينة تجتمع حولها القرى ومن اتساع هذه القرى واتصالها بعضها ببعض نشأت فيما بعد المدن • وكان رئيس القبيلة عندما يريد القيام بعمل هام مشترك يدعو الاشخاص البارزين المتقدمين في السن من رؤساءمختلف الاسرات ويتشاور معهم في الامر ثم يجمع كل الرجال الاحرار في القبيلة في مجلس شعبي عام ويعرض عليهم مقترحات مجلس الشورى فاما أن يقروها أو يرفضوها دون أن يكون لهم الحق في مناقشتها وتغييرها •

واذا اتفق عدد من هذه القبائل على الاشتراك في العمل فان رؤساءهم يتبعون من كان اكثرهم قوة وسطوة فيصبح ملكا ويحيط نفسه بأبرز رؤساء القبائل واقربهم اليه فيسمون « رفاق الملك » •

ان سلطة الملك محدودة من جهة وواسعة جدا من جهة ثانية • فهو لا يسيطر الا على مقاطعة صغيرة من البلاد ويمكن تبديله باتفاق مجلس الشورى أو اذا تفوق عليه أحد الرؤساء الاخرين بالقوة • وعندما يحافظ الملك على مكانته ينتقل الحكم بالوراثة الى أكبر أولاده على شرط ان يكون هذا الولد كفؤا • وفيما عدا ذلك فان سلطة الملك لا حدود لها • فهو القائد العسكري في الحرب وعليه ان يهتم بأسلحة الجنود ومؤونتهم وتدريبهم • وبالاستناد الى الجيش يقوم الملك بجميع السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية • وتعتبر أوامره جميعا قوانين نافذة • على ان اكثر المسائل كان يرجع فيها الى العرف والعادة •

وكانت حوادث القتل تؤدي في الغالب الى قيام أسرة القتيل بأخذ الثأر•

ثم ان الملك هو الرئيس الديني الاعلى ونراه يرجع نسبه الى الالهة ويقوم تجاه الشعب بمهمة الحماية الالهية •

لا يجمع الملك ضرائب من الشعب وانما يأخذ حصة كبيرة من الغنائم

الحربية ، ويقدم له افراد الشعب الهدايا من حين الى آخر، كما انه يتصرف بالارض المشاعة ويستثمرها لنفسه ...

تلك هي صورة المجتمع عند الآخائيين في عهد الابطال .

٤ . ـ غارة (الدوريين) :

تدل التنقيبات الاثرية على ان مظاهر الحضارة (الميكينية) في بلاد اليونان وعلى الاخص في شبه جزيرة (البيلوبونيز) قد زالت فجأة حوالي سنة ١١٠٠ ق‌م ، فاذا بالاماكن التي كانت تنعم بحياة حضرية والقصور التي كانت تتمتع بشيء من الترف والعظمة قد انقلبت الى اطلال حزينة يحيط بها الفقر والبؤس . ولا نحتاج الى كثير من البحث لنعرف ان غارة خارجية قد اجتاحت البلاد كما حدث قبل ذلك في (كريد) .

واذا رجعنا الى الكتاب اليونانيين نراهم يتكلمون عن حادث مهم كانت نتيجته انهيار (الآخائيين) الذين انتهت سيطرتهم على شبه جزيرة (البيلوبونيز) وتشتتوا في جزر بحر ايجه وشواطىء آسية الصغرى ولم يعد لهم ذكر في مجرى التاريخ اليوناني بعد القرن الثاني عشر .

نقصد بذلك الحادث الهام ما يسمونه « عودة الهيراقليين » . وأكثر الكتاب اليونانين كانوا يرجعون تاريخ هذا الحادث الى ثمانين سنة بعد حرب طروادة أي الى سنة (١١٠٤) بينما كان بعضهم يؤخر هذا التاريخ مدة عشرين أو ثلاثين سنة .

يروي اليونانيون قصة « عودة الهيراقليين » حسب عادتهم في قالب اساطيري يحسن بنا تلخيصها فما يلي لما لهذه الروايات الاساطيرية من الاهمية في الادب اليوناني ولما تتضمنه احيانا من الحقائق التاريخية : كان لاحد أشراف (طيبه) الذي يدعي (امفيتريون Amphitryon) زوجة في غاية الجمال والجاذبية اسمها (القميني Alcmene) ولدت ، بينما كان

زوجها في الحرب ، صبيا قبل ان والده الحقيقي هو الاله (زفس) • وقد اثار ذلك غيرة الالاهة (هيرا) التي لم تكن لتروق لها مثل هذه الزلات من زوجها الاله فأرسلت حيتين لقتل الصبي في مهده • ولكنه قبض على رأس كل واحدة منهما باحدى يديه وخنقهما فأطلق عليه اسم (هيراقلس Heracles) لانه اكتسب المجد عن طريق الالاهة (هيرا) •

وعندما عهد الى الموسيقار (لينوس) بتعليم الصبي العزف والغناء لم يعجبه ذلك فذبح استاذه بأوتار (الكنارة) • ولما شب وأصبح عملاقا جبارا عهد اليه ملك (تسالية) بقتل اسد كان يعبث فسادا في أرض بلاده ويفترس قطعانه وعرض عليه مقابل ذلك أن يزوجه احدى بناته• على ان (هيراقلس)، بعد ان قتل الاسد واتخذ جلده رداء ، تزوج بنت ملك (طيبة) واراد ان يعيش حياة هدوء واستقرار • ولكن الالاهة (هيرا) التي كانت لاتزال حاقدة عليه ، اصابته بعد مدة بالجنون فأقدم ، رغم ارادته ، على قتل أولاده بيده • وذهب على أثر ذلك الى معبد (دلفي) يطلب الهداية فأشار عليه العرافون بأن يسكن في (تيرنس) ويخدم ملكها مدة (١٢) عاما وقالوا له بأنه سوف يصبح بعد ذلك من الالهة الخالدين • فاتبع (هيراقلس) هذه المشورة وقام بالاعمال التي طلبها منه الملك مثل قتل أسد والقضاء على أفعى ذات سبعة رؤوس ووضع صخرتين متقابلتين عند مدخل البحر الابيض المتوسط عرفتا بعد ذلك باسم (عمودي هرقولس) وعند انتهاء المدة المحددة رجع (هيراقلس) الى (طيبة).وقام بكثير من الاعمال العظيمة فساعد الالهة في الحرب ضد العمالقة وحرر (بروميثيوس) واشترك في الهجوم على (طروادة) ونهبها قبل مدة من حادثة حصارها وتخريبها وكان من حين الى آخر يقتل بعض اصدقائه دون أي تعمد •

وبعد أن مات (هيراقلس) صار يعبد كبطل واله • وبما انه اشتهر بعلاقاته مع عدد كبير من النساء فقد أخذت قبائل واسر كثيرة تنتسب اليه •

سكن أولاد (هيراقلس) في احدى مقاطعات (تسالية) ولكن ملكها خاف من نقمتهم عليه لمواقفه من والدهم فطردهم ، فالتجأووا الى (آثينة) التي هاجمهم ملكها ولكنهم هزموا جيشه وقتلوه • ولما سار ملك الاخائيين (آتريوس) لمحاربتهم عرض (هيللوس) وهو احد أولاد (هيراقلس) ان يبارز الشخص الذي يختاره الملك فاذا انتصر عليــه يعطي الهيراقليون عرش (ميكيني) واذا فشل فان (الهيراقليين) يتعهدون بالخروج من البلاد وعدم العودة اليها قبل مرور خمسين عاما يتوالون بعدها الملك في (ميكيني)• وقد خسر (هيللوس) المبارزة وسار اتباعه الى المنفى • ولما انقضت مدة الخمسين سنة جاء احفاد (هيراقلس) يطالبـــون بحقهم واضطـــروا الى استخدام العنف تجاه الــذين أرادوا منعهم من الرجوع الى شــبه جزيرة (البيلوبونيز) •••

ان المؤرخين الحديثين لايعترفون بحادثة تسمى « عودة الهيراقليين » ويعتبرون روايات اليونانيين عنها من الاساطير الخيالية التي لا تمت الى الحقيقة بصلة • ويذهب بعضهم الى ان الطبقات الحاكمة في شبه جزيرة (البيلوبونيز) قد اخترعت هذه الاسطورة لتبرير سلطتهاواسنادها الى الحق الالهي • ولكن أليس من المبالغة أن نفترض لدى الونانيين مثل هذا الخبث السياسي وهم ما زالوا في مبدأ تاريخهم ؟

يقول المؤرخون الحديثون ان زوال الحضارة الميكينية وسقوط الآخائيين كانا من نتائج « غارة الدوريين » • ذلك انه في القرن الثاني عشـــر أي في الوقت الذي انهارت فيه قصور (مكيني) و (تيرنس) و (وافيو Vaphio) قد اكتسحت بلاد اليونان موجة من قبــائل الدوريـــين الذين تدفقــوا من (مكدونية) و (ايلليرية) وتقدموا حتى دخلوا شبه جزيرة (البيلوبونيز)• على أنه ليس من المستبعد ان يكون لقصة الهيراقليين نصيب من الصحة ، اذ من الممكن ان يكون أولاد (هيراقلس) قد التجأووا الى قبائل الدوريين في

شمالي (تسالية) ثم حرضوهم على مهاجمة الآخائيين وتولوا بأنفسهم قيادة المحاربين وارشادهم الى المراكز التي تسيطر على البلاد • فان سير الحوادث يشير الى ان الغارة لم تقتصر على انتقال قبائل بدائية ضاقت بها أرضها الى أمكنة جديدة صالحة تستقر بها ، بل كانت تستهدف قبل كل شيء القضاء على الآخائيين • ومهما كانت أسباب الغارة وبواعثها فقد كانت لهـا نتـائج خطيرة جدا في تاريخ اليونان • ولذلك يجب التعرض الى هذا الموضوع •

يجدر بنا في بادىء الامر ، ان نلخص ما يرويه المؤرخون اليونانيون عن حالة الآخائيين في القرن الثاني عشر • تدل جميع الاخبار على ان انتصار الآخائيين في (طروادة) كان ضربة قاضية لهم • وفي الحقيقة فان استمرار الحرب مدة عشر سنوات كان من شأنه ان ينهك قواهم ويضعف شوكتهم • ويذكر لنا الرواة كيف غرقت سفن كثيرة كانت تحمل الظافرين الى وطنهم، وكيف مات الكثيرون منهم في الطريق أوالتجأووالى الجزر واستقروا فيها ، ثم كيف ان (كليتمنسترا Clytemnestra) زوجة الملك (آغاممنون) اقترنت في غيابه بابن عمه (أجيستوس) وجعلته ملكا واتفقت معه على قتل زوجها ساعة وصوله الى القصر ، وكيف ان (اوريستيس) ، بتحريض من اخته (الكترا) ، انتقم لوالدهما بقتل والدتهما مع صاحبها • ولما توصل (اوريستيس) الى عرش والده كان أشبه بالمجنون ولم يكن الى جانبه أحد من رؤساء القبائل المحنكين ليساعده لان أكثرهم قد قتل فيحصارة (طروادة) فاختلت لذلك ادارة الحكومة واخذت دولة الآخائيين في الانهيار • وعـلى الرغم من أن اكثر هذه الاخبار لايخرج عن زمرة الاساطير ، فانها ترمز الى حالة الاضطراب والفوضى التي صـارت اليها دولـة الآخائيين بعد حرب (طروادة) ، وبذلك فهي تساعدنا على تصور الظروف التي شجعت القبائل الدورية على مهاجمة البلاد • واختلاف الكتاب اليونانيين في تحديد عودة الهيراقليين يدل على ان الغارة لم تحدث دفعة واحدة ، بل على موجات متتالية استمرت مدة من الزمن •

على كل حال فقد طغت على بلاد اليونان حوالي سنة (١١٠٤) موجة من قبائل الدوريين الذين اخذوا يخربون كل شيء في طريقهم فلم يتركوا أي أثر للحضارة في مقاطعتي (تسالية) و (ايولية) اللتين لم تنتعشا بعد هذه الغارة الجارفة وظلتا متأخرتين عن بقية المقاطعات حتى في عهد ازدهار الحضارة اليونانية • ثم تقدم الدوريون الى شبه جزيرة (البيلوبونيز)فدخل بعضهم عن طريق البر من مقاطعة (ميغارا) في الشرق والبعض الآخر عن طريق البحر من مقاطعة (أليس) واخذوا يهاجمون الامارات الصغيرة ، المتعددة المنعزلة بعضها عن بعض • كان هؤلاء (الدوريون) طوال القامات ، ذوي جماجم مستديرة ، يتكلمون لهجة من لهجات اللغة اليونانية • وكانوا من المحاربين الشجعان الاشداء ، لأنهم مازالوا في طور البداوة يعيشون من الصيد ورعي الحيوانات وقلما يشتغلون بالفلاحة • وكانوا يستعملون أسلحة من الحديد فاستطاعوا ان يتغلبوا بسهولة على الآخائيين والميكينيين الذين كانت أسلحتهم ما زالت تصنع من البرونز • وقد خربوا المدن وحرقوا القصور وقضوا على كل آثار الحضارة الميكينية في شبه جزيرة (البيلوبونيز) بعد أن قتلوا كل من وقع في ايديهم من الآخائيين وفرضوا العبودية على بقية السكان • وقد اضطر الاخائيون الذين استطاعوا الافلات منهم الى الهجرة فانتقل اكثرهم الى جزر بحر ايجة وشواطىء آسية الصغرى والتجأ قسم منهم الى مقاطعة (آتيكا) • وحاول (الدوريون) أن يتعقبوا هؤلاء فهاجموا (آتيكا) ولكنهم صدوا عنها ، فاتجهوا الى (كريد) وهدموا ما بقي من مدنها وقصورها • ثم استولوا على جزر (ميلوس) و (قوس) و (كنيدوس) و (رودوس) وفرضوا على سكانها سيادتهم •

ان غارة الدوريين كانت أعظم كارثة حلت باليونان • وهي التي قضت على كل آثار الحضارة الايجية في شبه الجزيرة اليونانية وفي الجزر التي بلغها الدوريون • وقد انتشرت الفوضى في كل البلاد اليونانيةوتأخر تطورها

عدة عصور ، فاختل الأمن وصار الناس لايخرجون الا بأسلحتهم فتوقفت أعمال الزراعة والتجارة البرية والبحرية بسبب حوادث الاعتداء والعنف ، واشتعلت نيران الحروب في كل مكان وعم الفقر والبؤس واخذ الجميع ينتقلون من مكان الى آخر للتفتيش عن بقعة هادئة يستطيعون الاطمئنان فيها على حياتهم •

كان (هسيودوس) الحكيم في القرن السابع ، عندما يتكلم عن هذا العهد ، يسميه (عصر الحديد) ويعزو الى هذا المعدن السبب في تأخر الحضارة بالنسبة الى العصور السابقة ويذكر (هيرودوت) أن كثيرين من اليونانيين صاروا يعتقدون بأن اكتشاف الحديد كان نقمة على البشر •

على ان (غارة الدوريين) ، رغم جميع فظائعها لم تستطع القضاء على كل شيء في البلاد وعلى الرغم من أن الدوريين كانوا يحرصون على الابتعاد عن السكان المحكومين للمحافظة على نقاوة دمهم فقد بدأ الاختلاط بين العناصر القديمة والجديدة بصورة بطيئة في مقاطعة (لاقونية) نفسها ولكنه تم بسرعة في سائر المقاطعات • ولا شك في أن هذا التمازج بين العناصر المختلفة من البلاد الشمالية وحوض البحر الأبيض المتوسط وآسية كان من العوامل الحيوية في خلق جيل جديد نشيط يتصف بالقدرة على المآلفة وبالاستعداد للحضارة ويمتاز بكثير من المواهب الضرورية لذلك•

ثم ان الحضارة الميكينية لم تنقرض بالمرة رغم تخريب المدن والقصور• فان السكان الاصليين قد احتفظوا ببعض مبادىء التنظيم السياسي والاجتماعي والاعمال الصناعية والتجارية ولم ينسوا الاسس البسيطة للفنون التي كانت شائعة مثل الخزف والنقش والرسم • ورغم ان مظاهر الحياة الحضرية قد ظلت في حالة جمود عدة أجيال طويلة بسبب الفوضى والاضطراب ، فانه عندما بدأت الامور تستقر وتكونت بيئة صالحة للتطور والنمو عادت التقاليد القديمة الى الحياة في شكل جديد وروح جديدة • ويجب ان لاننسى بأن

الدوريين قد فتحوا عهدا جديدا في تاريخ اليونان بادخالهم الاسلحة الحديدية الى هذه البلاد • فانه مع مرور الزمن قد شاع استعمال هذا المعدن في صنع كثير من الادوات فأدى ذلك ، مع عوامل اخرى ، الى انقلاب عميق في الحياة الاقتصادية •

ثم ان غارة الدوريين كانت سببا في اتساع بلاد اليونانيين اتساعا عظيما اذ اضطر قسم كبير من السكان الى الهجرة افواجا ، فسكن البعض في جزر بحر ايجة التي لم يكن فيها الا القلائل من اليونانيين وأسس آخرون مستعمرات دائمة على شواطيء آسية الصغرى بعد التغلب على أهلها وطردهم الى البلاد الداخلية • وامتدت الهجرة بعد ذلك الى ايطالية وصقلية وافريقية الشمالية والى شواطيء البحر الاسود حتى اصبحت المستعمرات اليونانية أوسع بكثير من شبه جزيرة اليونان نفسها ••••

في هذه المستعمرات القريبة من مراكز الحضارات الشرقية القديمة ظهرت الحضارة اليونانية الجديدة التي تمتاز بروح المرح وجلال الجمال وسحر الشعر • وعلى العكس من ذلك أشاع الدوريون روحا خاصة قاسية في كثير من أنحاء بلاد اليونان وعلى الاخص في اسبارطة • فان (الدوريين) ظلوا دوما يتمسكون بالنظام العسكري الصارم والعنجهية الارستوقراطية ويفضلون المفاهيم البسيطة ، الثابتة على الالعاب الفكرية واللغوية والفنية • فنرى المعابد (الدورية) مثلا ، التي قامت بعد عدة عصور واستندت الى أسس الفن المعماري (الميكيني) تنم عن مبدأ القوة وفكرة التناظر • أما في (اثينة) ، المدينة القارية والبحرية معا فقد اجتمعت العناصر المختلفة وامتزجت امتزاجا منسجما استطاع التوفيق بين مطامح الخيال والعاطفة من جهة وقوانين العقل وقيوده من جهة ثانية •••

٥ • ــ (هيللين) ، (اغريق) ، (يونان) :

ان اليونانيين في العصور التاريخية كانوا يرجعون أصلهم الى بقعتين

مختلفتين : احداهما حول جبل (اوليمبوس Olympus) في الشمال من (تسالية) ، حيث كانت تسكن قبـائل الدوريين • ومن المعروف ان آلهـة اليونان الاصلية هي من سكان هذا الجبل ، والبقعة الثانية تقـع في مقاطعـة (آ بيروس حول مدينة دودون) وغابات جبل (توماروس) حيث كان معبد قديم يتولى خدمته جماعة تسمى (هيللوى) تفسر ما يقوله الاله (زفس) عن طريق صوت القماري أو حفيف الاشجار • وهم ينتسبون الى قبيـلة (هيللوس) • ومن هنا اشتق اسم (هيللين) الذي اطلقه اليونانون عـلى أنفسهم جميعا • اننا لا نعرف السبب الذي دفع اليونانيين الى تفضيـل هـذا الاسم على اسم الآخائيين الذي كان يستخدمه (هوميروس) • فلعلهم اختاروا اسم قبيلة الهيللينين الصغيرة لأن لديها قام اقدم معبد لعبادة (زفس) أكبر آلهتهم • وربما يرجع السبب الى أن هذه القبيلة التي هاجرت مع الآخائيين منذ اقدم العصور قد اتصلت بالاجانب قبل غيرها فانتشر اسمها بينهم.وصاروا يطلقونه على جميع اليونانيين ثم اقتبسه عنهم هؤلاء فيما بعد • أما اسطورة (هيللين) ابن (دوقاليون) وأولاده وأحفاده فهي من اختراعات الكتـاب المتأخرين الذين كانوا يحاولون تفسير الامور الواقعة بطريقة مشخصة ••

كانت تسكن الى جانب قبيلة الهيلينين قبيلة أخرى اسمها (غزايوى) أو (غرايكوى) ولما كانت هذه القبيلة أقرب كل القبائل اليونانية الى ايطالية وهاجر قسم من أفرادها الى تلك البلاد قبل غيرهم من اليونانيين فقد شاع اسمها بين الايطاليـين الذين اشتقوا منه كلمـة (غريسي) أو (غريكي) واطلقوها على كافة اليونانيين ثم انتقلت الكلمة في عهد الرومان الى سائر الامم الاوروبية وكذلك الى العرب الذين صاروا يسمون اليونانيين باسـم (الاغريق) •

ان غارة الدوريين قد اضطرت جميع القبائل اليونانية الى تغير اماكن سكناها ، فانتقل بعضها من تسالية الى مقاطعتي (بيوتية) و (آتيكا) وهاجر

القسم الاخر مع الآخائيين الى جزر بحر ايجة وشواطىء آسية الصغرى •
وقد كانت القبائل الايولية تربطها أواصر الصداقة والتحالف مع الآخائيين
ولذلك فقد هاجرت كلها معا الى القسم الشمالي من شواطىء آسية الصغرى
والى جزيزة (لسبوس) المقابلة لهذا القسم واستطاع المهاجرون ان يتغلبوا
على (الميسيين) سكان البلاد الاصليين وينتزعوا منهم عددا كبيرا من المواقع
الحصينة مثل (كيمي) و (ازمير) القديمة ، ثم تقدموا في داخل السهول
وأسسوا مدينة (معينسية) • وهنا أيضا لم تعرف هذه المستعمرات فيما بعد
باسم الآخائيين المشهورين بل سميت (ايوليس) بالنسبة الى حلفائهم غير
المعروفين •

وقد استولى الدوريون على القسم الجنوبي من شواطىء آسية الصغرى
المقابل لجزيرة (رودس) واطلق على هذا القسم اسم (درويس) • أما
القسم المتوسط فقد هاجرت اليه قبائل (الايونيين) التي لم يكن لها من قبل
شأن يذكر • على ان هذا القسم هو الذي نال مكانة عالية وشهرة واسعة فيما
بعد وطغا على القسمين الاخرين ، وفيه مدينة (ميليتوس) التي لعبت دورا
كبيرا في تاريخ الفكر اليوناني • ولما تعرف الفينيقيون الى المستعمرات الايونية
في هذا القسم انقلب اسمه لديهم الى (ياوون) ثم الى (يونان) عند العرب
واطلق على اليونانيين عامة ••••

الفصل الخامس

هوميروس وهسيودوس

١ ــ (هوميروس) :

ان المهاجرين اليونانيين قد حملوا معهم الى ما وراء البحار تقاليد بلادهم الأصلية وما توارثوه من أشعار وقصص وأساطير • وكان الآخائيون والايوليون يرددون بصورة خاصة الاخبار عن حصار (طروادة) من قبل اجدادهم ويتغنون بأعمال أبطالهم المشهورين أمثال (آخيلليس) و (آغاممنون) و (اوديسيوس)• ولما استقر هؤلاء المهاجرون المستعمرون في جزر بحر ايجه وشواطىء آسية الصغرى وتكونت امارات عديدة في المدن الحصينة ظهرت طبقة من الشعراء المتجولين يتنقلون من مدينة الى اخرى ومن قصر احد الامراء الى غيره • وكان أكثر هؤلاء الشعراء من العميان الذين يلبسون ثيابا مزخرفة ويتوجّون رؤوسهم بأكاليل الغار وينشدون القصائد الحماسية الشعبية ، ويقومون أثناء الانشاد بكثير من الحركات والاشارات • وكانوا في الغالب يحرّفون القصائد القديمة حسب لهجة السكان أو يضيفون اليها أشعار جديدة ينظمونها هم أنفسهم •

من هؤلاء الشعراء المتجولين : (هوميروس) الذي كتب لاسمه الخلود ونال شهرة عالمية • وكلمة (هوميروس) في اللغة اليونانية تفيد معنى « رهينة » • وهذا المعنى المتواضع يسوق الى الافتراض بأن (هوميروس) ربما كان في شبابه من الرهائن لدى احدى القبائل المتخاصمة •

ولكن من هو (هوميروس) ؟ أين ومتى عاش ؟ هناك سبع مدن على الأقل تدعي لنفسها الشرف بأنه ولد فيها ، أشهرها (كومي Cyme) ، ثم (خيوس) و (ازمير) • وقد رأى بعض ملوك اليونانيين تجاه هذا الاختلاف ان يرجع الى الآلهة نفسها للسؤال عن موطنه • ولكن العرافين الذين كانوا ينطقون باسم الآلهة لم يستطيعوا بطبيعة الحال ان يعرفوا شيئا • ثم بينما يروي بعضهم أن (هوميروس) ولد سنة (١١٥٠) يدعي آخرون أن ولادته كانت في عام ٦٨٦ ق•م• وتذكر الروايات الاخرى أرقاماً تتراوح بين هذا التاريخ وذاك • ونحن لانعرف هل كان (هوميروس) أعمى حقا ، كما يذكر المؤرخون اليونان ، أم انما تصوره الناس فاقد البصر لآن أكثر الشعراء المتجولين في ذلك العصر كانوا هكذا ولأن (الالياذة) نفسها تتكلم عن الشعراء العميان وأخيرا لأن ذلك مما يثير عطف الناس على الشاعر ويزيد في اعجابهم به واكبارهم له ؟

اننا في الحقيقة لا نعرف شيئا عن (هوميروس) • فهو ليس سوى اسم • ولذلك فقد انكر كثير من العلماء وجود هذا الشاعر بالمرة ، وقالوا ان (الالياذة) و (الاوديسة) اللتين تنسبان اليه ليستا سوى مجموعتين من الاشعار الشعبية ، وان (الاوديسة) لم تنظم في العهد نفسه الذي نظمت فيه (الالياذة) ، بل انه يفصل بينهما ما يقارب مدة عصر • فان (الاوديسة) تتضمن كلمات كثيرة جديدة لا أثر لها في (الالياذة) • وبينما يدور الكلام في (الالياذة) على البرونز فان (الاوديسة) تتحدث عن الحديد • ثم ان (الاوديسة) تذكر الكتابة والملكية الخاصة والمتحررين من العبودية ، وهذه كلها أمور لم ترد في (الالياذة) ، بل ان الآلهة ووظائفها في كل منهما مختلفة • ويقول هؤلاء العلماء ان (الالياذة) نفسها ليست من نظم شاعر واحد • فانها تختلط فيها اللهجتان (الايولية) و (الايونية) اللتان تختلفان في عدة أمور • مثلا بينما يقول (الايوليون) عند النطق باسم الشاعر

(هومـاروس Homaros) يتلفظ (الايونيـون) ذلك (هومـيروس Homerus) • ثم ان (الالياذة) تحتوي على كثير من الاشعار والاناشيد التي لا علاقة لها بالموضوع وانما اضيفت فيما بعـد الى الملحمة الاصليـة • كذلك يشيرون الى عدم التسلسل وفقدان الانسجام بين كثير من الفضول والمقاطع •

ولكن اذا اعترفنا بصحة كل ذلك فلا بد ان نتساءل من الذي نظـم (الالياذة) في شكلها الأول قبل ان تضاف اليها بعض الاشـعار والاناشـيد الغريبة ؟ فالقول بأنها مجموعة أشعار شعبية لا يحل المشكلة لأنه لايمكن أن ينظم قصيدة ، بل بيتا واحدا الا شخص معين • وما نسميه بالشعر الشعبي ليس في الحقيقة سوى قصائد نظمها بعض الافراد فشاعت بين جمهورالشعب وتناقلتها الاجيال دون ان تعرف اصحابها وربما أهمل الناس بعض الابيات التي لا تلائم الذوق العام واضاف أشخاص أبياتا اخرى عوضا عنها تتفق مع روح الشعب • وهكذا يكون الشعب قد اشترك في تكييف هذا النوع من الشعر •

ان الكثيرين من العلماء ينكرون ان تكون ملحمة عظيمة مثل (الالياذة) عبارة عن مجموعة قصائد لأشخاص مجهولين • وفي مقدمة هؤلاء البحاثة الالماني (فون ويلاموويتس Von Willamowitz) الذي قتل (الالياذة) درسا وتمحيصا وانتهى الى القول بأنه يجب ان يكون هناك شاعر كبير قد نظم هذه الملحمة •

وفي الحقيقة فان في (الاليـــاذة) موضـوعا معينا أساسيـا هو غضب (آخيلليس) يربط بين الحوادث الكثـيرة والفصـول المتعـددة والمواقف المختلفة • وهذه الوحدة لا تقتصر على الموضوع فحسب بل تظهر أيضا في الاسلوب وفي تسلسل القضية واتجاهها نحو غاية واحدة • ومن الواضح ان مثل هذه الوحدة الفنية تقتضي وجود شخصية مبدعة • وكذلك الأمر

في (الاوديسة) التي تصف لنا مغامرات (اوديسيوس) في رحلته البحرية • فالابداع الفني يتجلى في ان الشاعر لم يذكر الحوادث بالترتيب منذ قيام (اوديسيوس) من (طروادة) حتى وصوله الى أهله ، بل اننا نرى البطل في أول القصيدة قد وصل الى وطنه وهو منهوك القوى يتسول في ثياب ممزقة فيروي لنا قصة مغامراته بنفسه حسبما يتذكرها • وعلى الرغم من وجود أبيات غريبة يبدو أنها اضيفت فيما بعد الى القصة فاننا نلاحظ هنا أيضا الوحدة الفنية التي تشير الى ان شخصية عبقرية قد نظمتها • ويقول العالم الفرنسي (بول جيرار) الذي درس (الاوديسة) دراسة عميقة ان هذه القصيدة الرائعة هي من ابداع شاعر كبير وكاتب ماهر عبقري وتدل جميع الظواهر على ان هذا الشاعر الفذ الذي اشتهر باسم (هوميروس) كان ينشد قصيدته في قصر ملوك (ميليتوس) بين سنة ٩٠٠ ـ ٨٥٠ قبل الميلاد •

يذكر المؤرخون اليونانيون ان اشعار (هوميروس) كانت تتناقل شفهيا من شخص الى آخر حتى القرن السادس اذ جمع دكتاتور (آثينة) (بيزيستراتوس) بين سنة (٥٤٦ ـ ٥٢٧) لجنة من العلماء لكتابة هذه الأشعار وتثبيتها بصورة نهائية وأمر باتخاذها كتابا مدرسيا • ويذهب بعض الباحثين الى ان الابيات في (الالياذة) ، التي تمجد (تيزيوس) ، بطل (آثينة) ، ربما أضيفت في ذلك الوقت بايعاز من الدكتاتور • فاذا صح أن أشعار (هوميروس) لم تدون الا في القرن السادس ، أي بعد ثلاثة عصور من تاريخ نظمها فلا غرابة أن يكون قد طرأ عليها كثير من التحوير والتغيير ، فحذفت منها أشياء واضيفت اليها أمور اخرى ، وحينئذ نستطيع ان نعلل بسهولة ما يلاحظه العلماء فيها من الاصطدام بين اللهجتين الايونية والايولية ، ثم من فقدان الترابط بين بعض الفصول وعدم الانسجام بين كثير من المقاطع • ولعل بعض هذه الشوائب يرجع الى زمن تأليفها • فان (هوميروس) ، مثل غيره من الشعراء ، قد اقتبس قسما كبيرا من ابياته عن الذين سبقوه • وهذا أمر طبيعي ، لاسيما في موضوع تاريخي كموضوعه •

فان حرب (طروادة) كانت من الحوادث العظيمة في تاريخ اليونان • وقد تناقلت الاجيال التالية أخبارها وقصصها واخترعت الاساطير لتمجيد أبطالها ونظمت القصائد في وصفها والتغني بأمجادها• وكانت هذه الاخبار والقصص والاساطير والقصائد ترجع الى عصور مختلفة وهي بلهجة الايوليين • ولذلك عندما جمع (هوميروس) هذه المواد لادماجها في ملحمته التي كتبت باللهجة الايونية كان لابد أن يبقى هناك كثير من الكلمات والتعابير الايولية • كذلك ليس غريبا أن ينحرف وصف الاسلحة والازياء القديمـــة عن الحقيقـة التاريخية ، لأن (هوميروس) يتكلم هنا عن أمور مضى عليها أربعة عصور ولا يعرفها الا عن طريق السماع • عدا ذلك فهو ليس مؤرخا يحرص على صحة الوقائع ، بل انه في الدرجة الاولى شاعر يعتمد على الخيال ويخترع اشياء كثيرة ولا يهتم الا بجمال الاسلوب والمهارة الفنية • ويجب الملاحظة بأن للشعر دوما لغة خاصة تتضمن كثيرا من الكلمات والتعابير القديمـة ، المتوارثة من مختلف العصور ولا تشبه لغة المحادثة او كتابة النثر في عصر الشاعر •

لقد بلغ (هوميروس) هدفه الفني على أحسن وجه واستطاع ان يبدع أجمل أثر في تاريخ الآداب العالمية • ان (الالياذة) من أسمى الشعر وأكثره قوة وروعة • فيها يتجلى الخيال المبدع في أكمل مظاهره ، هذا الخيال الذي يقتبس عناصره من الواقع ويركبها حسب تصوراته ويخلق منها شيئا جديدا• ان (هوميروس) قد جمع الاخبار والقصص والاساطير عن العصور الماضية واستخلص منها صورة حية ضمنها ، دون ان يشعر ، تصورات عصره عن الآلهة والبشر ولكنها تمثل لنا في الوقت نفسه الماضي البعيد • فهو يصف لنا حياة البشر في عصر البرونز رغم انه كان يعيش في عصر الحديد ، وهو يعرض علينا مشاهد الرقص في قصر (كنوسسوس) رغم ان هذا القصر كان قد اصبح اطلالا منذ مئآت السنين • ولهذه الغايـة اسـتعان (هوميروس) بالقصص والاساطير والقصائد القديمة ونقلها كما هي بعد تحوير بسيط •

لذلك فان (الالياذة) يمكن ان تعتبر من المصادر التاريخية التي تساعدنا على معرفة كثير من الحوادث التاريخية • وقد أثبتت التنقيبات الاثرية الحديثة في (طروادة) و (ميكيني) بأن الصور التي رسمها (هوميروس) عن حياة البشر في تلك العصور وعن حضارتهم تنطبق على الواقع انطباقا كبيرا •

ان (هوميروس) هو الذي اخترع الشعر القصصي• وكانت (الالياذة) فاتحة الأدب اليوناني ولكنها ظلت تعتبر لدى اليونانيين مثلا أعلى للشعر الرفيع وظل كبار كتابهم الروائيين يستلهمون موضوعاتهم منها ، بل ان (الالياذة) قد تركت اعمق الاثر في آداب الأمم الغربية كلها التي ما زالت حتى اليوم تقتدي بها في موضوعاتها واسلوبها • فهي ، بما فيها من جمال وروعة وفن ، منبع للالهام الشعري • والمواقف التي يصفها (هوميروس) لابد أن تثير أعمق العواطف في كل انسان من أيّ شعب كان ومهما كانت درجة ثقافته سواء في ذلك الفلاح الساذج أو العالم الناقد • ان موضوعها هو روح الانسان وما يختلج فيها من مشاعر • وذلك هو موضوع الشعر الخالد •

وقد كانت (الالياذة) كتابا مدرسياً في بلاد اليونان يتخذه الاساتذة اساسا ليس لتعليم اللغة والأدب والتاريخ فحسب بل كذلك لتلقين الناشئين مبادىء الاخلاق والديانة وفي الحقيقةفانها قد قامت لدىاليونانيين مقام الكتب المقدسة عند الامم الاخرى ولعبت دورا كبيرا في توحيد اللهجات والمحافظة على فصاحة اللغة ثم في خلق مثل عليا اخلاقية ودينية مشتركة بين اليونانيين، فساعدت بذلك على توجيه الاجيال وتقوية الرابطة القومية •••

٢ ـ (هسيودوس) :

كان اليونانيون يمجدون بين شعرائهم في المقام الثاني بعد (هوميروس) الحكيم (هسيودوس Hesiodos) الذي يقول القدماء انه ولد سنة (٨٤٦) ومات سنة (٧٧٧) ق•م• ، بينما يدعي بعض الباحثين الحديثين بأنه عاش

بعد هذا التاريخ بمدة عصر • ويروي بعض المؤرخين اليونانيين أن (هسيودوس) كان معاصرا لهوميروس وانه قد اجتمع به وقرأ عليه شعره فنال اعجابه وحصل منه على جائزة •

ولد (هسيودوس) في مدينة (كومي) على شواطىء آسية الصغرى • وكان والده الذي سئم حياة الفقر والبؤس في المهجر قد عاد الى بلاد اجداده وسكن مدينة (اسقرا) في مقاطعة (بيوتية) • ويصف (هسيودوس) هذه المدينة بقوله : « انها شنيعة في الشتاء ، لاتحتمل في الصيف ولا خير فيها بالمرة في كل الاوقات • » أي انها تشبه جميع الأماكن التي يعيش فيها البشر ـ حسبما تبدو للبؤساء • وقد كان (هسيودوس) فقيرا ، بائسا يرعى القطعان على سفح جبل (هليقون) وعزاؤه في هذه الحياة التعيسة أن يحلم بأن آلهة الفن كانت تنفخ في روحه الشعر وترقص أمامه برشاقة وتسبح في النهر • انه كان ، مثل كل اليونانيين ، يحب العجائب والاساطير • وقد ألف كتابا في « الانساب الالهية » (Theogonia) انتقل الينا منه ما يقارب الألف بيت يتكلم فيها على ولادة الالهة وانسابها وعلاقاتها بعضها ببعض وصفاتها وأعمالها •

يصف (هسيودوس) كيف كان يسود في بادىء الامر (العدم والفوضى) ثم كيف خلقت الالاهة (جي) أي الارض وظهر بعدها (طرطروس) اله العالم الاسفل وبعد ذلك (أروس) اله الحب وهو أجمل الآلهة وأكملهم ، ومن العدم ولد الظلام والليل ، ومن هذين تكون الاثير والنهار ، وبينما ولدت الارض والجبال والسماء فانه عن اجتماع (اورانوس) أي السماء بالارض قد نشأ الاله (اوقيانوس) أي البحر • ثم ولد جيل من الجبابرة الذين كان لبعضهم خمسون رأسا ومائة يد ، فكره (اورانوس) هذه الذرية العجيبة وحكم عليهم بالاقامة في العالم الاسفل ولكن (جي) غضبت لذلك وحرضت أولادها الجبابرة على قتل والدهم ، فتولى الأمر بينهم

(كرونوس) الذي قطع جسم (اورانوس) ورماه الى البحر ، ومن قطرات الدم التي سقطت على الارض تكونت العفاريت وآلهة الانتقام ، ومن الزبد الذي ظهر على وجه البحر خلقت (افروديت) الاهة الحب (هذا الاسم مشتق من كلمة (افروس) التي تفيد معنى الزبد) ثم استولى الجبابرة على جبل (اوليمبوس) مقر الآلهة وأجلسوا على العرش (كرونوس) الذي تزوج اخته (ريا) وقد تنبأ أبواه بأنه سوف يخلع من قبـل أحـد أولاده ولذلك ابتلعهم جميعا عدا (زفس) الذي اخفته (ريا) في جزيرة (كريد)، فلما كبر (زفس) خلع والده وارغمه على اخراج بقية أولاده من جوفه •

كذلك يذكر (هسيودوس) قصة (بروميتيوس) الذي جاء بالنـار من السماء وعلم البشر استعمالها •

هنا نرى (هسيودوس) ، مثل الفلاسفة الطبيعيين الذين جاؤوا بعده، يحاول أن يصور لنا نشأة العالم ، ولكن بطريقة شعرية تقلب المفاهيم العامة الى شخصيات مجسمة • وليس من الممكن أن نعرف هل اقتبس (هسيودوس) هذه الاساطير عن الاساطير الشعبية البدائية أم اخترعها هو بنفسه • ويقول (هيرودوت) ، مع شيء من المبالغة ، ان (هوميروس) و (هسيودوس) هما اللذان اخرجا الالهة في صورها البشرية النهائية وأطلقا عليها أسماءها وكشفا عن أنسابها ، على ان (هوميروس) في (الالياذة) لا يذكر الا القلائل منها ، كما انه لاينسب اليها جميع الفظائع التي تخيلها (هسيودوس) والتي كانت فيما بعد السبب في انتقاد الفلاسفة لهذه الآلهة وانكارهم لوجودها بالمرة •

ينزل (هسيودوس) في كتابه الثاني من علياء (اوليمبوس) الى السهول الارضية ويبحث في حياة الفلاح وأعماله • وقد سمى هذا الكتاب الذي انتقل الينا بكامله « الاعمـال والايـام » وجعله في قالب خطاب موجـه الى أخيـه (برسيس) • وكان أخوه هذا قد رشا الحكام واغتصب قسما من حصـة (هسيودوس) في الارض التي ورثاها عن والدهما ، ولكنه لم يعرف كيف

يستثمر هذه الارض فأراد الشاعر الحكيم ان يبين له ولامثاله من الفلاحين المهملين شروط النجاح في الزراعة وقد وصف (هسيودوس) الاعمال الزراعية المتنوعة وصفا دقيقا وذكر واجبات المزارع في كل فصل من فصول السنة وشرح أساليب استثمار الارض وطريقة تحسينها • ونراه يدعم هذا الوصف بكثير من النصائح الحكيمة التي تبين قيمة العمل وتأثير المنافسة وفائدة التضامن بين الجيران • وكان (هسيودوس) ماهرا في نحت الجمل البليغة ، ذات المعاني العميقة التي يسهل حفظها والتي صارت فيما بعد تضرب بها الامثال • فهو يخاطب أخاه قائلا : « ان طريق الكسل والشر سهلة ، قريبة المنال ، أما طريق الكمال فان الآلهة الخالدة قد جعلتها محفوفة بالعراقيل وهي طريق وعرة ، طويلة يتعب الانسان في أولها ويتصبب العرق من جبينه ولكنه متى بلغ ذروتها يجدها سهلة ، مفرحة • » يقول مخاطبا الفلاح : « اشتغل فالعمل هو القانون الذي فرضته الآلهة على البشر واحذر يوما تضطر فيه مع أولادك وزوجتك ان تطلب بقلبمنكسر ما تسد به الرمق من الجيران الذين يشيحون بوجوههم عنك• اشتغل لتتخلص من الجوع»•

على ان (هسيودوس) لم يكن ليجهل المصاعب التي تعترض الفلاحين في حياتهم فهو نفسه كان مزارعا ويعرف بأن الفلاح البسيط مهما اشتغل وتعب لايمكنه الوصول الى الراحة والهناء ، لأن أسعار الحاجات التي يأتي بها التجار كانت آخذة في الصعود بينما كانت الارض تزداد جدبا من جيل الى آخر والاوضاع الاجتماعية كانت فاسدة بسبب ظلم النبلاء الذين يقول عنهم بأنه لا هم لهم الا النهب والتهام الهدايا من الضعفاء •

وتنعكس لنا هذه الحالة السيئة في نظرة (هسيودوس) المظلمة ، المتشائمة الى الحياة ، اذ نراه يأسف على الماضي ويقول ان البشر كانوا في العصر الذهبي يشبهون الآلهة يعيشون دون تعب أو هم ، وكانت الارض تخرج لهم من ذاتها الغذاء الكافي فيقضون أيامهم في الحفلات والافراح

ولا يعرفون الشيخوخة ويموتون دون ألم • ولكن الآلهة خلقت بعد ذلك ، بدافع شهواتها المتقلبة ، العصر الفضي الذي كان الناس يحتاجون فيه الى مدة طويلة حتى يبلغوا سن النضج ثم يعيشون مدة قصيرة يتألمون فيها ويموتون • وبعد ذلك خلق (زفس) عصر البرونز الذي اشتعلت فيه الحروب بين البشر فسيطر عليهم الموت الاسود وحرمهم نور الشمس • وأخيرا بدأ أسواء العصور وهو عصر الحديد الذي يتصف بالحقارة والفساد والفقر والفوضى والذي يقضي فيه الانسان نهاره في العمل المضني وتنتابه في الليل الهموم والهواجس • وفي هذا العصر نرى الأولاد يسيئون الى سمعة آبائهم ويجلبون لهم الفضائح ، وأصبح الناس لايحترمون الآلهة ولا يكرمونها ويستسلمون الى الكسل ويتنازعون فيما بينهم ويقدمون الرشوة ويأخذونها ولا يثق بعضهم ببعض ويشوهون وجوه الفقراء والضعفاء •

وكان (هسيودوس) يتردد كثيرا في هل ينصح قراءه بالزواج أم بالعزوبة ؟ ويبدو أنه هو نفسه كان عازبا أو أرملا ، لأنه لايمكن لرجل يعاشر النساء أن يتكلم على المرأة بمرارة وقسوة كما نلاحظ في شعره • وعلى الرغم من أنه في كتاب « انسات الآلهة » يسرد قائمة طويلة من النساء العظيمات ويجعل أكثر الآلهة من الاناث الا انه في المحلات الاخرى من هذا الكتاب ثم على الاخص في كتاب « الاعمال والايام » يقول لنا ان جميع مصائب البشر قد جاءت من (باندورا) الجميلة • وهو يروي كيف أن (زفس) طلب من الآلهة الاشتراك في خلق امرأة يهديها الى الرجل • فقام (هيفايستوس) آله الصناعات يصنع من الطين تمثال فتاة تشبه الالهة الخالدة بجمالها ونفخ فيها القوة والقدرة على الكلام ، ثم يذكر كيف علمتها (آثينة) أن تنسج أبدع النسيج ، وكيف خلعت عليها (آفروديت) الذهبية الرشاقة واللطف • الا ان (زفس) بعد ان منحها صوتا جذابا أمر (هرمس) بأن يعطيها عقلا يشبه عقل الكلاب ويركب فيها الطباع الشرسة والصفات

الخداعة ثم أطلق عليها اسم (باندورا) • وقد اهداها رئيس الآلهة الى (ابيميتيوس Epimetheus) الذي بهره جمالها فأخذها رغم نصيحة أخيه (بروميتيوس) له بأن لايقبل أي هدية من الآلهة • وكان (بروميتيوس) قد ترك عند اخيه صندوقا سحريا وشدد عليه بأن لايفتحه مهما كانت الظروف • ولكن (باندورا) ما كادت تسمع عن هذا الصندوق حتى أصبح همها الوحيد أن تعرف ما فيه فاقدمت على فتحه واذا بعشرة آلاف من الشياطين تطير منه وتبدأ في تعذيب البشر ولم يبق في الصندوق الا (الأمل) الذي يقول عنه (هسيودوس) بأنه « أسوأ وأفشل مرشد للانسان المحتاج» • ثم يعلق (هسيودوس) على هذه الاسطورة بقوله : « ان جنس النساء اللطيف قد جاء من (باندورا) ، هذا الجنس الخبيث الذي هو شر مستطير يتلبس الرجال • فالمرأة ليست رفيقة حياة تشارك زوجها الفقر والألم ، انما هي تطالب بالطعام والثياب ولا يقف نهمها عند حد • هكذا خلق (زفس) المرأة لتكون مصدر شر وفساد ••• »

على ان (هسيودوس) يعود فيقرر بأن العزوبة ليست أقل شرا من الزواج وانه لابد للرجل من رفيقة حياة على شرط ان لا يتزوج قبل الثلاثين من العمر وان لا يكون له أكثر من ولد واحد •

تظهر لنا أهمية (هسيودوس) عندما نقارن بينه وبين (هوميروس)• لقد كان (هوميروس) ينشد في قصور الامراء عن حياة الملوك•وهو لايتكلم الا عن النبلاء ، واذا كانت الصورة التي يرسمها عن عهد الابطال تتصف بالارهاب والاجرام والقسوة الا انها لا تخلو ، رغم ذلك ، من العظمة والفروسية • وقد كان (هوميروس) شاعرا بالمعنى الصحيح ، يعرف ان الشرور والقبائح تتضاءل اذا ما أسدل عليها نقاب من جمال الفن •

بخلاف ذلك (هسيودوس) فهو يتحدث عن عامة الناس ويستخدم اللغة التي تلائمهم انه لايتعرف الى الامراء والملوك ولا يحب هؤلاء السادة •

بل انه ألف كتابه للفلاحين أمثاله ليسدي اليهم النصائح ويدافع عن حقوقهم. وهو يصف حياة البؤس والشقاء التي كان يعشها عامة الشعب الذين لم يكن لهم بعد مكان معين محترم في المجتمع والذين ليس لديهم اية وسائل الدفاع عن انفسهم . انه أول صوت ارتفع في تاريخ اليونان من صفوف طبقة الفلاحين يدعو الى الاهتمام بشؤون هذه الطبقة البائسة . لم يكن في هذا الصوت شيء من الثورة ، بل انه ينم عن الاستسلام لارادة الالهة وينصح الفلاحين بالانصراف الى العمل لتحسين حالتهم . ان مرحلة الثورة لم تكن قد حانت بعد . ولكن وصف (هسيودوس) لبؤس الفلاحين كان في الحقيقة تمهيدا للثورات الشعبية في العصور التالية من تاريخ اليونان .

ان أشعار (هسيودوس) تمثل لنا الاوضاع الاجتماعية في بلاد اليونان في القرن الثامن قبل الميلاد . وهو قد وصف لنا حالة الفقر والظلم في عصره عن معرفة مباشرة بمساوىء النظام السائد وشروره لأنه لمسها بنفسه وشعر بوطأتها في حياته . وكان يقول :«ان الفضيلة والمجد يتبعان الغنى » ويصرح بأن الحق عبارة عن ساعد قوي وانه ليس هناك من شيء مقدس في نظر الأقوياء. ثم يبين كيف عم البؤس طبقة الاقنان وصغار الفلاحين الذين كانوا يشتغلون دوما لتقديم ما يتطلبه الملوك والنبلاء من نفقات في حروبهم وملاهيهم . فكتابه (الاعمال والايام) من أهم الوثائق عن التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي في العصور الاولى من تاريخ اليونان ، كما ان كتابه « انساب الآلهة » يعد من أقدم المصادر عن العقائد الدينية وتطورها عند اليونانيين القدماء . وقد اتبّع (هسيودوس) اسلوب (هوميروس) في الكتابة فوضع وصفه للمجتمع ونصائحه العملية للفلاحين في قالب شعري ينم عن حب عميق للطبيعة ومعرفة دقيقة بها ولكنه كان يشعر في الوقت نفسه بالفرق الاساسي بين موضوعه وموضوع (هوميروس). انه كان يدرك رسالته الخاصة الى البشر . وعندما نراه يقول ان آلهة الفن يمكن ان تعلم الناس الشعر الجميل

أو ترشدهم الى الحقيقة فهو انما يشير بذلك الى الاختلاف بينه وبين (هوميروس) • ولا شك في ان اشعار (هسيودوس) كان لها تأثير عميق في تطور اليونانيين الفكري مدة عصور طويلة •••

٣ ــ دور الانتقال من البداوة الى الحضارة :

اجتازت بلاد اليونان بين القرن الثاني عشروالقرن السادس قبل الميلاد مرحلة انتقال لانعرف شيئا واضحا عن تفصيلاتها•انه في هذا العهد تمركزت القبائل المختلفة في شبه جزيرة اليونان واستقرت في المستعمرات وانتقلت تدريجيا من البداوة الى الحياة الحضرية • ولا شك في ان من أهم الحوادث في هذه المرحلة هجرة عدد كبير من اليونانيين الى مختلف الانحاء في البحر الابيض المتوسط وتأسيس مستعمرات دائمة اصبحت جزءا من العالم اليوناني وسبقت شبه الجزيرة في خلق الحضارة اليونانية • فانه في هذه المستعمرات اتصل اليونانيون بالامم الشرقية القديمة مثل المصريين والبابليين والحثيين والفنيقيين واقتبسوا عنها العناصر الاساسية للحضارة وسنتكلم على هذين الموضوعين على حدة •

ثم في هذا العهد نشأت المدن اليونانية • حقا لقد كانت هناك مدن في بلاد اليونان منذ عهد الآخائيين ، ولكن هذه المدن كانت من جهة قليلة جدا ومن جهة ثانية عبارة عن قرى كبيرة • وقد ظهر من التنقيبات الاثرية ان (ميكيني) مثلا وهي أكبر المدن في عهد الاخائيين لم تكن سوى مجموعة قرى انضمت بعضها الى بعض • بخلاف ذلك المدن الجديدة التي تكونت بين القرن الثاني عشر والقرن السادس ، فهي وحدات سياسية واقتصادية وعسكرية تتمركز حول معبد اله المدينة وأبطالها المقدسين • وكانت كل واحدة من هذه المدن أو مجموعة صغيرة منها تؤلف دولة مستقلة وفي كل مدينة نجد قلعة حصينة وساحة كبيرة للاجتماعات العامة والاسواق التجارية•

وكانت المدن تقوم عادة بالقرب من البحر ويؤسس مرفأ تابع لها تتصل عن طريقه بالعالم الخارجي •

ان انتقال اليونانيين من البداوة الى حياة المدن قد احدث انقلابات عميقة في أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية • فمن الوجهة الاقتصادية بدأت تتكون الملكية الفردية الى جانب الملكية المشتركة • ولم يعد أساس الثروة ملكية الاراضي الزراعية كما في العهد السابق ، بل ظهر منبع جديد لجمع الاموال المنقولة ونقصد بذلك التجارة وعلى الاخص التجارة البحرية التي اخذت تزدهر وتتطور بسرعة • وكانت هذه الاموال تساعد اصحابها على شراء الاراضي التي كانت قديما لاتنتقل الا بالوراثة وقد أدى هذا التطور الاقتصادي الى نتائج اجتماعية خطيرة • فقد بدأت تزول العصبية القبلية والعائلية عند أكثرية الشعب وازدادت الفروق بين الطبقات المختلفة • وأهم هذه الطبقات هي :

١ ــ طبقة النبلاء المؤلفة من الاسرات الكبيرة ، البارزة التي تملك الاراضي الواسعة وتحافظ على النظام العائلي بين افرادها وتتمتع بالنفوذ السياسي •

٢ ــ طبقة اصحاب المهن الذين يتوارثون اسرار الصنعة مثل العرافين والاطباء والفنيين ، ثم الحدادين والنجارين والخزافين، وكان هؤلاء احرارا وكثيرا ما يتوصلون الى الثروة ولكنهم يعتبرون دوما دون النبلاء في المرتبة وفي الحقوق السياسية •

٣ ــ العمال الذين كانوا يؤلفون القسم الاعظم من الشعب وبينهم الكثيرون من الاجانب والمتشردين والمغامرين يتسولون في الطرقات أو يشتغلون من حين الى آخر مقابل طعامهم ولباسهم وكانت حالة العمال الزراعيين أسوأ من الجميع ، لأن اصحاب الاراضي لايستخدمونهم الا لمدة محدودة وفي المواسم الجيدة فقط • وقد وصف (هسيودوس) حالة هؤلاء

الفلاحين البؤساء الذين لم تكن لديهم أي وسيلة للدفاع عن انفسهم في المجتمع والذين لايجدون شيئا من الرحمة عند الاغنياء أو من العدالة عند الحكام ولا يعرفون معنى الراحة والأمن •

٤ ـ واخيرا طبقة الارقاء الذين يؤسرون في الحرب أو في غارات القرصان ويباعون في الاسواق كالحيوانات • وكان سعر الرقيق يتراوح حسب قوته ومهارته من أربعة ثيران الى عشرين ثورا • على ان حالة هؤلاء الارقاء ربما كانت أحسن من العمال لأن أولياءهم كانوا يتكفلون باعاشتهم كما أن العقائد الدينية كانت تحظر القسوة عليهم •••

أما من الوجهة السياسية فان أهم ظاهرة في هذه العصور هي نشأة الحكم الجمهوري الارستوقراطي الذي تغلب على النظام الملكي وحل مكانه• فقد كانت القبائل في عهد الابطال تخضع لسلطة رؤسائها الذين يطلق عليهم لقب ملك (Basileus) • وكان هؤلاء الملوك على درجات • فان بعضهم لم يكن سوى شيخ قبيلة لا تتعدى سيطرته افراد القبيلة • الا انه كان هناك آخرون يملكون الاراضي الواسعة ، الغنية ويسيطرون على عدد كبير من القبائل يمكن ان نطلق عليهم بحق لقب ملك • نضرب مثلا على ذلك الملك (آللينوس) الذي يأتي ذكره في (الاوديسة) والذي يقول عن نفسه بكل تواضع : « هناك اثنى عشر ملكا عظيما يحكمون الشعب وانا الثالث عشر بينهم » • ولكن الحقيقة هي أن (آللينوس) كان الأول بين بقية رؤساء القبائل الذين كانوا يلتفون حوله ويتبعونه • ان هؤلاء الرؤساء يشبهون الملك في كثير من الامور : فهم يتوارثون القابهم ويعتبرون ، مثل الملك ، من أحفاد الآلهة ويحملون العصا التي هي شعار الملك ويجتمعون في قصر الملك ويجلس كل واحد منهم على عرش خاص به ويحضرون مائدة الملك، ومنهم يتألف مجلس الشورى الذي يرأسه الملك • الا ان الملك يمتاز عليهم بأنه وحده يحق له تمثيل المدينة واعلان مقررات مجلس الشورى على الشعب ،

وهو الرئيس الديني الاعلى كما انه يتولى قيادة الجيش والاسطول • وقد كان الملك يعتمد على مساعدة رؤوساء القبائل والاسرات النبيلة ولذلك فان سلطته كانت مقيدة •

ويظهر ان ملوك اليونانيين قد ساعدوا على تأسيس المدن وعلى الانتقال من البداوة الى الحياة الحضرية أملا في الخلاص من مشاركة رؤوساء القبائل والنبلاء لهم في الحكم • وكانوا يعتقدون انهم يستطيعون توطيد سيطرتهم بالاستناد الى جماهير الشعب في المدن • ولكن النتيجة كانت على العكس من ذلك • فان وجود الملوك في المدن جعلهم تحت رقابة الشعب وعرضة لانتقاداته • وكانت العامة تلاحظ كل الاخطاء التي تبدو من الملوك وعلى الاخص اذا كانوا ضعفاء ، عاجزين • ولايكفي في المدن الكبيرة ان يكون الملك « راعيا » على افراد الشعب كما في الحياة البدوية ، بل يجب ان يحسن التنظيم والادارة ويتقن اساليب السياسة • وعندما يتولى العرش طفل صغير أو رجل عاجز وتفلت منه مقاليد الحكم فان جو المدن يساعد حينئذ على تكتل المستائين وعلى حبك الدسائس والمؤامرات •

تلك هي الاسباب التي نستطيع تصورها لتعليل انهيار الملكية في بلاد اليونان حوالي القرن الثامن • على انه ليس لدينا من الاخبار ما يكفي لنتبين كيف تم هذا التطور في مختلف المناطق • وكل ما نعرفه هو زوال الحكومات الملكية بعد هذا التاريخ وقيام حكومات جمهورية في كل مكان عدا بعض المقاطعات النائية مثل (مولوسيا) في (ابيروس) • وحتى في هذه المقاطعة كان مفروضا على الملك عند اعتلائه العرش ان يقسم اليمين بأنه سيحكم الشعب حسب القوانين • وفي اسبارطة أصبحت الملكية مزدوجة يتولاها شخصان يتقاسمان الاعمال ويراقب احدهما الآخر • وفي (آثينة) انقلب لقب الملك الى وظيفة بسيطة اقتصرت في الاخير على الشؤون الدينية •

وقد انتقل الحكم من أيدي الملوك الى طبقة النبلاء ، فنشأت بذلك

الجمهوريات الارستوقراطية • وكانت الاسرات النبيلة هي التي تمتاز بقوة العصبية ويعرف أصحابها الاساليب الادارية • وفي عهد هـذه الجمهوريات الارستوقراطية نظمت مصالح الحكومة المتنوعة وحددت أعمـال الموظفـين وسلطاتهم • وبينما كانت ادارة الحكومة خاضعـة في القديم لأوامـر الملك وكان يكفي في كثير من الاعمال اتباع قواعـد العادة والعرف أصبـح من الضروري بعد قيام الحكم الجمهوري وضع قوانين ثابتة • وسنرى كيف ظهر في آخر هذا العهد كثير من المشرعين الذين وضعوا الدساتير والقوانين في مختلف المدن اليونانية •••

الفصل السادس

الاستعمار اليوناني
و
علاقات اليونانيين بالحضارات الشرقية

بدأ اليونانيون ينتشرون في بحر ايجة منذ اقدم العصور . وبعد « غارة الدوريين » اضطرت قبائل الاخائيين والايوليين والايونيين الى الهجرة على مقياس واسع الى شواطىء آسية الصغرى . ولكن التوسع اليوناني لم يقف عند هذا الحد ، بل ان اليونانيين ، بعد ان تقدموا في فن الملاحة واطلعوا على أحوال البلاد الاجنبية وشاهدوا السهول الواسعة والمحصولات الكثيرة استمروا في الهجرة واخذوا يؤسسون المستعمرات في البحر الاسود وايطالية وصقلية وفرنسة واسبانية وشمالي افريقية . ولم ينته هذا التوسع الاستعماري الا في القرن السادس قبل الميلاد . وقد اتصل اليونانيون سواء في مستعمراتهم في آسية الصغرى أو في علاقاتهم التجارية بالشعوب الشرقية القديمة فاقتبسوا عنها أسس الحضارة .

١ ـ الاستعمار اليوناني :

اندفع اليونانيون الى الهجرة والاستعمار لاسباب وعوامل متعددة . ولا شك في ان المصلحة الاقتصادية كانت في مقدمة الحوافز . لقد كان اليونانيون يطمعون في خيرات المستعمرات فيستوردون منها الحبوب والمواد الأولية التي يحتاجونها ويصدرون اليها مصنوعاتهم . ولكنهم يختلفون عن الفينيقيين الذين لم يكونوا يفكرون في شيء آخر غير الفوائد التجارية . فان

الكثيرين من اليونانيين كانوا يتركون بلادهم رغبة في المغامرات والشهرة، أو حبا في الاطلاع والمعرفة . ثم ان بعض اليونانيين كانوا يضطرون الى الهجرة والتفتيش عن وطن جديد لهم « لان ارض بلادهم ضيقة وفقيرة لا تكفي لاعاشتهم » كما اشار الى ذلك (توكيديديس) و (افلاطون) وقد كان نظام الملكية السائد في بلاد اليونان يفرض بقاء الاراضي الواسعة الصالحة للزراعة في ايدي الاسرات الكبيرة النبيلة ، كما ان نظام الوراثة يقضي بحصر حق استثمارها في اكبر الأولاد ، فكان بقية الاخوة الذين يريدون ملكا خاصا بهم يذهبون الى ما وراء البحار في سبيل الحصول على ذلك . واخيرا فان الاوضاع السياسية في المدن اليونانية كانت كثيرا ما تدفع قسما من السكان الى الهجرة وذلك لان الحكم الارستوقراطي الذي يفرض سيطرة النبلاء ويوجه سياسة البلاد حسب مصلحة هذه الطبقة كان يحرم المواطنين الاحرار من اكثر الحقوق ويزيد في شقة الخلاف بين الطبقات والاحزاب . ويروي لنا المؤرخون اليونانيون ان اسرة (بنتيليديس Penthilidis) الحاكمة في مدينة (ميتيلين Mytilène) عاصمة جزيرة (لسبوس) كان افرادها يتجولون في الشوارع وبأيديهم السياط يضربون المارة . فكان الذين يأنفون من هذه الحالة يتركون موطنهم ويشتركون مع أمثالهم في تأسيس مدينة جديدة يتولون هم أنفسهم الحكم فيها . كذلك كان بعض النبلاء الذين لا يتوصلون الى الحكم في بلادهم كثيرا ما ينضمون الى المهاجرين المستعمرين . ثم الى جانب هذه الاسباب العامة كانت هناك عوامل خاصة تدفع الى الهجرة . واذا رأينا مثلا سكان (ايونية) الجنوبية ، وعلى الاخص مدينة (ميليتوس) يؤسسون المستعمرات في الاقطار البعيدة بينما سكان القسم الشمالي لا يقدمون على ذلك فان السبب يرجع الى ان (القاريين) المجاورين للقسم الجنوبي كانوا أقوياء لا يسمحون لليونانيين بالتوسع في بلادهم بخلاف (الليديين) في الشمال الذين لم يكونوا يستطيعون صدّ اليونانيين ...

ان المهاجرين اليونانيين كانوا يأتون من مختلف الاماكن في شبه جزيرة

اليونان وجزر بحر ايجة وشواطىء آسية الصغرى • وهم ينتسبون الى كل الطبقات بينهم النبلاء والمتشردون والفلاحون والتجار • فكان بعضهم يفتش عن ارض تصلح للفلاحة ، قريبة من المياه ، فيها حقول خصبة لزراعة الحبوب ومرتفعات لكروم العنب والتين وغابات تقطع منها الاخشاب اللازمة للتدفئة والبناء وصنع السفن • هكذا نرى المهاجرين من (ميغارا) عندما وصلوا الى ضفاف البوسفور يفضلون من هذه الوجهة الشاطىء الاسيوي على الاوروبي • الا ان البعض الاخر كانوا يريدون اكتساب الثروة عن طريق التجارة ، فنراهم يبحثون عن الخلجان الصالحة لتأسيس مرافىء يسهل الاتصال بينها وبين البلاد الداخلية ويمكن تبادل البضائع مع سكانها وتصدير كميات كبيرة من الحبوب والمعادن والاخشاب والرقيق منها مقابل الخمور والزيت والاواني الخزفية والاسلحة والحلي المستوردة من بلاد اليونان • وكان قسم من المهاجرين يخدمون في جيوش الدول الاجنبية كجنود مأجورين فيحصلون على الغنائم والجوائز بما يظهرونه من الشجاعة والاخلاص وكثيرا ما يستقرون في اراضي هذه الدول ، فيختلطون بالسكان أو يؤسسون مدنا يونانية خاصة بهم كما فعل الجنود الذين انضموا الى جيش (بسامتيخ الأول) واسسوا مدينة (نوقراتيس) عند مصب النيل •

كان الاستعمار اليوناني في بادىء الامر عفويا وتابعا للمصادفات يقتصر على خليط من المهاجرين المستائين الذين يعملون لحسابهم الخاص دون خطة معينة • وكانت الحكومات تشجع هجرة أمثال هؤلاء المشاغبين لتتخلص من معارضتهم • ولكن بعد ان عرف اليونانيون فائدة المستعمرات قامت حكوماتهم تتولى تنظيم الهجرة والاستعمار وتشترك في تأسيس المدن فترسل مع المهاجرين مرشدا ينوب عنها يسمى (اوكيست) يرافقه عدد من الكهان والعرافين والمهندسين • وكثيرا ما يهيىء مخطط المدينة الجديدة سلفا وتقسم الاراضي الى حصص توزع بالقرعة • على ان الحكومة لم تكن تتعهد بحماية المستعمرة كما ان المهاجرين لايعترفون بسيطرتها السياسية عليهم •

كان المهاجرون اليونانيـون حيثما يذهبون ويستقرون لا يقطعـون صلتهم بوطنهم الاصلي . انهم يحافظون على لغتهم وينظمون المستعمرة على نمط المدن اليونانية ويؤسسون معبدا لاله المدينة أو آلهة المدن التي جاؤوا منها . واذا كانوا خليطا من مقاطعات مختلفة فانهم يتفقون عادة على احد الآلهة اليونانية المشهورة ويفضلون في الغالب (ابوللون) أو (هرمس) أو (هيراقلس) ثم يأخذون شعلة من الموقـد المقـدس في وطنهم الاصلي لاشعال النار في المدينة الجديدة. وفي الاعيادالدينيةالكبرى يرسل المهاجرون وفدا عنهم يحمل الهدايا ويشترك في الاحتفـالات . واذا اقـدمت احدى المستعمرات بدورها على تأسيس مستعمرة جديدة تابعة لها فانها تطلبمرشدا من المدينة ـ الام . ويطلق المهاجرون على الانهار والجبال في وطنهمالجديد الاسماء التي ألفوها في بلادهم الاولى . ونرى هذا الشعور برابطة القرابة والاحترام نحو الـوطن الاصلي حتى في المستعمرات التـي تأسست بسبب اختلاف المهاجرين مع مواطنيهم أو كنتيجة للنزاع بين الاحزاب .ولايستثنى من هذه القاعدة سوى المهاجرين الذين طردوا من (لاقونيا) واسسوا مدينة (تازانت) في جنوبي ايطاليا ، فانهم ظلوا دوما يظهرون الحقد والكراهيـة لخصومهم في وطنهم الاصلي.وبالاجمال فان الشعور الوطني كان يدعو الى الصـداقة والتعاون بين المدينـة ـ الام والمستعمرة ويطالب بحل جميـع الاختلافات التي يمكن ان تنشأ عن طريق التحكيم .

كانت سياسة المهاجرين ـ المستعمرين تجاه سكان البلاد التي ينتقلون اليها تختلف حسب اهداف الهجرة : هل هي ترميالىالاستيلاء علىالاراضي الزراعية أم الى تأسيس مراكز تجارية ؟ ، ثم حسب قوة هـؤلاء السـكان وضعفهم ، فكانوا اذا اتصلوا بأقوام بدائية ساذجة يستخدمون جميعالوسائل لاستمالتها بالهدايا النادرة وحسن المعاملة وكثـيرا ما يتزاوجون مع هـؤلاء السكان فيقدمون احدى الفتيات الجميلات كزوجة لرئيس القبيلة ويتزوج زعيمهم بنت هذا الرئيس . كذلك كانوا يحترمون آلهة السكان فيفتشون

بين آلهة اليونان على ما يماثلها ويطلقون عليها أسماء يونانية ويشتركون في عبادتها • على ان المهاجرين اليونانيين كانوا يلجؤون احيانا الى الحيلة والمكر والخدعة فيعقدون معاهدات الصداقة مع القبائل الاجنبية ثم يغدرون بها •

وقد كان للاستعمار تأثير كبير في تنمية الروح القومية لدى اليونانيين ، اذ ان الاحتكاك بالامم الاجنبية جعلهم يلمسون الفوارق بينهم وبين «البرابرة» ويشعرون بالروابط التي تجمع بينهم وتوحدهم • ثم ان المستعمرات التي اشترك مهاجرون من مدن مختلفة في تأسسها قد ساعدت على التفاهم والتقارب بين هذه المدن • ان المستعمرات اليونانية رغم اتباعها في كثير من الاحيان نظام الحكم السائد في الوطن قد سبقت المدن اليونانية في تطورها نحو الديموقراطية والسير في طريق الحضارة فان اقدم الدساتير والانظمة التشريعية لدى اليونانيين قد وضعت في المستعمرات مثل قوانين (زالويقوس) في مدينة (اوقريس) بجنوبي ايطاليا وقوانين (بيتاقوس) في جزيرة (لسبوس) ثم قوانين (خاروندداس) في (قاتانيا) بصقلية •

في المستعمرات ولد الشعر والأدب اليوناني ، وفيها نشأت العلوم الرياضية والفلسفة وبرز أول الخطباء والمؤرخين • انه في المستعمرات وليس في شبه جزيرة اليونان نفسها ظهرت الحضارة اليونانية وعن طريق هذه المستعمرات انتقل ميراث الحضارات الشرقية القديمة الى اليونان كما ان الحضارة اليونانية انتشرت في العالم عن هذه الطريق •••

٢ ــ اليونانيون في مصر :

منذ القرن الثامن قبل الميلاد أخذ اليونانيون ينتشرون بكثرة في مصر • فكان بعضهم يقيم فيها مدة مؤقتة لاجل التجارة بينما كان غيرهم ينخرطون في الجيش المصري كجنود مرتزقة ويشتركون في محاربة السوريين والحثيين والاشوريين • وكان لايسمح لهؤلاء الجنود ان يستقروا مع اسرتهم الا في

بعض المناطق على الحدود ، لأن المصريين كانوا يأنفون من الاختلاط بالاجانب الذين يعتبرونهم غير طاهرين •

وقد استخدم (بسامتيخ الاول) (٦٦٥ – ٦١١) عـددا كبيرا من هؤلاء الجنود المأجورين واضطر في بادىء الامر الى اسكانهم في مستعمرات خاصة عند (دفنة) ، حيث كانوا يعيشون معزولين عن السكان • على ان الخدمات الكبيرة التي قام بهـا هـؤلاء الجنود الشجعان في توطيـد عرش (بسامتيخ) دفعته الى ادخالهم في حرسه الخاص ، كما جعلته يسعى الى التقريب بينهم وبين المصريين • ولهذه الغاية جاء بعدد من الاطفال المصريين واسكنهم مع الجنود اليونانيـين ليستطيعوا تعلم اللغـة اليونانيـة ويصبحوا تراجمة • كذلك أخذ يشجع التجار اليونانيين على المجيء الى مصـر لأن المكوس التي كان يستوفيها الجباة عن البضائع كانت تدر أموالا طائلة على الخزينة • ولما ارتقى (آماسيس) العرش في سنة (٥٧٠ ق•م) اتخذ بعض التدابير التي كان يبدو لأول وهلة انها ضد اليونانيين ولكنها ادت في النتيجة الى تثبيت اقدامهم في مصر • فقد الغى (آماسيس) معسكرات (دفنة) وأمر بتهديم مصنع السفن اليـوناني الذي انشىء في عهد (نخاو) ومنـع دخول السفن اليونانية الى النيل ولم يسمح لليونانيين بالتجارة الا في مكان معين عند مصب النيل الغربي حيث كان التجار من مدينـة (ميليتوس) قـد اسسوا مركزا للتبادل منذ سنة (٧٥٠) فأخذ اليونانيون يجتمعون في هذه البقعة التي انقلبت في مدة قصيرة الى مدينة كبيرة سميت (نوقراتيس) أى « ملكة البحر » • وقد بنيت فيها عدة معابد يونانية ضخمة وبلغ عدد سكانها خمسين ألفا • وقد جعل (آماسيس) حرسه الخاص كله من اليونانيين الذين سكنوا في (ممفيس) واصبح لهم حي خاص في العاصمة وتزوج (آماسيس) أميرة يونانية وصار يرسل الهدايا الى المعابد اليونانية ومنح مدينة (نوقراتيس) حقوقا واسعة في الحكم الذاتي •

ولما تولى (بسامتيخ الثاني) العرش استصحب معه فرقـة من اليونانيين في الحملة التي شنها على الحبشة • وقد نقش كثيرون من هـؤلاء الجنـود اسماءهم على المعابد في (أبي سمبل) بمصر العليا أثناء مرورهم بها •

كانت (نوقراتيس) مدينة تجارية وصناعية في الوقت نفسه • وقـد اسست فيها مصانع كثيرة للاواني الخزفية والفسيفساء • وكانت تستورد الى مصر مختلف البضائع اليونانية وتصدر الى اليونان المنتوجات المصرية من حبوب وورق البردي ومعادن ثمينة وعاج وريش نعام • واشتهرت المدينة بملاهيها ونسائها الجميلات وباعة الازهار فيها • ولا شك في ان وجود هذه المدينة قد ساعد كثيرا على اقتباس اليونانيين للحضارة المصرية • وقد كشفت الحفريات الاثرية الحديثة في (تل النبيرة) على آثار (نوقراتيس) التـي كانت قد قامت على انقاض مدينـة مصرية قديمـة اسمها (بي – أم – رو) ووجدت قناة كانت تربط بينها وبين مدينة (سايس) •

لقد تأثر اليونانيون بالامم الشرقية المجاورة التي اتصلوا بها في مبـدأ تاريخهم واقتبسوا عنها الكثير من عناصر الحضارة • وفي مقدمة هذه الامم يأتي المصريون •

تذكر الاساطير اليونانيـة ان (قدموس) مؤسس مدينـة (طيبـة) و (داناوس) جد حكام (آرغوس) يرجع أصلهما الى مصر • ومنذ القرن السابع نرى الكثيرين من مشاهير اليونانيين يزورون مصرو يعجبون بحضارتها القديمة مثل (تاليس) و (فيثاغوراس) و (صـولون) و (افلاطـون) و (ديموقريطس) • وقد رأى اليونانيون ان المصريين لم يكونوا (برابرة)، بل امة عريقة في الحضارة متقدمة في الفنون والعلوم قبـل اليونانيين بآلاف السنين • ويذكر (صولون) ان احد الرهبـان قال له : « انتم اليونانيـون لستم سوى أطفال ثرثارين ، مغرورين ، لا تعرفون شيئا عن الماضي • » ولما اجتمع الرحالة والمؤرخ (هيكاتيوس) براهب آخر واخذ يفتخر في حديثه

بأنه يستطيع ارجاع نسبه الى أحد الآلهة قبل خمسة عشر جيل أشار الراهب بكل هدوء الى تماثيل (٣٤٥) من الرهبان الواحد منهم ابن الذي قبله وبذلك يرجع نسب الاخير منهم الى (٣٤٥) جيل • ويذهب بعض العلماء اليونانيين، مثل (هيرودوت)و (بلوتارخ) ، الى ان مذهب (اورفيوس) وما يتضمنه من اعتقاد بالحساب بعد الموت انما اقتبس عن عبادة (ايزيس) و(اوزيريس) عند المصريين • ومن المحتمل أن يكون (تاليس) قد تعلم الهندسة من المصريين كما ان كثيرا من الصناعات اليونانية كالنسيج وسكب المعادن ونقش العاج مقتبسة عنهم • واذا دققنا في التماثيل التي صنعها اقدم النحاتين اليونانيين نلاحظ شبها بينها وبين التماثيل المصرية والاشورية والفينيقية • وليس بعيدا ان يكون المعماريون اليونانيون قد استوحوا فكرة الاعمدة (الدورية) من مشاهدة المعابد المصرية •••

٣ ـ علاقة اليونانيين بالفينيقيين :

في الدرجة الثانية بعد المصريين يأتي الفينيقيون بين الأمم التي اتصل بها اليونانيون واقتبسوا الحضارة عنها • وقد استطاع الفينيقيون بين سنة (١٠٠٠ ـ ٧٠٠ ق•م) أن يسيطروا على تجارة البحر الابيض المتوسط • فانه في هذا العهد ضعفت الدولة المصرية تحت حكم الاسرات (٢١ ـ ٢٥) واصبحت بلادها عرضة لغارات الليبيين والاحباش • وكانت بلاد اليونان بعد (غارة الدوريين) في حالة فوضى قد زالت منها معالم الحضارة الايجية وسكنتها قبائل بدوية ، بعيدة عن فن الملاحة وعاجزة عن انشاء الاساطيل الكبيرة عدا انها لاتتقن بعد شيئا من الصناعات • وقد استفاد الفينيقيون الذين تجمعوا أولا حول ملك (جبيل) ثم حول ملك (صيدا) ، من هذه الاوضاع فأخذوا يجوبون في كل انحاء البحر الابيض المتوسط وتقدموا في فن الملاحة وصنع السفن وازدهرت لديهم مختلف الصناعات مثل النسيج والصباغة والزجاج واتسعت تجارتهم • وكان النشاط التجاري يدفع الفينيقيين الى

الاختلاط بجميع الامم في حوض البحر الابيض المتوسط والقيام بدور الوسيط في تمازج الحضارات وانتشارها • واستدعاء ملوك آشور للفنانين الفينيقيين لتزيين قصورهم ثم استخدام هؤلاء الفنانين من قبل الملك (سليمان) عند تجديد المعبد في بيت المقدس ــ مما يبرهن على مهارة الفينيقيين وشهرتهم في الفنون الجميلة فلا عجب اذا رأينا اليونانيين تبهرهم بضائع الفينيقيين ويرحبون بالسفن الفينيقية التي كانت تحمل إليهم الاواني الخزفية والزجاجية الملونة والتحف المصنوعة من العاج وبصورة خاصة الاقمشة الارجوانية • وقد أسس الفينيقيون كثيرا من المستعمرات والمراكز التجارية في جزر بحر ايجة وشواطئه ، وبالدرجة الاولى في (رودس) و (قوس) وخليج (قورنت) • وليس مستبعدا ان يكونوا قد استثمروا مناجم الذهب في جزيرتي (سيفنوس) و (تاسوس) • وتذكر بعض الروايات اليونانية التي يصعب التأكد من صحتها ، انه كانت لهم مراكز تجارية في (آثينة) و (طيبة) ايضا •

لقد كان طبيعيا ان يتعلم اليونانيون أشياء كثيرة من الفينيقيين مثل صنع السفن الكبيرة والصياغة • كذلك يبدو لنا تأثير الحضارة الفينيقية في عبادة (آفروديت) التي تشبه (عشتروت) عند الفينيقيين •

على ان أهم شيء كان له أعمق الاثر في الحضارة اليونانية وتطورها الفكري السريع هو اقتباس الحروف الابجدية • ان الكتابة الفينيقية قد استمدت عناصرها من الخطين المصري والبابلي كما يستدل من تدقيق الالواح الكتابية التي عثر عليها في (طور سيناء) ثم في (رأس شمرة) والتي تبين لنا مرحلة الانتقال من الكتابة التصويرية الى الكتابة الهجائية • ولاشك في ان اختراع الحروف الابجدية من قبل الفينيقيين يعتبر تقدما عظيما وعاملا خطيرا في تطور الحضارة البشرية • واقدم كتابة بالحروف الابجدية الفينيقية

قد اكتشفت على نابوت الملك (احيرام) في (جبيل) الذي يرجع تاريخه الى القرن الثالث عشر ق٠م٠[١] ٠

تقتصر الكتابة الفينيقية على (٢٢) حرفا يرمز كل واحد منها الى صوت مستقل ، وبذلك فهي تمتاز على الكتابة الكريدية التي تشمل ما يقارب التسعين اشارة والتي لم تنتشر في بلاد اليونان ٠ ويظهر ان اليونانيين عند اختلاطهم بالتجار الفينيقيين قد تعرفوا الى كتابتهم البسيطةالتي يسهل تعلمها، فبدأووا باقتباسها منذ القرن الثامن ثم انتشرت بينهم بسرعة في القرن السابع ق٠م٠ وقد أظهر اليونانيون براعة فائقة في تحوير الكتابة الفينيقية بصورة تلائم خصائص لغتهم ٠ فان الفينيقيين لم تكن لديهم حروف صوتية ولا اشارات تدل على الحركة وكيفية التهجي ٠ وهناك بعض الاصوات عند الفينيقيين لايتلفظها اليونانيون مثل (ح) و (ع) بينما هناك لدى اليونانيين أصوات اخرى ليس لها ما يقابلها عند الفينيقيين ٠ ولعل أهم اصلاح قام به اليونانيون هو اضافة الحروف الصوتية ثم الاستعاضة عن التشديد بكتابة الحرف نفسه مرتين ٠ وكان اليونانيون في بادىء الامر يكتبون من اليمين الى الشمال مثل الفينيقيين ثم صاروا يكتبون احيانا من الشمال الى اليمين واحيانا اخرى بالعكس حتى سنة (٥٠٠) ق٠م٠ ومنذ ذلك الوقت اصبحت الكتابة اليونانية من الشمال الى اليمين دوما ٠ وقد استفاد اليونانيون من تجاربهم في هذه المدة فغيروا اشكال الحروف وجعلوها اكثر تناظرا كما بدلوا اتجاهها فصاروا يكتبون (B)عوضا عن (ꓭ) و (E) عوضا عن (Ǝ) ٠

تطورت الكتابة عند اليونانيين في أشكال مختلفة بسبب استقلال المدن المتعددة وأختلاف اللهجات ٠ فكان هناك ما لايقل عن عشرة أنواع من

---

(١) اثبتت الاكتشافات التي تمّت في (راس شمرة) ، اثر الحفريات التي أجريت اعتباراً من سنة ١٩٣٠ ، بانه كان لدى الفينيقيين ، ابجدية اقدم من ابجدية الملك احيرام ٠ وكانت مؤلفة من (٢٨) حرفاً ، ولكنه لم يُكتَب لها البقاء ٠ أما اليونانيون ، فلقد اقتبسوا ، كما قلنا ، عن ابجدية « جبيل » المؤلفة من (٢٢) حرفاً ٠

الكتابة • ولكن بعد ان اقرت مدينة (آثينة) ، التي اصبحت أهـم مركـز للحركة الفكرية ، الكتابـة (الايونية) تغلبت هـذه على جميـع الانـواع الاخرى • وهي التي انتشرت في اوروبا الشرقية • أما الرومان فقد اقتبسوا الكتابة التي كانت سائدة في شبه جزيرة (خاليكيديك) ثم انتقلت عن طريقهم الى جميع الشعوب الاوروبية الغربية • وقد احتفظ سكان (خاليكيديك) بصوت (الواو)كحرف صوتي أي (٥) ولذلك نرى هؤلاء يسمون الخمر مثلا (Oinos) بينما يسميه أولئـك (Voinos) فأصبح عنـد الرومان (Vinum) وأكبر برهان على اقتباس اليونانيين للحروف الابجدية الفينيقية هو إحتفاظهم بالاسماء التي اطلقها الفينيقيون على هذه الحروف• فنراهم يقولون (الفا (Alpha) عن (الألف) (ومعناه الثور ، لأن هذا الحرف ايشبه قرن الثور) ويقولون : (بيتا Beta) أي (بيت) (لأن حرف الباء يشبه صورة البيت) و (غاما Gamma) وهي محرفة عن جيمل (أي الجمل في اللغة الفينيقية) ، ويقولون : (دلتا Delta) عوضاً عن (دالت) ومعناها الباب ، كما أن (زيتا Zeta) مأخوذة عن (زين) وهي الرمح و (يوتا Iota) من (يود) أي اليد •

مع الكتابة انتقلت الى اليونانيـين وسائل الكتـابة أيضـا • وقـد كان الفينيقيون يستخدمون في الكتابة ورق البردي (بابيروس) الذي يستوردونه من مصر • وبما أن مدينة (بيبلوس) أي (جبيل) هي التي كانت تستورد صحائف البردي من مصر وتصدرها الى اليونان فقد أطلق اليونانيون اسم المدينة على هذه الصحائف نفسها ومن هنا اشتقت كلمة (Bible) بمعنى الكتاب (ويقصد به الكتاب المقدس) •

٤ ـ تأثير الحضارة البابلية في اليونان :

كذلك تأثر اليونانيون بحضارة ما بين النهرين ، فاقتبسوا عن البابليين

النظام الستيني للمقاييس والموازين ، فكانوا يستعملون (المنا) البابلية التي تزن (١٫٠١) كيلو غراما • وتتألف وحدة الوزن الثقيل التي تسمى (تالانتون) من ستين (منا) • وقد اتخذ اليونانيون (المنا) وحدة قياسية لسبائك الذهب ، الا انهم مزجوا بين النظام البابلي والمصري فقسموا (المنا) الى (١٠٠) دراخما أو (٥٠) ثقلا عوضا عن (٦٠) • وكلمة (دراخما) التي انقلبت عند العرب الى (درهم) تفيد معنى الكف أو الحفنة ، لأن كل (دراخما) من الفضة كانت تساوي حفنة من قطع الحديد أو النحاس • وقد كان للدراخما في تلك العصور قيمة شرائية كبيرة فنرى سعر الخروف مثلا لا يزيد على (دراخما) واحدة وسعر الثور خمس (دراخمات) • وكان الشخص الذي تبلغ وارداته السنوية (٥٠٠) دراخما يعد من الاغنياء •

وأخذ اليونانيون عن البابليين الساعة المائية والشمسية ، كما اقتبسوا عنهم مبادىء الفلك وآلات الرصد والجداول الفلكية والخرائط الجغرافية وطريقة تقسيم الدائرة الى (٣٦٠) درجة وكل درجة الى (٦٠) دقيقة وكل دقيقة الى (٦٠) ثانية • وما استطاع (تاليس) أن يتنبأ بكسوف الشمس الذي حدث في ٢٨ مايس سنة ٥٨٥ ق•م• الا لأنه عدا اطلاعه على علوم المصريين كان يعرف حسابات البابليين عن حركات النجوم •

ويظهر لنا تأثير الاشوريين في طريقه نحت التماثيل الحيوانية ونقش الافاريز التي كان يتبعها اليونانيون في بادىء الأمر •••

على ان اقتباس اليونانيين لهذه العناصر من حضارة ما بين النهرين لم يكن بصورة مباشرة وانما عن طريق شعوب آسية الصغرى التي كانت على اتصال دائم بالبابليين والآشوريين والتي خضعت لنفوذهم • وفي مقدمه هذه الشعوب التي اختلط بها اليونانيون نذكر (الليديين) •

٥ ـ علاقات اليونانيين بالليديين :

كان (الليديون) من الشعوب الايجية الصغيرة القاطنة في شواطىء

آسية الصغرى الى جانب (القاريين) و (الليكيين) • وقد اضطروا عند هجوم المهاجرين اليونانيين على بلادهم في القرن الحادي عشر الى الانسحاب الى داخل البلاد ، وكانوا في أوائل القرن السابع تحت حكم الملك (قاندالاووس) من اسرة (المايونيين) التي يرجع المؤرخون اليونانيون اصلها الى (هيراقلس) • وفي الحقيقة كان هؤلاء (المايونيون) احدى قبائل (الفريجيين) الآريين الذين كانوا يتكلمون اليونانية والذين اغاروا في القرن الثالث عشر على آسية الصغرى قادمين من (تراقية) وقد ثار (الليديون) بقيادة احد زعمائهم اسمه (جيجس) الذي قتل الملك (قاندالاووس) وأسس دولة (ليديا) وتولى العرش في عاصمتها (ساردیس) • وكان (جيجس) شابا مقداما ، مغامرا ، طموحا فاستطاع ان يؤلف جيشا قويا أكثره من الخيالة وان يقضي على الامارات الصغيرة ويوحد البلاد • ثم انه اتبع سياسة حكيمة تجاه الحكومات اليونانية في شبه جزيرة اليونان فصار يرسل الهدايا الثمينة الى معابد اليونانيين ويمجد آلهتهم • وهو انما أراد استمالة اليونانيين لئلا يهبوا الى نجدة المدن (الايونية) المجاورة لمملكته والتي كان يرمي الى بسط سيطرته عليها • وقد استفاد من النزاع القائم بين هذه المدن واخذ يستخدم احيانا القوة واحيانا اخرى الحيلة في سبيل اخضاعها لحكمة أو فرض حمايته عليها اذا تعذر ذلك • وكان يساعد التجار اليونانيين ويشجعهم على الثورة ضد ملوكهم • ولكن فجأة توقف (جيجس) عن سياسة الفتح والتوسع ، اذ لاح له الخطر على بلاده نفسها من غارة (الكمريين) الذين كان قد طردهم (السكيت) من جنوبي روسية فهاجروا الى آسية الصغرى واغاروا على (الفريجيين) وانتصروا عليهم حتى اضطر ملكهم (ميداس) الى الانتحار سنة ٦٧٦ ق•م • وقد اخذوا يهددون (ليدية) والمدن اليونانية على الشواطىء حتى حوالي سنة (٦٦٣) ، فأرسل (جيجس) يستنجد بملك الآشوريين (آشور بانيبال) ويقدم له الطاعة • ولكنه بعد أن انتصر على (الكمريين) تحالف مع المصريين وأرسل جيشا لمساعدتهم على اخراج

الاشوريين من بلادهم ، فانتهز (الكمريون) هذه الفرصة فانقضوا على (ليديا) وتغلبوا على جيش (جيجس) الذي قتل في المعركة ودخلوا العاصمة (سارديس) فنهبوها ثم هدموا مدينة (مغنيسيه) وحرقوا معبد الالاهة (آرتميس) في مدينة (ايفيزيوس) اليونانية • وكان هؤلاء الغزاة لايطمعون الا في الغنائم ، لذلك تركوا البلاد بعد ان نهبوا كل ما وصلت اليه ايديهم • فتولى عرش (ليدية) الملك (آرديس) ابن (جيجس) الذي اعلن خضوعه للآشوريين في بادىء الامر ثم تحرر من نفوذهم بعد موت (آشور بانيبال) في سنة ٦٢٦ ق•م• وبعد قيام الثورات الداخلية في آشور وهجوم (الميديين) عليها ••

وقد عادت مملكة (ليدية) الى الانتعاش وتقدمت بسرعة على عهد ملوكها (ساداياتس Sadyattes) (٦١٥ – ٦١٠) و (آلياتس Alyattes) (٦١٠ – ٥٦١) و (كريزوس Cresus) (٥٦١ – ٥٤٦)، وستطاع هؤلاء الملوك ان يوسعوا حدود مملكتهم ويعيدوا بناء العاصمة (ساردیس) بصورة أجمل مما كانت عليه حتى صارت بقصورها الفخمة وأسواقها الزاخرة من أكبر المراكز التجارية في بلاد الشرق • وعرف ملوك (ليدية) كيف يستثمرون ثروة بلادهم المشهورة بخصب اراضيها وكثرة معادنها الثمينة وجمعوا في بلاطهم رجال الفن من كل الامم واصبحت عاصمتهم (ساردیس) مدينة لهو وطرب يلتقي فيها التجار من مختلف البلدان • واخذ الملك (آلياتس) يتبع سياسة (جيجس) في اخضاع المدن الايونية لسيطرة (ليدية) فهاجم مدينة (ميليتوس) عدة مرات دون أن يستطيع الاستيلاء عليها • وقد أدت هذه الحرب الى توقف الحركة التجارية فتدخلت الحكومات اليونانية ، وفي مقدمتها (قورنت) ، ورهبان معبد (دلفي) لعقد الصلح بين الطرفين وكانت الاخبار عن تقدم (الميديين) وهجومهم على (نينوا) في سنة ٦٠٦ ق•م• قد جعلت (آلياتس) يقبل بهذه الوساطة

وينصرف الى تقوية جيشه لمواجهة الخطر الجديد • وفي الحقيقة فقد اتسعت فتوحات (الميديين) بسرعة وزحفت جيوشهم على آسية الصغرى وبلغت حدود (ليدية) • ولكن بينما كان الطرفان يستعدان للمعركة كسفت الشمس يوم ٢٨ مايس سنة ٥٨٥ ق•م• وعلى الرغم من أن (تاليس) كان قد تنبأ بذلك قبل مدة سنة فان الجميع قد تشائموا من الحادث وعقد الصلح بين المملكتين وتخلصت (ليدية) ، ولو مؤقتا ، من غارة الميديين •

ولما انتقل الملك الى (كريزوس) استطاع ان يخضع جميع المدن (الايونية) لنفوذه ويسيطر على الشواطىء • ولكنه سمح لهذه المدن بالحكم الذاتي واقتصر على جباية ضريبة معتدلة منها ثم أخذ يتقرب من اليونانيين في جزر بحر ايجة وشبه الجزيرة اليونانية ويعقد معهم معاهدات التحالف والصداقة ليضمن مساعدتهم في صد غارات (الميديين) •

وكان (كريزوس) الذي يسميه الشرقيون (قارون) قد جمع كنوزا عظيمة من المال حتى صارت تضرب به الامثال في الغنى • ويذكر المؤرخون اليونانيون أنه كان دوما يستشير العرافين في المعابد اليونانية وعلى الاخص معبد (دلفي) المشهور ويقدم الهدايا الثمينة لآلهة اليونانيين • ولما جاء وفد من اسبارطة لشراء كمية كبيرة من الذهب لتماثيل معبد (آبوللون) تبرع لهم بكل ما يحتاجونه • وقد عرف له الكهان هذا الفضل فأعلنوا أن (ليدية) من الحكومات اليونانية وان سكانها ليسوا من (البرابرة) •

وفي الواقع كانت (ليدية) تمثل خلاصة الحضارات الشرقية • وقد امتزجت فيها حضارة البابليين والآشوريين والفينيقيين والحثيين • ولم يطلع اليونانيون على معارف البابليين الفلكية وخرائطهم الجغرافية ونظام مقاييسهم وموازينهم الا عن طريق (ليدية) • وفي الوقت نفسه اقتبس اليونانيون عن هذه المملكة العملة النقدية • فان ملوك (ليدية) هم أول من ضرب النقود حوالي سنة (٦٨٠) ق•م• فكانوا يقسمون سبائك الذهب والالكترون

(وهو خليط من الذهب والفضة) الى قطع متساوية في الحجم والوزن يسهل نقلها ومعرفة قيمتها واستخدامها في التبادل التجاري ثم يضعون عليها شارة خاصة كضمانة من الحكومة . فاقتبس اليونانيون وجميع الامم الاخرى هذا الاختراع عن (الليديين) . فكان لذلك تأثير كبير في تقدّم التجارة والتطور الاقتصادي ...

الفصل السابع

نشأة الحضارة اليونانية

١ ـ ولادة الفلسفة اليونانية :

عند الكلام على القسم المتوسط من شاطىء آسية الصغرى ، الذي يبلغ طوله ما يقارب التسعين ميلا ولا يزيد عرضه على (٢٠ ـ ٣٠) ميلا والذي عرف باسم (ايونية) ، يقول (هيرودوت) : « ان هذه البقعة تتمتع بأجمل اقليم وألطف طقس في العالم كله . » والمدن هنا تقوم ، على الأكثر ، عند مصب الأنهار أو عند منتهى الطرق التجارية التي تمتد من جهة الى البحر الأسود ومن جهة ثانية الى ما بين النهرين وايران وتربط بذلك بين هذه البلاد وبين حوض بحر ايجة .

كانت (مليتوس) ، وهي احدى المدن الايونية الاثنتي عشر ، أغنى مدينة في العام اليوناني في القرن السادس قبل الميلاد . فهي قد بنيت في موقع ممتاز جدا على رأس ممتد في وسط البحر تقابله سلسلة من الجزر تمنع عنه الرياح ويصلح ليكون مرفأ في كل جهاته . وعلى الرغم من أن مكان المدينة يشبه بذلك جزيرة منعزلة فان المواصلات بينها وبين البلاد الداخلية سهلة عن طريق وادي (مياندر) .

كان يسكن في هـذا المكان قبـلا (القاريـسون) الى أن هاجر اليـه (الايونيون) قادمين من مقاطعة (آتيكا) حوالي سنة (١٠٠٠) ق.م. ولم

يكن هؤلاء المهاجرون يصحبون معهم نساءهم ولذلك أخذوا يقتلون الرجال من السكان الأصليين ويتزوجون بأراملهم • وقد انضم الى الايونيين كثير من المهاجرين الآخائيين والكريديين والليكيين وسارت بينهم جميعا اللغة اليونانية وعبادة الالاهة (آثينة) والاله (ابولون) •

خضع سكان (ميليتوس) ، في بادىء الأمر ، مثل غيرهم من المدن اليونانية للحكم الملكي الذي كانت تتولاه هنا أسرة (نيليئيد) • ولكن هذا الحكم زال منذ القرن الثامن وانتقلت السلطة الى حكومة ارستوقراطية كان يقوم عليها النبلاء أولا ثم قبض عليها رجال المال • وكانت عامة الشعب تطمح الى الحرية فتعددت الثورات وانتهز (الليديون) هذه الفرصة لمهاجمة المدينة • الا ان أحد زعماء الطبقة المتوسطة اسمه (ترازيبولوس) انتزع السلطة وفرض نفسه حاكما فردا (ديكتاتورا) وقام بتنظيم الدفاع عن المدينة واستطاع أن يصد (الليديين) • وتحت حكم هذا الديكتاتور في أوائل القرن السادس ازدهرت الصناعة والتجارة وازدادت ثروة المدينة التي أسس فيها عدد كبير من معامل النسيج تنتج كمية كبيرة من المنسوجات الصوفية • وبرع سكان (ميليتوس) في صنع السفن وفاقوا أساتذتهم الفينيقيين في فن الملاحة • وقد اتسعت تجارة (ميليتوس) وأخذت تؤسس المستعمرات في كل أنحاء البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود ، فبلغ عدد هذه المستعمرات الثمانين كان ستون منها على شواطىء بحر مرمرة والبحر الاسود أشهرها (سينوب) و (طرابزون) • وقد ذكرنا قبلا تأسيس مدينة (نوقراتيس) في مصر من قبل تجار (ميليتوس) •

ولما تراكمت الأموال في أيدي تجار المدينة أخذوا يقرضونها للقيام بمشاريع جديدة مقابل فائدة معينة وبذلك نشأت المصارف التي كانت ومازالت تلعب دورا هاما في الحياة الاقتصادية •

في هذه البيئة النشيطة الزاخرة بالحياة ابتدع اليونانيون ابرز معالم

حضارتهم وأثمن ميراث انتقل منهم الى البشرية جمعاء ، ونعني بذلك العلم والفلسفة . فانه في مدينة (ميليتوس) لم تكن تلتقي الطرق التجارية فحسب ، بل كذلك الأفكار والعادات والعقائد المتنوعة ، وكان الاختلاف بين هذه يؤدي الى التصادم ويدفع الى المقارنة ويدعو الى التفكير . ان الخرافات إذا تعارضت فلا بد أن يحطم بعضها بعضا وتفتح السبيل ليقظة العقل . في (ميليتوس) كان يجتمع ، كما في آثينة بعد ذلك ، أناس من مختلف المدن والشعوب والحكومات وكلهم قد اعتادوا على التنافس التجاري وملاحظة ما يجري حولهم بدقة وامعان وأصبحوا يمتازون بالنشاط الفكري، كما انهم في الغالب قد تحرروا من قيود التقاليد الموروثة بسبب غيابهم مدة طويلة عن بيوتهم ومعابدهم المحلية . وكان سكان (ميليتوس) أنفسهم يجوبون كل البلدان ويتنقلون من (ليدية) الى (بابل) ومن فينيقية الى مصر ، ويلاحظون عادات السكان ويتعرفون الى حضارتهم ويطلعون على ما عندهم من عقائد ومعارف ونظريات علمية وفلسفية . وكان تقدم التجارة يتطلب التعمق في الرياضيات ، وكثرة الرحلات تزيد في المعلومات الجغرافية، والملاحة تدعو الى الاشتغال بالمسائل الفلكية . وقد كان ازدياد الثروة والرخاء يساعد على لانصراف الى التأمل والتفكير . ولم تكن هناك في (ميليتوس) طبقة قوية منظمة من الرهبان تفرض على الناس عقائد وأفكار معينة ، كما انه لم يكن لدى اليونانيين كتاب مقدس يحدد مباحثهم ويقيدها وأشعار (هوميروس) التي كان مقدرا لها أن تصبح الى حد ما « انجيل » اليونانيين لم تكن في هذا العهد قد دونت بعد في شكلها النهائي ولذلك نراها هي نفسها تتأثر بالطابع الريبي الذي كان سائدا عند (الايونيين) .

انه في (ميليتوس) قد تحرر الفكر البشري لأول مرة من العقائد الدينية واندفع الى إيجاد حلول عقلية ، منطقية لمشاكل العالم والبشر .

على أن العقل البشري لايبدع شيئا من لا شيء . وهكذا كان الأمر

مع المفكرين (الايونيين) الذين وضعوا أسس العلم والفلسفة • انهم قد اقتبسوا ، كما رأينا ، كثيرا من معلوماتهم عن المصريين والبابليين والفينيقيين• وقد امتزجت في (ايونية) علوم الكلدانيين السحرية بأساطير (هسيودوس) الشعرية ، وحكمة المصريين المظلمة بنظرات الفينيقيين الطبيعية وتجارب التجار اليونانيين الواقعية واشتركت جميعها في تكوين الفلسفة الايونية • وكانت ديانة اليونان تتحدث عن قوة تسمى (مويرا) أي القدر الذي يسيطر على الآلهة والبشر على السواء • هنا تكمن فكرة القانون كنظام ثابت أسمى من الأوامر الشخصية التي لايمكن تقديرها وحسابها • ان فكرة القانون هذه هي التي تميز بين العلم والأساطير ، بين الحكم الفردي الاستبدادي وبين النظام الديموقراطي • وفي الحقيقة لا يشعر الانسان بالحرية الا اذا عرف انه خاضع للقانون • وقد توصل اليونانيون قبل جميع الأمم الأخرى الى ادراك هذه الحقيقة وحققوا فكرة القانون والحرية في تفكيرهم الفلسفي ونظامهم الحكومي •••

٢ ـ (تاليس) :

تبدأ الفلسفة اليونانية بأبحاث (تاليس) الذي ولد في مدينة (ميليتوس) حوالي سنة ٦٤٠ ق•م • والذي كان يرجع أصله الى الفينيقيين • وقد استمد (تاليس) ثقافته من مصر وبلاد ما بين النهرين ، فكان حلقة الاتصال في انتقال الحضارة من الشرق الى الغرب •

كان (تاليس) ، على الرغم من انقطاعه الى الدراسة وانصرافه الى التأمل ، يهتم بالشؤون العامة ويعرف الديكتاتور (ترازيبولوس) معرفة شخصية وهو الذي دعا الى تأسيس اتحاد من المدن الايونية للدفاع المشترك ضد (ليديا) وضد (فارس) •

يتفق الجميع على أن (تاليس) هو الذي أدخل العلوم الرياضية والفلكية الى اليونان • وتذكر الروايات القديمة كيف استطاع (تاليس) ،

أثناء اقامته في مصر ، أن يحسب ارتفاع الاهرام بقياس ظلالها في الوقت الذي يكون فيه ظل الشخص مساويا لطوله • كذلك كان يحسب بعد السفينة في البحر بملاحظتها من نقطتين مختلفتين في البر •

وبعد عودته الى (ميليتوس) استمر في دراسة الهندسة • واذا صح ان (تاليس) هو الذي وضع النظريات التي جمعها (اقليدس) ونسبها اليه فانه يكون قد تقدم خطوة كبيرة بالنسبة الى المصريين الذين لم يكونوا يعرفون سوى بعض القواعد الهندسية العملية ، وتوصل الى جعل الهندسة علما نظريا استنتاجيا يقوم على براهين عقلية • كذلك حرر (تاليس) المباحث الفلكية من الاعتقاد بالتنجيم الذي حال دون تقدمها عند البابليين وبذلك مهد السبيل لنشأة علم الفلك • وقد استطاع بفضل دراساته الفلكية ان يتنبأ ، كما ذكرنا قبلا ، بالكسوف الذي حدث في ٢٨ مايس سنة ٥٨٥ • على أنه رغم التأثير العميق الذي تركته هذه النبوءة في نفوس معاصريه فان ذلك ليس له قيمة علمية كبيرة ، لأن ، تاليس انما استند الى معلومات البابليين الذين كانوا قد لاحظوا تكرر حوادث الخسوف والكسوف كل تسع عشرة سنة تقريبا مرة وأصبحوا يستطيعون الاخبار عنها قبل حدوثها ولكنهم كانوا عاجزين عن تعيين المكان الذي يمكن أن يرى منه الكسوف ، وذلك لأنهم لم يكونوا قد توصلوا الى معرفة السبب في حدوث هذه الظواهر الطبيعية • ولم يكن (تاليس) أيضا يستطيع معرفة هذا السبب اذ نراه يتصور الأرض كقرص مسطح • فتنبؤه بالكسوف لم يكن اذن يستند الى أساس علمي •

عندما يبدأ أحدنا بدراسة الفلسفة ويسمع أن أول فيلسوف هو (تاليس) وأن فلسفته تتلخص في ارجاعه أصل كل الأشياء الى الماء فانه لابد أن يصاب بخيبة الأمل ويصعب عليه أن يشعر بالاحترام المطلوب نحو الفلسفة • على أننا إذا أمعنا النظر في تعاليم (تاليس) وعرفنا طريقة تفكيره وأهدافه العلمية نجد أسبابا كثيرة تدفعنا الى احترامه وتقدير فلسفته •

ان (تاليس) لم يتصور قوى الطبيعة بصورة مجسمة أي كأشخاص ولم يفسر تنوع الكائنات بالرجوع الى الآلهة حسبما فعل (هسيودوس) مثلا بل نظر الى الأشياء كما هي في الواقع وكما تدركها الحواس ، وحاول أن يبين علاقة بعضها ببعض عن طريق الاستقراء والبرهان وبذلك وضع اساس العلم والفلسفة بالمعنى الصحيح • فمكانة (تاليس) في التاريخ ترجع الى أنه وجه الفكر الى الملاحظة والبحث •

ذهب (تاليس) الى أن الماء هو المادة الأصلية التي تكونت منها كل الأشياء الأخرى • وهذا الرأي يمكن اعتباره فرضية علمية تستحق البحث• ويقول (ارسطو) ان (تاليس) ربما توصل الى هذا الرأي لأنه لاحظ أن النبات والحيوان يتغذيان بالرطوبة ، وما يتغذى منه الشيء يتكون منه بالضرورة • وما يشاهد في الأحوال الجزئية ينطبق على الأرض بالاجمال ، فانها خرجت من الماء وصارت ، حسب رأي (تاليس) ، قرصا طافيا على وجه الماء كجزيرة كبرى في بحر عظيم • وهي تستمد من هذا المحيط اللامتناهي العناصر التي تفتقد اليها •

ليس المهم أن (تاليس) رأى في الماء أصل الأشياء وانما هو ارجاعه كل الأشياء الى أصل واحد •

يصف (آرسطو) نظرية (تاليس) بأنها مادية • ولكننا اذا دققنا في تعاليم (تاليس) نراه يقول بأن كل جزء في العالم يتصف بالحياة وأنه لايمكن فصل المادة عن الحياة • وهو يعتقد بأن هناك روحا خالدة في المعادن والنباتات ـ كما في الحيوانات والبشر ، وأن القوة الحيوية تبدل أشكالها ولكنها لاتموت أبدا • وكان (تاليس) يكرر دوما القول بأنه ليس من فرق أساسي بين الموت والحياة • ولما أراد أحدهم احراجه وسأله :«لماذا اذن تفضل الحياة على الموت ؟ أجابه : لأنه ليس هناك من فرق بينهما »•

كان الجميع يسمون (تاليس) في شيخوخته (سوفوس) أي الحكيم•

ولما أخذ اليونانيون فيما بعد يعددون حكماءهم السبعة اختلت القوائم ، وأصبح عدد هؤلاء الحكماء سبعة عشر عوضا عن سبعة • ولكننا نجد اسم (تاليس) في رأس جميع القوائم والى جانبه (صولون) ثم (بياس) •

عندما سئل (تاليس) : ما هو أصعب شيء ؟ قال : « أن تعرف نفسك • » ولما سئل :«ما هو أسهل شيء ؟ » قال : « أن تنصح غيرك • » وأجاب على السؤال :«ما هو الاله ؟ » بقوله : « هو الذي ليس له مبدأ ولا آخر • » ولما طلب اليه أن يبين كيف يمكننا الوصول الى أكثر ما يمكن من الفضيلة والعدالة، قال : « اننا لا نبلغ ذلك الا اذا امتنعنا نحن أنفسنا دوما عن الأعمال التي ننتقدها عند الآخرين • »

ويروي (ديوجينيس ليرتيوس) ، أحد الكتاب في القرن الثاني بعد الميلاد ، أن (تاليس) مات وهو يشاهد مباراة رياضية في الملعب متأثرا من شدة الحرارة والعطش ، لأنه كان متقدما جدا في العمر ومريضا •

٣ ـ (آناكسيماندر) و (آناكسيمينس) :
(Anaximander , Anaximens)

خلف (تاليس) في أبحاثه عن الطبيعة ومبادىء تطور الكائنات تلميذه (آناكسيماندر) الذي عاش من سنة ٦١١ الى سنة ٥٤٩ ق•م• ، والذي يقول أن المبدأ الأول في الكون هو « اللامتناهي غير المحدود » • يسمى (آناكسيماندر) هذا (اللامتناهي) (آبيرون) ويتصوره كجوهر ليس له صفات معينة ولكنه يتطور بدافع قوة كامنة فيه وينقلب الى المواد المعروفة الموجودة في الكون •

ان هذا (اللامتناهي) الحي ، الأبدي ليس له صفة شخصية أو اخلاقية ، وهو الاله الوحيد في نظر (آ ناكسيماندر) ومنه تتولد عوالم جديدة تتعاقب دون انقطاع ثم تعود اليه وتزول • في (اللامتناهي) الأبدي تكمن كل الأضداد من حرارة وبرودة ورطوبة وجفاف ومن مائع وصلب وغاز ، وهي

تتطور فتخرج من حيز القوة الى الفعل فتتكون منها الأشياء المختلفة المحدودة. في هذا التطور تكافح العناصر المختلفة بعضها بعضا وتتصادم كأضداد متنافرة. وهذا الكفاح يؤدي بهـا الى الانحلال فتعود الأشـياء الى العنـاصر التـي ولدت منها .

وعلى الرغم من أن (آناكسيماندر) أيضاً لم يسلم من تصورات فلكية غريبة ، يمكن تبريرها بفقدان آلات الرصد في عصره، فانه تقدم على (تاليس) في تصوره الأرض كأسطوانة معلقة في مركز العالم ولا سند لها الا كونها على أبعاد متساوية من كل الأشياء . فكأنه تصور شيئا مثل نظريـة الجاذبيـة . وكان يعتقد أن الشمس والقمر والكواكب تدور حول الأرض . ولايضاح نظريته في الكون صنع (آناكسيماندر) ساعة شمسية تبين حركات الكواكب والانحرافات ونقاط التقاطع التي يحدث عنها الخسوف والكسوف ثم توضح كيفية تعاقب الفصول ، كما انه رسم ، بالاشتراك مع مواطنه (هيكاتيوس)، أول خارطة معروفة للعالم المسكون .

يقول (آناكسيماندر) : « كانت الأرض في بادىء الأمر في حالة مائعة ثم جفت بعض أقسامها بتأثير الحرارة الخارجية وانقلبت الى بر ، كما أن قسما آخر تبخر وانقلب الى غيوم . وبسبب اختـلافات الحـرارة في الجو تنشأ الرياح . والكائنات الحية تطورت تدريجيا من حالتهـا الابتدائيـة الى شكلها الحاضر . فالحيوانات البرية كانت في الأول أسماكا وهي لم تكتسب أشكالها الحاضرة الا بعد جفاف الأرض . والانسان أيضا كان في القديم سمكة ولا تدل الظواهر على أنه ولد في هيئته الحالية لأنه كان يستحيل عليه حينئذ تأمين غذائه وحفظ بقائه .

ذهب (آناكسيماندر) الى أن التطور هو القانون العام في الكون . فالأشياء تخرج من اللامتناهي ثم تنحل وتعـود اليه ويتكرر الـدور . ان

الحركة دائمة والموجودات متغيرة بينما المادة اللامتناهية باقية غير حادثة ولا مندثرة •

أقل أهمية من (آناكسيماندر) كان تلميذه (آناكسيمينيس) الذي عاد الى رأي (تاليس) في الأرض وقال : ان المادة الاولى شيء محسوس ، متجانس • ولكن هذا الشيء ليس الماء ، كما قال (تاليس) ، بل الهواء الذي يحيط بالعالم ويحمل الأرض • ولعله فضل الهواء على الماء لأنه ألطف ولأنه يقوم بذاته وهو أسرع حركة وأوسع انتشارا وأقرب الى تحقيق فكرة اللامتناهي • وهو يذهب الى أن كل الأشياء الأخرى تتولد من الهواء •وكما ان الروح ، التي هي هواء ، علة وحدة الانسان الحي كذلك الهواء بالنسبة الى العالم فانه روح العالم ونفسه أي هو الاله •

٤ • ــ الأدب في (ميليتوس) :

لم تنشأ في (ميليتوس) الفلسفة فحسب ، بل ظهرت أيضا أقدم المؤلفات النثرية وعلى الأخص التاريخية في بلاد اليونان • وقد اقتصر الأدب اليوناني في بادىء الأمر ، كما عند جميع الأمم ، على الشعر الذي يبدو أنه يلائم طبيعة الشعوب في عهد شبابها ، اذ يتغلب الخيال على العقل واذ تسيطر عقيدة قوية تميل الى تصور قوى الطبيعة كأشخاص مجسمة •

ان النثر هو صوت المعرفة التي تحررت من الخيال والعقيدة • فهو لغة الأمور الدنيوية ، العادية وشاهد على نضج الأمة •

كان الأدب اليوناني كله شعرا قبل سنة (٦٠٠) ق•م• ، بل ان بعض الفلاسفة الاولين قد كتبوا نظرياتهم في قالب شعري • وكما أن العلم كان في بادىء الأمر نوعا من الفلسفة كذلك كانت الفلسفة في الأصل شكلا من أشكال الشعر ثم أخذت تحاول التحرر من التصورات الأساطيرية والتعابير الرمزية الخاصة بالشعر • ولما دون (آناكسيماندر) أفكاره نثرا اعتبر ذلك حادثا خطيرا •

وفي الوقت نفسه بدأ الكثيرون يستخدمون النثر في كتابة موضوعات أخرى فألف (قدموس) الملطي (نسبة الى ميليتوس) تاريخ مدينة (ميليتوس) ، وكتب (اكسانتوس) تاريخ (ليدية) • وفي آخر القرن السادس نشر (هيكاتيوس) مؤلفاته الجغرافية والتاريخية • وكان اليونانيون يسمون هؤلاء المؤلفين بالكتاب « العقليين » لأن النثر هو لغة العقل • ونرى هؤلاء الكتاب يطلقون على أبحاثهم اسم (هستوريا) أي المعارف ، سواء في ذلك الموضوعات الفلسفية أو الطبيعية أو التاريخية•وكان الايونيون يريدون من هذه المؤلفات أن تحل مكان القصص الأساطيرية عن معجزات الآلهة والأبطال الذين هم أنصاف آلهة فتقدم لهم دراسات عن الحوادث الواقعية وتتولى تفسير هذه الحوادث تفسيرا عقليا يكشف عن الأسباب والنتائج ••

على أن النهضة الفكرية والعلمية التي بدأت في (ميليتوس) لم تدم طويلا ، لأن المدينة وقعت في سنة (٥٤٦) بأيدي الفرس وبذلك انتهى عهد ازدهارها وعظمتها •

٥ • ـ الديكتاتور (بوليقراتس) في (ساموس) :

لم تقتصر النهضة على (ميليتوس) وحدها ، بل شملت كل المدن الايونية ، ثم انتقلت منها الى سائر البلدان اليونانية•فاذا انتقلنا من(ميليتوس) الى جزيرة (ساموس) المقابلة لها نرى أنه قد ظهر فيها في هذا العهد (فيثاغوراس) الذي يعد من أعاظم الفلاسفة والذي يستحق من الوجهة العقلية كل اهتمام سواء في المسائل التي تدل على اصابته الحكمة أو التي أخطأ فيها ••

كان يحكم (ساموس) في ذلك العهد الديكتاتور (بوليقراتس) الذي جمع ثروة عظيمة وكان يملك اسطولا كبيرا • وكانت (ساموس) تنافس (ميليتوس) في التجارة وقد وصل تجارها الى اسبانية وأخذوا يستثمرون مناجمها الغنية •

لم يكن (بوليقراتس) في مدة حكمه الذي استمر من سنة ٥٣٥ الى سنة (٥١٥) يتقيد بشيء من القواعد الأخلاقية فتخلص من أخويه اللذين كانا يشاركانه الحكم في بادىء الأمر وأخـذ يستخدم أسطوله في أعمـال القرصنة • وقد استفاد من خضوع (ميليتوس) لسيطرة الفرس وتحالف مع ملك مصر (آماسيس) للحيلولة دون تقدم الفرس نحو الغرب • ولكن لما وجه ملك فارس (قمبيز) كل قواه للاستيلاء على مصر انضم (بوليقراتس) الى الفرس وأرسل أسطولا لمهاجمة مصر وحشد بين بحارته كل خصومه السياسيين • وقد ثار أسطول في الطريق وعاد رجاله الى (ساموس) لخلع الديكتاتور ، الذي تغلب عليهم • ولكنه وقع بعد مـدة ضحية طمعـه ، اذا أرسل اليه حاكم (ساردس) الفارسي يخبره عن عزمه على الثورة ضـد مليكه ويعرض عليه مبلغا كبيرا من المال اذا هو ساعده ، فذهب (بوليقراتس) لمفاوضة الحاكم فقبض عليه وصلب •

وقد كان (بوليقراتس) يعتني بالفنون وشيد في (ساموس) كثيرا من الأبنية العامة الجميلة • وكان يجتمع في بلاطه كبار الشعراء وفي مقدمتهـم (آناقريون) • الا أن (فيثاغوراس) لما عاد الى (ساموس) من رحلاته لم ترق له ديكتاتورية (بوليقراتس) ، فهاجر وهو في الخامسة والأربعين من العمر الى (قروتونة) في جنوبي ايطالية •

وقد أسس اليونان في جنوبي ايطالية مـدنا كثـيرة ازدهرت بسـرعة وتقدمت في التجارة • وأكبر هذه المدن كانت (سيباريس) و (قروتونة) و (تارنتوم) و (ريجيون) • وقد اشتهرت (سيباريس) بالثروة والترف وبلغ عدد سكانها ، حسب بعض الروايات ، (٣٠٠,٠٠٠) نسمة • ولم تكن (قروتونا)أقل منها اتساعا • وكانت المنافسة شديدة بين هذه المدن والمنازعات لا تنقطع • وعند وصـول (فيثـاغوراس) الى (قروتونـة) كانت الحرب محتدمة بين هذه وبين (سيباريس) وكان النصر في جانب الأولى • وقد

اشتهرت المدينة بأطبائها وبينهم (ديموكيديس) الذي أصبح طبيبا خاصا للديكتاتور (بوليقراتس) ثم انتقل الى خدمة الملك الفارسي (داريوس) •

٦٠ ـ (فيثاغوراس) :

كان (فيثاغوراس) ، الذي ولد في جزيرة (ساموس) حوالي سنة (٥٨٠) قد انصرف في شبابه الى الدراسة ثم قام برحلات كثيرة الى مختلف البلدان • وتذكر بعض الروايات أنه زار جزيرة العرب وسورية وبابل • ومن المؤكد أنه زار مصر وتعلم من رهبانها كثيرا من المسائل الفلكية والهندسية ، كما اقتبس عنهم بعض الترهات • وبالاستناد الى خبرته في الأسفار نراه ينصح الرحالة بقوله : « عندما تسافرون الى البلاد الأجنبية يجب أن لا تلتفتوا الى حدود بلادكم • » وهو يقصد بذلك ضرورة التحرر من الاحكام السابقة والسعي الى فهم العادات الجديدة •

أسس (فيثاغوراس) في (قروتونا) مدرسةخاصة واستطاع بما له من الهيبة والوقار وبفضل معلوماته الكثيرة المتنوعة أن يجمع عددا كبيرا من الطلاب حوله • وكان يقبل في مدرسته الرجال والنساء على السواء ولا يفرق بين الجنسين في اكتساب الثقافة ويعلم البنات الفلسفة والأدب مثل الشبان ولكنه كان في الوقت نفسه يعتني بتعليمهن تدبير المنزل وتربية الطفل • ولذلك نرى القدماء يمجدون النساء « الفيثاغوريات » كأسمى نموذج للمرأة في بلاد اليونان •

كان على الطالب المبتدىء في مدرسة (فيثاغوراس) أن يقضي خمس سنوات قبل أن يسمح له بالاشتراك في حلقة الأستاذ ويصبح من تلامذته المقربين • وفي هذه المدة يجب أن يحافظ على « الصمت » أي أن يتلقى الدروس دون سؤال أو مناقشة • ويتضمن برنامج الدروس : الهندسة ثم الحساب والموسيقى وأخيرا الفلسفة •

وكانت تفرض على الطلاب قوعد معينة ، دقيقة لا يجوز لهم مخالفتها•

وتذكر الأخبار أنهم كانوا يشتركون في الأموال ويتبعون طريقة واحدة في المعيشة : يلبسون الثياب البسيطة ويبتعدون عن الملذات الجسدية ويتصفون بالزهد والعفة والسيطرة على النفس والتواضع ويتعهدون بالاخلاص تجاه الأستاذ وبعضهم تجاه الآخر • وكان لا يجوز لهم أن يحلفوا باسم الآلهة ، لأن كل انسان يجب عليه ، حسب رأيهم ، أن يكون صادقا دوما ولا يحتاج الى القسم لدعم أقواله • كذلك كان يطلب اليهم أن يحاسبوا أنفسهم كل مساء قبل النوم ويستعرضوا الأخطاء التي ارتكبوها والواجبات التي أهملوها وأعمال الخير التي قاموا بها • وكان محرما عليهم أن يقتلوا أي حيوان إذا لم يلحق البشر أو الأشجار أذى منه • وهناك كثير من الأعمال كانت محظورة عليهم دون أي حكمة ظاهرة ، مثل أكل الفاصوليا أو لمس ديك أبيض أو تحريك النار بالحديد ، بينما كان تحريم اللحم والبيض يرجع الى الاعتقاد بتناسخ الارواح • ويذهب بعض المؤرخين الانكليز الى أن اتباع (فيثاغوراس) لم يكونوا يتقيدون بهذه القواعد ، وعلى الأخص تحريم أكل اللحوم ، قائلين أنه يصعب علينا أن نتصور كيف استطاع المصارع (ميلون)، وهو أحد تلامذة (فيثاغوراس) ، أن يصبح أقوى رجل في بلاد اليونان دون أكل (البفتيك) ـ ناسين أن الثيران التي كان يصارعها (ميلون) تكتفي بالعشب •

وعلى كل حال يظهر بأن (فيثاغوراس) نفسه كان يتقيد في حياته بكافة القواعد التي فرضها على أتباعه حتى استطاع أن ينال احترامهم جميعا وأصبحوا يخضعون لسلطته المطلقة ويطيعونه اطاعة عمياء • فقد كان يقتصر في طعامه على الخبز والخضر والعسل ويرتدي دوما ثيابا بيضاء ناصعة ولا يسترسل في الضحك والمزاح ولم يسمع عنه أبدا أنه وبخ أحدا حتى الأرقاء •

نستدل من الأخبار أن (فيثاغوراس) لم يكن مؤسس مدرسة للعلوم الرياضية والفلسفية فحسب ، بل كان أيضا رئيس جمعية دينية أخلاقية تشبه

المحافل الماسونية بتنظيماتها السرية والاشارات الخاصة التـي يتعارف بهـا أفرادها ويتعهدون بكتمانها •• ولا شك في أن (فيثاغوراس) قد تأثر بالديانة (الأورفية) التي بدأت تنتشر في بلاد اليونان حوالي منتصف القرن السادس قبل الميلاد • وكان مؤسس هذه الديانة الشاعر والكاهن (اورفيوس) قد جاء من (تراقية) بعبادة الاله (ديونيزيوس) ووجه الأفكار الى العالم الآخر والجحيم واعتنى بالطقوس السحرية كوسيلة للاتصال بآلهة العالم الاسفل • وقد حاول (فيثاغوراس) أن يجمع بين هذه العقائد الغيبية ـ الصوفية وبين تعاليمه العلمية والفلسفية ، فكان يريد تطهير النفس ليس بالطقوس السحرية ، كما عند (الاورفيين) ، بل بالدراسة العلمية وعلى الأخص الكشف الرياضي الذي يتوصل عن طريق المحاكمة العقلية الى المعرفة المجردة ، اليقينية ثـم أضاف الى ذلك الاعتقاد بتناسخ الأرواح الذي شاع في عصره بالهند وانتقل منها الى بلاد اليونان •

ويظهر أن الجمعية الدينية ـ الشيوعية التي أسسها (فيثاغوراس) قد كثر أعضاؤها وعظم شأنها وانقلبت الى هيئة سياسية أخذت تلعب دورا خطيرا في ادارة الحكومة • وقد انضم اليها عدد كبير من النبلاء وأخذوا يستخدمونها لتأييد الحكم الارستوقراطي فأثار ذلك نقمة جماهير الشعب التي أشعلت النار في المدرسة وحرقت أعضاء الجمعية عدا اثنين منهم استطاعا الفـرار • أمـا (فيثاغوراس) نفسه فقد انتقل ، حسب بعض الروايات ، قبل هذا الحادث وفي روايات أخرى بعده الى مدينة ميتابونتوم في جنوبي ايطالية ، حيث مات وهو في الثمانين من عمره •

لم تمض مدة طويلة حتى أصبح (فيثاغوراس) شخصية أساطيرية • فكان أتباعه ، الذين انتشروا في مختلف البلدان اليونانية وظلت جمعيتهم قائمة مدة ثلاثة عصور ، ينسبون اليه كثيرا من المعجزات والأعمال السحرية وهو نفسه لم يؤلف شيئا من الكتب • لذلك ليس من السهل ان نعرف الحقيقة

بين الأخبار المتناقضة التي نقلت عنه وأن نميز بين المسائل الرياضية التي توصل الى حلها بنفسه وبين الأبحاث التي قام أتباعه بها فيما بعد .

ان أهم موضوع للبحث في مدرسة (فيثاغوراس) كانت الرياضيات . على أن (فيثاغوراس) لم يكن يشتغل بالرياضيات من الوجهة العملية ، كما عند المصريين ، بل كعلم نظري مجرد يمكن للعقل بواسطته أن يتمرن على التفكير المتسلسل المنتظم ويعتاد على الاستنتاج والبرهان ويتوصل الى الوضوح واليقين . وهو قد اتبع في الهندسة طريقة منطقية تستند الى البديهيات والموضوعات المسلم بها ثم تقوم على النظريات والبراهين ويرتقي بها الفكر من درجة الى درجة أخرى أعلى منها حتى يبلغ الذروة التي يدرك فيها أسرار الكون . وهناك كثير من النظريات الهندسية التي اكتشفها (فيثاغوراس) حسب رواية أتباعه ، بينها نظرية المثلث القائم الزاوية التي ما زالت تعرف باسمه . ثم انتقل (فيثاغوراس) من الهندسة الى الحساب بعكس الطريقة الحديثة التي تبدأ بالحساب وتنتقل منه الى الهندسة . وكانت أبحاثه في الحساب أيضا لا ترمي الى المعرفة العملية ، بل تقتصر على النظريات المجردة . وفي مدرسته قسمت الأعداد لأول مرة الى فردية وزوجية ودرست السلاسل العددية ونظرية لتناسب .

وتتلخص فلسفة الفيثاغوريين في أنهم يرجعون كل شيء الى العدد . فهم يقولون ان الأشياء في مكوتها وجوهرها أعداد ، وأن الاعداد هي نماذج الأشياء ، أي أنهم كانوا يتصورون الأعداد بوصفها العلاقات أو النسب الموجودة بين الأشياء . وقد بين (آرسطو) أن السبب الذي دفع الفيثاغوريين الى هذا القول هو ما لا حظوه من انسجام بين الأشياء ولا سيما بين حركات الكواكب . ولا شك في ان نظريتهم في الأعداد لها علاقة وثيقة بدراستهم للموسيقى . وقد كانوا يهتمون بالموسيقى كوسيلة لاثارة العواطف وتهذيبها ، ولكنهم لم يقتصروا على الاشتغال بها عمليا ، بل قاموا يبحثون فيها من الوجهة النظرية أيضا .

انتقل (فيثاغوراس) من الانسجام الموسيقي الى النظام السائد في الكون • وقد رأى ، كما يقول (آرسطو) ، « أن هذا العالم أشبه بعالم الأعداد منه بالماء أو النار أو التراب».

كان (آناكسيماندر) قد وصف الأرض بأنها اسطوانة معلقة في مركز الكون • وقد تقدم (فيثاغوراس) خطوة أخرى وقال : أنها كروية الشكل ومثلها السماء وبقية الأجرام السماوية • وهكذا اعتبر (الفيثاغوريون) الأرض كوكبا بين سائر الكواكب ومهدوا بذلك السبيل لتقدم علم الفلك • وقد أدركوا أيضا أن حركات الشمس والقمر والكواكب ظاهرية وقالوا ان الأرض هي التي تدور ولكن ليس حول محورها ، بل حول نار مركزية مع غيرها من الأجرام السماوية • ونحن لا نرى هذه النار لأننا نعيش على وجه الأرض المعاكس لها • وهذه النار المركزية هي التي تغدق النور والحرارة والحياة على الكون كله • فهي (موقد العالم) الذي ترقص الشمس والقمر والكواكب حوله •••

ان هدف الحياة في فلسفة (فيثاغوراس) هو خلاص الروح من العودة الى الجسم • والسبيل الى ذلك هو اتباع الفضيلة التي يعرفها بأنها انسجام الروح مع نفسها ومع الاله • ويمكننا أحيانا الوصول الى شيء من هذا الانسجام بالتأثير الخارجي واستخدام وسائل اصطناعية كأن نلجأ مثلا الى الموسيقى لتداوي الأمراض النفسية • ولكن الانسجام التام انما نتوصل اليه في الغالب عن طريق الحكمة والادراك الهادىء للحقائق الثابتة • أن مثل هذه الحكمة تعلم الانسان التواضع والاتزان والاعتدال ، بينما الابتعاد عن الحكمة يقودنا الى الطريق المعاكس ، طريق التنافر والطيش والرذيلة ويؤدي بنا الى الفاجعة والعقاب • وبعد الموت تهبط الروح الى الجحيم لتطهر بالعذاب ثم تعود الى الأرض لتتقمص جسما بشريا أو حيوانيا ولا تزال مترددة بين الأرض والجحيم حتى يتم تطهيرها • ويقول (فيثاغوراس) « ان البشر غرباء في هذا العالم ، والجسم مقبرة الروح • ولكن لا يجوز لنا

رغم ذلك ان نحاول التخلص من هذه المقبرة بالانتحار لأننا ملك الاله الذي يرعانا ، فلايجوز أن نهرب من الحياة دون أمر منه •• » ثم يضيف قوله : « في هذه الحياة ثلاثة أنواع من الناس : أحط طبقة بينهم تتألف من أولئك الذين جاؤوا للبيع والشراء ، وأعلى منها طبقة الذين يتنافسون ويسعون الى السيطرة ، ولكن أفضل الجميع هم الذين ينقطعون الى المشاهدة والتأمل والنظر • ولذلك فان أحسن وسيلة لطهارة النفس ولسموها هي العلوم المجردة عن كل غاية نفعية • والفيلسوف الحقيقي هو الذي يكرس نفسه للعلم ويتوصل بذلك الى التحرر من دولاب الحياة ••• »

ويروي الكتاب اليونانيون أن (فيثاغوراس) لم يقبل أن يلقب حكيما وقال « من الغرور ادعاء الحكمة ويكفينا شرفا أن نسمى وراء معرفة الحكمة »• فكان أول من سمى نفسه « فيلسوفا » أي محب الحكمة ••

وقد كان لآراء (فيثاغوراس) وتعاليمه أثر عظيم في تطور الفكر اليوناني • ويبدو لنا ذلك على الأخص عند (افلاطون) الذي اقتبس عنه فكرة الدعوة الى مجتمع ارستوقراطي ـ شيوعي يتولى الحكم فيه الفلاسفة ثم مفهوم الفضيلة كانسجام الروح مع نفسها ، كما تأثر منه في حبه للهندسة وميله الى سحر الأعداد •••

٧ • ـ (كسينوفانس) : (Xenophans) :

مثلما هاجر (فيثاغوراس) من (ايونية) وأسس في جنوبي ايطالية مذهبا فلسفيا جديدا يختلف عن الفلسفة الايونية ، كذلك كان الأمر مع فيلسوف ايوني آخر هو (كسنوفانس) الذي نشأ في مدينة (قولوفون) في آسية الصغرى واضطر بعد سيطرة الفرس على (ايونية) الى الهجرة فسكن حوالي سنة (٥١٠) في مدينة (هيلي) بجنوبي ايطالية التي سماها الرومان فيما بعد (فيليا) والتي اشتهرت في التاريخ باسم (ايليا) لأن

افلاطون كتبها بهذا الشكل • هناك أسس تلامذة (كسينوفانس) المدرسة الايلية التي ظهر منها المذهب المثالي •

كان (كسينوفانس) شخصية فذة ، غريبة مثل خصمه (فيثاغوراس)• فهو يمتاز بنشاطه الدائم واقدامه وجرأته • وقد عاش ما يقارب مائة سنة ولكنه قضى منها سبعة وستين عاما في الرحلات يتنقل بين مختلف البلدان ويجمع في كل مكان المعلومات والملاحظات ويكتسب الأعداء والخصوم • ان تجاربه ومشاهداته في هذه الرحلات قد جعلته يتحرر من الأحكام السابقة والعقائد المحلية الموروثة ، فأخذ يكتب وينشد القصائد الفلسفية وينشر أفكاره الثورية ويهزأ بالخرافات حيثما وجدها • وكان يتهكم بمثل اليونانيين العليا وعلى الأخص بتمجيدهم لابطال الرياضة البدنية قائلا : ان الحكمة أفضل بكثير من قوة الحيوانات البشرية وسرعة الخيل • وقد هاجم بشدة أشعار (هوميروس) و (هسيودوس) وانتقد ما تضمنته من عقائد دينية تتعارض مع العقل وتنافي الأخلاق لأنها تنسب الى الآلهة كل الأفعال التي تعتبر عارا وفضيحة بين البشر كالسرقة والزنا والغدر والكذب• وهو يقول : « لم يكن هناك ولن يكون أي انسان يستطيع أن يعرف بالتأكيد الأمور المتعلقة بالآلهة• فالبشر يتخيلون أن الآلهة تولد وترتدي الثياب وأن لها أصواتا وأشكالا مثلهم • على أنه لو استطاعت الثيران والخيل والسباع أن تصور الآلهة لرسمتها في صورة الثيران والخيل والسباع • ألا نرى الأحباش يصورون آلهتهم بلون أسود وأنوف فطس ، بينما يتصور (التراقيون) آلهتهم زرق العيون ، شقر الشعر ؟ والواقع ان هناك الها واحدا لا يشبه البشر لا في الصورة ولا في الفكر ••• »

وقد عارض (كسينوفانس) العقائد (الاورفية) وتعاليم (فيثاغوراس) التي تستند الى الفكرة الصوفية والأسرار الغيبية والوحي الالهي وتخرج بذلك على قوانين العقل • وكانت فلسفته تقوم على الاعتقاد باله واحد ، منزه كل التنزيه عن صفات البشر• وحسب رأيه لا يتفق مع مقام الآلهة أن تكون

خاضعة لشيء كما انها ليست في حاجة الى أن تتخذ خدما وأتباعا ، ولهذا فليس هناك اله أكبر وبجانبه آلهة غيره بل لابد من وجود اله واحد . على ان (كسينوفانس) لا يفرق بين الاله والطبيعة ، بل يعتبرهما شيئا واحدا وهو يتحدث أحيانا عن الاله بوصفه الطبيعة وأحيانا أخرى عن الطبيعة بوصفها الاله . وعلى هذا الأساس فان الوجود ثابت لا يتغير في مجموعه وانما يطرأ التبدل على الحوادث الجزئية في الكون .

وقد توصل (كسينوفانس) ، عن طريق مشاهداته الطبيعية ، الى اكتشاف بعض المستحاثات وعرف أنها حيوانات مائية قد تحجرت فاستنتج من ذلك أن الماء كان في القديم يغمر الأرض كلها وأنه ربما يعود يوما فيطغي عليها ولاشك في أن (كسينوفانس) قد لعب دورا كبيرا في توجيه الفلسفة اليونانية وجهة عقلية ساعدتها على مقاومة العقائد الدينية وجعلتها قوة فعالة في سبيل تقدم الحضارة والبحث العلمي ...

٨ . ـ مدينة (ايفيزوس) والفيلسوف (هيراقليتوس) : (Heracleitus)

ان أشهر مدن (ايونية) هي (ايفيزوس) التي أسست حوالي سنة (١٠٠٠) ق.م. من قبل المهاجرين الأثينيين وأصبحت في مدة قصيرة من المدن التجارية المزدهرة . وكان يسود في المدينة العنصر الشرقي ، سواء في تكوين السكان أو دياناتهم أو في آثار الفن . والالاهة (آرتميس) التي كانت تعبد في المدينة بدأت وانتهت كالاهة شرقية ترمز الى الأمومة والخصب. وقد هدم معبد هذه الالاهة وجدد بناؤه مرات عديدة . والبناء المجدد الذي قام حوالي سنة (٥٤٠) والذي تبرع بنفقاته الملك (كريزوس) كان أكبر معبد يوناني على الاطلاق وكان يعد باتفاق الآراء من عجائب العالم السبع ، أما العجائب الأخرى فكانت : الجنائن المعلقة في بابل ، ومنارة الاسكندرية ، والتمثال العظيم في جزيرة (رودس) ، وتمثال (زفس) في أولمبية من

صنع النحات (فيدياس) ، وضريح الملك (موسولوس) في مدينة (هاليقارناسوس) ، والاهرام في مصر ..

وقد اشتهرت مدينة (ايفيزوس) ليس بمعبدها فحسب ، بل كذلك بشعرائها وفلاسفتها ونسائها التي ترتدي أغلى الثياب وأجملها . وقد ظهر في هذه المدينة حوالي سنة (٦٩٠) (قاللينوس) ، أقدم شاعر رثائي في اليونان . وأعظم من هذا الشاعر وأبشع منه بكثير (هيبوناكس) الذي كان حوالي سنة (٥٥٠) ينظم القصائد بلغة غامضة وأسلوب جذاب وهي تدور حول موضوعات نابية ، فاجرة وتكثر فيها النكت والتلميحات والاستعارات حتى صار الناس يتحدثون عن (هيبوناكس) في كل البلاد اليونانية وأصبح سكان (ايفيزوس) جميعهم يبغضونه . فقد كان هذا الشاعر قصيرا ، نحيفا ، أعرج ، غريب الشكل ، ثقيل الظل ، كريه المعشر . وهو يقول عن المرأة بأنها : « تسعد الرجل مرتين في حياته : يوم يتزوجها ثم يوم يشيعها الى القبر . » انه كان أشنع الهجائيين والمتهكمين الساخرين ، لم يسلم من لواذع لسانه أحد في مدينة (ايفيزوس) سواء في ذلك أحط المجرمين أو أتقى الرهبان . وتذكر الروايات أن (هيبوناكس) مات منتحرا ولكن ربما أشيع عنه ذلك لمجرد التشفي والشماتة ....

على أن أشهر أبناء (ايفيزوس) هو الفيلسوف (هيراقليتوس) الذي ولد حوالي سنة (٥٣٠) وكان ينتسب الى أسرة نبيلة ويعتقد لذلك أن الديموقراطية مصيبة وخطيئة فهو يقول : « ان هناك كثيرا من الأشرار ولكن القلائل من الأخيار . والشخص الواحد يساوي في نظري عشرة آلاف اذا كان أحسن منهم ويمتاز عليهم جميعا » .

اشتهر (هيراقليتوس) بين القدماء بنظريته التي تقول ان كل شيء يتغير . وهناك كثير من الكتاب الحديثين يقتصرون على هذه الناحية عند التحدث عنه . على أن هذه النظرية ليست سوى أحد مظاهر فلسفته وهي

لا يمكن ادراك قيمتها الا بالرجوع الى المبادىء الأخرى وضمن نطاقها •

كان (هيراقليتوس) ، مثل أكثر الفلاسفة ، يسعى الى الكشف عن الوحدة وراء الكثرة ويريد أن يدرك النظام ضمن هذه الفوضى الظاهرة في تقلبات الكون • فهو يقول : « ان كل الأشياء واحدة • ومشكلة الفلسفة هي أن نعرف ما هو الواحد الذي تصدر عنه كل الأشياء ؟ » وقد أجاب (هيراقليتوس) انه النار • وهو ربما تأثر بعبادة النار عند الفرس وربما كان يستخدم هذه الكلمة كرمز يقصد به القوة•وعلى كل حال فاننا نراه يستعمل النار والروح والاله بمعنى واحد • ويذهب (هيراقليتوس) الى أن هذا العالم لم يخلق من قبل اله أو بشر ، بل انه كان موجودا دوما منذ الأزل وسيبقى دوما الى الأبد كنار حية لا تنطفىء يشتد لهيبها أحيانا وتخمد أحيانا أخرى •

ان كل شيء من النار • وهذه النار تبدو في أشكال مختلفة : يتكاثف بعضها فيصير بحرا ويتكاثف البحر فيصبح أرضا وتتصاعد من الأرض والبحر أبخرة تتراكم سحبا ، فتلتهب وتنقدح منها البروق والرعود وتعود نارا •

وبينما يرتاح (هيراقليتوس) الى هذا الاستقرار في النار الأبدية نراه يضطرب من مشاهدة تبدلاتها غير المتناهية • ومن هنا توصل الى المبدأ الثاني في فلسفته وهو : التغير الدائم ، المتواصل • انه لايجد شيئا ثابتا في الكون أو العقل أو الروح • وهو يمثل لنا التغير المستمر بصورة جريان الماء فيقول: « انك لاتغطس في النهر مرتين • فإن مياها جديدة تجري من حولك أبدا •» ليس هناك حالة تثبت ولو لحظة قصيرة • كل شيء يتبدل ويتكون •والمشكلة التي شغلت تفكير (هيراقليتوس) لم تكن معرفة ما هي الأشياء وانما معرفة كيف صارت الى ما هي عليه • فموضوع بحثه ليس الوجود ، بل الكون والصيرورة • وهو يلاحظ اننا لا نستطيع ادراك حقيقة الأشياء الا اذا عرفنا

كيفية حدوثها ونشأتها • ان الكثرة والتنوع والتغير كلها حقائق واقعية مثل الوحدة والهوية والكون ••

ثم ينتقل (هيراقليتوس) الى المبدأ الثالث من نظريته الفلسفية الذي يقول بوحدة الضدين وارتباط المتناقضين وانسجام المتخاصمين • فالاله « نهار وليل ، شتاء وصيف ، حرب وسلم ، شبع وجوع • » ان الخيروالشر شيء واحد وكذلك الحياة والموت ، واليقظة والنوم ، والشباب والشيخوخة• فان كل هذه المتناقضات ليست سوى مراحل في حركة مستمرة ، وكل من الضدين ضروري لوجود الآخر ولادراك معناه • والوجود انما هو الوحدة والانسجام بين الأضداد • وفي الصراع بين الرجل والمرأة ، وبين الأجيال والطبقات والشعوب والأفكار والعقائد تتصادم الأضداد وتلتقي لتؤلفالوحدة المستترة والانسجام الخفي للحياة •

وبذلك يتوصل (هيراقليتوس) الى المبدأ الرابع الذي تقوم عليه فلسفته وهو ما يسميه (لوغوس) أي الفكر أو العقل • في هذا الفكر تتجلى القوة المنظمة والحكمة الشاملة والقانون الكلي الطبيعي للكون أي الاله • وقد كان (هيراقليتوس) يهزأ باولئك الذين يوجهون الأدعية ويقدمون الضحايا الى هذه التماثيل ـ فهم لا يختلفون بذلك عمن يحاول أن يتحدث الى حجارة البيوت • ان أمثال هؤلاء لايفقهون شيئا من حقيقة الآلهة ••

ينكر (هيراقليتوس) خلود الأرواح الفردية • فالانسان ، على رأيه ، ليس سوى « شعلة متغيرة ، زائلة ، تضيء وتنطفيء كالأنوار في الليل • » على أن روح الانسان أو مبدأ الحياة فيه قبس من القوة الأبدية المنتشرة في كل الأشياء • وبهذه الصفة فان الروح لا تموت أبدا • ان الموت والحياة ليسا سوى مرحلتين من مراحل التغير غير المتناهي • في كل لحظة يموت

جزء منا ولكن المجموع يبقى حيا • وفي كل برهة يموت أحدنا بينما الحياة تعيش •

الاله هو النار الأبدية وقوة الحياة التي لا تفنى • انه الوحدة التي تجمع الأضداد وهو الانسجام الذي يؤلف بين الأشتات المختلفة• كل الأشياء بالنسبة الى الاله جميلة وحسنة وصحيحة ، وانما البشر يختلفون في النظر اليها فيحبذون بعضها ويستهجنون البعض الآخر • وذلك لأن أقوالنا وأفعالنا بل وقواعدنا الأخلاقية ليست سوى أحكام سابقة تمثل مصالحنا في المجتمع• لكن الفلسفة يجب أن تتحرر من هذه الأحكام السابقة وتنظر الى الأشياء نظرة كلية ، شاملة •

ان النار الالهية ، مثل الحياة ، تغير دوما شكلها وتنتقل من حالة إلى حالة وهي تلتهم الأشياء ثم تعود فتصنعها من جديد • وسيأتي يوم لا يبقى فيه سوى النار ، وبذلك ينتهي الدور التام أو « السنة الكبرى » ويتكرر الأمر الى ما لا نهاية له • ان تقلبات النار الأبدية ليست دون معنى أو نظام• ونحن اذا استطعنا أن نفهم العالم في مجموعه لابد أن ندرك الحكمة الشاملة التي هي (لوغوس) أي الفكر أو الاله •••

بالاستناد الى هذه المبادىء الأربعة أي : القوة ، والتغير ، ووحدة الأضداد ، والنظام الشامل يبين لنا (هيراقليتوس) أن الخير الأسمى في الحياة هو القوة الخاضعة للعقل والنظام • والتغير ليس شرا ، بل رحمة• اننا حسب قول (هيراقليتوس) نجد الراحة في التغير ، ومن المزعج جدا أن نقوم بالأعمال نفسها ونكررها دوما • وضرورة وجود الأضداد تجعلنا نفهم معنى الكفاح والشقاء في الحياة ونرضى بذلك دون تذمر • وليس في صالح البشر أن ينالوا كل ما يرغبون فيه • فلولا المرض لما عرفنا لذة الصحة ولولا الشر لما ادركنا قيمة الخير • انه لا تطور دون الاصطدام بين الأضداد • وليس معنى الانسجام انتهاء الصراع وانما هو استمرار التوتر الذي لا ينتصر فيه

أحد الضدين على الآخر انتصارا نهائيا . فالضدان لا يستغني أحدهما عن الآخر ، ولا بد مثلا من الصراع بين اندفاع الشباب نحو التجدد وبين تمسك الشيوخ بالقديم . وتنازع البقاء ضروري للتمييز بين الصالح والطالح وللتقدم في طريق الكمال . فالكفاح هو أصل كل شيء : انه يرفع البعض ليكونوا آلهة ويحكم على البعض بأن يظلوا بشرا ، ويجعل قسما من البشر عبيدا والقسم الآخر أحرارا . فهو في النتيجة أساس العدل . انه من التنافس بين الأفراد والجماعات والأجناس والمؤسسات والدول تتألف محكمة الطبيعة العليا التي لا استئناف لأحكامها .

كان (هيراقليتوس) يزدري بالعلم الجزئي ولذلك لم يبحث في ظواهر الطبيعة المشاهدة وظل يجهل كثيرا من الحقائق العلمية التي أدركها الباحثون في عصره ولكنه انصرف الى التفكير في حقيقة الكون ونظام الحياة، فاستطاع أن ينشيء فلسفة عميقة ، قوية . وهو يعد من أعظم الفلاسفة اليونانيين الذين كان لآرائهم أبلغ الأثر في تطور الفكر البشري ...

٩ . ـ الشعر في ايونية :

لنعد مرة ثانية الى الأدب والشعر اليوناني الذي بدأ نهضته في (ايونية) جنبا الى جنب مع الفلسفة .

في مدينة (قولوفون) ، موطن الفيلسوف (كسينوفانس) نشأ الشاعر (ميمنرموس) الذي كان حوالي سنة (٦١٠) ينتقل من مدينة الى أخرى وينشد قصائده الرقيقة ، الحزينة في الشباب والحب . وقد استهوت فؤاده الفتاة (نانو) التي كانت ترافقه وهو ينشد بينما هي تعزف بالمزمار ، ويظهر أنها كانت تعتقد ان الشاعر متى تزوج يصبح في عداد الأموات ولذلك رفضت الاقتران به ، فصار لا ينظم الشعر الا للتغني بها وتخليد اسمها . وكان يقول « ما معنى الحياة والسعادة اذا فقدنا الحب الذهبي » .

وأشهر منه كان الشاعر (آناقريون) الذي ولد سنة ٥٦٣ ومات سنة

٤٧٨ ق٠م٠ في مدينة (تيئوس) الواقعة في الشمال من (قولوفون) ٠ وقد قام (آناقريون) برحلات كثيرة الى مختلف المدن للانشاد في قصور الأمراء الذين كانوا يتنافسون على دعوته ٠ وكان قد بدأ حياته كجندي ولكنه بعد أن اشترك في حملتين ترك الرمح ليحارب بالقلم وقضى عدة سنوات في بلاط (بوليقراتس) بمدينة (ساموس) ثم سافر الى أثينة بدعوة من الديكتاتور (هيبارخوس) الذي أرسل سفينة كبيرة لنقله واستقبله باحتفال رسمي ٠ كانت أشعار (آناقريون) تدور حول الخمر والنساء والغلمان ، ولكنه كان يعتني بانتقاء الألفاظ والتعابير المهذبة ويتحاشى الكلام المبتذل ، فلم يكن الناس يجدون في أشعاره ما ينافي الأخلاق ولم يكن الامراء يحذرون من وجوده في قصورهم ٠ ويقول أحد النقادة اليونانيين أنه ربما كان يدعي المغامرات الغرامية الكثيرة ليثير اهتمام النساء به ٠٠٠

في الشمال من (ايونية) تقع جزيرة (لسبوس) التي كانت تنافس المدن الايونية بتجارتها وثروتها وكثرة شعرائها النابغين ٠ وكان في هذه الجزيرة خمس مدن أعظمها (ميتيلين) التي لم تكن أقل ازدهارا من (ميليتوس) أو (أيفيزوس) ٠ وقد تحالف التجار الكبار في المدينة مع طبقات الشعب الفقيرة للقضاء على الحكم الارستوقراطي في اواخر القرن السابع واتفق الجميع على تنصيب المشرع (بيتاقوس) الذي يعد من حكماء اليونان السبعة ديكتاتورا لمدة عشر سنوات يتمتع فيها بالسلطة المطلقة ٠ وقد قام (بيتاقوس) بكثير من الاصلاحات في ادارة الحكومة واستطاع بشجاعته وحزمه احباط عدة مؤآمرات للارستوقراطيين الذين حاولوا عبثا العودة الى الحكم ٠

وقد كان بين زعماء الحزب الارستوقراطي الذين حكم عليهم بالنفي من مدينة (ميتيلين) ثم من جزيرة (لسبوس) كلها الشاعر (آلقيوس) والشاعرة (سافو) ٠

كان (آلقيوس) شاعرا حماسيا يمزج السياسة بالشعر وتلتهب أبياته بنار الثورة • وهو من أسرة نبيلة جعل همه مهاجمة (بيتاقوس) في قصائده التي كان يتبع في نظمها طريقة خاصة اشتهرت فيما بعد باسمه • وقد ظل مدة يتغنى بالقتال ويصف الأسلحة الفتاكة المعلقة في بيته ولكن لما سنحت له الفرصة ليثبت بطولته أسرع الى الفرار • وكان أحيانا ينظم في الحب • الا ان الموضوع الرئيسي في شعره كان الخمر ، وهو الذي يقول : « لنشرب حتى الثمالة : في الصيف لنطفىء العطش ، وفي الخريف لنسبغ على الموت لونا زاهيا ، وفي الشتاء لندفىء دماءنا ، وفي الربيع لنحتفل ببعث الطبيعة » •

ولكن من سوء حظ (آلقيوس) انه كان معاصرا لامرأة من أشهر نساء اليونان ، هي الشاعرة (سافو) التي كان اليونانيون يمجدونها عندما كانت لا تزال على قيد الحياة • ويذكر أحد الكتاب القدماء أن ابن أخي الحكيم (صولون) أنشد في سهرة شراب أبياتا للشاعرة (سافو) ، أعجب بها عمه كل الاعجاب حتى أنه طلب من الشاب اعادتها ليستطيع حفظها فلما سئل : « لماذا تحفظ مثل هذا الشعر ؟ ، أجاب : « أريد أن أتعلمه وأموت•» وكان سقراط يذكر دوما (سافو) وينعتها بالرائعة بينما نظم افلاطون بيتين في تمجيدها هذا معناهما :•« يقولون أن هناك تسع آلهات الفن ، فاي اهمال هذا ؟ حقا ان (سافو) من (لسبوس) هي الالاهة العاشرة •• »

وقد كان اليونانيون يقصدون دوما (هوميروس) اذا قالوا الشاعر فحسب • أما اذا قيل الشاعرة فان الجميع كانوا يعرفون بان المقصود هي (سافو) ••

ولدت (سافو) حوالي سنة (٦١٢) ق•م• في مدينة (اريزوس) بجزيرة (ساموس) • ولكن أسرتها انتقلت الى (ميتيلين) وهي لا تزال طفلة صغيرة • وفي سنة (٥٩٣) اشتركت في مؤامرة الارستوقراطيين ضد (بيتاقوس) فحكم عليها بالنفي الى مدينة (بيرها) • وهكذا نراها بدأت

تلعب دورا هاما في الحياة السياسية والأدبية وهي لم تتجاوز التاسعة عشرة من عمرها •

لم تكن (سافو) تعتبر جميلة حسب مفهوم اليونانيين عن الجمال ، لأنها كانت نحيفة الجسم ، قصيرة القامة ، سمراء اللون ، سوداء العينين • على أنها اشتهرت بالجاذبية والنعومة واللطف والذكاء اللامع ، ولم يكن عقلها الكبير وثقافتها الواسعة من النوع الذي يتنافى مع رونق الأنوثة • وقد كانت دوما تقول : « ان قلبي يشبه قلب الطفل » • وتدل اشعارها على أنها كانت عاطفية ، شديدة التأثر • ويصف (بلوتارخ) أبياتها بأنها « نار ملتهبة » • وكان الشاعر (آلقيوس) الذي نفي معها الى البلدة نفسها كتب اليها يقول : « أيتها الزهرة النقية ، الباسمة ، أريد أن أتحدث اليك لولا أن الخجل يمنعني • » فاجابته : « لو كانت نواياك شريفة وكان لسانك منزها عن الفسق لما أسدل الخجل غيومه على عينيك ولكنت تستطيع الافصاح عما يجول في فؤادك • »

ولا تذكر الأخبار شيئا عن استمرار العلاقات بينهما ويظهر انهما افترقا بعد مدة قصيرة اذ أقدم الديكتاتور (بيتاقوس) ، الذي كان يخاف من أشعار (سافو) ، على نفيها الى جزيرة صقلية في سنة (٥٩١) • وقد تزوجت في هذا الوقت بتاجر غني وولدت بنتا تقول عنها : « ان لي طفلة صغيرة مثل الزهرة الذهبية هي حبيبتي (قليس) التي لا أبادلها بكل مملكة (ليدية) أو جزيرة (لسبوس) الجميلة • » وفي الواقع كانت اذ ذاك تستطيع الاستغناء عن ثروة (ليدية) لأن زوجها كان قد مات وترك لها مبلغا كبيرا من المال •

بعد خمس سنوات عادت (سافو) من المنفى الى وطنها وأصبحت هناك من أبرز الشخصيات في المجتمع وفي الحياة الفكرية • وقد دفعتها رغبتها في

العمل الى تأسيس مدرسة لتعليم الفتيات الشعر والموسيقى والرقص • وهذه هي أول مدرسة من نوعها في التاريخ •

لم تكن (سافو) تسمي الفتيات في مدرستها تلميذات ، بل رفيقات • وقد نظمت كثيرا من الأشعار التي تكشف عن حبها للتلميذات • وتعتبر قصائدها من أرق الشعر وأجمله ، وهي تنم عن عاطفة عميقة وخيال واسع ، قوي ، حي • ومن أبدع أبياتها تلك التي تشبه فيها الحب بتفاحة حلوة ، جميلة التهبت وجنتاها احمرارا في ذروة الشجرة ، فينساها القاطفون ، لا بل يعجزون عن بلوغها •••

الفصل الثامن

دولة اسبارطة

عندما نريد استعراض تاريخ اليونان نصطدم منذ بادىء الأمر بمشكلة خطيرة ، اذ نرى هناك عددا كبيرا من الدول الصغيرة المستقلة ، التي تسمى « دول المدن » تتطور كل واحدة منها في اتجاه خاص ولكنها من جهة اخرى تشترك مع غيرها في كثير من حوادث هامة . ولذلك نحتار في طريقة جمع هذه الحوادث وترتيبها وسردها بصورة متسلسلة . فان نحن أردنا الكلام على تاريخ كل دولة ـ مدينة على حدة تشعب معنا البحث وتشتتت الحوادث واضطررنا الى التكرار الممل . واذا اقتصرنا على المسائل المشتركةوالخطوط العامة فانه يستحيل علينا حينئذ ادراك اهم صفة يمتاز بها التاريخ اليوناني ونعني بذلك تنوع اساليب الحياة واختلاف الانظمة وتضارب وجهات النظر بين المدن اليونانية . وهكذا ليس لنا من سبيل غير المزج بين الطريقتين : فنستعرض من جهة الحالة في اشهر (المدن ـ الدول) اليونانية وندرس أنظمتها السياسية وأوضاعها الاجتماعية الخاصة ثم نحاول من جهة ثانية الكشف عن العلاقات الكثيرة والصفات المشتركة بينها .

وبعد ان ذكرنا بعض المدن (الايونية) ننتقل الآن الى شبه جزيرة اليونان نفسها لنتكلم بالتفصيل عن مدينتين نالتا أعظم مكان في التاريخ وأصبحت كل واحدة منهما رمزا لنظام معين في طريقة الحياةواسلوب الحكم هما : (اسبارطة) و (آثينة) ....

١ ـ تأسيس مدينة (اسبارطة) :

في الجنوب الشرقي من جزيرة (البيلوبونيز) تقع مقاطعة (لاقونية) التي تمتد في وسطها من الشمال الى الجنوب ، سلسلة جبال (بارنون) فتشطرها الى قسمين مختلفين : ينحصر القسم الأول بين هذه الجبال وبين بحر ايجه وهو عبارة عن أرض صخرية ، جرداء ، قاحلة ، معرضة للرياح الشديدة لا تغري الناس بالسكنى فيها ويتحاشى البحارة الاقتراب من شواطئها • أما القسم الثاني فيتألف من سهل جميل ، خصب بين سلسلة جبال (بارنون) وسلسلة جبال (تايغيتوس) ، وتتدفق في وسطه مياه نهر (اوروتاس) الغزيرة ، الباردة التي تغذيها الثلوج الدائمة وفي هذا القسم أيضا لا تصلح الشواطىء للملاحة ، ولذلك فان الدولة التي تأسست في هذه البلاد كانت دوما برية •

في وسط وادي (اوروتاس) تقوم مدينة (اسبارطة) عاصمة هذه البلاد التي لا يذكر التاريخ ان سكانها قد احتاجوا يوما الى اقامة أسوار حولها ، لأن الجبال الشاهقة المحيطة بها تحميها من كل عدوان خارجي • وقد تكونت المدينة ، كما يستدل من اسمها الذي يفيد معنى (المشتتة) ، من اجتماع خمس قرى كبيرة اتصل بعضها بالاخر ، ولم يزد عدد سكانها في ايام سطوتها على السبعين ألفا • أما في الوقت الحاضر فهي عبارة عن قرية حقيرة لا تضم أكثر من اربعة آلاف نسمة وليس فيها أي أثر يذكرنا بأنها قد استطاعت في الماضي بسط سيطرتها على اليونان كلها مدة من الزمن وكانت سببا في انهيار هذه البلاد وخرابها •

كانت (اسبارطة) في أوائل القرن السادس قبل الميلاد أعظم وأقوى مدينة في شبه جزيرة اليونان • ولكن هذه المدينة كانت تختلف عن سائر المدن اليونانية • فانه بينما اخذت جميع المدن الاخرى تتصل بغيرها من البلدان وتفتح أبوابها لمؤثرات خارجية وتظهر نشاطا كبيرا في الاعمال التجارية والصناعية وتتقدم في طريق الحضارة والازدهار ـ في هذه المرحلة

الحاسمة من تاريخ اليونان نرى (اسبارطة) تنطوي على نفسها وتنعزل عن غيرها وتمنع كل تجدد وتسعى الى المحافظة على الاوضاع السائدة • وقد كان رؤساء الاسرات النبيلة الذين يسيطرون على ادارة الحكومة والجيش لايريدون أي تغيير في النظام الاجتماعي والسياسي ويعتقدون أن هذا النظام قد وضع منذ اقدم العصور وأن الفضل يرجع اليه في سطوة دولتهم • واذا صرفنا النظر عن مقاطعة (ابيروس) النائية والتي لم تلعب أي دور في تاريخ اليونان فان (اسبارطة) هي الدولة اليونانية الوحيدة التي ظلت في القرن السادس متمسكة ، ولو في الظاهر ، بالحكم الملكي بينما انتقلت المدن الاخرى الى النظام الجمهوري •

ولكن رغم هذه الروح المحافظة فان (اسبارطة) ايضا قد تطورت مثل غيرها من المدن اليونانية واجتازت مراحل متعددة ، مختلفة منذ تأسيسها حتى القرن السادس ، كما ان تطورها قد استمر ، وان كان بصورة بطيئة ، في العصور التالية •

ان الاخبار والابحاث القديمة عن دولة (اسبارطة) كثيرة ولكنها ، مع الاسف ، لا تتضمن شيئا واضحا ثابتا يمكن الاعتماد عليه • ولعل احسن مستند في هذا الموضوع المقاطع القيمة التي تجدها في كتاب (السياسة) والتي يتكلم فيها (آرسطو) عن دستور الاسبارطيين • على ان (آرسطو) يقتصر هنا على ملاحظات عامة وابحاث نظرية يحاول فيها الكشف عن نقاط الضعف في دستور (اسبارطة) واسباب تأخرها وانهيارها ، ولكنه لا يذكر لنا شيئا عن الحوادث التاريخية اما قصائد الشاعر الاسبارطي (تيرتيوس) فانها تمزج بين الوقائع الحقيقية والاساطير الخيالية ولايمكن الاستفادة منها الا بعد جهود كبيرة وبكثير من الحذر •

كانت مقاطعة (لاقونية) من البلاد التي انتشرت فيها الحضارة الميكينية • وبعد ان اغار (الدوريون) في القرن الثاني عشر على شبه جزيرة البيلوبونيز

واستولوا على (ميكيني) و (تيرنس) بدأوا يتسللون الى مقاطعة (لاقونية) واضطروا الى ان يخوضوا غمار حروب كثيرة استمرت مدة عصر قبل ان يتغلبوا على سكان البلاد ويحرقوا المدن القديمة • ولم تقم (اسبارطة) الا في اوائل القرن التاسع ق•م• ولم تشتهر الا بعد ان اصبحت عاصمة للدولة الجديدة التي اسسها الدوريون في (لاقونية) ، كان هؤلاء الغزاة من الشمال يمتازون بالقوة والشدة ولا يعرفون وسيلة اخرى للحياة سوى الحرب فاخذوا يفرضون سيادتهم بقوة السيف على اهل البلاد • وبعد ان استعبدوا سكان (لاقونية) هاجموا مقاطعة (مسينة) الواقعة في الجنوب الغربي من شبه جزيرة (البيلوبونيز) وهي بلاد خصبة معتدلة الاقليم تسكنها قبائل مسالمة تشتغل بالزراعة • وتذكر الاخبار ان ملك (مسينة) البطل (آرسطوديموس) سأل العرافين في معبد (دلفي) عن وسيلة للانتصار على الاسبارطيين فاجاب العرافون ان الآله (آبولون يطلب منه تضحية فتاة من نسله • وقد قتل (آرسطوديموس) ابنته ـ وخسر الحرب • وبعد سنوات عاد فثار مع اتباعه وظل يحارب مدة تسع سنوات ولكن الاسبارطيين تغلبوا عليه في النهاية وفرضوا على السكان ان يدفعوا كل سنة نصف محصولاتهم، وساقوا الالاف منهم الى (لاقونية) وحكموا عليهم بالاشتغال في المزارع كأقنان •••

٢ • ـ اراضي (اسبارطة) وطبقات الشعب :

بعد حرب (مسينة) قسم الاسبارطيون اراضيهم الى نوعين : الاراضي الاميرية والاراضي الدائرة •

فالأراضي الأميرية هي الواقعة حول مدينة (اسبارطة) مباشرة والتي كانت قد قسمت الى حصص متساوية وزعت على الاسرات الاسبارطية ثم اضيفت اليها اراضي (مسينة) التي نالت كل اسرة حصة منها ايضا • ان الحصة لايجوز تقسيمها او بيعها • فهي في الحقيقة ليست ملكا خاصا وانما

ملك الدولة تعطيها لرئيس الاسرة ليعيش من محصولها هو وزوجته واولاده. وعندما يموت الاب تنتقل الارض بالوراثة الى الابن الاكبر. واذا مات رئيس الاسرة دون ان يكون ابن يرثه تعود الارض الى الدولة .

وكان صاحب الارض لايقيم فيها ابدا وانما يأتي اليها من حين الى آخر للصيد . ولذلك لم تكن في هذه الاراضي قصور او حصون وانما اكواخ منفردة للرعاة ودور منعزلة للاقنان . وكانت الدولة تفرض على الاقنان ان يقدموا كل سنة الى صاحب الارض مقدارا معينا ثابتا من الحبوب والفواكه والخمر والزيت .

وحول الاراضي الاميرية كانت تقع اراضي (البريوكي) اي الدائرة او المحيطة التي تؤلف حاجزا يحمي (اسبارطة) من الشعوب المجاورة . في هذه الارض كانت الملكية فردية ، خاصة وهي يمكن تقسيمها وانتقالها. فكان الاسبارطي الغني يستطيع ان يشتري من هذه الاراضي بقدر ما يريد ثم ان يبيعها او يورثها الى اكبر ابنائه او الى اولاده الاخرين . وكان قسم من هذه الأراضي خاص بالاسرتين الملكيتين وقسم اخر ملك للالهة تعطي وارداته الى المعابد . وتسمح الدولة في بعض الحالات الاستثنائية للاجانب بشراء هذه الاراضي والاقامة فيها . وسكان هذا القسم من الاراضي الاسبارطية يعيشون في المدن او القرى الكبيرة ....

كان المجتمع في (لاقونية) ينقسم الى ثلاث طبقات :

١. ـ الطبقة الحاكمة من الدوريين الذين يسكنون في مدينة اسبارطة ولا يشتغلون بالاعمال الاقتصادية بل يعيشون من جهود الاقنان . وهذه الطبقة الارستوقراطية العسكرية لم يكن يزيد عدد افرادها في يوم من الايام على (٣٢) الفا من رجال ونساء واطفال وهي لاتعرف مهنة تليق بها غير الحرب ، فتقضي كل حياتها في التدريب على حمل السلاح واستعماله .

٢ ـ طبقة (البريوكي) اي سكان الاراضي الدائرة ، المحيطة • وافراد هذه الطبقة احرار يشتغلون بالتجارة او الصناعة ويدفعون الضرائب ويقومون بالخدمة العسكرية ، ولكنهم لا يتمتعون بالحقوق السياسية ، فلا يشتركون في شؤون الدولة ولا يصوتون في مجلس الشعب ولا يجوز لهم التزاوج مع افراد الطبقة الحاكمة • وكان عدد (البريوكي) يبلغ (١٢٠) الفا •

٣ ـ طبقة (الهيلوتيين) اي الاقنان الذين كان يبلغ عددهم (٢٢٤) الفا • ويقول المؤرخ (سترابون) ان كلمة (هيلوت) مشتقة من (هيلوس) وهو اسم اول مدينة فرض الاسبارطيون على اهلها العبودية •

ان الهيلوتيين ارقاء تابعون للدولة التي توزعهم على الاحرار ليفلحوا اراضيهم او ليقوموا بخدمتهم • ولا يحق للفرد الاسبارطي ان يبيع احدا من (الهيلوتيين) او يعتقه او يطرده من الارض او يطالبه بشيء من المحصولات يزيد على المقدار المعين من الدولة •

كان هؤلاء (الهيلوتيون) مرتبطين بالارض يفلحونها كما يريدون ، فاذا استطاعوا تحسين الارض وزيادة محصولها فان ذلك تعود فائدته عليهم ، ولذلك كان الكثيرون منهم يعيشون في شيء من الرخاء ، وكان يمكنهم في بعض الظروف ان يجمعوا ثروة وعلى الاخص عندما يشتركون في الحرب، فانهم حينئذ يحتفظون بالغنائم التي يسلبونها وهكذا نرى انه لما اعلن ملك (اسبارطة) (قليومنيس) في القرن الثالث بان الحكومة سوف تمنح الحرية لكل (هيلوت) يدفع خمس (منات) من الفضة بلغ عدد الذين تقدموا لنيل حريتهم ستة آلاف •

على ان وضع (الهيلوتيين) من الوجهة الحقوقية فظيع جدا • ان قوانين (اسبارطة) لم تكن تتضمن اية حماية لهم • ونرى الحكام يعلنون من حين الى آخر حالة الطوارىء التي يسمح فيها للشبان الاسبارطيين ان

يصطادوا الهيلوتيين ويقتلوهم دون ايما سبب • كما انهم كانوا دوما يراقبون من قبل الشرطة السرية التي يحق لافرادها ان يقتلوا في الحال كل هيلوت يشتبهون بأمره دون اية محاكمة •

وقد سن الاسبارطيون القوانين للمحافظة على هذا النظام الاقتصادي والاجتماعي واتبعوا في مؤسساتهم الحكومية وفي معيشتهم وتربية اولادهم ، أساليب خاصة تضاربت الاراء حولها على ان (اسبارطة) لم تسن هذه القوانين الا بعد عصور طويلة من التطور مرت خلالها بمرحلة كانت فيها لا تختلف كثيرا عن المدن اليونانية الاخرى، ويمكننا ان نسمي هذه المرحلة بعصر اسبارطة الذهبي ••••

٣ • ـ حضارة (اسبارطة) في عصرها الذهبي :

كانت (اسبارطة) في القرن السابع قبل الميلاد تسمح للغرباء بالاقامة في اراضيها واكتساب حقوق المواطنين • وكانت هناك علاقات وثيقة بينها وبين جزر (تيرة) و (رودس) و (قبرص) وساموس ثم مستعمرة (كيريني) في برقة • وقد رأينا كيف تحالفت مملكة (ليدية) مع (اسبارطة) وتوطدت الصداقة بينهما •

في ذلك العهد كانت (اسبارطة) تفاخر بتقدمها في صناعة الاواني الخزفية والنسيج والمعادن وبما ان البلاد لم يكن فيها شيء من المرمر او الحجارة الصالحة للنحت فقد انصرف رجال الفن الى سكب التماثيل البرونزية ونقش العاج والاخشاب وتركوا آثارا لاتقل اتقانا وجمالا عن امثالها في المدن الايونية وبسبب كثرة الحديد في مقاطعة (لاقونية) فقد برز الاسبارطيون في صناعة الاسلحة والادوات الزراعية والمفاتيح • وكان في اسبارطة معبد للالهة (آرتميس) يعد من أقدم المعابد في شبه جزيرةاليونان وقد جدد بناء هذا المعبد حوالي سنة (٦٠٠) قبل الميلاد وزين بتمثالللالهة يشبه تماثيلها المعروفة في آسية الصغرى ويمتاز بنقوشه الملونة •

وتذكر الاخبار ان حكومة (اسبارطة) استدعت في سنة (٥٧٦) الفنان (تيودوروس) من جزيرة (ساموس) ليقوم بتزيين البناء الذي يسمى (سكياس) والذي كان يجتمع حوله مجلس الشعب ، وهو في شكل خيمة عظيمة • كما ان الحكومة عهدت بعد عشرين سنة من ذلك الى الفنان (باتيقلس) من (مغنيسية) في آسية الصغرى بنحت تمثال للاله (ابولون)• على ان الفن الذي ازدهر أكثر من غيره في اسبارطة هو فن الموسيقى • وقد عاش فيها بعض كبار الملحنين الذين لم يكونوا من أهلها وانما استوردتهم من الخارج • وفي مقدمة هؤلاء الشاعر والموسيقار (ترباندر) الذي استدعته الحكومة الاسبارطية في سنة (٦٧٠) من جزيرة (لسبوس) ليدرب فرقة للغناء في الحفلات والاعياد • ثم استدعي في سنة (٦٢٠) (تاليتاس) من كريد لهذه الغاية وتبعه بعد ذلك الشاعران المشهوران (تيرتيوس) و (آلقمان) وكان يطلب من هؤلاء الشعراء والموسيقاريين ان يقوموا في الدرجة الاولى بنظم القصائد الوطنية وتلحين الاناشيد الحماسية وتدريب فرق من الشباب على الغناء • ولم تكن الموسيقى تعلم بصورة افرادية وانما مشتركة لانها تعتبر من الوسائل الفعالة في تنمية روح الجماعة وفكرة النظام واثارة الحماسة في المحاربين •

تنسب الاخبار الى ترباندر اختراع الاغاني التي تنشد في حفلات الشراب كما تروي انه اضاف الى الاوتار السبعة التي كانت تستعمل في (اللير) وترا جديدا ، ولكن حكام (اسبارطة) لم يسمحوا له بالعزف على هذه الآلة الجديدة • ولما جاء بعد مدة الموسيقار (تيموتيوس) الذي جعل عدد الاوتار احد عشرا وأراد الاشتراك في مباراة موسيقية في (اسبارطة) لم تسمح له الحكومة بذلك الا بعد ازالة الاوتار الأربعة الزائدة ، المخالفة للتقاليد •

أما (تيرتيوس) الذي خلف ترباندر فان الروايات تختلف في تعيين

موطنه الاصلي • وبينما يقول الاسبارطيون انه من (لاقونية) يدعي سكان (آثينة) انه نشأ بينهم وكان معلما للصبيان ثم ذهب الى اسبارطة أثناء الحرب الثانية ضد (مسينة) ورأى ان كفة (مسينة) هي الراجحة فاستطاع بأشعاره وأناشيده التي أثارت حماسة الاسبارطيين ثم بمهارته في الحرب ـ رغم أنه كان أعرج ـ ان يقود اسبارطة الى النصر •

كان (تيرتيوس) ينشد اشعاره بمرافقة المزمار ويمجد فيها أولئك الذين يحاربون ويموتون في ساحة القتال في سبيل بلادهم • وقد قال ملك اسبارطة (ليونيداس) ان (تيرتيوس) اقدر الشعراء على اثارة نفوس الشباب في أعماقها •

نجد باسبارطة في هذا الوقت ايضا الشاعر (آلقمان) الذي كان صديق (تيرتيوس) ومنافسا له • وقد نشأ (آلقمان) في (ليدئية) ويروى بعض المؤرخين أنه كان عبدا ولكن الاسبارطيين اعجبوا بشعره وأحسنوا استقباله• وبينما كانت أشعار (تيرتيوس) تدور حول الموضوعات الحماسية وحدها انصرف (آلقمان) الى التغني بالحب والخمر • ولاشك في انه لو عاش بعد مدة عصر لما سنمح له الاسبارطيين بانشاد اشعاره ولطردوه من بلادهم •وهو يمتاز بتنويع الموضوعات ولكنه يكثر من وصف الطعام مما يؤيد ما يذكره الرواة عن نهمه • وفي احدى قصائده يقول ان الحظ السعيد قد طوح به من (ساردیس) الى (اسبارطة) وانه لو بقي في موطنه الاصلي لأصبح راهبا بينما هو الآن يستطيع ان يحب بكل حرية صديقته (ميجاتوستراتات) الحسناء الذهبية الشعر •••

لقد كان (آلقمان) في مقدمة الشعراء اليونانيين الذين وجدوا في الحب أهم موضوع يتكلمون عنه • ولما قام النقاد الاسكندريون في العصر الهلليني يختارون (الشعراء الغنائين التسعة) بين أكبر الشعراء اليونانيين القدماء اتفقوا جميعاً على وضع اسم (آلقمان) في رأس القائمة •

إن وجود امثال هؤلاء الشعراء يبرهن لنا على أن الاسبارطيين لم يكونوا في عهد (ليكورغوس) يختلفون كثيراً عن غيرهم من اليونانيين • لقد كانوا ايضاً يتذوقون الشعر ويعتنون بالفنون الجميلة • فالاسبارطيون لم يكونوا دوماً (اسبارطيين) حسب المفهوم الذي اقترن فيما بعد بهذا الاسم •

على ان هذه النهضة في (اسبارطة) لم تدم طويلاً • والمرحلة التي يسمونها (عصر اسبارطة الذهبي) قد اقتصرت على شيء بسيط من النشاط الفني ، مات قبل أن يؤتي ثماره وقبل ان يؤثر في الحياة الفكرية ، ولذلك لم ينشأ في (اسبارطة) احد من العلماء أو الفلاسفة •.

ومن الواضح ان حروب مسينة قد احدثت انقلاباً هاماً في أوضاع الاسبارطيين • فان فتح بلاد مسينة قد ادى الى ازدياد عدد (الأقنان) زيادة كبيرة • وقد نشأت عن ذلك مشكلة خطيرة وهي كيف يمكن لثلاثين الف من الاسبارطيين ان يظلوا مسيطرين على بقية السكان الذين يبلغ عددهم (٣٤٤) الفاً والذين كانوا جميعاً سواء من طبقة (البريوكي) أو (الهيلوتيين) ينتظرون اول فرصة للثورة والتحرر ؟

كان لابد للاسبارطيين إذا ارادوا المحافظة على سيادتهم أن يتخلوا عن الاشتغال بالفنون والآداب وأن يهيئوا كل فرد منهم ليكون جندياً قادراً في كل لحظة على خوض غمار الحرب واخماد الثورات • وقد وضع (ليكورغوس) قوانينه في الدرجة الأولى لتحقيق هذه الغاية • ويجب الاعتراف بأنه قد نجح في ذلك ولكنه قد قضى في الوقت نفسه على (اسبارطة) بأن تبقى في معزل عن كل مظاهر الحضارة اليونانية عدا الناحية السياسية •••

ليكورغوس

كان المؤرخون اليونانيون منذ عهد (هيرودوت) لا يشكون في ان دستور (اسبارطة) قد وُضع من قبل المشرّع (Lycurgus) • على ان المؤرخين

الحديثين ما زالوا يترددون في التسليم بأن (ليكورغوس) كان شخصية تاريخية وانه قد عاش حقاً مثلما ظلوا مدة عصر ينكرون وجود (طروادة) و (آغاممنون) .

فالاخبار عن تاريخ ولادة (ليكورغوس) متضاربة وتتراوح بين (سنة ٩٠٠ و ٦٠٠ ق.م.) والمؤرخون الحديثون يصعب عليهم ان يتصوروا كيف استطاع رجل واحد ان يضع مثل هذا الدستور الذي يُعدّ بحق من أغرب الدساتير في التاريخ وأكثرها ازعاجاً للبشر ، ثم كيف تمكن من فرضه في سنوات قليلة ليس على السكان المستعبدين فحسب بل على الطبقة الحاكمة نفسها أيضاً .

على أن جميع البراهين النظرية التي يأتي بها هؤلاء المؤرخون لاتكفي لرفض الروايات المتواترة عن حياة (ليكورغوس) . ويظهر ان القرن السابع (ق.م) الذي ظهر فيه (ليكورغوس) كان عصر المشرعين . فهناك (زاليوقوس) في مدينة (لوكريس Locris بجنوبي ايطالية (حوالي ٦٦٠ ق.م) و (دراقون Dracon) في آثينة (سنة ٦٢٠ ق.م) ثم (خاروندس Charondas) في (قاطانيا Catana) بجزيرة صقلية (حوالي سنة ٦١٠ ق.م) . هذا بصرف النظر عن اكتشاف النبي (اشعيا) لوصايا موسى في معبد القدس (سنة ٦٢٠ ق.م) .

ربما كانت هذه الدساتير والقوانين ليست من وضع الاشخاص المشرعين وانما هي مجموعة من قواعد العرف والتقاليد الموروثة التي نُقحت ووُضعت في شكل قوانين ، فاطلق عليها اسم الشخص الذي تولى جمعها وقام بترتيبها وكتابتها .

يذكر (هيرودوت) ان (ليكورغوس) ، وهو عم ملك اسبارطة (خاريلاوس) والوصي عليه ، قد تلقى في معبد (دلفي) الاوامر التي جعلها

اساسا لقوانينه • ويبدو ان المشرعين في تلك العصور كانوا يشعرون ان احسن طريقة لالغاء بعض العادات البالية وفرض قواعد جديدة هي ان ينسبوا المقترحات التي يريدونها الى الآلهة ، كذلك يذكر المؤرخون اليونانيون ان (ليكورغوس) قد زار جزيرة (كريد) فأبدى اعجابه بقوانينها ومؤسساتها وقرر ان يقتبس بعضها وينقله الى (لاقونية) • وقد قبل الملوك والقسم الاعظم من النبلاء اصلاحات (ليكورغوس) لادراكهم بأنه لاغنى عنها في سبيل مصلحتهم وسلامتهم هم انفسهم • على ان احد الشبان النبلاء اسمه (آلقاندر) قام يعارض هذه الاصلاحات بشدة واعتدى على (ليكورغوس) الذي فقد بسبب ذلك احدى عينية • ورغم هذا الحادث الفظيع فقد حافظ (ليكورغوس) على رباطة جأشه ونادى مواطنيه ليجتمعوا حوله في الساحة العامة ويشاهدوا ما اصابه • وقد استنكروا جميعا هذا الاعتداء الاثيم وقبضوا على (آلقاندر) وجاؤوا به بين يدي (ليكورغوس) ليقرر أمره ولكن (ليكورغوس) بعد ان شكر لهم عواطفهم طلب اليهم الانصراف جميعا عدا (آلقاندر) الذي استصحبه الى بيته معه ودعاه الى مائدته دون ان يوبخه او يوجه اليه اي عتاب • وهكذا ظل آلقاندر مدة من الزمن يعيش الى جانب (ليكورغوس) ولا يتخلف عن مائدته فاستطاع ان يلاحظ بنفسه ما كان يتصف به الرجل من طيبة القلب واعتدال المزاج ورجاحة العقل والصبر على العمل • حينئذ انقلب (آلقاندر) من عدو لدود الى صديق حميم يتحدث الى كل من يلتقي به عن اخلاق (ليكورغوس) السامية •

وتدعي الروايات اليونانية التي تمزج في الغالب بين الحقائق والاساطير ان (ليكورغوس) بعد الانتهاء من وضع قوانين اسبارطة جمع مواطنيه وناشدهم بأن لا يبدلوا منها شيئا قبل ان يعود من رحلته اليهم • ثم ذهب الى معبد (دلفي) واعتكف هناك وامتنع عن الطعام حتى مات معتقدا بأنه من واجب رجال السياسة ان يجعلوا ، اذا استطاعوا ، حتى من موتهم عملا يخدمون به بلادهم •

٥ ٠ ـ دستور (اسبارطة) :

عندما نحاول ان نحدد الاصلاحات التي قام بها (ليكورغوس) نصطدم بعقبات كبيرة بسبب تناقض الروايات القديمة واضطرابها، ومن الصعب جدا ان نعرف ما هي الاحكام التي كانت سائدة قبل عهد (ليكورغوس) وما هي المواد التي وضعها هو ثم ماذا اضيف الى ذلك من الامور بعده ٠ وبينما يؤكد (بلوتارخ) و (بوليبيوس) ان (ليكورغوس) قد قسم اراضي (لاقونية) الى ثلاثين الف حصة متساوية بين المواطنين الاسبارطيين نرى (توكيد يديس) ينكر مثل هذا التقسيم ٠ ومن المحتمل ان يكون الدستور قد اقر الممتلكات القديمة على ما كانت عليه ٠ ولكنه نص على تقسيم البلاد التي فتحت مجددا بصورة متساوية ٠ وقد ألغى (ليكورغوس) النظام العائلي للمجتمع الاسبارطي واستبدله بنظام جديد يقوم على التقسيمات الجغرافية ـ كما فعل فيما بعد المصلح (قليستينيس) في آثينة ٠ وبهذه الطريقة قضى على نفوذ الاسرات النبيلة القديمة واتسع الاساس الارستوقراطي الذي كانت تستند اليه حكومة (اسبارطة) ٠ وللحيلولة دون نشأة طبقة من التجار الأغنياء قد تطمع في انتزاع السلطة كما حدث في (قورنت)و (آرغوس) و (ميغارة) منع (ليكورغوس)المواطنين الاسبارطيين من الاشتغال بالتجارة أو الصناعة ولم يسمح باستيراد الفضة والذهب الى اسبارطة ونص على ان تكون العملة النقدية من الحديد وحده ٠ فقد كان يريد ان لاينصرف الاسبارطيون الى أي عمل غير الحرب وادارة الحكومة ٠

كان المحافظون القدماء يدعون بأن دستور (ليكورغوس) إنما ظل سائدا مدة طويلة لأنه استطاع الجمع بين اشكال الحكم الثلاثة أي الملكية والارستوقراطية والديموقراطية بصورة متناسبة ولم يترك مجالا لتغلب احد العناصر على الاخرين ٠

وفي الحقيقة فقد كانت الملكية في « اسبارطة » غريبة من نوعها • كان هناك ملكان ينافس احدهما الآخر : الاول من أسره (آجيدى) والثاني من اسرة (اوريبونتيدى) وكانت كلتاهما ترجعان بنسبهما الى (هيراقلس) • ويظهر ان اسرة (آجيدى) كانت أقدم من الاسرة الثانية التي جاءت متأخرة الى البلاد • ولذلك فان الملوك (الاجيديين) كانوا يتمتعون بمكانة أسمى في نظر السكان • ومن المحتمل ان تكون هذه الملكية المزدوجة العجيبة نتيجة لاتفاق بين الاسرتين القويتين اللتين خافتا من التناحر ولم تجدا وسيلة للاحتفاظ بالحكم من اقتسام السلطة • وقد حافظ الاسبارطيون على هذا النظام لمعرفتهم بأن التنافس الدائم بين الملكين يضعفهما ويمنعهما من الاستئثار بالسلطة •

ان سلطة الملكين كانت محدودة • ويظهر ان الطبقة الارستوقراطية قد استفادت من التنافس بين الملكين فجردتهما من أكثر الصفات التي كانت لهما قديما فصار الملوك عند تولي العرش يقسمون اليمين على أن (يحكموا حسب القوانين السائدة) ويقبلون من المراقبين ان يعلنوا عند استلامهم ادارة الحكومة بأنهم (سيحافظون على النظام الملكي ما دام الملوك مخلصين للقانون) وكانت أعمال الملكين تقتصر على ترأس الحفلات الدينية وتقديم الضحايا واستقبال الضيوف والنظر في بعض القضايا الحقوقية التافهة مثل دعاوى التبني وتزويج اليتامى •

ويتجلى العنصر الارستوقراطي في مجلس الشيوخ (جيروزيا) الذي منحه الدستور أعلى السلطات • وكان يتألف من الملكين بحكم الوظيفة ومن (٢٨) عضوا يشترط أن يكونوا قد بلغوا الستين من العمر وامتازوا بالفضيلة • وكان الاعضاء ينتخبون من قبل الجمعية العامة لمدى الحياة • وطريقة انتخابهم ، كما يصفها (بلوتارخ) ، من أغرب الطرق • فانه عندما يشغر مكان في المجلس بموت احد الاعضاء يطلب الى المرشحين ان يمروا

صامتين الواحد بعد الآخر امام الجمعية العامة • وكان انصار كل مرشح يصفقون له ويحيونه بأصوات عالية • ويعتبر ناجحا المرشح الذي يصفق له اكثر من غيره • وبما ان تقدير ذلك يعود الى لجنة من كبار الموظفين تستمع الى اصوات التصفيق والهتافات في بناء مجاور دون ان ترى شيئا فانه لم يكن ينتخب بالفعل لمجلس الشيوخ الا رؤساء الاسرات النبيلة القوية ، على الرغم من انه يحق نظريا لكل مواطن اسبارطي بلغ الستين ويملك ارضا في (لاقونية) وقام بالخدمة العسكرية ان يرشح نفسه •

كان مجلس الشيوخ ينظر بالدرجة الاولى في شؤون السياحة الخارجية كما يهيء المشاريع التي تعرض على الجمعية العامة • وفي الادوار المتأخرة اصبح يحق له ان يعترض على مقررات الجمعية العامة ويفسخها •ومجلس الشيوخ هو الذي ينظر في الحوادث الهامة والقضايا الجنائية والجرائم التي تتعلق بسلامة الدولة ويحكم بالاعدام وتعتبر احكامه قطعية •

وبالاجمال فقد كان لهذا المجلس سلطة واسعة وتأثير كبير في ادارة الحكومة • وكان من الطبيعي ان تكون سياسة هؤلاء الشيوخ النبلاء الطاعنين في السن محافظة ، بل رجعية للغاية •••••

اما الجمعية العامة (آبيللا) فهي العنصر الديموقراطي الضعيف في دستور (اسبارطة) • وهي تتألف من جميع المواطنين الاسبارطيين الذين بلغوا الثلاثين من العمر واجتازوا مراحل التدريب التي يفرضها القانون • وكانت تجتمع في منتصف كل شهر قمري بدعوة من المراقبين القائمين على ادارة الحكومة ، فتعرض عليها جميع الأمور المتعلقة بالحياة العامة والقوانين والانظمة الجديدة لتصوت عليها فتقرها او ترفضها ولكن دون اي مناقشة • والجمعية العامة هي التي تنتخب جميع الموظفين واعضاء مجلس الشيوخ والمراقبين • ولكن هذا من الوجهة النظرية فقط لان طريقة الانتخاب لاتترك لها مجالا للانتقاء وتسلبها حق الاختيار ، كما ان مقرراتها لاتصبح نافذة

الا بعد موافقة الشيوخ والمراقبين عليها واعلانها رسميا • وهكذا فقد كانت سلطة الجمعية العامة التي تمثل الشعب الاسبارطي اسمية ليس لها من شأن كبير في توجيه السياسة• وعندما جاء احد الرجال التقدميين الى (ليكورغوس) وبين له ان دستوره لايضمن الديموقراطية اجاب : اذا كنت تريدالديمقراطية فابدأ بها في بيتك • ورغم ان الجمعية العامة كانت في الواقع تحت وصاية الشيوخ والحكام فان النبلاء الذين كانوا يرتابون في امرها قاموا فيما بعد يسعون الى التخلص منها فأسسوا لجنة تشريعية تسمىالجمعية الصغرى تضم عدا الملكين والشيوخ والمراقبين ابرز الشخصيات في الدولة من اصحاب الحل والربط وتعقد اجتماعاتها بصورة سرية فتبحث في جميع المسائل الهامة وتقرر ما تريد بشأنها •

واخيرا كان هناك المراقبون الخمسة الذين يشبههم الكاتب الروماني (شيشرون) بالمحامين اي (تريبون) في الجمهورية الرومانية الذين كان ينتخبهم الشعب لتمثيله والدفاع غن حقوقه ، لان المراقبين ايضا ينتخبون من قبل الجمعية العامة • ولكن الاصح مقارنتهم بقناصل (روما) او الوزراء في الدول الحديثة اذ انهم يقومون ، مثل هؤلاء ، بالسلطة الادارية •

اننا لانجد ذكرا للمراقبين في الدستور الذي وضعه (ليكورغوس) ولكن وظيفة المراقب كانت قائمة في (اسبارطة) قبل (ليكورغوس) •ويظهر ان هذه الوظيفة احدثت في القرن الثامن للقيام ببعض الاعمال التي كان يتولاها الملكان قبلا ، وان هناك علاقة بين عدد المراقبين والقرى الخمس التي تألفت منها مدينة (اسبارطة) ومما يبرهن على قدم هذه الوظيفة اننا نصادفها ايضا في (كيريني) ببرقة وفي جزيرة (تيرة) مستعمرة الاسبارطيين القديمة • ولعل عدم ذكرها سواء في قصائد (تيرتيوس) او في دستور (ليكورغوس) ناشيء عن انها لم تكن في بادىء الامر تلعب دورا خطيرا • على ان المراقبين الخمسة عظم شأنهم مع مرور الزمن حتى اصبحوا في منتصف

القرن السادس يضاهون الملوك في السلطة ثم توصلوا بعد الحروب الفارسية الى الانفراد بالسلطة العليا فصاروا يستقبلون السفراء والوفود الاجنبية ويفصلون في المنازعات القانونية ويقودون الجيوش ويراقبون الملوك ويخلعونهم او يعاقبونهم اذا اقتضى الامر ٠

كان المراقبون ينتخبون سنويا من قبل الجمعية العامة ٠ وكان يمكن مبدئيا لكل اسبارطي ان ينتخب ٠ وهنا تبدو لنا الصفة الديموقراطية التي يدعي البعض انها من العناصر الاساسية في دستور (اسبارطة) ولكن في الواقع كان مجلس الشيوخ هو الذي يختار المراقبين ٠ وتدل الاخبار على ان المراقبين كانوا في القرن السادس لا يخرجون على ارادة طبقة النبلاء الحاكمة وان لم يكونوا هم انفسهم من افراد هذه الطبقة ٠ يباشر المراقبون وظائفهم في مبدأ السنة عند اللاقونيين اي في منتصف الشهر القمري الذي يعقب الاعتدال الخريفي ، وأول عمل يقومون به هو اصدار بيان الى المواطنين يدعونهم الى « حلق شواربهم واطاعة القانون » ٠

ان المراقبين ليسوا مسؤولين تجاه احد ٠ وكانوا يشاركون مجلس الشيوخ في النظر في القضايا الجنائية وهم الذين يفصلون في جميع المسائل المتعلقة بالحقوق العائلية والملكية والارث والزواج ، ويقومون بتصنيف المواطنين حسب اوضاعهم الحقوقية وسلوكهم الاخلاقي ، ويشرفون على حفظ النظام الاجتماعي وتدريب الشباب على حمل السلاح والاستعداد للحرب ٠ ومن اختصاصهم ادارة شؤون طبقة (البريوكي) وتعيين الشرطة السرية لمراقبة (الهيلوتيين) ٠ ويحق لهم ان يطردوا من البلاد كل غريب غير مرغوب فيه ، وهم الذين يعينون ويعزلون الموظفين ويحاكمونهم ، كما انهم يراقبون الملكين ويرافق اثنان منهم الملكين عند توليهما قيادة الجيش في الحرب ٠ وبينما كان مفروضا على سائر المواطنين ان يبقوا واقفين في حضور الملكين فان المراقبين يظلون جالسين ٠

وكان يعهد الى الجيش والشرطة بتنفيذ اوامر الحكومة ومقرراتها • وقد اتخذ المراقبون قاعدة لهم ان يسلحوا بعض الاشداء من الشبان ويستخدموهم كشرطة سرية تسمى (كريبتيا) ليقوموا بالتجسس على افراد الشعب ولا سيما (الهيلوتيين) ويحق لهم ان يقتلوا سرا من يشتبهون به منهم • ويذكر (توكيديديس) انه بعد الحروب الفارسية اذاعت حكومة اسبارطة بيانا تدعو فيه الهيلوتيين الى انتقاء الاشخاص الذين امتازوا منهم بالشجاعة في المعارك لتمنحهم الحرية • على ان الغاية الحقيقية كانت معرفة جميع الذين يحرصون اكثر من غيرهم على التحرر ويتصفون بروح الثورة • وقد تم اصطفاء الفين من الهيلوتيين اعلن عتقهم ، فوضعوا الاكاليل على رؤوسهم واجتمعوا حول المعابد يحتفلون بالحرية الجديدة التي نالوها • على انه لم تمض مدة قصيرة حتى زالت اثار هؤلاء جميعا اذ قضى عليهم الاسبارطيون دون ان يعرف احد باية طريقة تم ذلك •

ان الجيش هو الذي كان يمثل قوة (اسبارطة) ومجدها • وكانت سلامة الاسبارطيين متوقفة على شجاعة جنودهم وما يتصفون به من المهارة وروح النظام والتضحية • ويقضي الدستور الاخلاقي في (اسبارطة) ان يكون المواطن جنديا قويا وشجاعا • واسمى شرف واعظم سعادة للمواطن الاسبارطي ان يموت في ساحة الوغى ، واشنع عار يلحق الجندي هو ان يبق على قيد الحياة بعد هزيمة الجيش • ان والدة الجندي نفسها لم تكن لترضى بذلك • وكانت الام الاسبارطية تودع ابنها ، عندما يذهب الى الحرب ، بقولها : لاتعد الا وانت حامل درعك او محمولا عليه • ذلك ان الدرع الاسبارطي كان ثقيلا لا يمكن للجندي ان يهرب الا اذا تخلى عنه •••••

٦ ـ النظام الاسبارطي

في سبيل تحقيق المثل الاعلى للقوة والشجاعة كان الاسبارطيون يفرضون على كل فرد منهم نظاما صارما ودقيقا منذ الولادة • وهم لم يكونوا

يقتصرون على السماح للوالد بقتل اطفاله المشوهين ، بل كانوا يحتمون على كل مواطن ان يعرض مولوده الجديد امام لجنة من المراقبين ، فاذا تبين لها ضعفه او وجدت فيه نقصا كان يقذف به من ذروة الجبل ليموت على الصخور المسننة وكان الرجال والنساء ينذرون دوما بأنه يجب عليهم قبل الزواج ان يلاحظوا صحة الشخص الذي يريدون الاقتران به • وتذكر الاخبار ان الملك (آرخيداموس) نفسه حكم عليه بجزاء نقدي لزواجه بأمرأة قصيرة •

على ان المهم ليس اصطفاء الازواج ، بل التدريب الرياضي الذي يتلقاه الشباب مدة طويلة من الزمن • ويروى (توكيديديس) عن لسان الملك (ارخيداموس) قوله : ليس هناك من فرق كبير بين شخص واخر عند الولادة وانما يمتاز بالقوة من ينال بعد ذلك احسن تدريب •

يفصل الصبي الاسبارطي عن اسرته متى بلغ السابعة من العمر ، ويربى من قبل الدولة • وكان الصبيان يقسمون الى زمر تحت اشراف مدرب ، فينتقي من كل زمرة امهر واشجع صبي وينصبه قائداً لرفاقه يطلب اليهم اطاعته وقبول العقاب الذي يفرضه عليهم • ثم يدفعون الى منافسته او التفوق عليه في العمل واتباع النظام • ولم تكن الغاية من تدريب الناشئين ان يكتسبوا الرشاقة والمهارة في الحركة ، كما عند الاثينيين بل الشجاعة والصلابة والقدرة على القتال •

كان الكبار يثيرون دوما المنازعات بين الصبيان افرادا او جماعات ليعتادوا على الشجاعة ويزدادوا قوة • والصبي الذي يظهر عليه الخوف او يتردد لحظة في الهجوم يعاقب بشدة •

ان الفتيان كانوا يقومون بالتمارين والمبارزات وهم عراة الاجسام • وكان يطلب منهم جميعا ان يتحملوا صامتين الالم والمشقة والاخطار وفي كل سنة كان ينتخب عدد من الشباب يعذبون عند محراب الالاهة (آرتميس)

حتى تسيل منهم الدماء وتلطخ حجارة المحراب • وعندما يبلغ الصبي الثانية عشرة من العمر يمنع من ارتداء شيء من الثياب عدا رداء واحد في كل الفصول • ويجب عليه ان ينام في الهواء الطلق سواء بالصيف او الشتاء على فراش من القصب او اغصان الشجر • وهكذا يظل حتى الثلاثين من العمر يعيش مع افراد فرقته في اكواخ ولا يعرف شيئا من اسباب الراحة البيتية •

يعلم الناشئون اثناء تدريبهم القراءة والكتابة ايضاً حتى لايبقوا اميين ولكنهم لايتجاوزون ذلك الى دراسة شيء من العلوم او الاداب ، ولذلك لم يكن يباع شيء من الكتب في (اسبارطة) ويروى (بلوتارخ) ان (ليكورغوس) كان يرغب في ان يتعلم الاطفال قوانينه ليس عن طريق قراءتها مكتوبة وانما عن طريق السماع والحفظ وبتطبيقها عملياً وامتثال القدوة •

كان الاسبارطيون يعتقدون ان كيان الدولة يقوم على صلاح التربية • على ان التربية التي يقصدونها هي التربية الاخلاقية وليس الفكرية • ان الخلق في نظرهم اهم بكثير من العقل • وكان الشباب الاسبارطي يتعود على اجتناب السكر بأن يشاهد بعض (الهيلوتيين) الذين يأتون بهم ويرغمونهم على شراب كمية كبيرة من الخمر فيرى حالة السكر لديهم وبشاعتها • وفي سبيل الاعداد للحرب كان الاسبارطيون يخرجون شبانهم الى البراري والارياف ويطلبون اليهم ان يقوموا باعاشة انفسهم مدة من الزمن او يموتوا جوعا • وكان يسمح لهم في هذه الحالات ان يلجأوا الى السرقة ولكن على شرط ان لايفتضح امرهم والا فانهم يعاقبون بالجلد والشبان الذين يمتازون بسلوكهم يسمح لهم بحضور اجتماعات المواطنين ليستمعوا بانتباه الى ما يجرى في هذه الاجتماعات العامة من احاديث ويتعرفوا الى المسائل السياسية ويعتادوا على اساليب المناقشة •

ان الشبان الذين يجتازون كل هذه المراحل ويتحملون اعباءها يقبلون

متى بلغوا الثلاثين من العمر في عداد المواطنين ويتمتعون بجميع الحقوق المدنية •

اما البنات فانهن – رغم بقائهن في البيوت – يخضعن ايضا لمراقبة الحكومة وتعليماتها • وقد كان على كل بنت ان تشترك في الالعاب الرياضية والمباريات من ركض وصراع ورمي قرص لتصبح قوية تتمتع بصحة جيدة وتستطيع ان تقوم بوظيفة الامومة على احسن وجه • وكان على الفتاة ان تسير في مواكب الاحتفالات والرقص وهي عارية الجسم ، ولو كان ذلك على مرأى من الشبان ، حتى تضطر الى العناية بجسمها وتكتشف عيوبها • ويقول (بلوتارخ) ان الاسبارطيين لم يكونوا يجدون في عرى الفتيات اي شيء يدعو الى الخجل • وكانت الفتيات ينشدن اثناء الرقص قصائد في تمجيد الشجعان الذين يخوضون غمار الحرب بينما تسخر هذه الاناشيد بالجبناء الذين يهربون من المعركة • كان الاسبارطيون يسمحون لشبانهم بمقدار كبير من الحرية في المسائل الجنسية قبل الزواج ولذلك لم يكن هناك اثر للبغاء عندهم • ولا نجد في مملكة (لاقديمونية) كلها سوى معبد وحد للالاهة (افروديت) التي كان تمثالها يصورها وعلى وجهها النقاب وفي يدها سيف وبقدميها السلاسل كأنهم يريدون ان يرمزوا الى سخف الزواج لاجل الحب وان يدعوا الى ضرورة اخضاع الحب لاهداف الحرب ومراقبة الزواج من قبل الدولة •

وفي الحقيقة فان الحكومة الاسبارطية كانت تحدد موعد الزواج للرجال في الثلاثين من العمر وللنساء في العشرين • وكانت العزوبة تعتبر جرما في اسبارطة فيحرم العزب من مخصصات الاعاشة ويمنعون من مشاهدة الاحتفالات العامة التي يرقص فيها الفتيان والفتيات عراة الاجسام وكثيرا ما كانت جماعات من النساء تهاجم في شوارع اسبارطة الرجال الذين يمتنعون عن الزواج وتمعن في ضربهم وايذائهم • والرجال الذين يتزوجون

ثم لا يرزقون اولادا يصبحون ايضا عرضة للنقمةفان امثال هؤلاءلا يستحقون في نظر الاسبارطيين شيئا من الاحترام •

كان الزواج يمهد له عادة من قبل الابوين ولم يكن يدفع شيء من المهر • على انه بعد اتفاق الاسرتين كان ينتظر من الشاب ان يخطف خطيبته بالقوة وان تبدي هذه من جهتها اشد المقاومة • واذا لم يتم الزواج بهذا الشكل فانهم كانوا يجمعون عددا من الرجال غير المتزوجين ومثلهم من النساء ويدفعونهم جميعا الى غرفة مظلمة ليخطف كل واحد زوجة له • ويعتقد الاسبارطيون ان مثل هذا الانتقاء ليس اكثر عمى من الحب • وكانوا يفاخرون بأنه لا اثر للزنا بينهم • وربما كان هذا صحيحا لانهم كانوا يسمحون للشباب بكثير من الحرية قبل الزواج • والطلاق كان نادرا وغير مستحب ، وقد عوقب القائد الاسبارطي المشهور (ليساندر) لانه ترك زوجته واراد الاقتران بأمرأة اجمل منها • وبوجه الاجمال فان حالة المرأة في (اسبارطة) كانت احسن مما في كافة المجتمعات اليونانية الاخرى • ويقول (بلوتارخ) عن نساء اسبارطة بانهن يتصفن بالشجاعة والقوة والقسوة تجاه ازواجهن وانهن يتحدثن بصراحة في جميع الامور الهامة •••• وكانت المرأة الاسبارطية ترث وتوصي بثروتها الى من تشاء • وقد اتي عهد على اسبارطة كانت فيه نصف ثروة البلاد بأيدي النساء • وكانت النساء تعيش حياة رفاهية وحرية في البيوت بينما كان الرجال يتحملون اهوال الحرب او يجتمعون على موائدهم البسيطة في المحلات العامة •••••

على ان المرأة الاسبارطية ، التي لم تكن ترى زوجها الا نادرا والتي كان اولادها الذكور يفصلون عنها بعد السن السابعة لاتبقى محصورة في بيتها مع بناتها كما في المدن اليونانية الاخرى بل تخرج الى الاسواق وتشتغل بالتجارة • وكان الكثيرون من الاسبارطيين الذين يحصلون بمختلف الطرق غير المشروعة على ثروات طائلة ويخافون من افتضاح امرهم يودعون اموالهم

عند الرهبان ويسجلون املاكهم في الاراضي المحيطة باسم زوجاتهم • وكان النساء هن اللواتي يقمن بشراء هذه الاراضي او بيعها واستثمارها •

كان مفروضا على كل مواطن اسبارطي ، من سن الثلاثين حتى الستين ان يتناول طعام العشاء على المائدة المشتركة مع افراد جماعته في النادي • والطعام في منتهى البساطة وقليل في الكمية لان كثرة الطعام والعناية بتنويعه والتفنن في تهيئته مما يفسد الجسم والعقل معا • وقد كان الحكام الاسبارطيون يريدون ، كما يقول بلوتارخ ، تعويد المواطنين التقشف حتى يصبروا على الحرمان في وقت الحرب وحتى لا يستسلموا الى الكسل في وقت السلم • ولابد لكل اسبارطي متى بلغ العشرين من ان يطلب الانضمام الى جماعة معينة تتألف من خمسة عشر شخصا يشتركون في مائدة واحدة ويوافقون كلهم على انضمامه • ثم يجب عليه ان يقدم في كل شهر مقدارا معينا من الطحين والخمر والجبن والتين المجفف ومبلغا صغيرا من المال لشراء اللحم • ويحق للجماعة ان تفصل عنها كل من يتخاذل في القتال او يعجز عن تقديم الارزاق المطلوبة •

هذه الجماعات هي الخلايا الاساسية في تكوين المجتمع الاسبارطي • فقد كان افراد خيمة واحدة ويؤلفون في جبهة القتال صفا واحدا •

ونستدل من الاخبار ان عادة التقشف والبساطة قد ظلت سائدة في اسبارطة عصورا طويلة وكان من النادر ان يشاهد في هذه البلاد رجال مفرطون في السمن وكثرة الشحم • واذا لم يكن هناك قانون يحدد حجم (الكروش) فانه كثيرا ما يحدث ان تقوم الحكومة علنا بتوبيخ الاشخاص الذين تنتفخ بطونهم الى درجة تستلفت الانظار بل ربما تقرر طردهم من البلاد • كذلك لم يكن يسمح بالاكثار من شرب الخمر ويتعرض السكارى الذين يعربدون ويتخاصمون الى العقاب •

لقد كانت هناك فروق حقيقية بين الافراد في الثروة رغم المساواة في

توزيع الحصص • ولكن هذه الفروق لم تكن لتظهر عليهم في اللباس • فقد كانوا جميعا ، سواء الاغنياء او الفقراء ، يرتدون ثوبا بسيطا من الصوف يعلق على الكتف ولا يتجاوز الركبتين • وكما كانت حكومة اسبارطة لا ترغب في دخول الاجانب الى بلادهم ولا تسمح لهم بالاقامة الا في بعض الظروف الاستثنائية كذلك كانت تمنع الاسبارطيين من السفر الى خارج البلاد دون رخصة خاصة • وهي كانت تسعى دوما الى اثارة الغرور والاعجاب بالنفس بين المواطنين وتجعلهم يعتقدون بانهم افضل من غيرهم ولا يحتاجون الى اقتباس شيء من الاخرين • فالنظام الاسبارطي لم يكن ليستطيع الدفاع عن كيانه الا باستخدام مثل هذه الوسائل البعيدة عن اللطف• وكان القائمون على هذا النظام يعرفون جيدا بانهم اذا سمحوا للسكان باستنشاق نسيم الحرية والرخاء والادب والفن السائد في المدن اليونانية الاخرى فلابد ان ينهار البناء المصطنع لهذا المجتمع الغريب الذي كان ثلثا الشعب فيه اقنانا وجميع الحكام انفسهم عبيدا لفكرة النظام المطلق والطاعة العمياء •

٧ ـ قوة (اسبارطة) العسكرية :

لقد استطاعت (اسبارطه) ، بفضل النظام الذي فرضته على نفسها ، ان تصبح اقوى دولة في بلاد اليونان يخشى الجميع جانبها ويعجبون بنظام جيشها • فان تدريب المواطنين منذ عهد الطفولة قد ساعدهم جميعا على ان يصبحوا الات حربية ممتازة يتصفون بقوة الاجسام والمهارة في استعمال السلاح ويتفانون في الاخلاص للدولة والدفاع عن الوطن ويحافظون على شرف الجندية ويتمسكون بالنظام ويطيعون القانون •

كانت الخدمة العسكرية مفروضة على كافة الاسبارطيين منذ السن العشرين حتى الستين • وكان يجب على كل مواطن ان يكون متأهبا للحرب دوما • وقد كانوا جميعا ينامون في الثكنات الى ان يبلغوا السن الثلاثين وعندما

يعلن النفير العام يعرف كل مواطن السرب الذي ينبغي ان ينضم اليه في الحال • وكان كل سرب يتألف من (٤٠) مقاتل وتتألف الكتيبة من اربعة اسراب والفرقة من اربع كتائب • وكان الجيش الاسبارطي في بادىء الامر يتكون من خمس فرق تضاف اليه في وقت الحرب فرقة سادسة من الكشافة والحرس عدا الجنود المساعدين من طبقة (البريوكين) و (الهيلوتيين) • ثم اصبح عدد الفرق سبعة في القرن الخامس وبعد سنة (٤٢٥) قسم الجيش الى فيالق يتألف كل واحد من فرقتين تضم الاولى المواطنين الاسبارطيين والثانية الجنود (البريوكين) والهيلوتيين •

ويمكن القول ان الشعب الاسبارطي كله كان عبارة عن جيش كما ان مدينة (اسبارطة) لم تكن سوى معسكر دائم او مجموعة من الثكنات • وقد كان الهدف الأول بل الوحيد لقوانين اسبارطة ومؤسساتها الحكومية هو اخضاع جميع المواطنين للنظام العسكري • ان الرجال ليس لهم حياة شخصية ، خاصة بل هم يذوبون في الجيش كما وان النساء لا ينظر اليهن كزوجات وانما كأمهات يلدن الجنود •

ولا عجب في ان يصبح الاسبارطيون الذين يقضون حياتهم منذ السن السابعة في التمارين الرياضية والتدريب العسكري والصيد ولا يسمعون الا الاناشيد الحماسية ويعتادون على التقشف واحتمال المشاق ويتعلمون احترام القوانين والطاعة للرؤساء ـ لا عجب اذا اصبحوا من احسن الجنود وصاروا سواء من الوجهة النفسية او الجسمية ، اكثر استعدادا ومقدرة على خوض المعارك من الفلاحين والصناع والتجار الذين كانوا يؤلفون جيوش الدول اليونانية الاخرى • وقد كان الكتاب اليونانيون المعجبون بالنظام الاسبارطي يذكرون دوما كمثل اعلى للجندي المقاتلين الاسبارطيين الثلاثمائة الذين عهد اليهم بالمحافظة على ممر (ترموبيلي Thermopylae) فلم يتزحزحوا عن مكانهم رغم كثرة المهاجمين حتى قتلوا جميعا في سبيل اطاعة القانون •

ان الطاعة عند الاسبارطيين لم تكن حادثا نفسيا ونتيجة قرار ارادي ينبجس عن شخصية الفرد بل مفهوم ميتافيزيقي • انهـا تفيـد الخضـوع الاضطراري لقانون مقدس تفرضه الارادة الالهية •

ان الحرب عند اليونانيين كانت تستند الى المبارزات الفردية ولذلك كان النصر في المعتاد مع الجانب الذي يكثر فيه عدد الابطال • على ان النظام الاسبارطي الذي يقوم على الشعور المشترك والروح الاجتماعية قد ادى الى اتباع طريقة جديدة في القتال زادت في سطوة الجيوش الاسبارطية • فقد كان الاسبارطيون يقسمون جيوشهم الى كراديس تتألف من ثمانية صفوف متراصة والجنود في كل كردوس يعرفون بعضهم بعضا : قد نشأوا معا منذ الطفولة وعاشوا في ثكنة واحدة واشتركوا في التدريب والطعام ويسود بينهم مفهوم وحد عن الشرف العسكري ويشعر كل منهم بأنه جزء من كل ويندفع مع المجموع مهما كانت شجاعته الشخصية قليلة ولا يستطيع التفكير ابـدا في الفرار •

ولما مدح الملك الفارسي (سرخس) شجاعة الجنود الاسبارطيين امام ملك اسبارطة المخلوع (ديماراتوس) الذي كان قد التجأ اليه ، قال هذا : ان الاسبارطيين لايفوقون غيرهم في الشجاعة الشخصية ولكن قوتهم الحقيقية ترجع الى ما بينهم من تكتل وتضامن والى خضوعهم للقانون الذي يفرض عليهم الثبات كصف واحد حتى ينتصروا او يموتوا جميعا • ثم اضاف الى ذلك : ورغم ان (اللاقيديمونيين) احرار فهم ليسوا احرارا في كل شيء • ان هناك القانون كسيد فوقهم يخافونه اكثر مما يخاف شعبك منك •

بفضل هذا النظام وهذه الروح استطاع الجيش الاسبارطي ان ينال شهرة واسعة ومكانة عظيمة رغم قلة عدده ، اذ لا تذكر الاخبار انه زاد في يوم من الايام على عشرة الاف جندي • وكان الاسبارطيون ، بعد الاستيلاء على مقاطعة (مسينة) والقضاء على الثورة التي قامت فيها حوالي سنة (٦٤٠)

يحتاجون الى الجيش للاحتفاظ بسيطرتهم على السكان المستعبدين •ولذلك كانوا لايستطيعون ارسال حملات عسكرية الى خارج الحدود وفتح بلاد جديدة • ويعزو المؤرخون اليونانيون هذه السياسة الجديدة الى (خيلون Chilon) الذي كان احد المراقبين اننا لانعرف شيئا واضحاً عن حياة هذا الرجل الغريب وشخصيته • وكل ما يمكن استخلاصه من الرواياتالقديمة هو انه عاش في منتصف القرن السادس ولعب دورا هاماً في تاريخ بلاده • ويقول (هيرودوت) انه كا ن احكم رجل في اسبارطة • ونرى اسمه يذكر دوما بين حكماء اليونان السبعة ، كما ان الاسبارطيين كانوا يمجدونه كأحد ابطالهم • وهو الذي وضع مادة في دستور اسبارطة تخول المراقبين الحق في ان يخلعوا الملوك اذا اقتضى الامر ذلك •

وقد ادرك (خيلون) ان قلة عدد الاسبارطيين لا تسمح لهم بتوسيع حدود بلادهم اكثر مما كانت عليه كما لاحظ في الوقت نفسه ان الحكم الارستوقراطي اخذ ينهار في اكثر الدول اليونانية وحتى في البلاد المجاورة لاسبارطة في شبه جزيرة البيلوبونز ليقوم مكانه الحكم الديكتاتوري•وكانت الحكومات الديكتاتورية تسعى الى تأسيس حلف بينها الغاية منه ان تساعد بعضها بعضا على دعم نظام الحكم السائد فيها ثم ان توحد جهودها لدرءالخطر الفارسي الذي كان يهدد بلاد اليونان كلها • وقد قام خيلون يعارض هذه السياسة • فانه كان يريد ان تبقى اسبارطة بعيدة عن هذا الحلف ، تعيش منعزلة في شبه جزيرة البيلوبونز ـ ولكن على شرط ان تكون محاطة بحكومات ارستوقراطية مثلها • ولهذه الغاية اسس (خيلون) الاتحاد البيلوبونزي الذي يستند الى هذين المبدأين :

١) الاستقلال المطلق للدول الداخلة في الاتحاد • فهي ليست مكلفة بدفع اية ضريبة او قبول ثكنات اسبارطية في اراضيها • بل انه يترك لكل واحدة منها الحرية التامة في علاقاتها الخارجية مع جميع الدول الاخرى ـ على شرط ان لا يكون في ذلك ما يهدد الاتحاد البيلوبونزى •

٢) اذا نشبت حرب بين الاتحاد ودولة اخرى فان القيادة العليا تكون لاسبارطة • ويتعهد جميع اعضاء الاتحاد بتقديم الفرق العسكرية التي تطلب منهم عند الحاجة •

وقد تم الاتفاق على ان يعقد مجلس الاتحاد في (اسبارطة) فترسل كل دولة مندوبا عنها وتتخذ المقررات بأكثرية الأصوات • وفي الواقع فان السيطرة الحقيقية ضمن هذا الاتحاد كانت في يد اسبارطة • ولم تكن الدول الاخرى تستطيع مخالفة ارادتها • وقد انضم الى الاتحاد الدول التالية : (تيجية) و (قورنت) و (ابيدوروس) و (هرميوني) و (ميغارة) و (اجينة) •

كانت الحكومات الارستوقراطية في كل مكان تلجأ دوما الى (اسبارطة) وتطلب مساعدتها اذا شعرت بخطر الثورة • وبذلك اصبحت (اسبارطة) أقوى دولة في بلاد اليونان كلها واتجهت اليها الانظار لتتولى قيادة العالم اليوناني في درء الخطر الفارسي • وقد ارسلت مملكة (ليدية) والمدن الايونية في آسية الصغرى تستنجد بها عندما بدأت الجيوش الفارسية تزحف عليها • ولكن (اسبارطة) التي لم تكن تفكر الا في مصلحتها الذاتية ، الضيقة والمحافظة على نظامها الخاص وسيطرتها على السكان المستعبدين رفضت التحالف مع (كريزوس) ملك (ليدية) ولم ترض بمساعدة المدن الايونية • فكان ذلك من حسن حظ اليونانيين ، لان مدينة يونانية اخرى مندفعة في طريق التقدم متجهة نحو المستقبل تطوعت لتولي القيادة عوضا عن اسبارطة واعني بذلك (اثينة) •

٨ ـ قيمة النظام الاسبارطي :

لاشك في ان النظام الاسبارطي كان له فضل كبير في تكوين شعب يمتاز افراده بقوة الاجسام وتحمل المشاق والمهارة الحربية • وقد لاحظ سائح من مدينة (سيباريس) بجنوبي ايطالية كان ، حسبما يظهر ، يحب

الترف ـ انه لا غرابة اذا رأينا الاسبارطيين يقدمون عن طيبة خاطر على الموت في الحروب لانهم انما يتحررون بذلك من حياة اكثر شقاء وبؤسا وفي الواقع فقد اعتاد الاسبارطيون على الحرمان وكانوا يعيشون في منتهى التقشف والبساطة • ولذلك كانوا يتمتعون بصحة جيدة ولا يعرفون الامراض ولا يحتاجون الى الاطباء • ولابد ان يكون افلاطون قد طار فؤاده سرورا عندما وجد بلادا مثل (اسبارطة) لا اثر فيها للطب والديموقراطية• أضف الى ذلك ما اشتهر به الاسبارطيون من شجاعة نادرة • فقد عرف عنهم انهم يحاربون حتى يموتوا جميعا وان جنودهم كانوا في كثير من الظروف يفضلون قتل انفسهم على تحمل عار الهزيمة • ولذلك فانه لما اذيع بان الاسبارطيين المحاصرين في جزيرة (اسفاقترية) عند شواطيء (مسينة) قد استسلموا للاثينيين ، لم يرض احد في كل بلاد اليونان ان يصدق هذا الخبر •

وقد امتاز الاسبارطيون بالسيطرة على النفس ورباطة الجأش والاعتدال• وبينما كان (الاثينيون) يكثرون من الكلام والكتابة في هذه الفضائل الاخلاقية دون ان يتصفوا بها في الغالب نكاد لا نجد مواطنا اسبارطيا ليس متحليا بها • واذا كانت اطاعة القوانين تعد فضيلة في كل الحالات فقد كان الاسبارطيون من افضل الناس • ولايمكن ان نجد في التاريخ شعبا اخر يفوقهم في احترام القانون والخضوع له • ولا ريب في ان هذه الصفة كانت من اهم العوامل في قوة (اسبارطة) التي ظلت الدول اليونانية الاخرى جميعا تهابها مدة عصرين • واذا كان الاسبارطيون قد فشلوا في الاستيلاء على مقاطعتي (آرقادية) و (ارغوليس) فانهم من جهة ثانية استطاعوا ارغام بقية الدول المجاورة على الدخول في الاتحاد البيلوبونزي الذي خضع لسيادتهم من سنة (٥٦٠) الى سنة (٣٨٠) والذي كان عاملا في حفظ السلام طوال هذه المدة في شبه جزيرة البيلوبونز •

كان اليونانيون جميعا يعجبون بجيش (اسبارطة) وحكومتها ويتوجهون اليها بانظارهم لتساعدهم على التحرر من الحكم الديكتاتوري • ويقول الكاتب والمؤرخ الاثيني المشهور (اكسنوفون) : لقد لاحظت بكثير من الدهشة في بادىء الامر المكانة الفريدة التي تحتلها (اسبارطة) بين الدول اليونانية • فهي قليلة السكان بالنسبة الى غيرها ولكنها في الوقت نفسه تمتاز بقوة عظيمة وتتمتع باحترام كبير • على انه بعد ان درست مؤسساتها ونظامها زال تعجبي • وكان (اكسنوفون) مثل (افلاطون) و (بلوتارخ) لايعرف الكلل في مدح اسبارطة وطراز معيشتها • وقد اقتبس افلاطون من النظام الاسبارطي المثل الاعلى للمجتمع الذي تصوره في كتاب الجمهورية ـ وان كنا نراه يشعر بشيء من الاضطراب تجاه عدم اكتراث الاسبارطيين بالافكار • فهو مثل الكثيرين من المفكرين اليونانيين ، كان مشمئزا من فوضى الديموقراطية وحقارة اساليبها في اثينة • ولذلك أخذ يمجد النظام والقانون في اسبارطة ـ حسبما كان يتخيلها اي في شكل مثالي لا ينطبق على الواقع •

هؤلاء المفكرون كان من السهل عليهم ان يمدحوا (اسبارطة) لانهم لم يكونوا مضطرين الى الاقامة فيها والعيش ضمن نظامها • فهم لم يشاهدوا عن كثب ما يتصف به الخلق الاسبارطي من انانية ضيقة وخشونة جافة وقساوة فظيعة كما انهم لم يلاحظوا بان النظام الاسبارطي انما يخرج جنوداً فحسب • فهو يؤدي الى تقوية الجسم بينما يقتل جميع الاستعدادات والمواهب الاخرى وعلى الاخص العقلية • ولذلك لم يظهر في اسبارطة اي فيلسوف او شاعر او كاتب او فنان فالاسبارطيون الذين قطعت كل صلة بينهم وبين العالم الخارجي ومنعوا من السفر الى البلاد الاخرى والاختلاط بغيرهم وظلوا يجهلون العلم والادب والفلسفة قد اصبحوا مجرد آلات حربية •

اننا لا ننكر ما يتصف به الجندي من صلابة الخلق وروح الاخلاص

والتضحية • ولا ريب في ان النظام والطاعة من الشروط الضرورية لكل حياة سياسية • ولكن ما قيمة كل هذا اذا لم يكن وسيلة لاهداف أسمى ؟ بينما كانت اسبارطة تعيش في عزلتها الموحشة وافاقها الضيقة نرى مدينة آثينة ، رغم ما وافق نظامها الديموقراطي من اخطاء ومفاسد ، تبني حضارة جديدة تتحرر فيها العقول وتنطلق المواهب فتبلغ الحركة الفكرية اقصى درجة من النشاط ويسود جو منعش من التسامح والابداع والحرية •

٩ ــ جيران (اسبارطة) :

قبل ان ننتقل الى نشأة (اثينة) يجدر بنا ان نلقي نظرة سريعة الى البلاد المجاورة لاسبارطة وعلى الاخص دولتي (آرغوس) و (قورنت) اللتين لعبتا دورا هاما في تاريخ اليونان •

ينسب سكان (آرغوس) تأسيس مدينتهم الى بطل اساطيري من عهد (البلاسغيين) اسمه (ارغوس) كان له مائة عين • ثم يقولون ان المدينة بدأت تزدهر بعد قدوم (داناوس) المصري الذي علم المزارعين طريقة اسقاء الاراضي من الابار • وبعد غارة الدوريين اصبحت (ارغوس) في عهد الملك (تيمينوس) الذي يرجع نسبه الى (هيراقلس) من اقوى المدن اليونانية فاستطاعت ان تبسط سيادتها على مكيني وتيرينس وتحكم مقاطعة (ارغوليس) كلها •

على ان تاريخ المدينة الحقيقي يبدأ باستيلاء الديكتاتور (فيدون) على الحكم في سنة (٦٨٠) وقد حالف (فيدون) ، مثل غيره من الديكتاتورين طبقة التجار التي ازداد نفوذها في هذا العصر ليستطيع القضاء على النظام الارستوقراطي • ولما ارسلت جزيرة (اجينة) تطلب مساعدة (فيدون) تجاه (اثينة) و (ابيدوروس) اسرع الديكتاتور الى الاستيلاء على الجزيرة وضمها الى بلاده • وهو الذي اقتبس نظام النقد عن (ليدية) وصك نقودا رسم عليها شعار (اجينة) اي صورة سلحفاة • فكانت هذه السلاحف ، كما

كان يسميها اليونانيون ، اول عملة رسمية انتشرت في شبه جزيرة اليونان كلهـا .

وقد اهتم (فيدون) بتنشيط الزراعة والتجارة وتشجيع العمـران والفنون . واشتهرت مدينة (ارغوس) في القرن السادس (ق.م) بالموسيقى والشعر والنحت والتمثيل . وكان مسرح (ارغوس) يتسع لعشرين الف من المتفرجين كما ان معبد الالاهة (هيرا) في هذه المدينة كان يعد من اعظم وافخم المعابد اليونانية القديمة . وكانت ارغوس دوما من اكبر المنافسين لاسبارطة واشد خصومها السياسيين عنادا .

اما مدينة (مغارة) الواقعة عند مدخل شبه جزيرة البيلوبونز والتي ازدهرت تجارتها في القرنين السابع والسادس فقد اشتهرت بشاعرها الكبير (تئوغنيس) الذي تصور لنا قصائده المنازعات السياسية والانقلابات الاجتماعية في ذلك العهد . وقد كان هو نفسه من طبقة النبلاء وادرك الاخطار التـي كانت تهدد هذه الطبقة بسبب انتشار الافكار الديموقراطيـة فاخـذ يحذر الزعماء الارستوقراطيين من العاقبة . ولكن الحوادث كانت تتطور بسرعة ولم يكن في استطاعة احد تغيير مجراها . ولما قامت الثورة في ميغارة وانتصر الحزب الديموقراطي برئاسة (تيثاجينيس) الذي نصب نفسه ديكتاتورا حوالي سنة(٦٤٠) وقتل الارستوقراطيين حكم على (تئوغنيس) بالنفي وحجزت املاكه .فترك زوجته واولاده عند احد اصدقائه وصار ينتقل من مدينة الى اخرى وعاش مدة في اسبارطة وصقلية . ولكنه وقع اخيرا في فقر مدقع وظل يهاجم زعماء الحزب الديموقراطي كما أخذ يشكو في اشعاره من ظلم الالهة ويخاطب (زفس) قائلا انه يشاهد حوادث العالم بدهشة ولا يدرك كيف تستطيع الالهة التوفيق بين فكرة الخير والشر وبين كرمهـا الذي يصيب الاشـرار والاخيار على السواء فهل يمكن بعد ذلك ان يعرف البشـر قوانـين الالـه ويفهمونها ؟ وهو يشبه في احدى قصائده حكومـة ميغـارة بسـفينة تـولى القيادة فيها مكان الربان بحارة لايفقهون شيئا من فن الملاحة ولا يعرفون

معنى للنظام • ثم يقول ان الطبيعة قد خلقت البشر مختلفين في مواهبهم وجعلت بعضهم اكثر كفاءة من الاخرين ولذلك فان كل نظام للحكم لابد ان يستند الى نوع من الارستوقراطية • ويدعي في قصيدة اخرى ان التعليم لا يستطيع ابدا ان يزيل الفوارق الفطرية بين البشر ويقلب الاشرار الى اخيار • وهو يعتقد ان الشرور في العالم ليست نتيجة طمع الحكام النبلاء وانما تنشأ عن اختلاط الطبقة الارستوقراطية بغيرها وما يطرأ على نسلها من عقم وفساد •

حاول (تئوغنيس) ان يدبر المؤامرات للقيام بثورة معاكسة واعادة الارستوقراطية • وكان يقول ان حتى الذين اقسموا يمين الاخلاص للحكومة الديموقراطية الجديدة يجوز لهم نقض العهد وقتل الطغاة • على انه لما فشلت جهوده اضطر ، في سبيل الخلاص من المنفى وحياة العزلة والفقر ، الى وساطة احد الموظفين وسمح له بالعودة الى (ميغارة) • فكتب يصف المدينة قائلاً : الجدران لاتزال كما كانت ولكن ما اعظم التبدل في حالة الشعب ان السفلة الذين لم يكونوا قبلا يعرفون لا القانون ولا الحق بل يعيشون كالحيوانات ويرتدون جلود الماعز قد انقلبوا الان اشرافا ، فيا للسخرية بينما اصبح النبلاء يحتقرون امام جميع الناس •

وقد أخذ يدمن الخمرة لينسى همومه وصار يسعى الى استخلاص العبر من تجارب الحياة فنراه يخاطب صديقه (سرنوس) احد زعماء الارستقراطيين بقوله : تعلم ان لاتتعب فكرك وعليك بمجاراة الناس وملائمة الطبيعة البشرية ، فاقبل بها كما هي : مزيج من العناصر الحسنة والرديئة • هكذا نحن جميعا وليس في الامكان ابدع مما كان •

ان اهم مدينة في شبه جزيرة البيلوبونز كانت (ڤورنت) التي بلغت في القرن السادس اعلى الدرجات في الثروة والعمران ولعبت دورا هاما في تاريخ اليونان • فهي بفضل موقعها الممتاز عند البرزخ تسيطر من جهة على الطريق البري للتجارة بين شمال اليونان وجنوبها وتشرف من جهة ثانية

على التجارة البحرية في خليجي (سارونيك) و (قورنت) وقد كان لها في كل من الخليجين مرفأ حسن ويربط بين المرفأين ممر لايزيد طوله على اربعة اميال مدت عليه الاخشاب لجر السفن من فوقه • وكان هذا الجسر الخشبي على درجة من المتانه استطاع معها الامبراطور الروماني (اغسطس) ان ينقل اسطوله من جهة الى اخرى لملاحقة (انطونيوس) و (قلثوباطرا) بعد معركة (أكتيوم) • وللمدينة قلعة حصينة على جبل يبلغ ارتفاعه الفي قدم ويتفجر منه نبع غزير يؤمن للحامية ما يلزمها من ماء الشرب دوما • وقد شيد على ذروة الجبل معبد للالاهة (افروديت) كأنه رمز لاهم مهنة ازدهرت في المدينة •

كانت (قورنت) قائمة منذ اقدم العصور قبل هجرة القبائل اليونانية ثم في عهد الميكينيين والاخائيين ونرى (هوميروس) يذكر غناها في عهد حرب (طروادة) • على انها بعد غارة الدوريين ظلت متأخرة لمدة عصور واصبحت تابعة لمملكة (ارغوس) مدة من الزمن •

وفي سنة (٧٤٧) انتقل الحكم من ملوكها القدماء الى اسرة (باخيادى) التي فرضت عليها النظام الارستوقراطي • وقد بدأت المدينة تزدهر بفضل الحركة التجارية بين بلاد اليونان والمستعمرات اليونانية في جنوبي ايطاليـة وصقلية • فان السفن التي كانت تتحاشى الزوابع عند رأس (مالية) فيجنوبي شبه جزيرة البيلوبونز وترغب في إختصار الطريق كان لا بد لها من المرور ببرزخ (قورنت) • وكان ذلك دافعـا لاشتراك (قورنت) في الحركـة التجارية وقامت حكومتها بانشاء اسطولين حربيين لحماية السفن التجارية في خليجي (سارونيك) ثم استولت عـلى جزيـرة (قورسيرة) واسست مستعمرة في (سيراكوزة) واصبحت دولة قوية بحرية وتجارية واستعمارية •

على ان سكان (قورسيرة) ثاروا في سنة ٦٦٤ على حكومة (قورنت) ونشبت معركة بحرية بين الطرفين كانت اول المعـارك البحرية في تاريـخ

اليونان وقد انتهز الشعب ، وعلى الاخص طبقة التجار ، هـذه الحرب فرصة للخلاص من حكم اسرة (باخيادى) التي كانت مشـهورة بالطمع والغطرسة وجمعت ثروة كبيرة وظهر عليها التفسخ • وتولى قيادة الثورة (كيبسيلوس) الذي انتـزع الحكم من الارستوقراطيين وفرض نفسـه ديكتاتورا حوالي سنة ٦٥٥ •

وتذكر الروايات ان (كيبسيلوس) هذا كان ابن امرأة من اسـرة (باخيادى) اسمها (لبْدا) كانت عرجاء واشتهرت بادمان الخمر فلم يتزوجها احد من افراد اسرتها • ولـذلك اضطرت الى الاقتـران برجل من ابنـاء الشعب اسمه (اتيون) •

وبعد نجاح الثورة وتشتت افراد اسرة (باخيادى) في مختلف المدن اليونانية مثل (اسبارطة) و (ثيبة) و (قورسيرة) استولى الديكتاتور عـلى اموالهم ووزع اراضيهم على الفلاحين وكان (كيبسيلوس) قد نذر كل ثروة (قورنت) للاله (زفس) اذا نجح في الاستيلاء على الحكم ولذلك فرض ضريبة سنوية على كل الاموال تبلغ عشرة في المائة كان يقدمها الى معبـد (زفس) • وبعد عشر سنوات كان قد وفى النذر دون ان ينقص شيء من ثروة السكان لان التجارة الواسعة كانت تدر عليهم مبالغ طائلة • ويظهر ان (كيبسيلوس) قد اتبع في مدة حكمه الذي استمر ثلاثين عاما سياسـة حكيمة ساعدت كثيرا على ازدهار الحياة الاقتصادية •

ثم ازدادت (قورنت) ازدهارا وتقدما في عهد ابنه (برياندر) الذي حكم أيضا مدة طويلة من سنة ٦٢٥ الى سنة ٥٨٥ • وقد وطد (برياندر) النظام ومنع الاستثمار وشجع التجارة والصناعـة واعتنى بالفنـون والاداب حتى اصبحت (قورنت) في عهده اشهر مدينة في شبه جزيرة اليونان • وهو الذي ادرك اهمية الاعياد اليونانية المشتركة التـي يقصـدها الكثيرون من مختلف البلدان فتساعد على نشاط الحركة التجارية وقد وجه عنايتـه

بصورة خاصة الى الاحتفالات الشائقة بعيد الاله (ديونيسوس) ونظم الالعاب الرياضية والفرق الموسيقية واستدعى لهذه الغاية الموسيقار المشهور آريون من جزيرة لسبوس • كذلك قام بتشييد كثير من المعابد الضخمة المبنية من الحجارة والمرمر مكان المعابد القديمة التي كانت من الاجر •

وفي سبيل تقدم الصناعة والتجارة قام (برياندر) بصك عملة نقدية خاصة وخفض الضرائب والمكوس كما قضى على العطالة عن العمل بالاكثار من المشاريع العمرانية العامة وتأسيس المستعمرات ومنع جلب الارقاء • ولحماية صغار الصناع حدد عدد الارقاء الذين يمكن لشخص واحد ان يستخدمهم في مصانعه • ولاجل الحيلولة دون تراكم الثروة في ايدي القلائل من الاغنياء فرض على هؤلاء ضريبة كبيرة جمعها لصنع تمثال ضخم من الذهب زين به المدينة •

على ان (برياندر) لما تقدم في العمر اخذ يميل الى الشدة والقسوة • ويظهر ان الفواجع التي اصابته في حياته العائلية قد اثرت في تغيير طبيعته اذ تروي الاخبار ان جواريه كن يكثرن من الفتنة والتحريض على زوجته حتى غضب مرة ورماها من اعلى الدرج وهي حامل فماتت بتأثير الصدمة • وقد حزن عليها حزنا شديدا وانتقم من الجواري بان حرقهن وهن احياء• كما انه دعا اغنى نساء (قورنت) الى حفلة وسلبهن جميعا ثيابهن الثمينة وحليهن ووضع كل ذلك في قبر زوجته • ثم لما امتنع ابنه (ليقوفرون) عن محادثته بسبب والدته امر بنفيه الى (قورسيرة) • ولكنه لما سمع بان سكان الجزيرة قد قتلوا ابنه قبض على ثلاثماية شاب من اسراتهم النبيلة وارسلهم الى ملك ليدية خدما في البلاط •

وبذلك ازداد اعداء (برياندر) واصبح لايستطيع السير في الشوارع الا ومعه حرس كبير • وقد كتب اليه زميله (ترازيبولوس) ديكتاتور

(ميليتوس) ينصحه بان يقطع من حين الى اخر اعلى السنابل في الحقل — اي ان يقتل الشخصيات البارزة التي تدعو الى الثورة .

كانت تربط (برياندر) علاقات ودية مع كثيرا من الدول اليونانية وفي الدرجة الاولى مع (الياتس) ملك (ليدية) و (ترازيبولوس)ديكتاتور (ميليتوس) و (بيتاقوس) ديكتاتور (لسبوس) . ويبدو ان القائمين على الحكم الديكتاتوري كانوا يشعرون بعطف متقابل ويميلون الى التحالف ومساعدة بعضهم بعضا . وتذكر الاخبار ان (برياندر) هو الذي توسط للتوفيق بين (ميليتوس) و (ليدية) ثم بين (لسبوس) و (اثينة) .

ويظهر ان علاقات (برياندر) الخارجية الودية قد امتدت الى مصر. فنراه يسمي ابن أخيه الذي خلفه في الحكم (بساميتيخوس) على اسم ملك مصر اذ ذلك (بسامتيخ الثاني) . ومن المحتمل جدا ان يكون (برياندر) انما اراد تقليد الملك (نخاو) عندما قام بفتح الترعة الصغيرة التي قلب بها شبه جزيرة لوقاس التي كان يحكمها احد اولاده ، الى جزيرة وقد فكر ايضا في حفر ترعة (قورنت) ولكنه تخلى عن ذلك بعد ان بين له المهندسون ما يتطلبه هذا المشروع من جهود عظيمة . ولم يكن في استطاعة ديكتاتور (قورنت) ان يستخدم ذلك العدد الكبير من الارقاء الذي كان يتصرف به ملك مصر .

ان (برياندر) ، رغم القسوة التي ظهرت منه في اواخر عهده ورغم القوانين الشديدة التي فرضها على السكان وحدد بها الحرية الشخصية ، قد ترك ذكرى حسنة بين مواطنيه حتى اعتبر من حكماء اليونان السبعة .

وبعد موته لم يبق ابن اخيه (بسامتيخوس) في الحكم سوى ثلاث سنوات (٥٨٥ — ٥٨٢) اذ قتل من قبل المتآمرين الارستوقراطيين الذين ساعدتهم حكومة (اسبارطة) على ارجاع النظام الارستوقراطي الى (قورنت).

وكان الاسبارطيون يقفون في كل مكان الى جانب النبلاء اصحاب الاراضي الواسعة ، لمنع طبقة التجار من اقامة حكومات ديموقراطية •

ورغم ان (قورنت) انضمت بعد ذلك الى الاتحاد البيلوبونزى وفقدت الشيء الكثير من مكانتها السياسية فقد ظلت مدينة غنيـة بفضـل تجارتهـا وصناعتها ثم بفضل جواري معبد (افروديت) اللواتي كان يزيد عددهن احيانا على الالف وكن يجتذبن الكثيرين من الزوار الى المدينة • وكان هذا المعبد لايزال قائما في اول عهود المسيحية اذ نرى القديس (بولس) في رسالته الاولى الى (القورنتيين) يندد بجواري المعبد •••

في خليج سارونيك ، مقابل (قورنت) و (ميغارة) تقـوم جـزيرة (اجينة) التي كانت من أقدم واخطر المزاحمين لهاتين المدينتين في الصناعة والتجارة •

بدأ ازدهار المدينة التي تحمل اسم الجزيرة منذ العهد الميكيني بفضل مناجم الذهب الغنية في الجبال القريبة • على ان اهمية الجزيرة ترجع قبل كل شيء الى موقعها الممتاز الذي يسيطر على طرق التجارة • وقد نشأت في مدينة اجينه طبقة ارستوقراطية من التجار الاغنياء الذين كانوا يستوردون عددا كبيرا من الارقاء يستخدمون قسما منهم في صناعـة الاواني والتحف البرونزية ويبيعون القسم الاخر في سائر المدن اليونانية •

كان (آرسطو) في سنة (٣٥٠) يقدر عـدد السـكان في الجزيرة بنصف مليون نسمة بينهم (٤٧٠٫٠٠٠) من الارقاء •

انه في (اجينة) ضربت اقدم النقود اليونانية كما ان الاوزان والمكاييل التي كانت تستعمل بين سكانها ظلت تعتبر اساسا للمقاييس في بلاد اليونان كلها حتى الفتح الروماني •

وقد اكتشف احد السائحين في (اجينه) سنة (١٨١١) اثار معبـد

(آفائيا) الذي بقي اثنان وعشرون من اعمدته (الدورية) والمناظر التي تصور انتصار المحاربين (الاجينيين) على الطروادين انما ترمز الى انتصار اليونان على الفرس في العصر الخامس الذي شيد فيه هذا المعبد ومن المعروف ان جزيرة (اجينة) الصغيرة قد ارسلت وحدها ثلاثين سفينة للاشتراك في معركة (سالاميس) على بعد عدة اميال منها وان احدى هذه السفن قد نالت الجائزة الاولى في الشجاعة بين جميع اليونانيين ...

اذا عدنا من (اجينة) الى شواطيء شبه جزيرة البيلوبونز نصل الى (ابيدوروس) التي ليست اليوم سوى قرية حقيرة لايزيد عدد سكانها على خمسمائة نسمة ولكنها كانت قديما من اشهر المدن اليونانية واعظمها ذلك انه في هذه المدينة او بالاحرى بين الجبال على بعد عشرة اميال منها كان يقوم المعبد الاساسي لآله الشفاء عند اليونانيين : (آسقليبوس) . وتذكر الاساطير ان (اسقليبوس) شفى عددا كبيرا من الناس بل اعاد احد الموتى الى الحياة حتى اضطر (بلوتو) ، اله العالم الاسفل ، الى ان يتقدم بالشكوى لدى زفس ويبين له كيف اصبح الناس يكاد لا يموت أحد منهم وبما أن (زفس) لم يكن ليعرف ماذا يجب ان يفعل بالجنس البشري اذا لم يكن هناك موت فقد ارسل صاعقة قضت على (آسقليبوس) . على ان الشعب في بلاد اليونان اخذ يعبده كاله يمنح الصحة واقيم له في (ابيدوروس) اكبر المعابد المعروفة باسمه حيث اسس الأطباء الرهبان مصحا اشتهر بين اليونانيين بنجاحه العظيم في معالجة الامراض . وصار الناس يحجون الى (ابيدوروس) فينامون في المعبد ويتبعون نظام المعيشة الذي يفرضه عليهم الرهبان ويعتقدون ، اذا ما نالوا الشفاء ، بان ذلك كان من المعجزات .

الى هؤلاء الحجاج يرجع الفضل في ازدهار (ابيدوروس) وازدياد ثروتها . وقد بنى السكان مسرحهم في ضواحي المدينة من التبرعات والهدايا التي كان يقدمها المرضى . وكان القائم على اعمال البناء هو الفنان (بوليقليتوس

الصغير) في القرن الخامس قبل الميلاد • ويمكن للزائر اليوم ان يشاهد اثار هذا المسرح العظيم الذي مازال على حالته الاولى • فاذا وقف في الدائرة المركزية الواسعة ، المصنوعة من الحجر التي تسمى (اوركسترا) اي مكان الرقص والتي كان يجري عليها التمثيل يرى امامه اربعة عشر الف مقعدا ترتفع من ثلاث جهات على شكل مدرج • ومما يدل على المهارة المعمارية انه يمكن من كافة المقاعد مشاهدة مكان التمثيل وسماع اصوات الممثلين بمنتهى الوضوح • ولابد للزائر ، وهو يتأمل هذا المسرح ، من ان يتصور بالخيال جماهير المتفرجين يتدفقون من المدينة في مرح لحضور احدى روايات (اوريبيديس) ويشعر كأنه يشارك اليونانيين القدماء حياتهم الزاخرة في الهواء الطلق •

الفصل التاسع

آثينة ونشأة النظام الديموقراطي

١ ـ اهمية تاريخ (آثينة) :

اذا كانت (اسبارطة) تمثل النظام الارستوقراطي والفكرة المحافظة التي تتمسك بالاوضاع السائدة والقوانين المتوارثة فان (آثينة) كانت مهد الديموقراطية وموطن النزعة التقدمية التي تسعى دوما الى التغيير والتجديد. وبينما اصبحت (اسبارطة) قدوة للدول الفاشيستية في الحكم الصارم الارهابي الذي يخضع الافراد في كل الامور لمراقبة الدولة وتوجيهها فقد صارت (آثينة) رمزا لمبادىء الحرية والمساواة والاخوة . ان (اسبارطة) تفيد الشدة والرهبة والغلاظة . أما في (آثنية) فيتجلى المرح واللطف والفن .

لقد لعبت (آثينة) أهم دور في تاريخ اليونان وكانت مركز الحضارة اليونانية التي تركت أعمق أثر في تطور البشرية . فكيف استطاعت ان تحتل هذه المكانة السامية بعد ان كانت في مبدأ تأسيسها أحد الحصون المتواضعة مثل غيرها من المدن اليونانية وبعد ان سبقتها (اسبارطة) و (اجينة) في الصناعة والتجارة ؟

انه من المفيد جداً دراسة تطور (آثينة) التي تحررت نهائيا في القرن السادس قبل الميلاد من الحكم الارستوقراطي وأسست لأول مرة في تاريخ العالم مجتمعا يتألف من مواطنين متساوين في الحقوق ، لا فرق بين أعظم

النبلاء وأصغر السوقة أو بين أكبر الاغنياء وأحقر الفقراء يشتركون جميعا في ادارة الدولة التي كانت جمهورية بالمعنى الصحيح أي ملكا للجمهور يتولى شؤونها بنفسه • وقد احتاج تأسيس هذا النظام الديموقراطي الى جهاد طويل وظل في كل الأوقات مشوبا ببعض العيوب كما نجمت عنه مشاكل كثيرة • ان هذه العيوب والمشاكل التي مازالت ترافق النظام الديموقراطي بالوقت الحاضر قد بحث فيها رجال الفكر اليوناني بحثا عميقا مستفيضا وحاول شعب (آثينة) معالجتها بما وضع من قوانين وأنشأ من مؤسسات حكومية • ولاشك في ان العبقرية اليونانية قد امتازت بالابداع في هذه الناحية الاجتماعية ـ السياسية أكثر مما في أية ناحية أخرى • فاليونانيون هم أول شعب سعى الى تنظيم المجتمع والدولة بصورة يمكن ان تنسجم فيها حرية الافراد مع المصلحة العامة • وقد سارت (آثينة) أشواطا بعيدة في هذه الطريق قبل غيرها واصبحت بذلك مثلا أعلى لسائر المدن اليونانية وللدول الحديثة • وفي هذا الفصل نريد أن نستعرض أهم المراحل التي اجتازتها (آثينة) في سبيل تأسيس النظام الديموقراطي •

٢ ـ بلاد (آتيكة) وسكانها :

تشمل دولة (آثينة) مقاطعة (آتيكة Attika) كلها • وكان سكان هذه المقاطعة يطلق عليهم جميعا اسم (الاثينيين) ويتمتعون بحقوق المواطن (الآثيني) •

ان الصفات الطبيعية التي تمتاز بها بلاد اليونان على الاجمال قد تمركزت بالدرجة الاولى وبأجلى مظاهرها في مقاطعة (آتيكة) • فهي تقع في وسط شبه جزيرة اليونان ، تتصل بالمقاطعات الشمالية والجنوبية على السواء ، كما يربط جسر من الجزر بينها وبين آسية الصغرى وهي برية وبحرية معا اذ تمتد ضمن بحر (ايجه) وتشغل سواحلها مكانا فسيحا في حوض هذا البحر الذي كان دوما مركزا للحضارة •

تفيد كلمة (آتيكة) نفسها معنى « بلاد ساحلية » • وفي الحقيقة فان هذه المقاطعة ليست سوى شبه جزيرة متقدمة داخل البحر ومجاورة لمعظم الاجزاء المهمة من العالم اليوناني • وبذلك فقد توفرت لها جميع الشروط اللازمة للسيادة الاقتصادية والسياسية والفكرية •

اننا عند البحث في اقليم (آتيكة) لابد ان تتذكر كلمة الكاتب الروماني (شيشرون) التي يقول فيها : « ان هواء (آثينة) الصافي هو الذي صقل عقول أهلها » •

فمقاطعة (آتيكة) خلاصة بلاد اليونان • وهي من أصلح البقاع على وجه الارض للحياة البشرية والحضارة •

يقول (توكيديديس) ان الاثينيين من سكان البلاد الاصليين وانهم يمتازون بصفاء العرق • وهو يذكر في سبيل تعليل ذلك ان جدب أراضي (آتيكة) قد ساعدها على النجاة من الغارات الخارجية وعلى الاخص غارة الدوريين التي قلبت ، كما أشرنا الى ذلك قبلا ، أوضاع المقاطعات الاخرى • على ان (توكيديديس) يناقض نفسه عندما يروى بعد ذلك ان القبائل التي هربت من طغيان الدوريين قد لجأت الى (آتيكة) واستقرت فيها •

وفي الحقيقة فان مقاطعة (آتيكة) قد سكنها أناس من أجناس مختلفة تعاقبوا في الهجرة اليها واختلط بعضهم ببعض • وتدل الحفريات الاثرية على انها كانت مسكونة منذ العصور الحجرية وانه قد نشأت فيها مدن كثيرة قبل العهد اليوناني • فكان سكانها الاولون من الشعوب الايجية التي نعرفها في آسية الصغرى مثل (القاريين) وعلى الاخص (البلاسغيين) ومما يبرهن على اقامة القبائل الايجية فيها اسماء بعض الامكنة التي تنتهي بحروف (TTOS) و (SSOS) • وهناك آثار كثيرة من أبنية وأواني وأسلحة من العهد الميكيني وبالأخص القبور ذات القبب التي كشف عنها في أمكنة مختلفة مثل (تسوريقوس Tohoricos وسباتا Spata ومارقوبولو

Marcopoulo) وغيرها • ويبدو ان الكريديين قد سكنوا مدة طويلة في بلاد (آتيكة) كما يدل على ذلك استمرار عبادة الالاهة ـ الأم في مدينة (الوزيس) ثم الاسطورة المشهورة عن الثور المينوئي الذي ظل يعيث فسادا في سهل (ماراتون) حتى قضى عليه الملك (تيزئيوس) •

ثم أخذت تتسرب الى (آتيكة) تدريجياً جماعات من الايونيين التابعين لقبائل الاخائيين • ويظهر ان هجرة هؤلاء الايونيين قد استغرقت عدة عصور وانهم قد دخلوا البلاد بصورة سلمية • ومن المعروف ان الايونيين الذين طردهم (الدوريون) من شبه جزيرة البيلوبونز قد هاجر قسم منهم الى آسية الصغرى والتجأ القسم الاخر الى مقاطعة (آتيكة) •

ان هؤلاء الايونيين قد اختلطوا بالسكان الاصليين فاقتبسوا عنهم الحضارة الايجية القديمة ولكنهم فرضوا عليهم من جهة ثانية لغتهم اليونانية واعيادهم وعاداتهم • وتقسيم القبائل في (آتيكة) الى اربعة فروع انما جاء به الايونيون •

بسبب هذا التمازج السلمي بين العناصر القديمة والجديدة اعتقد أهل (آتيكة) في العصور التالية انهم جميعا من سكان البلاد الاصليين وانه ليس بينهم فروق واختلافات عرقية • ولذلك لم يكن الاثينيون يعرفون شيئا من البغض والحقد والعداوة التي تنشأ عادة بين الغزاة الفاتحين والمغلوبين المحكومين كما كان الامر في (اسبارطة) مثلا • فكان سكان (آتيكة) يؤلفون كتلة من البشر تمتاز بالانسجام المعنوي وتميل الى التسامح وحسن المعاشرة وتعمل على تقدم الحضارة • واذا رأينا هؤلاء السكان أيضا ينقسمون الى طبقات متباينة واحزاب مختلفة فان المنازعات بينها لم تكتسب صفة العنف الشديد كما في غيرها من البلدان وكان الجميع يميلون في الغالب الى حسم الخلافات بالطرق السلمية والاساليب الناعمة •

٠٣ ـ نشأة (آثينة) وتوحيد (آتيكة) :

ان بلاد (آتيكة) التي تمازج سكانها وتألفت منهم كتلة واحدةمنسجمة ظلت في بادىء الامر منقسمة من الوجهة السياسية الى امارات عديدة • ويظهر من الروايات القديمة ان كل مدينة كان يحكمها ملك مستقل وان أهم هؤلاء الملوك هم الذين كانوا يسيطرون على المدن الاربعة في سهل (ماراتون) ثم على مدينة (ألوزيس) وعلى جزيرة (سالاميس Salamis) على اننا في القرن السابع قبل الميلاد نجد بلاد (آتيكة) كلها تؤلف دولة واحدة عاصمتها (آثينة) • فكيف تم توحيد هذه البلاد ومتى كان ذلك ؟ انه ليس لدينا أخبار تاريخية موثوقة يمكن الاعتماد عليها للجواب على هذا السؤال •

تقول الاساطير اليونانية ان الملك (سيقروبس Cecropus) ، أحد احفاد (ايون Yon) قد أسس بمساعدة الالاهة (آثينة) عند هضبة (اقروبوليس Acropolis) ، حيث كان يسكن البلاسغيون ، مدينة جديدة اطلق عليها اسم الالاهة • وقد تولى الحكم في المدينة ملوك من ذرية (سيقروبس) والى (أريختيوس Erochtheus)وهو الرابع بين هؤلاء الملوك ، يرجع الفضل في تشييد المعابد التي كانت تزين المدينة • ثم قام حفيده (تيزيئوس Theseus) حوالي سنة ١٢٥٠ بدمج مدن (آتيكة) الاثنتي عشرة ضمن كتلة سياسية واحدة واعتبر جميع السكان مواطنين آثينيين • ويطلق المؤرخون اليونانيونعلى هذه الوحدة اسم (سينويكيزموس Synoikismos) أي « الجوار المدني » •

وكل ما يمكن أن نستخلصه من هذه الاساطير هو ان توحيد بلاد (آتيكة) يرجع الى عهد قديم • ولعله قد حدث أثناء غارة الدوريين اذ شعر السكان بضرورة جمع الكلمة للدفاع عن انفسهم فالتفوا حول ملك (آثينة) التي استطاعت بفضل موقعها الممتاز ان تصبح عاصمة الدولة • ونستدل من

صيغة الجمع في اسم مدينة (آثينة Athenae) انها قد تكونت مثل (اسبارطة) ، من انضمام عدة قرى بعضها الى بعض • فقد كانت هناك على عهد البلاسغيين خمس أو ست قرى صغيرة عند هضبة (اقروبوليس) وعلى المرتفعات المحيطة بها • ولما جاء المهاجرون الايونيون أدركوا أهمية هذه البقعة التي لا تبعد عن البحر سوى خمسة كيلو مترات فهي قريبة من الشاطىء الى حد يمكن معه الاشتغال بالملاحة ولكنها في الوقت نفسه بعيدة الى حد يمكن معه مشاهدة القرصان قبل وصولهم والاستعداد لمقاومتهم • وكان السكان القدماء قد حصنوا هضبة (اقروبوليس) باقامة سور يحيط بالذروة يسمى (بيلارغيقون Pelargicon) فقلب الاثينيون هذا الاسم فيما بعد خطأ الى (بيلاسغيقون Pelasgicon) نسبة الى البلاسغيين • وقد شيد الايونيون هنا معبدا للالاهة (آثينة) الى جانب المعابد القديمة لبعض الحيوانات المقدسة مثل الافعى والبوم وللملوك والابطال الذين كانوا قد ارتفعوا الى مصاف الآلهة مثل (سيقروبس) و (أريختيوس) • وبانتشار عبادة (آثينة) في القرى المجاورة صار من السهل توحيدها جميعا تحت رعاية هذه الالاهة التي سميت المدينة الجديدة باسمها مع الاحتفاظ بالالهة الاخرى •

ان (الالياذة) و (الاوديسة) يأتي فيهما ذكر سكان (آتيكة) جميعا باسم (الاثينيين) على الاطلاق • فنستدل من ذلك ان توحيد (آتيكة) قد تم على كل حال قبل القرن الثامن وربما في القرن العاشر • وكان الاثينيون في العصور التالية يحتفلون بذكرى هذه الوحدة دون سفك دماء عند تقديم الضحايا • وفي ذلك اشارة الى ان الوحدة قد تمت بصورة سلمية •

ولا نستطيع ان نؤكد اذا كان الملك (تيزئيوس) هو الذي قام حقا بها لانه ليس من المستبعد ان تكون الروايات المتعلقة بذلك انما اخترعت

في القرن السادس لغايات سياسية من قبل الاسرات النبيلة التي كانت تنتسب الى هذا الملك وتطمع في الاستيلاء على الحكم •

ومهما كان الامر فان هذه الوحـدة من الحوادث الخطـيرة • وكان اليونانيون يعتبرونها بحق السبب الاساسي في عظمة (آثينة) • فهي قـد امتازت بذلك على (اسبارطة) التي لم ترغب في وحدة شعبها ولم تدرك أهمية مثل هذه الوحدة كما فاقت (ثيبة) التـي كانت تسعى الى الوحـدة ولكن دون ان تستطيع تحقيقها •••

٠٤ ــ الحكم الارستوقراطي في (آثينة) :

مثل جميع المدن اليونانية الاخرى ظلت (آثينـة) أيضا تحكم مـدة طويلة من قبل الملوك وتذكر الروايات القديمة اكثر من ثلاثين ملكا • على ان القوائم التي تعدد أسماء هؤلاء الملوك يختلف بعضها عن الاخر وتتعارض• وهي تخلط بين الالهة المحلية والابطال الاجانب وأجـداد بعض الاسرات النبيلة • وحتى في الاسماء الحقيقية لاتميز هذه القوائم بين الملوك الذين انتقل اليهم الحكم بالوراثة وكانوا يتمتعون بالسلطة المطلقة وبين (الملوك) المنتخبين الذين اقتصرت وظيفتهم على الشؤون الدينية • لذلك فان الاخبار عن هـؤلاء الملوك وحوادث عهـــدهم ليس لها قيمة تاريخيـــة ولا يجوز الاعتماد عليها •

ولكن لابد لنا هنا من تثبيت الرواية الطريفة التالية عن نهاية الملكيـة في (آثينة) • فهي تقول انه لما قتل (قودروس Codrus) ، آخر الملوك من أسرة (الأريختيين Erechtheides) وهو يحارب الغزاة الدوريين ، رأى (الآثينيون) انه ليس هناك أي شخص يمكن ان يقارن به في كمال الصفات وفي التضحية بالنفس حتى يستحق ان يخلفه ففضلوا حينئذ الغـاء الملكية بالمرة • ورغم ان هذه الرواية لا يمكن الاطمئنان الى صحتها الا اننا

نستدل منها بأن انتقال السلطة من الملوك الى النبلاء لم يكن نتيجة ثورة بل قد تم بصورة سليمة •

والحقيقة هي أن الحكم الملكي في (آثينة) قد تلاشى تدريجيا تحت ضغط الطبقة الارستقراطية التي كانت في بادىء الامر تشارك الملوك في الحكم ثم أرادت ، عندما ازدادت قوتها ، أن تستأثر وحدها بالسلطة • ومما يؤيد ذلك احتفاظ (الآثينيين) بلقب ملك يطلقونه على الشخص المختص بالأمور الدينية بين رؤساء الحكومة في العصور التالية •

لقد كانت هناك بين قبائل (آتيكة) أسرات كبيرة ترجع بأنسابها الى الآلهة والابطال والامراء وتفاخر بالمجد الذي انتقل اليها جيلا بعد جيل • وهذه الاسرات هي التي كانت تملك الاراضي الواسعة ، الغنية • ومنها كان الفرسان الذين يملكون الخيل والاسلحة اللازمة • وكان هؤلاء النبلاء يعيشون في الأرياف حيث خلت حصون عديدة تسمى بالنسبة اليهم• ولكن بعد توحيد (آتيكة) وتأسيس مدينة (آثينة) انتقل اكثرهم الى العاصمة الجديدة حيث كان مجلس الشيوخ الذي يستشيره الملك والذي يتألف من رؤساء الاسرات القوية ، البارزة • ويظهر انه بعد انتهاء غارة الدوريين وتوقف حركة المهاجرة واستقرار السكان ازداد نفوذ هذه الاسرات النبيلة التي صار افرادها يتولون الوظائف الكبيرة •

ويختلف المؤرخون في أول وظيفة رئيسية احدثت وانتقلت اليها بعض السلطات التي كان يقوم بها الملوك قبلا • فيذهب البعض الى انها قيادة الجيش ويدعي الاخرون انها وظيفة الحاكم الذي ينظر في القضايا الحقوقية • وتذكر الروايات القديمة ان أول حاكم هو (اقاستوس Acastus) جد اسرة (الميدونتديين) • لذلك فان الحكام كانوا يقسمون، عند استلام عملهم ، بانهم سوف يخلصون القول مثل (آقاستوس) وكان انتخاب (آقاستوس) لوظيفة الحاكم على مدى الحياة ثم ظل افراد اسرته

يتعاقبون في هذه الوظيفة الخطيرة مدة طويلة من الزمن • ولذلك اعتبر بعضهم (الميدونتيديين) اسرة ملوكية • ولكن لم يعرف عن واحد منهم أنه اتخذ لقب ملك في هذا العهد • ويقول المؤرخون القدماء ان الحاكم صار في منتصف القرن الثامن ينتخب لمدة عشر سنوات • واخيرا اصبحت هذه الوظيفة لمدة سنة واحدة • وكذلك كان الامر مع الملك والقائد •

ليس هناك وثائق تاريخية تؤيد هذه الروايات • ولايمكن ان نعرف اذا كان نظام الحكم قد تطور هكذا على مراحل أم في شكل آخر • ولكن من المؤكد ان حكومة (آثينة) كان يقوم عليها منذ سنة (٦٨١) قبل الميلاد ثلاثة رؤساء هم : الحاكم (Archon) والملك (Basileus) والقائد (Polinarch) وكان هؤلاء جميعا ينتخبون لمدة سنةواحدة ونرى السجلات الرسمية بعد هذا التاريخ تحمل اسم الحاكم وبذلك يمكن معرفة تاريخها بالرجوع الى الجدول الذي يبين تعاقب الحكام سنة بعد اخرى • وهذا هو السبب في اضافة صفة (Eponymos) « أي الذي يسمى الشيء باسمه » الى الحاكم •

ان السلطة التنفيذية لحكومة (آثينة) في أوائل القرن السابع كانت في أيدي هؤلاء الرؤساء الثلاثة • وكان الحاكم يحتل المقام الاول بينهم • وهو الذي يتولى القضايا المدنية فينظر في أمور الزواج والارث والايتام ويترأس الحفلات في الاعياد • ولا ننسى ان هذه المسائل كان لها شأن عظيم في ذلك العهد • وكان القائد يتولى ، عدا ادارة الجيش ، النظر في قضايا الاجانب الساكنين في (آثينة) • أما الملك فكانت تقتصر وظيفته على الشؤون الدينية • فهو الذي يمثل المدينة تجاه الآلهة ويشرف على القصور والمعابد على هضبة (آقروبوليس) • ورغم أهمية هذه الرياسة الدينية فان لقب ملك قد فقد بذلك معناه الاصلي وصار يطلق على احدى الوظائف الحكومية التي ينتخب صاحبها لمدة سنة مثل غيره من الموظفين •

ثم اضيف الى الرؤساء الثلاثة ستة مشرعين عهد اليهم ، كما **يقول** آرسطو ، « بتسجيل الاحكام والمقررات التي لها صفة قانونية وحفظها حتى يرجع اليها في فصل الاختلافات » . ولم تمض مدة طويلة حتى تألف من هؤلاء جميعا مجلس الحكام التسعة الذي كان يدير شؤون الحكومة فيالعهد الارستوقراطي .

كان هؤلاء الحكام بعد انقضاء مدة عملهم يصبحون بصورة آلية أعضاء في مجلس الشيوخ لمدى الحياة . ان هذا المجلس من المؤسسات التي يشترك فيها اليونانيون مع غيرهم من الشعوب الارية ونجده لديهم في كل العصور . وقد كانت له مكانة كبيرة في زمن الملك . ولكنه ازداد أهمية في عهد الحكم الارستوقراطي وأصبح الدعامة الحقيقية لسلطة النبلاء . فهو الذي يقوم ، كما يقول آرسطو في كتابة (دستور آثينة) « بالمحافظة على القوانين وادارة شؤون الدولة » . وهو الذي يتولى انتخاب الرؤساء الثلاثة وبقية الموظفين . وقد اطلق عليه في آثينة اسم (اريئوباغوس Aeropagos) لتمييزه من المجالس الاخرى التي تأسست فيما بعد . ولعل هذا الاسم مشتق من هضبة (Ares) ، حيث كان يعقد اجتماعاته للنظر في القضايا الجنائية التي تعد من أهم وظائفه .

ان الغاء النظام الملكي في آثينة لم يكن انتصارا للفكرة الديموقراطية بل كان وسيلة لتسلط الارستوقراطية الاقطاعية على ادارة الدولة . كان النبلاء يؤلفون طبقة ممتازة ويستخدمون المؤسسات الحكومية لتوطيد سيادتهم وتأمين مصالحهم وقد ظلت هذه الاقلية الارستوقراطية ، التي كانت تسمى في (آثينة) طبقة (اوباتريد Eupatrid) « أي الذين يولدون في النعم » ، مستأثرة بالحكم مدة عصور عديدة . فقد كان الموظفونالكبار كلهم من افراد هذه الطبقة . وكان القضاة يفسرون قواعد العرف والعادة حسبما يريدون ، لانه لم تكن هناك قوانين مكتوبة ، ثابتة . فويل لجميع الافراد

الذين ليسوا من الاسرات النبيلة • انهم مضطرون دوما الى الخضوع للاحكام المرتجلة ، المتقلبة التي كانت في الغالب بعيدة عن الانصاف والرحمة •

وفي الدجة الثانية تأتي طبقة الصناع (Demurgoi) أي اصحاب المهن الذين يشتغلون بالصناعة والتجارة والملاحة على حسابهم الخاص •

وتتألف الطبقة الثالثة من المزارعين (Georgoi) الذين يملكون قطعة صغيرة من الارض يكدحون في فلاحتها لكسب قوتهم • وكان هؤلاء المزارعون يجدون صعوبة كبيرة في التخلص من طمع المرابين ومن اعتداء السادة النبلاء • لقد كان الكثيرون منهم يملكون قبلا اراضي واسعة • ولكن نساءهم كانت اكثر خصباً من الارض فاضطروا الى تقسيمها بين أولادهم حتى أصبحت لا تكفي لاعاشة اصحابها الذين كان بعضهم يبيعها وينتقل الى المدن للاشتغال بالصناعة أو التجارة بينما صار الآخرون يشتغلون عند النبلاء الاغنياء ويفلحون الارض كمسادسين أي الذين يأخذون سدس المحصول مقابل عملهم • أما الذين يحاولون الاحتفاظ بأرضهم ، رغم كل الصعوبات ، ويستدينون المال لشراء البذار والماشية فانهم يضطرون الى رهن هذه الارض ثم يعجزون في الغالب عن دفع الفوائد الفاحشة ناهيك عن تسديد الديون فيصبح من حق الدائنين ان يتصرفوا بهم وبنسائهم وأولادهم كما يشاؤون• وهكذا فقد انتقلت الاراضي ، كما يقول آرسطو ، الى عدد قليل من الملاكين الكبار بينما كان الفلاحون يباعون هم ونساؤهم وأولادهم كأرقاء وأقنان •

ان افراد هذه الطبقات الثلاث كانوا يعتبرون من المواطنين رغم الاختلاف الكبير في حالتهم الاقتصادية ورغم استئثار طبقة النبلاء وحدها بالوظائف الحكومية • وقد كان يحق للمواطنين جميعا ان يشتركوا في مجلس الشعب (Ecclesia) ولكن هذا المجلس لم يكن له شأن كبير في عهد الحكم الارستوقراطي وقلما كان يجتمع ليصادق على القوانين التي تعرض عليه

وأخيرا كانت هناك طبقة رابعة من السكان الذين يعتبرون أيضا احرارا ولكنهم لايتمتعون بحقوق المواطنين ولا يدخلون في عداد قبائل (آتيكة) وأعني بذلك طبقة العمال المأجورين (Thetes) الذين يعيشون من عملهم اليومي وأكثرهم من الاجانب والافراد المنعزلين •

ان أوضاع هذه الطبقات المختلفة وعلاقات بعضها بالآخر قد تغيرت كثيرا في القرنين السابع والسادس بسبب التطور الاقتصادي • ولايمكن ان نفهم نشأة الحركة الديموقراطية في (آثينة) الا اذا لاحظنا تأثير هذا التطور الاقتصادي في الحياة الاجتماعية والسياسية •••

٥ ـ تطور (آثينة) الاقتصادي والسياسي :

في القرنين السابع والسادس

بينما بقيت (اسبارطة) ، بسبب موقعها الجغرافي وبتأثير النظام الخاص الذي فرضته الطبقات الحاكمة على السكان ، بعيدة عن حركة الهجرة والاستعمار وما تبع ذلك من نشاط تجاري وصناعي في سائر بلاد اليونان ـ فاننا ، على العكس من ذلك ـ نرى (آثينة) تسرع فتلحق بالمدن التي سبقتها في هذا المضمار مثل (ميلتوس) و (قورنت) و (ميغارة) ثم تفوقها جميعا •

كان سكان (آتيكة) حتى أواخر القرن الثامن يعتمدون في معيشتهم على الزراعة بالدرجة الاولى ثم على صيد الاسماك في المناطق الساحلية • ولكن لما أخذ عدد هؤلاء السكان يزداد بعد استقرار حالة السلم رأوا ان أراضيهم لا تكفي لتأمين حاجاتهم فاضطر الكثيرون منهم الى اقتحام البحر للبحث عن موارد جديدة للمعيشة • وكان اليونانيون في هذا العهد قد بدأووا يتعلمون من الفنيقيين فن الملاحة وانشاء السفن وصناعة الاواني الخزفية وأساليب التجارة ولم تمض مدة طويلة حتى فاق التلامذة أساتذتهم • فصار

اليونانيون يصنعون سفنا أعظم وأسرع بكثير من السفن الفنيقية • كذلك امتازت الاواني الخزفية اليونانية على النماذج الشرقية بدقة الصنعة وبراعة التزيين وجمال الصور •

ولا شك في ان المستعمرات التي أسسها المهاجرون في مختلف انحاء البحر الابيض المتوسط قد فتحت أمام اليونانيين أسواقا واسعة تساعد كثيرا على النشاط التجاري • وكان لابد من العناية بالمنتوجات الصالحة للتصدير مقابل المحصولات التي تدعو الحاجة الى استيرادها لذلك نرى سكان (آتيكة) يوجهون في هذا العهد جل اهتمامهم الى كروم العنب والزيتون لزيادة صادراتهم من الخمر والزيت • ومن الطبيعي ان تتسع في الوقت نفسه صناعة الاواني الخزفية فان هذه الاواني كان الطلب شديدا عليها سواء من تجار الخمور والزيوت أو من سكان البلاد المتأخرة • وتدل الحفريات الاثرية على ان أول حي كبير من أحياء مدينة (آثينة) قد أنشأه الخزافون • وكان يمتد الى مسافة بعيدة ويشتمل على كثير من المصانع الضخمة • وتشير الاخبار الى انه كان يشتغل في كل مصنع عدد كبير من العمال والفنانين وان العمل كان منظما على مقياس واسع • وكانت نماذج معينة للاواني الخزفية تصنع منها كميات كبيرة وترسل الى مختلف البلدان•وقد عثر أثناء الحفريات الاثرية في جنوبي روسية وايطالية وفرنسة وغيرها على كثير من هذه الاواني المصنوعة في (آثينة) بعد سنة (٦٥٠) والتي نقشت عليها أسماء صاحب المصنع والخزاف والرسام • كذلك كان الامر في الصناعات الاخرى•وتذكر لنا الاخبار مصنعا للدروع ملك شخص اسمه (كفالوس) كان يشتغل فيه ما لا يقل عن (١٢٠) من العمال • يتبين ان تقسيم العمل لم يقتصر على انتساب كل شخص الى صناعة معينة بل تعداه الى الاختصاص ضمن هذه الصناعة نفسها • ثم ان الحركة التجارية قد ازدادت نشاطا في هذا العهد بفضل استعمال النقود وانتقال اليونانيون من مرحلة الاقتصاد الطبيعي الى

الاقتصاد الرأسمالي • فقد اقتبس اليونانيون العملة النقدية التي كانت قد ظهرت في مملكة (ليدية) حوالي سنة (٧٠٠) قبل الميلاد ثم أصبح لكل مدينة يونانية نقد مستقل يحمل شعارها الخاص • ولم تقتصر أهمية النقود على كونها وسيلة عامة ، سهلة للتبادل بل انها غيرت ايضا مفهوم الثروة فلم يعد يعتبر غنيا من يملك الارض والقطعان وانما صاحب رأس المال هو الذي يقوم بالمشاريع التجارية والصناعية ويعقد القروض وترسل باسمه الحوالات المالية •

وليس غريبا ان يكون أصحاب رؤوس الاموال في بادىء الامر من طبقة النبلاء الذين كانوا يملكون الاراضي الواسعة والقطعان الكبيرة فأسرعوا الى استثمار أموالهم في الاعمال التجارية والصناعية وكانت حاجات هؤلاء النبلاء آخذة في الازدياد بعد انتقالهم الى المدن وانهماكهم في حياة الرفاهية والترف فاندفعوا الى كسب المال بجميع الوسائل • فنرى (صولون) يقول: ان الذين يملكون أكثر من الجميع هم الذين يريدون الزيادة ولا يقف طمعهم عند حد • وكان (تئوغينس) شاعر (ميغارا) يتهمهم بأنهم أصبحوا يفضلون المال على الشرف •

لم ينصرف كل النبلاء الى الاعمال التجارية والصناعية بل ان الكثيرين منهم قد حافظوا على التقاليد العائلية وظلوا يعيشون من محصولات أراضيهم• وبذلك نشأت فروق كبيرة في الثروة بين طبقة النبلاء نفسها وتكونت طبقة جديدة من الاغنياء لاتقتصر على النبلاء وحدهم ولكن يدخل فيها أيضا الكثيرون من أفراد الشعب الذين توصلوا الى الثروة •

وفي الحقيقة بدأ نظام الطبقات كله يتغير في هذا العهد وصار الناس يتمايزون ليس حسب انسابهم وانما حسب مقدار أموالهم • فكانت هناك الان اولا : طبقة يطلق على افرادها اسم (Pentacosiomedini) أي الذين يبلغ دخلهم السنوي أكثر من (٥٠٠) مكيال ، ثانيا : طبقة (Hippes)

أي الذين يتراوح دخلهم بين(٣٠٠ ـ ٥٠٠) مكيال؛ثالثاًطبقة (Zeugitoi)
أي الذين لايقل دخلهم عن (٢٠٠) مكيال ، رابعا : طبقة (Thetes)
وهى تضم بقية المواطنين الاحرار الذين لا يحصلون على هذا الحد الأصغر .

على ان هذا النظام الجديد للطبقات الذي كان سائدا في الواقع لم يكتسب صفة رسمية ولم تترتب عليه فروق في الحقوق والواجبات الا بعد ان أقره (صولون) واتخذه اساسا لاصلاحاته الدستورية .

ان أهم النتائج للتطور الاقتصادي في القرنين السابع والسادس قد تجلت في اتساع المدن وازدياد عدد سكانها ونشأة مهن جديدة متنوعة وقيام طبقة قوية من التجار والصناع الذين اصبحوا يلعبون دورا خطيرا في حياة المجتمع واخذوا يطالبون بحقهم في ادارة شؤون الدولة . وهذه الطبقة المتوسطة ، (البورجوازية) هي التي تولت قيادة الجماهير الشعبية الفقيرة من فلاحين وعمال وساعدتها في مكافحة امتيازات النبلاءوالتخلص من حكمهم الاقطاعي .

لقد كانت حالة هؤلاء الفلاحين والعمال في منتهى البؤس تزداد سوءا من يوم الى آخر . فان الفلاحين كانوا في الغالب يضطرون الى الاستدانة مقابل فوائد باهظة ورهن أراضيهم . وكان أكثرهم يعجزون عن تسديد هذه الديون والفوائد فيفقدون أرضهم ويباعون هم انفسهم مع نسائهم وأولادهم في سوق الرقيق أو يصبحون أقنانا مرتبطين بالارض يفلحونها لمصلحة النبلاء . وكان ازدياد الارقاء سواء من طبقة الفلاحين أو بالاستيراد من المستعمرات مما يساعد اصحاب المصانع على الاستغناء عن استخدام العمال الاحرار الذين كانوا يفقدون بذلك مورد رزقهم الضئيل فيصبحون عاطلين عن العمل ويموتون جوعا .

ان هذه الاوضاع الاجتماعية كانت سببا في احتدام النزاع بشدة بين الطبقات وانتشار الفوضى والاضطراب . وقد قام في كثير من المدن اليونانية

افراد من النبلاء أو الطبقة الوسطى كانوا يطمحون الى الحكم فتولوا زعامة الجماهير الشعبية الناقمة واخذوا يدافعون عن حقوقها واستطاعوا القضاء على النظام الارستوقراطي وفرض الحكم الفردي ، الديكتاتوري •

حوالي سنة (٦٣٢) حاول شـــاب ارسـتوقراطي اسمه (كيـلون Cylon) ان يفرض نفسه ديكتاتورا في (آثينة) •

كان هذا الشاب قد نال جائزة في الالعاب الاوليمبية واكتسب شيئا من الشهرة • ثم تزوج بابنة (تيئا جينيس Theagenes ديكتاتور (ميغارة) الذي وعده بالمساعدة • وتذكر الروايات انه استشار العرافين في معبـد (دلفي) قبل القيام بالثورة فأجابوه بأنه يجب عليه الهجوم مع انصاره على هضبة (اقروبوليس) واحتلالها أيام العيد وقد اعتقد (كيلون) بأن المقصود بالعيد هي الحفلات الاوليمبية التي كان قرب موعدها ، في حين ان الرهبان أرادوا ، حسب دعواهم فيما بعد ، عيدا آخر يخرج فيه سكان (آثينة) الى خارج المدينة • وهكذا قام (كيلون) مع جماعة من الشبان مثله وبعض الجنود الذين ارسلهم اليه والد زوجته من (ميغارة) واستولى فجأة أثنـاء الحفلات على الاقروبوليس • وقد استاء سكان (آثينة) من هذه المحاولة لفرض الحكم الفردي بمساعدة حكومة أجنبية • فاجتمع الفلاحون والعمال بقيادة (ميغاقليس Megacles) زعيـم اسـرة (القيمئونيـد) وحاصروا (كيلون) مع اتباعه • ولما استمر الحصار عدة ايام رأى الثوار ، الذين لم يبق لديهم شيء من المؤون ، انه لا مفر لهم من الاستسلام • وقد استطاع (كيلون) نفسه ان يهرب مع أخيه الى(ميغارة) ولكن اتباعه قبض عليهم وقتلوا جميعا رغم التجائهم الى معبد الالاهة (آثينة) وتعهد المحاصرين لهم بالامان على حياتهم اذا تخرجوا من المعبد • على انالحادث لم يقف عند هذا الحد فان قتل الثوار غدرا قد أدى من جهــة الى نشوب الحرب بين (آثينــة) و (ميغارة) واستمرت الغارات المتقابلة مدة من الزمن فأصيبت (آثينة) من جراء ذلك بأضرار بالغة • ومن جهة ثانية فقد استاءت الجماهير الشعبية من

النكث بالعهد والغدر بالثوار الذين لجأوا الى المعبد واتجهت النقمة العامة الى اسرة (آلقميئونيد) التي كانت سببا في الاعتداء على المقدسات الدينية • واتفقت الاراء على انه لا سبيل الى ارضاء الآلهة الا باخراج الاسرة كلها من المدينة فحكم على (الآلقمئونيديين) بالنفي وحجز أموالهم •

٠٦ ـ قوانين (دراقون) :

ان محاولة (كيلون) الفاشلة لاقامة الديكتاتورية ثم الحرب مع (ميغارة) ونفي اسرة (آلقميئونيد) كانت سببا في توتر الازمة الاجتماعية والسياسية في (آثينة) واشتداد المنازعات بين الأحزاب والطبقات المختلفة ، فكثرت حوادث الاعتداء والقتل وشعر الجميع بالضرورة الملحة الى قوانين تحول دون الاسترسال في سفك الدماء •

وقد اتفق الرأي على ان العمل الذي بدأ به المشرعون من جمع القوانين وتنظيمها وتثبيتها يجب اتمامه بسرعة • ويبدو ان هؤلاء المشرعين النبلاء قد أظهروا كثيرا من الضعف والتساهل في السنين الماضية وعجزوا عن القيام بالاصلاح اللازم • وهكذا عهد في سنة ٦٢١ الى (دراقون Dracon) ، احد المشرعين الستة اذ ذاك ان يقوم بهذه المهمة واعطيت له سلطات استثنائية واسعة في وضع القوانين التي يراها صالحة •

اشتهر (دراقون) بالعقل والحزم وبمعرفته الواسعة للشرائع وعلى الاخص للمسائل المتعلقة بالتقاليد والحقوق العائلية • وقد اقتصر عمله في الاساس على تنظيم القوانين التي سبق للمشرعين جمعها منذ مدة جيل فقام بتنسيقها وتوحيدها • ورغم انه لم يقصد ، خلافا لما ذهب اليه آرسطو ، وضع دستور لدولة (آثينة) ، فقد لعب دورا سياسيا هاما في تاريخ بلاده ، لان القوانين التي استطاع ان يفرضها بقوة شخصيته كانت من جهة مقتبسة عن العادات والتقاليد المتوارثة ولكنها من جهة ثانية قد عدلت بصورة تلائم حاجات

العصر وتتفق مع المبادىء الحديثة • وبذلك فانها مهدت السبيل للتطور في المستقبل •

ان الفكرة الاساسية لدى (دراقون) كانت مكافحة الاندفاع في أخذ الثأر ـ والسعي الى استبدال العقوبة الاجتماعية بمبدأ الانتقام الشخصي • انه لم يسلب الاسرة الحرية في الحكم على افرادها ولم يتعرض الى حقوق الرجل تجاه زوجته وأولاده وعبيده • ولكنه من جهة اخرى لم يسمع بأن تنتقم الاسرة لنفسها من اسرة اخرى عندما يعتدى عليها • ففي حوادث القتل اذا رضي اقارب المقتول مفاوضة أقارب القاتل والاتفاق على الدية والصلح فان الحكومة لا تتدخل في الامر • ولكن اذا لم يتم الاتفاق فكان لابد لاسرة القتيل من الرجوع الى سلطة الحكومة عوضا عن ان تنتقم لنفسها • وفي سبيل دفع الناس الى اتباع هذه الطريق القانونية فرض (دراقون) عقوبات شديدة جدا على حوادث الاعتداء • ويروى عن أحد الخطباء الآثينين قوله بأن قوانين (دراقون) لم تكتب بالحبر بل بالدم • وقد صار يضرب المثل في العصور التالية بقساوة قوانين (دراقون) وانتقل اسمه الى اللغات الاوروبية الحديثة التي تعتبر فيها كلمة (Draconique) مرادفة لصفة الشدة •

على ان دراسة دقيقة لقوانين (دراقون) من شأنها ان تدفعنا الى تعديل هذا الرأي • فقد كان في كثير من حوادث الاجرام يميل إلى التساهل والرأفة كما ان له فضلا كبيرا في التمييز بين الجرائم التي ترتكب عن تعمد وتصميم والتي تقع دون قصد • وهو الذي أنشأ محكمتين جديدتين : تتألف الاولى من واحد وخمسين قاضيا (Ephetae) للنظر في حوادث القتل غير المقصود أو محاولة القتل أو قتل الاجنبي التي يقتصر فيها العقاب على النفي المؤقت ، وتتألف الثانية من الملك ورؤساء القبائل للنظر في حوادث الموت التي يرجع سببها الى الحيوانات او الاشياء كما انه حدد القضايا الجنائية الداخلة في اختصاص مجلس الشيوخ •

وقد كان لقوانين (دراقون) تاثير بالغ في اضعاف العصبيه العائليه • وذلك لانه حدد درجات القرابة وعين الاشخاص الذين يحق لهم المطالبة بدم القتيل فذكر في الدرجة الاولى الأب ثم الابن • ولا تسمح الدعوى من الاقارب ، الذين هم أبعد صلة ، والذين لايجوز على كل حال ان يتجاوزوا ابناء أبناء العم ، الا عند فقدان هؤلاء • ثم انه لم يسمح بالمصالحة على الدية بين اسرتي القاتل والمقتول الا اذا اتفقت كلمة جميع الاقارب • ويكفي ان يخالف شخص واحد حتى يصبح من الضروري الرجوع الى المحاكم • وبذلك ساعد على تقوية الروح الفردية اذ صار كل عضو في الاسرة يشعر بقيمته الشخصية وحقه في الاستقلال بالرأي •

وهكذا فقد كانت قوانين (دراقون) خطوة كبيرة في طريق التطور والتقدم • ان هذه القوانين التي تمزج بين الشدة والرأفة كانت واحدة للجميع لاتميز بين الطبقات وهي ترمي الى القضاء على المنازعات الخاصة بين الاسرات والى تقوية سلطة الدولة وجعل الافراد مسؤولين تجاهها يستطيعون الالتجاء اليها للحيلولة دون ضياع الحقوق • ومن هذه الوجهة لاتقتصر أهمية تشريع (دراقون) على (آثينة) بل تعتبر حادثا خطيرا في تاريخ البشرية عامة •••

٠٧ ـ (صولون) واصلاحاته :

ان قوانين (دراقون) كانت خطوة كبيرة في طريق الاصلاح ولكنها لم تكن كافية لازالة مظاهر الاضطراب وحالة الفوضى ، لأنها لم تبدل شيئا من أساس النظام الاقتصادي والاجتماعي • فقد كانت الاسرات الكبيرة لاتزال تتمتع بنفوذ عظيم وهي لم تكن لتقنع بما تملك من أراضي واسعة وثروة طائلة بل أخذت تغتصب أيضا الاراضي الاميرية المشتركة والأملاك الخاصة بالمعابد • وظلت حالة الطبقات الفقيرة كما كانت في السابق سيئة للغاية • وكان المستضعفون لا يرون أملاً لهم في نيل حقوقهم وتحسين

أوضاعهم بالوسائل القانونية لأن الجيش وادارة الحكومة والمحاكم كانت في أيدي خصومهم السادة النبلاء • ويقول بلوتارخ في وصف الحالة اذ ذاك : « ان الفوارق في الثروة بين الاغنياء والفقراء كانت قد بلغت منتهاها وان وضع البلاد اصبح في خطر داهم وانه لم يكن في الامكان انقاذها من هذه الحالة الا بفرض سلطة استبدادية » • وقد صار الكثيرون يتحدثون عن ضرورة قيام ثورة دموية ، عنيفة وتقسيم الاراضي والثروة بالتساوي بين الجميع • على ان النبلاء الاغنياء الذين تمركزت الثروة في ايديهم والذين اصبحوا لايستطيعون استيفاء ديونهم وغضبوا لما كانوا يسمعونه من التهديد بالثورة ، قاموا يدعون الى احياء القوانين القديمة ويتهيأوون للدفاع عن انفسهم بالقوة ويبزرون اضطهاد الطبقات الفقيرة بدعوى انها تريد تحطيم كل نظام والخروج على تعاليم الدين • ان الازمة كانت قد بلغت منتهى الشدة ••

في هذا الوقت العصيب التجأ الجميع الى (صولون) لينقذ الموقف •

كان (صولون Solon) بن (أكسيكستيديس Exekestides) من أبرز الاسرات الارستوقراطية في (آثينـــة) التـي ترجـع بنسبها الى (الميدونتيديين) • ولكنها لم تكن على جانب كبير من الثـروة • ويروي (بلوتارخ) ان والد (صولون) قد اضاع ثروته في اعمال الخير ومساعدة الاخرين • فاضطر (صولون) الى الاشتغال بالتجارة وقام برحلات عديدة الى مختلف انحاء البحر الابيض المتوسط فزار كثيرا من البلدان واستفاد من مشاهداته وتجاربه واستطاع ان يجمع ثروة كبيرة ولما عاد الى (آثينـــة) واستقر فيها استلفت اليه الانظار باشعاره التي استخدمها ، مثل غيره من الشعراء في ذلك الوقت ، للدعاية وشرح آرائه في أوضاع البلاد السياسية والاجتماعية •

وقد اتجه في بادىء الامر الى السياسة الخارجية فأخـذ يـدعو الى استرجاع جزيرة (سالاميس) من (الميغاريين) • وكان (صولون) قد

رأى في هذه القضية وسيلة صالحة لتوحيد الكلمة واثارة الحماسة بين مواطنيه • وتذكر بعض الروايات انه لما قرر الآثنيون ارسال حملة للاستيلاء على الجزيرة عهدوا بالقيادة الى (صولون) نفسه فنجح في هذه المهمة نجاحا باهرا واصبح بطلا قوميا يحترمه الجميع لنزاهته ووطنيته وسعة اطلاعه •

كان (صولون) يشعر بأن له رسالة سامية يجب ان يقوم بها • ولذلك لم يكتف بما ناله من الشهرة بل استمر ينظم القصائد وينتقد الاوضاع الاجتماعية ويندد بالظلم ويدعو إلى الانصاف بين البشر • وكان يبين لمواطنيه ان هناك ارتباطا وثيقا بين مصلحة الفرد والمصلحة العامة وانه يجب ان يسود التضامن بين الافراد والدولة ويكرر القول بأن الذين لا يفكرون الا في اموالهم يسببون خراب الدولة ناسين ان البؤس العام ينفذ الى كل بيت ويلحق بكل شخص ويصيبهم هم أنفسهم مهما اتخذوا من وسائل الوقاية • وكان يرى بأن الشر كل الشر الذي يتجلى في طمع الاغنياء وبؤس الفقراء انما ينشأ عن مخالفة البشر لقوانين العدالة وان العلاج لهذه الحالة يتلخص في احترام مبدأ الانصاف وفرض قوانين تضمن حقوق الجميع وتكفل الانسجام بين مختلف العناصر •

لقد اكتسب (صولون) ثقة جميع مواطنيه بماضيه الناصع وبلاغته النادرة وقوة شخصيته • وكان يعد من حكماء اليونان السبعة • وكلمة حكيم لم تكن تطلق في القرن السادس على من ينصرف الى النظر وحده بل على الذين يجمعون بين الفكر والعمل معا • وفي الحقيقة فان (صولون) الشاعر الذي كان في الوقت نفسه تاجرا والنبيل الذي كان يدافع دوما عن الفقراء المستضعفين يعتبر من أمهر رجال السياسة الذين يعرفون كيف يوفقون بين المثل العليا وبين ضرورات الحياة الاجتماعية الواقعية • ان عقيدته المتينة وتفكيره الناضج وخبرته الواسعة وشعوره المرهف ـ كل ذلك كان يوحي اليه بالحلول العملية في كل حالة من الحالات كما ان خياله القوي

كان يكشف له طريق التطور في المستقبل ويهديه الى التدابير التي يجب اتخاذها لمجابهة العراقيل المنتظرة قبل الوصول الى الغاية المنشودة ٠

لم يكن (صولون) قد تجاوز الخامسة والاربعين من العمر عنـــدما انتخب حاكما في سنة (٥٩٤) ٠ وقد عرضت عليه الطبقات المتوسطة ان يتمتع بسلطة ديكتاتورية مطلقة لفرض ما يريده من القوانين في سبيل انهاءالحرب الاجتماعية ٠ ووافق النبلاء ايضا على منحه هذه السلطة ٠ فقد كان الفقراء يأملون الخير على يديه لمعرفتهم بحبه للعدالة بينما كان النبلاء ينظرون اليه كواحد منهمويعتقدون ان رجلا غنيا مثله لن يقوم بعمليعود عليهم بالضرر٠

كان (صولون) يستطيع ان يصبح ديكتاتورا مطلق السلطة لو أراد٠ ولكنه فضل ان يقوم بدور الحكم النزيه بين الطبقات والاحزاب وجعل همه الوحيد خدمة المصلحة العامة وسلامة الدولة مصمما على ان يسير في الطريق التي رسمها لنفسه حتى النهاية مهما اعترضه من المصاعب والعراقيل ٠

ان ابرز صفة في سياسة (صولون) هي الاعتدال ٠ فهو لم يندفع مع دعاة الثورة المتطرفين الذين كانوا يطالبون بتوزيع الاراضي ٠ انه كان يعتبر مثل هذا العمل مخالفا للعدالة ويعرف بان الاقدام عليه كان لابد ان يؤدي الى حرب اهلية والى اضطراب الحالة مدة طويلـة من الزمن تعود بعـدها الاوضاع الى ما كانت عليه من عدم المساواة ٠ ولكنه من جهة اخرى كان يريد وضع حد لسيطرة الاغنياء والوقوف دون استئثارهم بخيرات البلاد ٠

بدأ (صولون) عمله باعـلان العفو العـام لتصفيـة الماضي ٠ فسمح للمنفيين بالرجوع الى وطنهم واعاد اليهم حقوقهم المدنية ــ عدا الذين حكم عليهم بجرم القتل ٠ ثم الغى جميع الديون سواء كانت للافراد أو للدولة واعاد الاملاك المرهونة الى اصحابها وحرر الافراد الذين كانوا قد اصبحوا اقنانا مرتبطين بالارض بسبب عجزهم عن تســديد ديونهم ٠ بل انه اعـاد الحرية الى الذين كانوا قد بيعوا الى البلاد الخارجية ثم اصدر قانونا يحرم

فيه استعباد أي شخص في المستقبل مقابل دين يعجز عن تسديده . وبذلك وضع (صولون) مبدأ قدسية الحرية الشخصية الذي اصبح من دعائم الديموقراطية في (آثينة) .

يروي بعض المؤرخين ان اصدقاء (صولون) عرفوا قبل الاوان انه سيعلن تحرير الاراضي المرهونة . فأخذوا يستدينون الاموال مقابل رهن اراضيهم ويشترون اراضي جديدة . وبذلك توصلوا الى ثروة كبيرة . فقام البعض يتهمون (صولون) بانه قد شارك هؤلاء واستثمر سلطته لمصلحته الخاصة . ولكن التحقيق أثبت بأن (صولون) نفسه كانت له ديون كثيرة على الاخرين خسرها كلها بحكم القانون الذي اصدره .

لقد كان طبيعيا ان يحتج الاغنياء على هذا القانون وان يعتبروا الغاء الديون اغتصابا . ولكن الجميع قد اعترفوا بعد مدة من الزمن بان(صولون) قد انقذ (آثنيه) بذلك من ثورة محققة .

سعى (صولون) في قوانينه الى الحيلولة دون تجمع الاراضي في أيدي افراد قلائل . فهو وان لم يقرر حدا أعلى لمساحة الارض التي يمكن للشخص الواحد ان يمتلكها الا انه عمل كل ما يستطيعه لتسهيل توزع الاراضي وتقسيمها . فوسع لذلك حق الارث وفرض تقسيم الارض بين الاولاد والغى العادة المتبعة التي تفرض على البنت الوارثة الزواج بأدنى قريب لوالدها فصار يمكنها ان تتزوج من تريد وتتصرف بحصتها من ميراث والدها . كذلك نص على ان يرث الاولاد غير الشرعيين اذا لم يكن هناك أولاد شرعيون . ثم انه سعى الى تحرير الفرد من قيود الاسرة بتحديد السلطة الابوية . فقد حرم على الاباء قتل أولادهم بعد ان يبلغوا سنا معينة ويسجلوا في عداد المواطنين كما انه منع الاباء من بيع بناتهم أو طرد أبنائهم ـ الا في حالات خطيرة جدا .

لقد أدرك (صولون) ، بفضل تجاربه الشخصية وخبرته العملية ،

ان جميع الاصلاحات القضائية والاجتماعية والسياسية لا فائدة منها اذا لم يرافقها اصلاح اقتصادي • وفي الحقيقة ليس في الاستطاعة المحافظة على التوازن والسلام بين الطبقات اذا لم تكثر الثروة العامة وتوزع بأكثر مايمكن من العدل بين مختلف الطبقات ويطمئن الجميع الى ضمانة مصالحهم المادية• وللوصول الى هذه الغاية اتخذ (صولون) سلسلة من التدابير التي من شأنها ان تدفع المواطنين الى العمل وزيادة الانتاج • فأعلن ان الوالد الذي لا يعلم ابنه صناعة في الصغر لايحق له ان يطالب هذا الابن بالنفقة في شيخوخته • ثم انه منع التسول وفرض عقوبات شديدة على من يقدم على ذلك • وقد اخذ يبذل عناية كبيرة لتنشيط الزراعة • فوضع جوائز كبيرة لمن يقتل الذئاب التي كانت تفتك بالقطعان ونظم توزيع المياه وأهتم بحفر ينابيع جديدة ومنع قطع اشجار الزيتون ووضع مراقبين لمنع الفلاحين من اساءة معاملة الحيوانات •

على ان (صولون) لم يكن يجهل جدب ارض (آتيكة) ويعرف ان الزراعة لا تكفي لتأمين اعاشة السكان ولذلك كان يشجع الصناعة والاعمال التجارية ــ البحرية • عندما جاء جمع من المواطنين الفقراء الى (صولون) واعترضوا على اصلاحاته قائلين : « لقد اصبحنا بفضل قوانينك احرارا ولكن ماذا نضع بالحرية ما دمنا لا نملك الوسائل اللازمة لكسب معيشتنا ؟ » كان جوابه ان اشار الى البحر قاصدا بذلك تشجيعهم على الاشتغال بالملاحة والتجارة •

وفي سبيل تنشيط الحركة الاقتصادية قام (صولون) بتنظيم المكاييل والموازين وصك عملة جديدة خاصة بأثينة • ويقول (بلوتارخ) انه قد خفض قيمة العملة النقدية فاعتبر كل (٧٣) دراخما قديمة مساوية لمائة دراخما جديدة وانه بذلك قد نقصت الديون (٣٠) في المائة دون ان يخسر الدائنون شيئا • ومن الواضح ان هذه الدعوى مخالفة للحقيقة وان الامر

ليس سوى مغالطة كما هي الحال في جميع عمليات تضخم العملة التي أخذت الحكومات الحديثة تلجأ اليها في العصر الحاضر لمعالجة الازمات الاقتصادية. ولكن لاشك في ان تخفيض قيمة العملة مما يساعد على هبوط الاسعار وزيادة حركة التصدير الى الخارج. وقد أراد (صولون) من تغيير نظام العملة توجيه تجارة (آثينة) الى البلاد البحرية عوضا عن المنطقة البرية الضيقة. لان النظام القديم كان مقتبسا عن (أجينة) و (ميغارة) ومقتصرا على شبه جزيرة البيلوبونز في حين ان النظام الجديد الذي اقتبس عن جزيرة (اوبوئا) كان سائدا في سائر انحاء العالم اليوناني. واخيرا يجب الملاحظة بأن تغيير نظام النقد قد ساعد على انتقال مواطنين كثيرين من طبقة أدنى الى طبقة اعلى، لان تعيين طبقة الافراد قد اصبح حسب دستور (صولون) تابعا لمقدار الدخل السنوي.

ان حركة الاصلاح في (آثينة) التي كانت تطالب بدستور جديد وقوانين عصرية قد ظهرت بين طبقة التجار وأرباب الصناعة الذين ارتفع شأنهم اذ ذاك وازداد نفوذهم وأخذوا يطمحون الى الاشتراك في الحكم. وقد أدرك صولون أهمية هذه الطبقة وأراد ايصالها الى حقوقها. ولذلك اتخذ اساسا لتصنيف سكان (آتيكة) مقدار الدخل السنوي عوضا عن النسب أي انه أقر التقسيم الذي كان سائدا بالفعل والذي يميز بين هذه الطبقات الاربع :

١) «Pentacosiomedinni» أي الذين يبلغ دخلهم السنوي خمسمائة مكيال.

٢) « Hippes » الذين يتراوح دخلهم بين ثلاثمائة وخمسمائة مكيال.

٣) « Zeugitoi » الذين يزيد دخلهم لسنوي على الحد الأدنى وهو (٢٠٠) مكيال.

٤) « Thetes » أى سائر المواطنين الاحرار الذين لا يبلغ دخلهم هذا الحد الأدنى •

وكانت امتيازات الافراد وواجباتهم والضرائب المفروضة عليهم متناسبة مع مقدار دخلهم • فكان افراد الطبقة الاولى يدفعون ضريبة تبلغ (١٢) في المائة وأفراد الطبقة الثانية (١٠) في المائة وأفراد الطبقة الثالثة (٥) في المائـة بينما كان افراد الطبقة الرابعة لا يدفعون اية ضريبة مباشرة • وبالمقابل فان افراد الطبقة الاولى وحدهم كان يمكن ان ينتخبوا لوظيفة الحاكم او القائـد او الخازن وكانت الوظائف الثانوية مقتصرة على افراد الطبقة الثانية الذين يتألف منهم الفرسان في الحرب • أما الطبقة الثالثة فكان أفرادها يؤلفون المشاة ذوي الاسلحة الثقيلة بينما يخدم افراد الطبقة الرابعة كجنود أو بحارة عاديين •

واذا لاحظنا ان (صولون) قد بدل نظام المكاييل والموازين وخفض بذلك مقدار المحصول المقرر لافراد الطبقة الاولى من (٣٦٣ر٧ الى٢٥٨ر٦) هكتوليترا وللطبقة الثانية من (٢١٨ر٢٢ – ١٥٥ر١١) هكتوليترا وللطبقة الثالثة من (١٤٥ر٤٨ الى ١٠٣ر٤٤) هكتوليترا ، يتبين لنا مدى ازدياد عدد الافراد الذين يحق لهم الاشتراك في الحكم • ولم تمض مدة طويلة حتى استغنى عن تقدير الثروة حسب المحصول الزراعي فصار يعتبر من الطبقة الاولى كل من بلغ دخله السنوي خمسمائة دراخما بدلا عن خمسمائةمكيال ومن الطبقة الثانية اذا بلغ ثلاثمائة دراخما والخ •••

رغم هذا التمييز بين المواطنين حسب الثروة فان تصنيف (صولون) قد قضى على النظام القديم الذي كان يستند الى العصبيـة العائليـة ويحصر السلطة في الاسرات النبيلة •

ان دستور (صولون) قد أبقى على رأس الحكومة مجلس الشيوخ (Aeropagos) ، ولكن بعد ان نزع عنه بعض السلطات من جهة وبعد

ان جعله مفتوحا لكل افراد الطبقة الاولى مهما كان نسبهم من جهة ثانية ٠ ثم انه أوجد الى جانب ذلك مجلسا جديدا يسمى مجلس الاربعمائة ينتخب أعضاؤه من القبائل الاربع في (آتيكة) لكل واحدة منها مائة عضو ٠ ومهمة هذا المجلس هي ان يهيء المشاريع التي يجب عرضها على مجلس الشيوخ وبذلك كان يستطيع ان يراقب جميع القوانين ٠

وتتجلى النزعة الديموقراطية لدى (صولون) في احيائه مجلس الشعب (Ecclesia) الذي كان معروفا في العهد الهوميري والذي يشترك جميع المواطنين في مناقشاته ٠ وقد عهد (صولون) الى هذا المجلس بمهمة انتقاء الحكام الذين كانوا ينتخبون في السابق من قبل مجلس الشيوخ٠وكان جميع الموظفين مسؤولين تجاه هذا المجلس الذي يستطيع معاقبة أي موظف والذي يحق له ان يحاسب الحكام والقواد عند انتهاء مدة عملهم وان يحرمهم من ان يصبحوا أعضاء في مجلس الشيوخ ٠

وأهم من كل ذلك تأسيس مجلس المحلفين (Heliaea) أو مجلس القضاء الاعلى الذي يتألف من ستة آلاف عضو ينتقون بالقرعة من جميع الطبقات والذي ينقسم الى محاكم متعددة تنظر في جميع القضايا عدا حوادث القتل ٠ وقد نص دستور (صولون) على انه يحق لهذا المجلس ان ينظر في كل اعتراض على أي عمل من اعمال الموظفين ٠ يقول آرسطو : « يعتقد البعض ان (صولون) قد صاغ قوانينه في قالب غامض عن قصد حتى يفسح المجال أمام الشعب لاستخدام سلطته الحقوقية للسيطرة على سياسة الدولة »٠ هنا يشير آرسطو الى اقتصار قوانين (صولون) على المبادىء العامة بصورة تساعد المواطنين على الرجوع الى مجلس الشعب عند حدوث أي اختلاف في تفسير القوانين وكيفية تطبيقها على الحالات الخاصة وبذلك يصبح الشعب هو المصدر الحقيقي للقوانين ٠ وفي الحقيقة فان حق الاعتراض والرجوع الى المحاكم الشعبية ــ كما نص على ذلك دستور (صولون) قد اصبح في

العصور التالية من اقوى دعائم الديموقراطية في (آثنية) •

في سبيل دعم قوانينه فرض (صولون) عقوبات على المخالفات تتصف بشيء من الشدة ولكنها أرحم من التي كان فرضها (دراقون) • ولأجل ان يطلع الجميع على هذه القوانين كتبها على الواح متحركة وعلقت في مقر الحاكم •

لم يزعم (صولون) ، كما فعل قبله (ليكورغوس) أو (مينوس) أو (حمورابي) ، ان هذه القوانين قد اوحت بها اليه الآلهة • فان التقدم الفكري في (آثنية) كان قد بلغ درجة أصبح معها المشرعون لايحتاجون الى الاستناد الى مثل هذه السلطة السماوية •

بين الانتقادات الكثيرة التي وجهت الى (صولون) من قبل الارستوقراطين المحافظين كان أهمها الاعتراض على اعطائه الحق لطبقات الشعب في الاشراف على ادارة الحكومة عن طريق مجلس الشعب ومجلس المحلفين • بل ان الحكيم (آناخاريس Anacharis) ، أحد أصدقاء (صولون) نفسه ، قد سخر من الدستور الجديد وما تضمنه من اصلاحات قائلا : ان الحكم انتقل بذلك الى العوام « المجانين » ومدعيا انه لا يمكن تحقيق عدالة دائمة بين البشر لان الاقوياء والاذكياء لن يعجزوا ابدا عن استثمار القوانين لمصلحتهم • فالقوانين ، حسب رأيه ، تشبه نسج العنكبوت الذي لا يعلق فيه الا الذباب الصغير بينما الحشرات الكبيرة تشقه وتفلت منه •

كان (صولون) يتقبل هذه الانتقادات برحابة صدر ويستمع الى المعارضين بهدوء دون ان تتزعزع ثقته وطمأنينته • وكان يعترف بأن قوانينه ليست مثلا أعلى في الكمال وانه لم يقصد سن أحسن القوانين الممكنة وانما سعى الى وضع دستور يصلح للاثينيين ويمكن للاحزاب المتنازعة اذ ذاك ان تقبل به جميعا • ونراه يكرر القول بأنه قد اختار الطريق الوسط وتمسك بالاعتدال ليحفظ كيان الدولة •

لقد اجمع اليونانيون على اعتبار (صولون) من أبرز حكمائهم السبعة • ولعل أكبر برهان على حكمته التأثير الدائم ، العميق الذي احدثته قوانينه في حياة اليونان • فانه رغم التقلبات التي طرأت على (آثينة) في العصور التالية فقد استطاع الكاتب الروماني (شيشرون) ان يقول بعد خمسة قرون : ان الاسس التي وضعها (صولون) وقام عليها دستور (آثينة) ظلت سائدة حتى عهده •

ان (صولون) قد افتتح عهدا جديدا في تاريخ (آثينة) : فقد اصبحت ادارة الحكومة منذ ذلك الوقت خاضعة لقوانين مكتوبة ، ثابتة بعد ان كانت تسير حسب أوامر ومقررات ارتجالية ، متغيرة •• سئل (صولون) مرة : « كيف تكون الحكومة المنظمة ، الصالحة ؟ » فأجاب : « عندما يطيع الشعب حكامه ويطيع الحكام القوانين » •

الى تشريع (صولون) يرجع الفضل في تحرير الفلاحين من العبودية • وبذلك نشأت في (آتيكة) طبقة من المزارعين يملك كل منهم الارض التي يفلحها • من هؤلاء المزارعين كانت تتألف جيوش (آثينة) التي امتازت بالشجاعة في صد الغارات الفارسية والتي استطاعت ان تحافظ على استقلالها وحريتها مدة أجيال طويلة • فان أحسن جندي هو الفلاح الذي يدافع عن أرضه • ويمكننا ان نعرف مدى توزع الاراضي بين السكان من الاحصاء الذي اجرى بعد الحروب البيلوبونزية ، عندما اقترح بعضهم اقتصار حق الانتخاب على الذين يملكون أرضا ، فقد تبين أنه لم يكن في (آتيكة) كلها سوى خمسة آلاف مواطن لا يتوفر فيهم هذا الشرط •

انه بفضل اصلاحات (صولون) المالية والاقتصادية والسياسية استطاعت (آثينة) ان تتقدم في الصناعة والتجارة وتحتل المقام الاول بين جميع الدول في البحر الابيض المتوسط فنظام الحكم الجديد الذي قضى على الامتيازات القديمة قد شجع على تقدم العلوم والفنون وانتشار الثقافة

وازدهار الحضارة ومهد السبيل للعصر الذهبي في تاريخ اليونان •

في سنة ٥٧٢ اعتزل (صولون) منصب الحاكم بعد ان تقلده مدة اثنين وعشرين سنة • وقد طلب الى رجال الدولة ان يقسموا اليمين باتباع قوانينه دون أي تبديل مدة عشر سنوات • ثم رحل الى مصر وقبرص وآسية الصغرى • على انه عندما عاد الى (آثينة) كان مقدرا له ان يشاهد انقلابا جديدا أدى الى قيام الديكتاتورية والتخلي ، في الظاهر على الاقل ، عن مبادىء دستوره •••

٠٨ ـ ديكتاتورية (بيزيستراتوس) :

ان الاحزاب والكتل المتخاصمة في (آثينة) التي استطاع (صولون) ان يسيطر عليها جميعا مدة جيل عادت بعد مغادرته البلاد الى التطاحن والى المؤامرات والالاعيب السياسية السابقة • لقد كان هناك ، كما في ايام الثورة الافرنسية المضطربة ، ثلاثة احزاب تتنازع في سبيل السيطرة : ١) حزب الشاطىء المؤلف من التجار واصحاب السفن، ٢) حزب السهل الذي يتزعمه اصحاب الاراضي الاغنياء خصوم (صولون) ، ٣) حزب الجبل الذي يتألف من تحالف الفلاحين مع عمال المدن والذي كان لايزال يكافح في سبيل توزيع الاراضي •

وقد تولى رئاسة هذا الحزب الاخير الذي يمثل عامة الشعب رجل من اسرة ارستوقراطية ، غنية هو (بيزيستراتوس Peisistratus) ، أحد أقارب (صولون) نفسه •

قام (بيزايستراتوس) يوما في مجلس لشعب وكشف عن جرح في جسمه مدعيا ان أعداء الشعب ارادوا اغتياله وطلب موافقة المجلس على تأليف حرس خاص للمحافظة عليه • وكان الخطيب الوحيد الذي انبرى يعارض هذا الطلب ويحتج عليه بشدة هو (صولون) • فقد كان الرجل الحكيم

يعرف اساليب قريبه ولذلك اتهمه بأنه قد جرح نفسه بيـده وانه يريـد استخدام الحرس الخاص ليفرض سيطرته الديكتاتورية•ثم صاح (صولون) منذرا مواطنيه بقوله : « يا أهل آثينة ، انني اكثر حكمة ومعرفة من بعضكم واكثر شجاعة من الاخرين : انني اكثر حكمة من اولئك الذين لايدركون حيلة (بيزيستراتوس) واكثر شجاعة من أولئك الذين يعرفون قصـده ولكنهم يخافون من التصريح بذلك » •

رغم هذا التحذير وافق المجلس على طلب (بيزيستراتوس) وسمح له باتخاذ حرس خاص مؤلف من خمسين رجلا • ولكنه عوضا عن ذلك جمع اربعمائة من الجنود واستولى على هضبة (اقروبوليس) وأعلن نفسه ديكتاتورا في سنة (٥٦١) •

كان (بيزيستراتوس) أثناء الحرب بين (آثينة) و (ميغارة) في عهد (صولون) قد تولى قيادة الجيش ونجح في الاسـتيلاء عـلى مرفأ (نيزيه Nisaea) وبذلك ذاع صيته بين مواطنيه • ثم ازداد شهرة ونفوذا باعتناقه المبادىء الديموقراطية ودفاعه عن الطبقات الفقيرة التي كانت تطالب بتقسيم الاراضي • فلما قبض الآن على زمام الحكم صادف قبولا حسنا لدى جماهير الشعب • وقد انتشر الذعر لأول وهلة بين الارستوقراطيين فهرب قسم كبير منهم مع (ميغاقلس Megacles) رئيس اسرة (آلقميئونيد) بينما هاجر قسم آخر بقيادة (ميلتياديس Miltiades) الى شبه جزيرة (غاليبولي) وأسسوا هناك ، بمساعدة (بيزيستراتوس) نفسه ، مستعمرة تابعة لآثينة • وهكذا تخلص الديكتاتور من أقوى خصومه واستتب له الامر • وقد أعلن (صولون) عندئذ ان الاثينيين يبدو كل منهم بمفرده كأنـه ثعلب ولكنهم عندما يجتمعون لايختلفون عن قطيع من الاوز • ثم وضع اسلحته خارج باب داره كرمز لاعتزاله كل الاعمال السياسية وانقطع في ايامه الاخيرة الى الشعر وحده •

اتبع (بيزيستراتوس) ، مثل غيره من الديكتاتورين ، سياسة «شعبية» تخدم مصالح الطبقات الفقيرة ولذلك قام زعماء حزب السهل وحزب الشاطىء الذين يمثلون النبلاء اصحاب الاراضي وكبار التجار الاغنياء ووحدوا قواهم واستطاعوا بعد خمس سنوات اسقاط (بيزيستراتوس) وأرغموه على الفرار من (آثينة) .

على ان مصالح هذين الحزبين كانت متباينه . فلم تنقض مدة طويلة حتى احتدم الخلاف بينهما وعرف (بيزيستراتوس) ، وهو في المنفى ، كيف ينتهز هذه الفرصة فاتفق مع (ميغاقليس) على ان يتزوج ابنته مقابل مساعدته على الرجوع الى الحكم . وقد لجأ في هذه المرة الى حيلة طريفة يؤيد لنا نجاحها رأى (صولون) في نفسية الجماهير ومستواها العقلي . فقد سارت جنود (بيزيستراتوس) الى المدينة وفي مقدمتها امرأة جميلة ، طويلة القامة على هيئة الالاهة (آثنية) وهي جالسة بمنتهى العظمة في عجلة بينما كان المنادون يركضون الى جانبها ويعلنون ان الاهة المدينة نفسها قادمة لتعيد (بيزيستراتوس) الى الحكم . (في سنة ٥٥٠) . ويدعي (هيرودوت) ان أهل (آثينة) قد اعتقدوا حقا بأن هذه الامرأة هي الالاهة بالذات فأخذوا يركعون لها وقبلوا طائعين ديكتاتورية (بيزيستراتوس) الذي لم يبق في الحكم هذه المرة سنة واحدة حتى ثار عليه حزب الشاطىء وأرغم على الفرار .

ولكن بعد ثلاث سنوات عاد (بيزيستراتوس) من جديد الى (آثينة) بجيش قوي وانتصر على الجنود الذين أرسلوا للوقوف في وجهه وحافظ في هذه المرة على الديكتاتورية مدة تسع عشرة عاما . وفي هذه المدة أظهر مهارة سياسية كبيرة وعرف كيف يحسن الادارة بمنتهى الحكمة وبذلك اكتسب عطف مواطنيه وتقديرهم ونسي الجميع الوسائل الغريبة التي استخدمها في سبيل الوصول الى الحكم .

لقد اجتمع في (بيزيستراتوس) الذكاء والثقافة والمهارة الادارية

والجاذبية الشخصية • كان يشترك في المناقشات حول احدث الآراء والنظريات الفلسفية ، الا انه ، خلافا لما هو معتاد لدى أكثر رجال الفكر ، لم يكن يبدو عليه أي أثر للتردد والتذبذب في ادارة شؤون الدولة • ورغم ما اتصف به من الحزم فقد كان لين العريكة ، رحيما في احكامه ، كريما تجاه الجميع • يقول آرسطو : « ان حكم (بيزيستراتوس) كان عادلا • وهو رجل دولة وسياسة أكثر منه طاغية ، مستبد » • انه قلما كان ينتقم من خصومه السياسيين ونراه في الغالب يقتصر على نفي الذين يصرون على معارضته رغم كل محاولاته للتفاهم معهم • والاخبار الموثوقة التي يرويها (توكيديديس) عن عهد الديكتاتور تؤيد هذا الرأي • واذا رأينا (هيرودوت) ، على العكس ، يتهمه بأنه قد اضطهد الشعب وفرض عليه الذل والعبودية فذلك تحامل ظاهر يرجع سببه الى الصداقة التي كانت تربط هذا المؤرخ بأسرة (آلقميونيد) •

وفي الحقيقة لم يبدل (بيزيستراتوس) سوى بعض المسائل الجزئية في دستور (صولون) ويمكن وصف حكمه بأنه « ديكتاتورية دستورية » • فهو قد حافظ على النظم والاساليب الديموقراطية وأبقى المجالس والوظائف التي أنشأها (صولون) على حالتها ولكنه عرف كيف يستخدمها حسب مشيئته كما انه لجأ الى بعض التدابير السياسية في سبيل توطيد سلطته دون مخالفة الدستور • من ذلك انه كان يستثمر نفوذه الشخصي لمساعدة انصاره وأقاربه على النجاح في الانتخابات وتولي المناصب الرئيسية في الحكومة • ومن المحتمل ان يكون قد عدل لهذه الغاية طريقة الانتقاء بالقرعة التي سنها (صولون) ثم انه احاط نفسه بحرس قوي من الجنود المأجورين • كذلك قبض على أولاد خصومه من النبلاء كرهائن لديه • على ان قسما كبيرا من الاسرات النبيلة ، مثل الآلقميونيديين ، كانوا قد هاجروا من تلقاء أنفسهم •

ظل (بيزيستراتوس) يسكن في بيت متواضع على (الآقروبوليس) بعيدا عن مظاهر الترف • وكان في كل اعماله يحرص على احترام القوانين والتقيد بها • وقد اتهمه احد المواطنين مرة بالاشتراك في حادثة جنائية فتقدم من نفسه الى مجلس الشيوخ ليحاكم مثل غيره • وبالمقابل كان يطالب الجميع بالخضوع لسلطة القانون ويسعى لتنفيذ احكامه تجاه النبلاء في الدرجة الاولى حتى يشعروا بأنهم ليسوا سوى مواطنين مثل الآخرين وانه لم يعد لهم شيء من الامتيازات • ولاشك في ان (بيزيستراتوس) كان يكره الارستوقراطيين الذين خلعوه وحكموا عليه بالنفي مرتين • الا انه رغم ذلك استطاع ان يكتسب انصارا كثيرين بين هؤلاء ايضا بفضل لباقته الشخصية وميله الى الاحسان •

امتاز (بيزيستراتوس) بعطفه على الطبقات الفقيرة وبالاخص على الفلاحين الذين عمل كل ما في وسعه لتحسين حالتهم • فقد وزع بين « المسادسين » اراضي النبلاء المحكوم عليهم بالنفي كما انه كان يمنح كل عاطل عن العمل يرغب في الانتقال من المدينة الى الارياف والاشتغال بالزراعة قطعة ارض من أملاك الدولة ويقرضه مبلغا كافيا من المال من خزينة الدولة ويستوفي منه مقابل ذلك خمسة في المائة من المحصول • وكان يشجع في الدرجة الاولى زراعة العنب ، والزيتون لما يترتب على ذلك من فوائد اقتصادية لبلاد (آتيكة) • واذا رأيناه ينجح في هذا التوجيه أكثر من (صولون) فذلك لأنه استطاع ، بفضل المستعمرات التي استولى عليها في المضايق والبحر الاسود ، تأمين الحبوب اللازمة لاعاشة السكان •

وقد عين حكام صلح يتجولون في الأرياف ويفصلون في الخلافات بين الفلاحين • وكان هو نفسه يقوم من حين الى آخر برحلات تفتيشية ليطلع على حالة المزارعين ويستمع الى شكاويهم ومطاليبهم • فلم يعد هؤلاء يقصدون (آثينة) بكثرة لمراجعة الحكومة وبذلك تخلص الديكتاتور من التجمعات الجماهيرية التي يسهل تحريضها واثارة الشغب بينها •

ويبدو ان (بيزيستراتوس) قد وفق الى حل مشاكل المزارعين في (آتيكة) على أحسن وجه وحقق فكرة توزيع الاراضي توزيعا عادلا ، هذه الفكرة التي اقتصر (صولون) على الدعوة اليها وتمهيد السبيل لها • فاننا بعد عهده لانسمع شيئا عن ثورات الفلاحين التي كانت تتكرر في العصور الماضية وتطالب بتقسيم الاراضي •

كذلك قضى (بيزيستراتوس) على العطالة عن العمل في المدن بما قام به من مشاريع عمرانية كبيرة مثل : انشاء قساطل وخزانات لاسالة المياه الى (آثينة) وفتح طرقات جديدة وتشييد معابد ضخمة • وقد اعتنى باستثمار مناجم الفضة في جبل (لوريون Laurion) التي كانت تدر على الخزينة العامة مبالغ كبيرة ساعدته على تحقيق مشاريعه وتخفيض الضريبة المفروضة على المحصولات الزراعية من عشرة الى خمسة في المائة • ونرى صناعة الاواني الخزفية تسجل تقدما عظيما في عهد (بيزيستراتوس) • فان النماذج التي ترجع الى هذا العهد والتي كشفت عنها الحفريات الاثرية تمتاز على أمثالها في العصور السابقة بأشكالها الجميلة ونقوشها التزينية البديعة • وهذا مما يؤيد الاخبار التي يرويها المؤرخون عن ازدياد الرفاهية بين السكان • ثم ان (بيزيستراتوس) قد عقد معاهدات تجارية مع كثير من الدول الاخرى لتشجيع حركة التصدير والاستيراد •

ان اهم صفة تمتاز بها سياسة (بيزيستراتوس) الاقتصادية هي الحيلولة دون تمركز الثروة في ايدي افراد قلائل • فهو قد ادرك بأن التفاوت الكبير في الثروة هو الذي كاد ان يؤدي الى حرب أهلية في (آثينة) • ولذلك أخذ يعمل كل ما يستطيعه لاشراك اكبر عدد ممكن من المواطنين في الاعمال الاقتصادية • ويجب الاعتراف بأنه قد نجح اكثر من (صولون) في التوفيق بين مختلف الطبقات والاحزاب سواء أكان ذلك بفضل سياسته الاقتصادية أو باستخدام سلطته الديكتاتورية •

لقد تقدمت (آثينة) تقدما كبيرا في عهد (بيزيستراتوس) من الوجهة الاقتصادية والعمرانية والثقافية وأخذت تحتل المقام الاول بين المدن اليونانية. في هذا العهد بدأت تبرز الأبنية الجديدة من الحجر والمرمر . وقد تم تزيين معبد (آثينة) على هضبة (آقروبوليس) بأعمدة « دورية » كما بوشر في تشييد معبد (زفس) الذي لاتزال آثار اعمدته «الكورنتية» تثير الاعجاب. و (بيزيستراتوس) هو الذي نظم حفلات الاعياد الدينية التي يشترك فيها جميع اليونانيين مثل عيد الآلاهة (آثينة) والاله (ديونيزوس Dionysus كما انه أسس اقدم مكتبة عامة عرفت في بلاد اليونان . ثم انه جمع حوله عددا كبيرا من النحاتين والمعماريين والرسامين . ويذكر بعض المؤرخين انه ألف لجنة من أبرز الشعراء والعلماء تتولى جمع أشعار هوميروس وتدوين « الالياذة » و « الاوديسة » في الشكل النهائي الذي انتقل الينا . وبتشجيعه بدأ بعض الكتاب مثل (تسبيس Thespis) يؤلفون الروايات الأدبية لتمثل في الحفلات العامة عوضا عن الحركات التصويرية الصامتة التي كانت شائعة قبل ذلك ...

ان حكم (بيزيستراتوس) قد ساعد على ازدهار (آثينة) وتنظيم شؤونها ولذلك يمكن اعتباره مرحلة انتقالية لابد منها مهدت السبيل لتطبيق المبادىء الديموقراطية التي اقتصر (صولون) على التبشير بها . لقد اعتقد (صولون) بأن فكرة العدالة التي اتخذها اساسا لاصلاحاته الدستورية كافية وحدها للقضاء على المنازعات بين الطبقات والاحزاب . وهذا خطأ . فان مبادىء الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية ايضا يجب ان تفرض على البشر فرضا . ويبدو ان (آثينة) كانت بعد (صولون) في حاجة شديدة الى رجل مثل (بيزيستراتوس) يتصف بارادة حديدية ويستطيع انقاذها من الفوضى فيوجه سياستها وجهة واضحة ، مطردة ويرغم جميع المواطنين على اطاعة القوانين والتقيد بالنظام . انه لايمكن حفظ كيان المجتمع وتأمين انسجامه وتقدمه في طريق الحرية والمساواة والعدالة الا اذا اعتاد الافراد

على النظام واطاعة القوانين . فديكتاتورية (بيزيستراتوس) كانت ضرورية للقيام بهذه المهمة .

لقد رضيت الجماهير الشعبية في (آثينة) ، كما في أكثر البلادالبونانية الاخرى ، بالنظام الديكتـاتوري الذي قام في القرن السادس لانقاذها من الحكم الارستوقراطي ـ الاقطاعي . فان الطبقات الفقيرة ، عندما تضطر الى الاختيار بين الحرية والرخاء الاقتصادي ، تميل بطبيعتها ، مثل الاغنياء الى تفضيل المال على الحرية . ولاشك في ان النظام الديكتاتوري كان يسعى في الدرجة الاولى الى منع الاغنياء من استثمار الطبقات العاملة . كذلك كان الاغنياء يقبلون بهذا النظام الذي يتولى حمايتهم من ثورة الجماهير ويحفظ اموالهم ، أو على الاقل معظمها ، من ان تنهب بالقوة أو بالقوانين التي تسنها مجالس الشعب . على ان الحلفاء الطبيعيين للنظام الديكتاتوري هم أفـراد الطبقة الوسطى . لأن الديكتاتور لابد له في سبيل دعم سلطته من القيـام بالمشاريع العمرانية وتشجيع الصناعة والتجارة واصلاح الشؤون الماليـة وحماية الآداب والعلوم والفنون وبذل الامـوال الطائلـة عـلى الحفـلات والمهرجانات . وكل هذا مما يعود بأكبر الفوائد على الطبقة المتوسطة قبل غيرها . وهو عادة ينصب نفسه مدافعا عن المقدسـات الدينيـة والتقاليـد الاخلاقية ويتمسك بالمظاهر الديموقراطية،كما هي الحالمع (بيزيستراتوس) وبذلك يكتسب عواطف الشعب ويجعله يعتقد بأنه يحكم نفسهبنفسه ويتمتع بالحرية . واذا أمعنا النظر نلاحظ ان الديكتاتور باتباعههذه الخطةالسياسية انما يمهـد ربما دون قصـد ، للحكم الديموقراطي . لأن الشعب ، متى تحسنت حالته الاقتصادية وشعر بزوال الخطر من جانب الارستوقراطيين لن يكتفي بمظاهر الحرية ، بل لابـد ان يقـوم ويطالب بحقوقـه ويسعى للخلاص من الحكم الفردي . وهـذا ما حـدث في (آثينة) بعد عهـد (بيزيستراتوس) ...

انتقل الحكم بعد موت (بيزيستراتوس) في سنة (٥٢٧) الى ابنه الأكبر (هيبياس Hippias) • وكان يساعده في ادارة الحكومة شقيقه (هيبارخوس Hipparchus) بينما لا نسمع عن الاخ الثالث (تيسالوس Thessalus) انه اشترك يوما ما في الاعمال السياسية • وقد ظل (هيبياس) مدة ثلاث عشرة سنة يتبع ، بكثير من المهارة ، خطة والده في السياسة الداخلية والخارجية • كذلك استمر في هذا العهد نشاط الحركة الفكرية والادبية • ولكن يبدو ان (هيبارخوس) الذي دعا الى (آثينة) الشاعرين الكبيرين (آناقرئيون) و (سيمونيديس) واستقبلهما بكثير من الحفاوة ، كما ذكرنا سابقا ، كان قد انهمك في الملذات وبالغ في تبذير الاموال • وقد ادت مغامراته الغرامية الى اقدام خصومه الشخصيتين على اغتياله بينما ساعدت الحظوظ (هيبياس) على النجاة فقبض على زعيمي المؤامرة (آرسطوغيتون Aristogeiton) و (هارموديوس Harmodius) وأمر باعدامهما • وكان هذا الحادث سببا في تغيير سياسة الديكتاتور الذي خاف على نفسه فأخذ يكثر من الجواسيس ويستخدم وسائل العنف والارهاب • حينئذ شعر (الآثينيون) بوطأة الحكم الفردي وقويت حركة المعارضة وصار الجميع يمجدون ذكرى القاتلين كأنهما من أبطال الحرية •

رأت اسرة (آلقيمئونيد) التي كان افرادها يعيشون بالمنفى منذ مدة طويلة ان الفرصة مواتية للخلاص من الحكم الديكتاتوري فقامت تجمع جيشا وتتأهب للهجوم على (آثينة) • وكان (قليستينيس Clisthines) رئيس الاسرة ، من دهاة رجال السياسة عرف كيف يستميل اليه بالرشوة العرافين في معبد (بيتيا Pythia) حتى صاروا كلما جاء (الاسبارطيون) يطلبون المشورة لايجيبونهم بأكثر من جملة واحدة وهي: « انقذوا (آثينة) قبل كل شيء » • وفي الحقيقة لم يكن من الصعب على (قليستينيس) ان يتفق مع (الاسبارطيين) الذين كانت سياستهم تقتضي دوما مكافحة النظام

الديكتاتوري وتأييد الارستوقراطيين في كل مكان . وهكذا استطاع (قليستينيس) ان يتغلب في سنة (٥١٠) بمساعدة الجيش الاسبارطي على (هيبياس) الذي اضطر بعد حصار قصير الى الاستسلام وحكم عليه بالنفي مع أفراد اسرته ...

٠٩ ـ (قليستينيس) يوطد الديموقراطية :

كان النبلاء قد تعهدوا تجاه (الاسبارطيين) بادخال (آثينة) في الحلف البيلوبونزي . وقد وافق الشعب على هذا التغيير الاساسي في السياسة الخارجية اعترافا بالمساعدة التي قدمتها (اسبارطة) . ولكن عندما جرى البحث في تقرير نظام الحكم الجديد اختلفت الاراء . فقام (ايزاغوراس Isagoras) يدعو الى اعادة الحكم الارستوقراطي القديم بينما أخذ (قليستينيس) يدافع عن دستور (صولون) والنظام الديموقراطي . وفي الانتخابات لمنصب الحاكم انتصر (ايزاغوراس) . فأسرع وحذف من جداول المواطنين أسماء جميع الاشخاص الذين كانوا قد نالوا حق الانتخاب في عهد (بيزيستراتوس) . وبذلك سهل على (قليستينيس) ان يجمع حوله عددا كبيراً من الانصار بين طبقات الشعب التي كانت تكره الحكم الارستوقراطي أكثر مما تحب الديكتاتورية . يدعي (آرسطو) بأن (قليستينيس) ، رغم كونه هو نفسه من أكبر الاسرات النبيلة ، انما انضم الى حزب الشعب في سبيل تحقيق مطامعه الشخصية . ومهما كان السبب فانه قد امتاز بدفاعه عن حقوق الشعب وتغلب على الحزب الارستوقراطي. وقد طلب (ايزاغوراس) مساعدة (الاسبارطيين) الذين أرسلوا جيشا بقيادة الملك (قليئومينيس Cleomenes) فاضطر عندئذ (قليستينيس) الذي كان نصب نفسه ديكتاتورا « شعبيا » الى الفرار مدة قصيرة ولكنه عاد وانتصر على الحزب الارستوقراطي وأخرج (الاسبارطيين) من (آثينة) واستولى نهائيا على مقاليد الحكم في سنة (٥٠٧) .

كان (قليستينيس) يتصف بذكاء حاد وارادة قوية ويجمع بين التفكير المنطقي الدقيق والاندفاع الى العمل الحازم السريع • نراه من جهة يسعى، مثل (صولون) ، الى المحافظة على كل ما يعتقد بصلاحه من المؤسسات والانظمة السائدة ولكنه لا يحجم من جهة ثانية عن أي تغيير تتطلبه الاوضاع المتجددة • وقد سار في طريق التطور الى حد يجعلنا نصف اصلاحاته بأنها كانت ثورة حقيقية انه هو الذي جهز الديموقراطية بالاسلحة اللازمة للانتصار اولا على الارستوقراطية التي كانت تكافحها منذ مدة طويلة وثانيا على الديكتاتورية التي اخذت مؤخرا تنتهز كل فرصة للقضاء على حرية الشعب• ويجب الاعتراف بأنه استطاع تجريد النبلاء من أهم وسيلة كانوا يستثمرونها لفرض سيطرتهم وهي العصبية القبلية والعائلية كما انه اتخذ تدابير حاسمة للحيلولة دون الحكم الفردي •

ان أول عمل اصلاحي قام به (قليستينيس) وكان له أكبر تأثير في تقويض النظام الارستوقراطي من اساسه هو ابطال التصنيف القبلي القديم• فقد كان سكان (آتيكة) ينقسمون الى أربع قبائل وكان في كل قبيلة بضع اسرات كبيرة تتوارث الزعامة منذ عصور طويلة • ومن هذه الاسرات الكبيرة كانت تتألف طبقة النبلاء التي تسيطر بالاستناد الى ثروتها وكثرة اتباعها على سائر افراد القبائل وتفرض ارادتها عند انتخاب الاعضاء لمجلس الاربعمائة •

قسم (قليستينيس) المواطنين في بلاد (آتيكة) الى مائة جماعة Demos لكل منها مجلس ورئيس•وهذا الرئيس (Demarch) هو الذي يحفظ جدول المواطنين المنتسبين الى الجماعة ويسجل اسماء الناشئين عندما يبلغون السابعة عشرة من العمر • وتنتظم هذه الجماعات ضمن عشر قبائل عوضاً عن الاربع القديمة • على ان كلمة قبيلة التي احتفظ بها فقدت الان معناها الاصلي • فهي لم تعد تدل على جماعة ترجع الى جد واحد وتربط بينها صلة النسب أو تسكن في بقعة

واحدة وانما اصبحت تطلق على وحدة ادارية • وقد أدخل (قليستينيس)
في كل « قبيلة » عددا متساويا من الجماعات التي تعيش في مناطق مختلفة
ليحول بذلك دون تكتلها ضمن احزاب محلية كما في السابق اذ كان هناك
حزب الشاطىء وحزب السهل وحزب الجبل أي ان « القبيلة » اصبحت
تتألف من افراد يختلفون في النسب ويسكنون في أمكنة مختلفة فليس هناك
من روابط أو مصالح مشتركة تدفعهم الى التضامن وتكوين حزب واحد •
ومن الواضح ان رجال الثورة الافرنسية انما قصدوا الغاية نفسها عندما
استعاضوا عن الولايات القديمة في فرنسا بالمقاطعات •

وقد ساعد التقسيم الجديد كثيرين من الافراد الذين لم يكونوا
ينتسبون الى احدى القبائل الاربع على ان يدخلوا في عداد المواطنين وينالوا
حق الاشتراك في الانتخابات وتدل الاخبار على ان عدد الناخبين قد تضاعف
بذلك مما أدى الى تقوية الفكرة الديموقراطية •

قام (قليستينيس) ببعض التعديلات الجوهرية في دستور (صولون)
اذ نص على ان تنتخب كل « قبيلة » قائدا من القادة (Strategoi)
العشرة الذين يساعدون القائد الاعلى (Polemarch) ثم خمسين عضوا
من أعضاء مجلس الخمسمائة الذي حل مكان مجلس الاربعمائة • كان
هؤلاء الاعضاء ينتخبون لمدة سنة واحدة بالقرعة من مجموع المواطنين الذين
بلغوا الثلاثين من العمر على ان لا يعاد انتخاب العضو اكثر من دورتين •
وخلافا لدستور (صولون) لم يكن يشترط الآن في اعضاء المجلس ان
يملكوا مقدارا معينا من المال • وهكذا نرى ان جميع المواطنين (الاثينيين)
لم ينالوا حق الانتخاب فحسب بل اصبح من الممكن ان ينتخب كل واحد
منهم بالقرعة ليكون عضوا في مجلس الخمسمائة (Boule) الذي انتقلت
اليه أكثر السلطات والاعمال التي كان يقوم بها قبلا مجلس الشيوخ
(Aeropagos) • فان المجلس الجديد الذي يمثل بلاد (آتيكة) كلها
كان [illegible] اعلى سلطة ادارية ومن حقه ان يراقب اعمال جميع الموظفين

الذين كان يجب عليهم ان يقدموا له تقاريرهم وينفذوا دوما أوامره • كذلك كان المجلس يشرف على مالية الدولة بواسطة عشرة موظفين (Apodektoi) تنتخب كل قبيلة واحدا منهم • ثم انه كان من اختصاص هذا المجلس ان يهيىءالمشاريع القانونية التي تعرض على مجلس الشعب • فكان لا يجوز تقديم أي اقتراح الى مجلس الشعب (Ecclesia) قبل ان ينظر فيه مجلس الخمسمائة (Boule) وأخيرا كان هذا المجلس يتمتع بسلطات قضائية فيؤلف من اعضائه محاكم للنظر في بعض القضايا الحقوقية التي ترفع اليه ويصدر الاحكام فيها كما يفرض العقوبات المالية على الموظفين المقصرين •

ومن الواضح ان مجلسا يتألف من خمسمائة عضو لم يكن فياستطاعته ان يجتمع كله باستمرار للقيام بالاعمال الادارية • ولذلك كان يقسم الى عشر لجان تتولى كل واحدة مؤلفة من خمسين عضوا يمثلون احدى القبائل هذه المهمة بالتناوب مدة ستة وثلاثين يوما • وفي هذه المدة كان يطلق على هؤلاء الاعضاء لقب (رؤساء Prytaneis) وهم يجتمعون في بناية خاصة مدورة تسمى (Tholos) حيث يتناولون الطعام على حساب الخزينة •

وفي الاخير فان من أهم اصلاحات (قليستينيس) التي زادت في سلطة مجلس الشعب تقريره حق النفي وهو ما كانوا يسمونه (Ostrakismos) • وذلك انه اصبح يحق لمجلس الشعب ان يصوت متى أراد وبصورة سرية فيصدر حكمه بالنفي لمدة عشر سنوات على أي شخص يخشى منه على سلامة الدولة ـ على شرط ان يبلغ عدد المؤيدين للحكم ستة آلاف من المواطنين على الاقل • والقصد من ذلك تهديد الاشخاصالخطرين الذين يطمحون في اغتصاب الحكم • فقد كان يكفي ان تحوم الشبهات حول احد الزعماء بأنه يسعى الى الديكتاتورية حتى يصيبه هذا العقاب • وطريقة الاقتراع هي ان يلقي على أعضاء مجلس الشعب السؤال التالي : « هل تعتقدون ان هناك بين المواطنين أي شخص يمكن اعتباره خطرا على

الدولة ؟ ومن هو هذا الشخص ؟ » فكان كل عضو في مجلس الشعب يكتب الجواب على قطعة من الفخار (تسمى قطعة الفخار فيالبونانية (Ostrakon) ومنها اشتقت كلمة (Ostrakismos) بمعنى حق النفي) • فاذا صوت ستة آلاف على الاقل من الاعضاء على شخص معين فانه يخرج (آثينة) لمدة عشر سنوات مهما عظمت مكانته ـ ولكن دون ان تحجز امواله ودون ان يفقد ، بعد رجوعه ، حقوق المواطن •

انها طريقة طريفة لجأ اليها النظام الديموقراطي في (آثينة) للخلاص من « الرؤوس البارزة » التي يمكن ان تهدد حرية الشعب • والخطر في هذه الطريقة هو انه من السهل اساءة استعمالها • ويذكر بعض الرواة ان (قليستينيس) نفسه كان بين الذين حكم عليهم بالنفي • على ان الكتب التاريخية قد اقتصرت على البحث في اصلاحات هذا الرجل دون ان تتعرض بالمرة الى ما حدث له في آخر حياته • ولذلك لا نستطيع ان نعرف مدى صحة هذه الرواية • انما نستدل من جميع الاخبار على ان مجلس الشعب لم يستخدم في بادىء الامر حق النفي الا نادرا • فان عدد الاشخاص الذين حكم عليهم بالنفي في مدة تسعين سنة منذ عهد (قليستينيس) لم يتجاوز العشرة • ولكن في العصور المتأخرة ازداد سوء الاستعمال وكثر عدد الزعماء الذين اصيبوا بهذا العقاب دون أي مبرر • نضرب مثلا لذلك قصة القائد (آريستيديس Aristides) الذي برز في الحروب الفارسية واشتهر بين (الآثينيين) باسم « العادل » • فانه بينما كان يوما في سنة (٤٨٢) يشترك في التصويت بمجلس الشعب طلب اليه رجل أمي كان الى جانبه ان يكتب له على قطعة الفخار اسم « آريستيديس » • ولما سأله القائد : « هل تعرف هذا الشخص ؟ » أجاب : ـ « كلا » فعاد وسأله متعجبا : « لما تطلب اذن الحكم عليه بالنفي ؟ » فكان الجواب : لأنني سئمت من سماع الناس جميعا يمدحونه ويسمونه العادل • »

مثل هذا الحادث يدلنا على ان تسليم السلطة كلها الى جمهور الشعب لا يخلو من بعض الاخطار • ولكن (قليستينيس) قد عرف ان هذه الاخطار لا تعد شيئاً الى جانب الفوائد الكثيرة في النظام الديموقراطي • فهو كان يريد انقاذ (آثينة) من الانقسام والتنازع ويطمع الى السير بوطنه في طريق القوة والعظمة • وقد أدرك انه لا سبيل الى توحيد الكلمة وتأمين الانسجام بين المواطنين الا بتطبيق المبادىء الديموقراطية في الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية على أوسع مقياس ممكن • ويجب الاعتراف بأنه الى (قليستينيس) يعود الفضل كل الفضل في اتمام عمل (صولون) • فان اصلاحاته قد جعلت الشعب يتولى بالفعل السلطة العليا الحقيقية في الدولة • واذا ظلت الديموقراطية التي أسسها (قليستينيس) مشوبة ببعض النقائص فهي لا شك أكمل نظام استطاع البشر وضعه حتى ذلك العهد •

الفصل العاشر

الحروب الفارسية

١ - اليونان و (البرابرة) :

بينما كانت (آثينة) تتقدم تدريجيا نحو الديموقراطية وتسير بخطى سريعة في طريق الازدهار الاقتصادي والتكامل الفكري - اذا بانقلابات خطيرة وتغيرات أساسية تحدث في البلدان المجاورة وفي الاوضاع الدولية فتهدد كيان اليونانيين عامة وتؤثر تأثيرا عميقا في تطور (آثينة) خاصة .

ان التوسع الاستعماري اليوناني في شواطىء البحر الابيض المتوسط كان قد اخذ يفقد من شدته ويضعف منذ القرن السابع . ويمكن ارجاع السبب في ذلك ،

أولا : الى تناقص عدد المواليد بين اليونانيين الذين عمدت بعض مدنهم باختيارها الى تحديد النسل .

ثانيا : الى استقرار انظمة الحكم في أكثر المدن وزوال العوامل السياسية التي كانت أحيانا ترغم المعارضين على الهجرة .

ثالثا : وبصورة خاصة الى ظهور أمم فتية وقوية بدأت تنافس اليونانيين وتحول دون بسط سيطرتهم .

لقد اتصل اليونانيون ، عند انتشارهم في حوض البحر الابيض

المتوسط بكثير من الشعوب التي كانوا يجهلون لغتها ويطلقون عليهـا جميعا اسم (برابرة) للتفريق بينها وبين أبناء جنسهم وللتعبير عما يشعرون به من احتقار تجاهها • وكان من الطبيعي ان تتكرر المنـازعات بـين اليونانيين والبرابرة في آسية الصغرى وايطالية وعلى شواطىء البحر الاسود وفي بلاد الغول • ان هذه المنازعات كانت في بادىء الامر تافهة ، تنتهي بسرعة وتقتصر على بقعة محدودة فلم تتناقل الاجيال التالية شيئا من وقائعها ولكن الحالة اخذت تتبدل منذ القرن السابع • فقد اضطرت جزيرة (قبرص) مثـلا ، التي كان المهاجرون اليونانيون يحكمون القسم الاكبر منها ، الى الخضوع لحكم الاشوريين • كذلك فرض الآشوريون الجزية على مملكة (ليدية) وعلى المدن اليونانية في شواطىء آسية الصغرى كما أقاموا حاميات عسكرية في قسم من هذه المدن • وفي الغرب نرى (الاتروسكيين) يقفـون ، منـذ القرن السادس ، حاجـزا دون اتساع الاستعمار اليوناني بايطاليـة بينمـا اسـتطاع القرطاجيـون ازاحـة المستعمرين اليـونانيين عن (سـاردينة) و (اسبانية) •

على ان أعظم خطر اضطر اليونانيون الى مجابهته ليس في مستعمراتهم فحسب بل في شبه الجزيرة اليونانيـة نفسها ايضـا هو الخطـر الفارسي • والحروب الطويلة ، الطاحنة التي خاض اليونانيون غمارها مع الفرس في القرن الخامس كان لها تأثير كبير في تاريخ اليـونان • ومن المعـروف ان الكاتب اليوناني (هيرودوتس Herodotes) ، الذي يسمى « أبا التاريخ » قد جعل من هذه الحروب الموضوع الاساسي لكتابه في التاريـخ • ورغم ما في هذا الكتاب من معلومات مغلوطة وقصص أساطيرية ومبالغات غيرمعقولة فانه يتضمن كثيرا من الاخبار الدقيقة عن سير المعارك ومواقعها ويساعدنا بذلك على استخلاص بعض الحقائق عن هذا الحادث التاريخي الخطير •

لقد اعتبر (هيرودوتس) الحروب الفارسية كمظهـر للنـزاع بين

الحضارة والبربرية ومازال الكثيرون من المؤرخين الاوروبيين يتبعونـه في هذا الرأي فيصفون تلك الحروب بأنها أول اصطدام بين آسـية وأوروبـة أو بين الشرق والغرب ويقارنون من جهة : بين الترف ، والحكم المركزي الاستبدادي ، والانقياد للتقاليد الدينية الرسمية والطاعة العمياء عند شعوب تعيش كالقطعان ـ ومن جهة ثانية : بين الجدب والتقشف ونظام المدن المستقلة واحترام الشخصية الفردية والعقل الانتقادي والتفـكير الفلسفي • ومـع الاعتراف بوجود اختلافات كبيرة في المفاهيم الاجتماعيـة والاخلاقيـة وفي الانظمة السياسية لدى الفرس واليونان والاقـرار بتأثير ذلك في احتـدام النزاع بين الطرفين لا نستطيع التسليم بأن اليونانيين كانوا اذ ذاك ، أقرب الى الحضـارة من الفرس • ونرى الشـاعر اليوناني (اسخيلوس) الذي اشترك في الحروب الفارسية وألف روايـة عنوانها (الفرس) حـاول ان يصف فيها خصوم بلاده ـ اننا نراه لا ينكر تقدم الفرس في كثير من مناحي الحضارة على اليونانيين • ثم يجب الملاحظة بأن اليونانيين لم يكونوا يفصلون بين القارات ولا يعرفون بأنهم يمثلون الحضارة الغربية التي لم تكن قـد تبلورت بعد • وأخيرا ينبغي أن نتذكر بأن الفرس واليونان يرجعون الى عرق واحد هو العرق الآري •

بعد هذه التحفظات لابد لنا من القول بأن اليونانيين قد شعروا بأن الحروب الفارسية كانت من الوقائع الحاسمة في تاريخهم وان ما أظهروه فيها من شجاعة وثبات ومهارة/قد ساعدهم على الاحتفاظ بالحرية والاستقلال • ولا شك في ان ذكرى النصر في هذه الحروب ظلت تغذي النفوس بالحماسة الوطنية والعزة القوميـة وتؤثر تأثيرا عميقا في حياة الشعب • وهـذا يكفي ليجعلنا نخصص مكانا بارزا لهذه الحروب في تاريخ اليونان ونعيرها ما تستحقه من الاهتمام•

٢ ـ تاسيس الامبراطورية الفارسية وتوسعها :

حوالي سنة (٥٥٠) قبل الميلاد قام مغامر عبقري من اسرة فارسية

نبيلة اسمه (كورش) بالثورة عـلى ملك الميديين (آستيـاغ) ، الذي كان مكروها من الشعب لقسوته وظلمه ، فتغلب عليه دون كبير عناء وقبض عليه أسيرا وبذلك انتقل الحكم من الميديين الى أبناء جنسهم الفرس •

لم يقتصر (كورش) على توطيد سيادته في أنحاء المملكة الواسعة التي ورثها بل استطاع توسيع حدودها وتأسيس امبراطوريـة قويـة لعبت دورا كبيرا في تاريخ العالم •

بدأت الفتوحات الفارسـية بالاستيلاء عـلى مملكة (ليديـة) • فان (كريزوس) ملك هذه البلاد ، الذي اضطرب من نجاح (كورش) في حروبه لاخضاع المقاطعات الثائرة ، كان قد تخلى عن احلامـه في التوسـع البحري واخذ يعمل في سبيل ارجاع صهره (استياغ) الى العرش • ولعله كان يأمل ان يحصل عن هذه الطريق على مقاطعة (قبادوقية) بالاناضـول ويبعد عن بلاده الخطر الفارسي • وقد أراد (كريزوس) ان يضمن تأييد بابل ومصر واسبارطة • ولكن (نابونيد) ملك بابل ، الذي ساعد (كورش) ضد (آستياغ) أملا في تحرير بلاده من الحماية الاجنبية ، لم يكن ليجسر على القيام بأية حركة لخوفه من انتقـام الفرس • وقد وعـد الاسبارطيون بالمساعدة ولكنهم تقاعسوا عن العمل متمسكين بسياسة العزلة التي ظلوا دوما يتبعونها • أما ملك مصر (آماسيس) الذي ادرك خطر الفرس على بلاده ، فقد رضي بارسال جيش صغير عن طريق البحر • على ان (كريزوس) لم ينتظر وصول النجدات من حلفائه بل أسرع في الهجوم مخدوعا بكلام العرافين الذين استشارهم في الامر فاجابوه، حسب عادتهم ، بنبوءة غامضة تقول ان حركته ستؤدي الى انهيار مملكة عظيمة • • وفي الحقيقة فقد انتهى الامر بالقضاء على مملكة ، ربما لم تكن « عظيمة » ولكنها عـلى كل حال مزدهرة وقوية هي مملكة (كريزوس) نفسه وليس المملكة الفارسية ، كما اعتقد • وذلك ان هذا الملك بعد ان اجتاز نهر (هاليس) وخرب البلاد التي

في طريقه اصطدم بالجيش الفارسي عند مدينة (بترية) واضطر الى التراجع حتى حدود مملكته • وقد ظن ان الفرس لن يقدموا على مهاجمته في فصل الشتاء فسرح جنوده المأجورين واخبر حلفاءه المصريين والاسبارطيين بتأخير النجدة الى الربيع التالي • ولكن (كورش) اخذ يتقدم بسرعة وباغت جيش (ليدية) عند أسوار العاصمة (ساردیس) فشتته منذ الحملة الاولى • وبعد حصار اسبوعين سقطت المدينة ووقع (كريزوس) اسيرا في ايدي الفرس• (سنة ٥٤٧) وقد أحسن (كورش) معاملته وأقطعه عدة مدن في بلاد فارس •

بعد هذا الانتصار/ كان من الطبيعي ان يفكر (كورش) في الوصول الى بحر ايجه الذي تحتاج اليه الامبراطورية الفارسية في سبيل مصالحها التجارية العالمية • وكانت المدن « الايونية » على شواطىء هذا البحر مشهورة بغناها ولكنها منقسمة على بعضها وبالتالي ضعيفة فتؤلف لذلك غنيمة سهلة تغري الفاتحين •

عندما شاعت الاخبار عن تأهب الفرس للهجوم على (ايونية) ادرك السكان مدى تقصيرهم في تهيئة وسائل الدفاع وعرفوا أي خطر عظيم كان يهدد استقلالهم • لكنهم حتى في هذه الظروف الحرجة لم يستطيعوا الاتفاق على القيام بعمل مشترك • وعبثا حاول الفيلسوف (تاليس) الملطي ان يقنع مواطنيه بضرورة تأسيس اتحاد (ايوني) • فانه بينما اخذ اهل بعض المدن يهربون الى مختلف الجهات كانت المدن الاخرى تعلن كل واحدة منها عن عزمها على الدفاع عن نفسها مستقلة وفي الوقت ذاته ذهبت عدة وفود الى (اسبارطة) تطلب مساعدتها • ولكن الاسبارطيين اقتصروا على ارسال بعض المندوبين لدراسة الموقف دون ان يقوموا في النتيجة بأي عمل •

لقد كانت مباغتة فجيعة لليونانيين على شواطىء آسية الصغرى عندما رأوا الجيوش الفارسية تطبق عليها جميعا وتستولي بحملة واحدة على

مدنهم كلها • وقد قسمت هذه البلاد الى ولايتين فارسيتين عاصمة احداهما (ساردیس) والثانية (داسكيليون) •

هنا اخذ اليونانيون يتساءلون : هل يريد (كورش) الاستمرار في زحفه نحو الغرب ؟ ولكن يبدو ان الوقت لم يكن قد حان بعد • فان هذا (البطل الذي اختصه القدر بالحظ كان حكيما) حسب قول الشاعر اليوناني (اسخيلوس) • لقد ادرك بأنه يجب عليه قبل كل شيء توطيد الامن في المناطق الشرقية من الامبراطورية حيث كانت الدعايات التي يقوم بها اتباع (زرادشت) تسبب الثورات المتوالية • ولذلك نراه ، في بادىء الامر ، يتحاشى حتى اثارة مخاوف الكلدانيين • ولكن بعد مرور ست سنوات (٥٤٥ ـ ٥٣٩) قضاها في محاربة الثوار واعادة الهدوء والنظام في الشرق حتى ضفاف نهر (السند) اسرع الى ازالة مملكة الكلدان • فأمر أحد قواده بالزحف على (بابل) والقبض على الملك (نابونيد) • ثم دخل المدينة في موكب عظيم واستقبل كأنه منقذ ، وقد وعد السكان بأنه سيعيد تشييد المعابد التي خربها سلفه ، كما انه اتباعا لهذه السياسة سمح لليهود ، الذين كانوا في الاسر منذ زمن طويل ، بالرجوع الى القدس ، وبتجديد بناء المعبد • ولعل هذه هي المرة الاولى في تاريخ آسية نرى فيها فاتحا مظفرا يسعى الى بسط حكمه دون قهر وعنف ويبرهن على احترامه لعقائد المغلوبين • ولا شك في ان هذه السياسة الحكيمة ، السمحة كان لها تأثير بليغ في استسلام بقية بلاد اسية الصغرى مثل (قارية) و (ليكية) الى الفرس دون حرب • كذلك كان الامر مع الفنيقيين بقيادة مدينتي صيدا وصور • حينئذ لم يبق أمام (كورش) سوى ضم مصر الى الامبراطورية ليتم تحقيق اهدافه • ولكنه بينما كان يتأهب لذلك مات فجأة وبصورة غامضة وترك انجاز هذه المهمة الى ابنه (قمبيز) (٥٢٩ ـ ٥٢١) •

لم يكن (قمبيز) يحتاج الى مبرر للهجوم على مصر • فان الملك

(آماسيس) كان قد سافر بنفسه الى جزيرة قبرص واخذ هناك يتآمر ضد الفرس مع (كريزوس) ملك (ليدية) و (بوليقراتس) دكتاتور جزيرة (ساموس) •

لم يزحف قمبيز على مصر الا بعد تهيئة جميع الاسباب دون ان يترك شيئا للمصادفات أو الحظوظ وقد بذل كل عنايته لتأمين التعاون التام بين الجيش والاسطول • فجعل (عكا) مركزا لحركات السفن الفينيقية والقبرصية التابعة له • وبعد ان اتفق مع عرب الصحراء وضمن حيادهم ومساعدتهم سار بجيشه في الطريق التي تمتد من (غزة) الى (الدلتا) • وفي المعركة الحاسمة التي جرت بين جيش (قمبيز) وجيش (بسامتيخ الثالث) ، خلف (آماسيس) بلغ عدد القتلى من المصريين خمسين ألفا • وبذلك اصبحت الطريق مفتوحة امام العاهل الفارسي فتقدم الى العاصمة (ممفيس) وجلس على عرش الفراعنة • وقد اضطهد (قمبيز) الديانة المصرية في حين انه كان من حماة الديانة اليهودية وبينما رفض تهاني اليونانيين المقيمين في (برقة) احسن استقبال الوفد الليبي •

أثناء اقامة (قمبيز) في مصر ، حيث اخذ يهدد القرطاجيين والاحباش، وصلت اليه الاخبار عن قيام كاهن اسمه (غوماتا) مدعيا انه (سمرديس) اخو الملك الذي كان قد قتل بايعاز منه • وقد اشتعلت الثورة في فارس وانضم الكثيرون الى هذا الكاهن المطالب بالعرش • فأسرع (قمبيز) في العودة الى عاصمة بلاده ولكنه مات في الطريق • وهناك روايات تدعي بأنه اصيب بالجنون •

ان حكم (قمبيز) ، رغم قصر مدته ، كانت له أهمية عظمية في تاريخ اليونان ، اذ انه بفتح مصر زالت من الميدان الدولة الثانية الموالية لليونانيين بعد مملكة (ليدية) التي كان قد قضى عليها (كورش) • وبذلك اصبح

في استطاعة الامبراطورية الفارسية ان تشن الغارة على البحر الابيض المتوسط من الجناحين مستندة الى رعاياها الفنيقيين •

هذه المهمة كان مقدرا ان يقوم بها (دارا) ، « الملك الذي لا نظير له » ، كما يصفه (اسخيلوس) ، والذي بلغت فارس تحت حكمه (٥٢١ ـ ٤٨٦) أوج عظمتها وعصرها الذهبي •

كان (دارا) من نبلاء الفرس ، وربما من نسل ملوكي ، اشترك في الحملة الفارسية على مصر وعهد اليه ، بعدموت (قمبيز) ، باعادة الجيش الى العاصمة ولما وصل بلاد فارس نجح ، بمساعدةستةمن الاصدقاءالمخلصين وبالاستناد الى الكهان الزرادشتيين ، في التغلب على ثورة (سمرديس) المزعوم ، الذي قتل • وعلى أثر ذلك اعترفت البلاد كلها بانتقال العرش الى (دارا) • وقد استطاع (دارا) ان يعيد النظام في سائر انحاء المملكة • وفي الكتابة المشهورة على صخرة (بهيستون) التي أمر هذا الملك بنقشها والتي ظلت قائمة حتى اليوم نراه يعدد ، بكثير من الفخر ، الثورات المتعددة التي قضى عليها والحصون المنيعة التي بناها على الحدود •

لم يكن (دارا) يعرف الراحة ، بل ظل يتنقل ، دون كلل ،بجيوشه المظفرة من القفقاس الى السند ومن مصر الى جزيرة (ساموس) • ويجب الاعتراف بأنه قد توصل الى بسط سيطرته التامة على الامبراطورية الشاسعة التي صارت خاضعة لسيد واحد : تتبع ادارة مركزية واحدة وتنشر فيها ديانة رسمية واحدة هي الزرادشتية ولغة مشتركة هي الآرامية • ان جميع الشعوب كانت تعترف بسيادة ملك الملوك (دارا) : تدفع له الجزية وتقدم الجنود •

ان حكم (دارا) الفردي الاستبدادي المطلق لم يخل من فوائدلمختلف البلدان في الشرق الاوسط والادنى • فان استقرار السلم في هذه البلاد وانتظام الادارة الحكومية المركزية وزوال الحواجز الجمركية وصك عملة

ذهبية وفضية موحدة مما ساعد على انعاش الحركةالاقتصادية •وقد ازدهرت الزراعة ونشطت التجارة واتسعت الاعمال المالية وقويت الثقة فأخذت المصارف تقرض الاموال على مقياس واسع وبفائدة اقل مما في الماضي اذ اصبحت (١٢) في المائة بعد ان كانت قبلا (٢٠) واحيانا (٣٣) في المائة وبالاجمال شعر الناس بأن حياة جديدة اخذت تدب في عروقهم •

ليس غريبا ان توحي هذه النهضة الى الكثيرين من المراقبين في ذلك العهد بفكرة جمع العالم كله في دولة واحدة ، شاملة • وهناك دلائل تشير الى ان (دارا) نفسه كانت تخامره هذه الفكرة • فان البعثات الاستكشافية التي ارسلها الى الهند برئاسة أمير البحر (سكيلاكس) والى جنوب ايطالية برئاسة طبيبه الخاص (ديموكيديس) انما كانت تهدف الى معرفة الامكانيات لتحقيق الفكرة •

وكان من الطبيعي ان لايرتاح اليونانيون الى مثل هذا المشروع • فقد كانت المدن الايونية التي استولى عليها (كورش) تعلل النفس بقرب انهيار الامبراطورية الفارسية وتتعلق بالامل في استرجاع حريتها • ان سكان هذه المدن ، بعد ان عاشوا مدة كافية تحت حكم الفرس ، قد ادركوا الفرق الكبير بين هذا الحكم وبين حماية الليديين الذين كانت لهم السيادة الاسمية ولكنهم كانوا يخضعون في الواقع للنفوذ اليوناني من الوجهة الثقافية والدينية والاقتصادية • لاشك في ان السلطة الفارسية لم تكن ترمي الى الاضطهاد السياسي أو الفكري بل كانت تسمح لكل مدينة بالاحتفاظ بمؤسساتها على شرط ان تؤدي الجزية بانتظام وتطيع الدكتاتور اليوناني أو المستشار الفارسي الذي يتولى ادارة شؤونها • وكان (دارا) يحترم عادات اليونانيين وعقائدهم ويطالب موظفيه بمراعاة هذه السياسة ويتبين من الاخبار ان الحركة الفكرية ، التي كانت بدأت في أوائل القرن السادس ، قد استمرت مدة اخرى في (ايونية) وظل الشعراء والفلاسفة يعبرون عن آرائهم وعواطفهم بحرية تامة كما ان العلوم بلغت ذروة التقدم •

ولكن كل ذلك لم يكن كافيا لتغيير نظرة اليونانيين الى الفرس • فقد ظلوا يعتبرونهم « برابرة » لأنهم لم يقتبسوا الحضارة اليونانية بل احتفظوا بلغتهم ودياناتهم وعاداتهم • ثم ان روح العداء تجاه الفرس كانت آخـذة في الازدياد بسبب اهمال المصالح التجارية للمدن الايونية لأن (دارا) منـع تجار هذه المدن عن متابعة العمل في الجنوب من البحـر الابيض المتوسط وجعل همه حماية الفنيقيين المنافسين لهم حتى أصبح تجار صيدا وصـور يزاحمون الايونيين في بلادهم نفسها • وهكذا ادرك اليونانيون بأن الامـة التي تفقد استقلالها تخسر بذلك كل شيء •

ان التنظيم الاقتصادي للامبراطورية الفارسية لم يكن ليتم دون السيطرة على البحر الابيض المتوسط • لهذه الغاية كان (قمبيز) قد أراد ان يقوم بحملة على قرطاجة • ولكنه فشل في ذلك والآن رأى (دارا) انـه من المصلحة تغيير هذه السياسة • فعمل على تحسين العلاقات مـع القرطاجيين ومحالفتهم عن طريق مساعدة الفنيقيين • انه كان يريد في الدرجة الاولى فرض سيطرته على العالم اليوناني كله •

على انه قبل الاقدام على ذلك كان لا بد له من الاطمئنان على سلامة الامبراطورية من جهة الشمال • فقد كانت قبائل (السكيت) ، وهي العنصر الاساسي للعرق الايراني ، تسكن في المناطق المحيطة بالبحر الاسود وفي روسية الوسطى حتى بلاد تركستان • وبينما كان قسم من هذه القبائل قد استقر على ضفاف الانهار الكبيرة في روسية وانصرف الى الزراعة، ظل القسم الاخر في حالة البداوة يتنقل بين شواطىء بحر قزوين والسهول الاوروبية• وكانت موجات متوالية من هؤلاء البدو تتدفق نحو الجنوب للغارة على البلاد المتحضرة • ومن المعروف ان انهيار الدولة الاشـورية في أواخـر القـرن السابع كان نتيجة لهـذه الغارات • يقـول (هيرودوتس) ان الامبراطور الفارسي قد أراد مهاجمة السكيت لسببين : اشغال شعوبه بالحرب والانتقام

من اولئك الغزاة الذين كانوا اجتاحوا بلاد ايران في عهد (كيخسرو) •
ومن السهل ان نضيف الى ذلك عدة أسباب اخرى • فان فتح بلاد(السكيت)
كان ضروريا لتأمين سلامة الحدود الشمالية للامبراطورية كما انه يضمن
السيطرة على البحر الاسود ومناجم القفقاس وموردا غنيا من محصول
الحبوب • وكان بعض اليونانيين مثل (ارسطون) دكتاتور (بيزانس) قد
اخبر (دارا) عن ثروة تلك البلاد التي تنتج كمية كبيرة من الحبوب ويكثر
فيها الذهب • واخيرا فان تقدم الفرس في هذه الجهة واخضاعهم اليونانيين
القاطنين بين الدردنيل ونهر الطونة مما يضعف روح الثورة عند الايونيين
الذين كانوا يأملون دوما المساعدة من أبناء جنسهم •

في ربيع سنة (٥١٢) تقدم (دارا) على رأس قوات كبيرة ، تذكر
الروايات القديمة انها تبلغ سبعمائة ألف جندي وستمائة سفينة فاجتاز
البوسفور دون اية صعوبة بفضل الجسر المؤلف من السفن الذي اشرف على
تمديده المهندس اليوناني (ماندروقلس) • وقد اتجه الاسطول الى البحر
الأسود ودخل من مصب الطونة ليلتقي في الموعد المعين بالجيش الذي وصل
الى هناك دون ان يصادف اية مقاومة • وبعد اجتياز النهر على الجسور التي
بناها اليونانيون توغل (دارا) في بلاد (السكيت) حتى نهر (الفولغا) •
ولكن هؤلاء كانوا ، كما يقول (هيرودوتس) يتحاشون ملاقاته ويقتصر
فرسانهم على مباغتة الجيش الفارسي بالهجوم من حين الى آخر • وهكذا
تكبد (دارا) خسائر فادحة دون ان ينتصر على هذه القبائل المشهورة
بالشجاعة ، فاضطر الى العودة من حيث أتى لئلا تنقلب الحملة الى كارثة
لاتعرف نتائجها •

ورغم ان (دارا) استطاع التراجع بالقسم الاكبر من جيشه الىالطونة
ثم العودة الى بلاده ، تاركا القائد (مغابيز) ليتولى مهمة اخضاع مقاطعة
(تراقية) فان فشل الحملة على بلاد (السكيت) قد الحق ضررا بليغا بسمعة
الامبراطور الفارسي الذي كان اشتهر بأنه لا يغلب وقد اخذت بعض المدن

اليونانية في البوسفور وطروادة وخالكيديكية تثير الاضطرابات وتكثر من الشغب وبينما انهمك (دارا) في معالجة مشاكل طارئة في انحاء اخرى من الامبراطورية ، كان الوالي (آرتافرينيس) في (ساردیس) لايقدر على القيام بأية حركة • وعبثا حاول الدكتاتور (هيبياس) الذي كان نفي من (آثينة) ان يقنعه بارسال حملة الى بلاد اليونان • فان الفرس لم يكونوا يعرفون شيئا عن الاثينيين ولا يرغبون في ذلك • ولم يقرر (دارا) ان يتجه من جديد الى الغرب الا بعد ان ثارت المدن الايونية على ولاته وتجاسرت (آثينة) على مساعدتهم •

٣ • ـ ثورة (ايونية) :

عند البحث في ثورة المدن اليونانية في آسية الصغرى ، هذه الثورةالتي كانت المقدمة والسبب المباشر للحروب الفارسية ، يقول (هيرودوتس) ، اتباعا لطريقته في تعليل الحوادث التاريخية الكبيرة بارجاعها الى عوامل شخصية ، صغيرة ، انها نشبت كنتيجة لمطامع الدكتاتورين (هيستيئوس Histiaeus) وصهره (آرسطاغوراس Aristagoras) .

ان البحث التاريخي العلمي لا يستطيع اليومالاكتفاء بمثلهذا التعليل•
ورغم ان نشاط هذين الرجلين المغامرين ، المشاغبين وما عرف عنهما من اعمال الخيانة والتآمر قد كان له تأثير محسوس في اندلاع نيران الثورة فمن الضروري ان نتعمق اكثر من (هيرودوتس) في دراسة الاوضاعالعامة في (ايونية) اذ ذاك وان نسعى الى الكشف عن الاسباب البعيدة ، الحقيقية التي جعلت السكان يندفعون بحماسة الى الاشتراك في ثورة يرتابون في نجاحها ولا يجهلون ما يمكن ان ينجم عنها من عواقب مؤلمة •

واذا رأينا (هيرودوتس) يدعي بأن الثورة كانت وليدة المصادفات وان « مبدأها قد برهن على جهل مجرم بالواقع وان تطورها قد رافقتهمظاهر التخاذل والاستخزاء » فذلك دليل على نقص في معلوماته كما انه ينم عن

تعصبه وبغضه تجاه الايونيين • ويبدو ان « أبا التاريخ » نفسه كان يشعر بأن هناك اسبابا عميقة أدت الى الثورة اذ نراه ، وهو يسرد حوادثها ، يشبه الحالة «بدملة كان قد حان الوقت لان تنفقىء» • فما هي الاسباب الاساسية في نقمة سكان (ايونية) وفي انفجار الثورة ؟ • لقد سبق لنا واشرنا الى الاضرار التي اصابت مصالح الايونيين الاقتصادية من جراء الفتح الفارسي • وفي الحقيقة فان المدن الايونية ، التي كانت تعتمد فيمعيشتها على التجارة وحدها ، قد اضطربت كثيرا عندما اخذ الفرس يساعدون التجار الفنيقيين الذين كانوا اذ ذاك من أكبر المنافسين لليونانيين في حوض البحر الابيض المتوسط • ثم ان استيلاء الفرس على (بيزانس) كان من شأنه ان يعرقل تجارة الايونيين في البحر الاسود • واخيرا كان الحكم الفارسي يعتمد ، في سبيل توطيد سيادته ، على الطبقة الاقطاعية وعلى النظام الدكتاتوري الفردي • فليس غريبا ان يتذمر الايونيون من ذلك لا سيما وهم يشاهدون اخوانهم على الشاطىء المقابل من بحر ايجة ، وبالاخص في (آثينة) ، يتمتعون بالحريات الديموقراطية ويتقدمون في طريق الازدهار الاقتصادي والفكري •

والخلاصة فان المدن الايونية قد أدركت بأن ازدهارها التجاري متوقف على استرجاع استقلالها فاندفعت الى الثورة في سبيل التحرر من النير الاجنبي • الا انها لم تعرف كيف تختار الوقت الملائم والقادة الصالحين ولا كيف تجمع صفوفها وتوحد كلمتها •

لقد كان من المحتمل ان ينجح الايونيون في التخلص من الحكم الفارسي لو انتهزوا مثلا فرصة موت (قمبيز) في مصر وما عقب ذلك من اضطرابات في انحاء الامبراطورية • كذلك كان في الإمكان ان تنتهي الثورة بالفوز او تولى قيادتها زعماء غير (هيستيئوس) و (آرسطاغوراس) •

ان (هيستيئوس) هو دكتاتور مدينة (ميليتوس) الذي كان يتباهى بأنه منع مواطنيه من قطع الجسور على نهر الطونة عند اضطرار (دارا)

الى التراجع من بلاد (السكيت) • وقد كافأه الملك الفارسي على ذلك بأن منحه مقاطعة (ميكرينوس) الغنية بمناجم الفضة والغابات • ولكنه عندما اخذ يبني الحصون القوية هناك أدرك الوالي الفارسي الاخطار التي يمكن ان تنجم عن ذلك فأشار على (دارا) بأن يستدعي ، « في كثير من اللطف » هذا المغامر الى العاصمة الفارسية وان يبقيه لديه • وفي مدة الاثنتي عشرة سنة التي قضاها (هيستيئوس) في بلاط الملك عهد الى ابن عمه وصهره (آرسطاغوراس) بادارة حكومة (ميليتوس) • ولم يكن (آرسطاغوراس) اقل ولعا من ابن عمه بالمؤامرات والمغامرات • فهو قد استطاع ، عندما لجأ اليه بعض الارستوقراطيين من جزيرة (ناكسوس) الذين طردهم الشعب وطلبوا مساعدته ، ان يقنع الوالي الفارسي (آرتافرينيس) بارسال حملة تحت قيادته للاستيلاء على هذه الجزيرة التي تعتبر أغنى الجزر في بحر ايجة ولكن الحملة فشلت • وخشي (آرسطاغوراس) من ان يعزله الفرس فقرر القيام بالثورة التي تدل الظواهر على انه كان يفكر فيها منذ زمن بعيد• ويدعي (هيرودوتس) بأن (آرسطاغوراس) قد تلقى في ذلك الوقت بالذات رسالة من ابن عمه في بلاد الملك يحرضه على الثورة• فقد كان (هيستيئوس) يتربص الظروف المواتية لاسترجاع حريته وكان يأمل ان يعهد اليه ، متى قامت الثورة بمهمة قمعها فيتخلص بذلك من الاقامة الاجبارية في عاصمة الفرس •

بعد العودة من حصار (ناكسوس) جمع (آرسطاغوراس) مجلسا من مندوبي المدن الايونية وافضى اليهم بمشروع الثورة فشجعوه جميعا على ذلك عدا المؤرخ والجغرافي (هيكاتيوس) الذي نصح مواطنيه بالتأني ودعاهم قبل كل شيء الى تهيئة الاموال اللازمة لبناء اسطول • ولكن المؤتمرين قرروا حجز السفن الفارسية التي عادت من حصار (ناكسوس)• فكان ذلك نذيرا باعلان الثورة (في خريف سنة ٤٩٩ قبل الميلاد) • وقد قام السكان في كل مكان وطردوا الحكام الدكتاتوريين الموالين للفرس وقتلوا

بعض هؤلاء الحكام ونصبوا عوضا عنهم قادة عسكريين منتخبين من الشعب.

أدرك (آرسطاغوراس) بأنه لا بد لنجاح الثورة من الحصول على مساعدة الحكومات اليونانية فسافر الى اسبارطة وآثينـة . ولكن الحالة في هاتين المدينتين لم تكن مواتية لتسهيل مهمته . فان اسبارطة كانت تميل دوما الى سياسة العزلة . ومما زادها تمسكا بهذه السياسة التنافس الشديد الذي كان سائدا اذ ذاك بين ملكيها ثم المنازعات بينها وبين (قورنت) و (آرغوس) أما آثينة فقد كانت منهمكة في المناقشات الحادة بين المؤيـدين والمعارضـين لدستور (قليستينيس) وهكذا لما وصل (آرسطاغوراس) الى اسبارطـة واجتمع بالملك (قليئومينيس)، الذي ظن بأنه اقرب الى التفاهم ، وتحدث اليه عن الاراضي الغنية التي سيفتحها والاموال الطائلة التي سيحصل عليها اكتفى هـذا بتوجيـه السـؤال التالي : « كم هي المسـافة بـين الشـاطىء وعاصمة الفرس ؟ » ولما اجابه (آرسطاغوراس) بقوله : « مسيرة ثلاثـة أشهر » . انتهت المفاوضة وأسرع الدكتاتور الايوني الى آثينة . وقد كاد ان يفشل هناك أيضا اذ افتتح خطابه في مجلس الشعب بوصف خيرات آسية وكنوزها التي لا تنضب ثم ذكر سهولة التغلب على الفرس فلم يكترث احد بأقواله . ولكنه استطاع بعد ذلك اثارة عواطف المستمعين عندما تكلم عن حماية الفرس للدكتاتور (هيبياس) الذي نفي قبل سنوات من آثينة والذي كان يطمع في العودة الى الحكم بمساعدة الاجنبي . فقرر مجلس الشعب ، في عاصفة من الحماسة ، ارسال عشرين سفينة لمساعدة الايونيين . ثم تطوعت مدينة (أريترية Eretria) في جزيرة (اوبوئا Euboea) من نفسها باضافة خمس سفن . وبذلك فان النجدة التي رضيت شبه جزيرة اليونان كلها بتقديمها للدفاع عن (ايونية) لم تكد تبلغ الالفين من المحاربين .

كان من الصعب على الثوار ، وقد تخلى عنهم بهـذه الصـورة ابنـاء جنسهم في الغرب ، ان يستطيعوا الصمود في وجه الجيوش الفارسية الجرارة

التي تفوقهم كثيرا في العدد • اضف الى ذلك ان هؤلاء الثوار لم يكونوا على وفاق تام فيما بينهم • وقد تعددت المحاولات لعقد تحالف يضم جميع المدن الايونية ولكن الامر وقف عند توحيد العملة النقدية • اما في موضوع تنظيم الحركات الحربية فقد كانت الاراء مختلفة جدا • وهكذا بينما اعلنت الثورة في مدينة (ميليتوس) ظلت المدن الاخرى هادئة مدة من الزمن • كما ان خطورة الحالة لم تكن لتحول دون تجدد المنازعات القديمة ، لادنى سبب ، بين القسم الشمالي والجنوبي من (أيونية) •

وقد استفاد الفرس من هذا الوضع ، فلم يلبثوا طويلاً حتى زال عنهم ما اعتراهم لأول وهلة من اضطراب ودهشة واخـذوا ينظمون جيوشـهم ويوجهونها الى مكان بعد اخر •وقد استهدفوا قبل كل شيء مدينة(ميليتوس) مصدر الثورة فأسرعوا الى ضرب الحصار عليها •

ولما وصل المحاربون الآثينيون قام الثوار بحركة فيها كثير من الجرأة اذ هاجموا العاصمة (سارديس) ليرغموا بذلك الجيش الفارسي على فك الحصار عن (ميلتوس) • وقد دخل الثوار بقيادة (خاروبينوس) أخي (آرسطاغوراس) الى مدينة (ساردیس) ولكن الحامية الفارسية استطاعت ان تنسحب الى القلعة وتتحصن بها • في هذه الغمرة شب حريق هائل في المدينة فالتهم القسم الاكبر منها وذهب المعبد المشهور الخاص بآلهة المدينة طعمة للنيران • (في صيف سنة ٤٩٨) وقد استاء السكان الليديون من ذلك وتظاهروا بالعداوة لليونانيين الذين اضطروا الى الانسحاب • وفي الطريق اصطدم هؤلاء بالجيش الفارسي الذي كان قد رفعالحصار عن (ميلتوس) كما افترضوا • وقد انتصر الفرس على الثوار وحلفائهم الاثينيين • فعاد بقـايا السيوف من هؤلاء الى بلدهم • ولم ترض (آثينة) بعد ذلك ان ترسل نجدة ثانية رغم جهود (آرسطاغوراس) المتكررة • وهكذا كانت مساعدة الاثينيين للثورة تافهة جدا ولكن اشتراكهم في مهاجمة (ساردیس) وحرقها قد أثار نقمة (دارا) عليهم فاقسم بأن ينتقم منهم شر انتقام •

تحرج موقف الفرس مرة ثانية ، ولو لمدة قصيرة من الزمن ، لما انتقلت الثورة الى جزيرة (قبرص) وبلاد (قارية) ثم الى جهات الدردنيل و (بيزانس) على ان الحكومة الفارسية استطاعت ان تجهز بسرعة ثلاثة جيوش جديدة واسطولا كبيرا وان تقضي ، بعد حروب عنيفة ، على الثوار في كل هذه الاماكن . وبذلك انحصرت الثورة ، من جديد ، في (ايونية) وحدها . وبعد ان نجح الفرس في عزل القسم الشمالي من البلاد عن القسم الجنوبي تقدم الوالي (آرتافرينيس) نفسه على رأس جيش كبير واستعاد (في سنة ٤٩٦) المدن التي كانت تحررت من الحكم الفارسي .

ان هذه الانتصارات قد قضت على آمال (آرسطاغوراس) ، الذي كانت تنقصه كل صفات القيادة فخاف على نفسه وهرب مع بعض انصاره الى مقاطعة (ميكرينوس) ، بعد ان ترك أمر الدفاع عن مدينة (ميليتوس) الى شخص خامل يسمى (فيثاغوراس) . وقد هلك (آرسطاغوراس) أثناء احدى الغزوات على حصن في بلاد (تراقية) .

ثم نجد الاخبار تذكر اسم (هيستيئوس) الذي عاد في سنة ٤٩٥ الى (ايونية) من الاقامة الاجبارية في بلاط فارس . ويظهر انه اقنع (دارا) بمقدرته على تهدئة الحالة لما له من التأثير في نفوس مواطنيه على ان الوالي (آرتافرينيس) لم يكن حسن الظن به ، خلافاً للملك ، فلم يرحب برجوعه الى بلاده ولم يقبل التعاون معه . ولذلك انضم الى الثوار واخذ يحيك الدسائس والمؤامرات مرة في مدينة (ميليتوس) ومرة ثانية في جزيرة (خيوس) . ونراه حينا يقوم بأعمال القرصنة في (بيزانس) وحينا آخر ينظم الغزوات في (صقلية) ـ وقد ظل يتنقل من مكان الى غيره ويندفع في مغامرة بعد اخرى الى ان قبض عليه وصلب في (ساردیس) في ربيع سنة ٤٩٣ .

كان الفرس قد صمموا على القيام بجهد جديد ، حازم للقضاء نهائيا

على الثورة • فأخذوا منذ أوائل سـنة ٤٩٤ يحشـدون كل قواتهـم حول (ميليتوس) لمهاجمتها من البر والبحر معا • ولما اتصل الخبـر بالايونيين أدركوا الخطر المحدق بهم فاجتمعوا في معبد (بوزايدون Poseidon) عند جبل (ميقالي Mycale) وقرروا الاقتصـار في البر عـلى الدفاع عن اسوار (ميليتوس) ثم محاولة الاشتباك مع الفرس في البحر • وقد اجتمع اسـطول يـوناني مؤلف من (٣٥٣) سـفينة رست ازاء جزيـرة (لادى Lade) القريبة من (ميليتوس) • واذا استعرضنا قائمة المدن التي يروي (هيرودوتس) بأنها اشتركت في تكوين هذا الاسطول نلاحظ ان بعض المدن الايونية لم يـرد ذكرهـا ، مثـل (ايفيزيوس) و (قلازومينيس) و (قولوفون) ، الامر الذي يدل على انه كان قد تم اخضـاعها من قبـل الفرس • أما الاسطول الفارسي فقد كان مؤلفا من سفن فينيقية ومصريـة وكيليكية وقبرصية يبلغ عددها حسب الروايات القديمة ، (٦٠٠) • لقد كان في استطاعة الاسطول اليوناني ان يتغلب على الاسطول الفارسي ، رغم التفاوت في عدد السفن ، لو ان الايونيين ظلوا متضامنين ولم يفقدوا الحماسة الحربية • ولكن عندما حاول القائد (ديونيزوس Dionysos) ، وهو من مشاهير « ذئاب البحر » القدماء ، تدريب البحارة عـلى حركات المـداورة باستمرار ، بدأ هؤلاء يتذمرون ثم نزلوا ، خلافـا للاوامـر ، الى البـر للاستراحة في ظل الاشجار وهناك باغتهم الاسطول الفارسي ونشبت المعركة الحاسمة عند جزيرة (لادى) (في صيف سنة ٤٩٤) • وعلى الرغم من غرق ثلاث سفن فارسية في أول المعركة اسرعت السفن التابعـة لجزيـرة (ساموس) ، بتحريض من بعض الخونة، الى الفرار وتبعتها سفن (لسبوس)• بخلاف ذلك برهنت سفن (خيوس) على شجاعة نادرة ، ولكن ثباتها لم يثمر اكثر من تأخير الكارثة مدة قليلة من الزمن • وقد التجأ القائد (ديونيزوس) مع بقية الاسطول الى (قبرص) ثم ظل مدة يهاجم صيدا وصور ، واخيرا

انتقل الى صقلية ليقوم ، مثل (هيستيئوس) بأعمال القرصنة ضد الاتروسكيين والقرطاجيين •

على اثر هزيمة الاسطول اليوناني اصبحت كل مقاومة في مدينة (ميليتوس) دون جدوى • وقد هاجمها الفرس بالات الحصار الضخمة فدخلوها عنوة وخربوها • وكان عقابها ان قتل القسم الاكبر من الرجال بين سكانها بينما فرض الرق على القسم الباقي مع النساء والاطفال ثم نقل الجميع الى مصب الدجلة • وبتلك زالت (ميليتوس) من عالم البحر الابيض المتوسط مدة من الزمن ولم تستطع في يوم من الايام استعادة ازدهارها السابق • ولم يصادف الفرس بعد سقوط (ميليتوس) اية مقاومة تذكر في سائر الاماكن الثائرة • وكان في مقدمة المعارضين للحكم الفارسي الدكتاتور (مليتاديس Miltiades) في مقاطعة (خرسونيز) عند الدردنيل •وهو الذي انتهز فرصة انهماك الفرس في اخماد ثورة (ايونية) فاستولى على جزيرتي (ليمنوس) و (امبروس) • ولكن لما علم باقتراب الاسطول الفارسي من بلاده هرب الى (تراقية) ثم الى (آثينة) • وسنرى كيف استطاع ان يلعب دورا هاما في محاربة الفرس في معركة (ماراتون) المشهورة •

في صيف سنة ٤٩٣ تم اخضاع جميع المدن الثائرة في آسية الصغرى• وهكذا انتهت ثورة (ايونية) بالفشل • ويمكن القول بأن هذه الثورة كانت تجربة قاسية وعبرة بالغة لليونانيين • فهي قد كشفت من جهة عن ابرز عيب لدى هذا الشعب واعني بذلك : انقسام الكلمة وفقدان التضامن وعدم التعاون • حقا ، لقد امتاز الكثيرون من اليونانيين بالشجاعة والتضحية •ولكن اعمال هؤلاء لم تخرج عن ان تكون حوادث فردية ، لا انسجام بينها • ولذلك لم تمنع وقوع كثير من اعمال الفوضى والنذالة والخيانة •

ومن جهة ثانية فقد تجلى في هذه الثورة مدى تمسك اليونانيين باستقلالهم

وحريتهم • ان الفرس قد اضاعوا في محاربة الثوار القلائل مدة ست سنوات اضطروا خلالها الى تجهيز عدة جيوش وأساطيل وتكبدوا كثيرا من الخسائر • ولا شك في ان ثورة (أيونية) قد أثارت انتباه اليونانيين ونفخت فيهم روح الوطنية كما اثبتت لهم ان عددا قليلا من المواطنين الواعين والمدربين على القتال يستطيعون مجابهة جيوش ضخمة مؤلفة من شعوب مختلفة لا تربط بينها اية فكرة مشتركة • وقد استفاد اليونانيون من هذه التجربة فكان ذلك من اهم العوامل في انتصارهم على الفرس في المعارك التالية •••

٤ ـ الحرب الفارسية الاولى :

اسبابها ومقدماتها

بعد القضاء على ثورة (ايونية) اتجهت انظار (دارا) الى شبه جزيرة اليونان نفسها • فهو كان قد اقسم بأن ينتقم من (آثينة) و (أريترية) لمساعدتهما الثوار واشتراكهما في مهاجمة مدينة (ساردیس) وحرقها •

يتفق بعض المؤرخين الحديثين مع (هيرودوتس) وغيره من كتاب اليونان القدماء اذ يذهبون الى ان الحملة الفارسية الاولى على شبه جزيرة اليونان انما كانت تستهدف الانتقام • فهي حملة (تأديبية) ولم يكن يقصد منها فتح هذه البلاد وضمها الى الامبراطورية الفارسية • ولدعم هذا الرأي يشير هؤلاء المؤرخون الى ان جهود (دارا) قد اقتصرت ، منذ توليه العرش، على اخماد الثورات ثم تنظيم ادارة المملكة • وهم يصفون هذا الملك بأنه من الحكماء المصلحين وليس من اولئك الفاتحين الذين لاتقف مطامعهم عند حدود والذين يحلمون بالسيطرة على العالم كله • ألم يكن في استطاعته ، لو أراد الفتح ، ان يتقدم الى الشرق ويستولي على الهند والصين ؟ لماذا لم يتجاوز نهر (السند) الذي كان بلغه (كورش) واعتبره الحد الطبيعي للامبراطورية ؟

رغم الاعتراف بأن الانتقام من (آثينة) كان الدافع الاساسي للحملة الفارسية لا نستطيع ان ننكر رغبة (دارا) في الاستيلاء على بلاد اليونان • فانه منذ ان استولى (كورش) على آسية الصغرى وأطل جنوده على الشاطىء الشرقي من بحر (ايجة) اصبح من الطبيعي ان يفكر الفرس في السيطرة على الشاطىء الغربي ايضا • وفي الواقع ان هذا البحر تصل بين شواطئه سلاسل من الجزر كأنها جسور طبيعية وهو يشبه بحيرة تؤلف في مجموعها وحدة جغرافية واقتصادية لا مبرر لفصل جزء منهـا عن الاخر • ثـم ان الامبراطورية الفارسية كانت تحت حكم (دارا) قـد بلغت ذروة المجـد والسطوة وهي لاتزال في عهد التوسع • فليس غريبا ان يسعى هذا الملك الى فتح بلاد اليونان الصغيرة ، الواقعة على حدود الامبراطورية ، لاسيما بعد ان اثبتت له التجارب بأن بقاءها حرة ، مستقلة من شأنـه ان يثـير دومـا الاضطرابات بين رعاياه الايونيين • ألم تكن مساعدة (آثينة) للمدن اليونانية من أهم العوامل في انتشار الثورة واستمرارها ؟ أليس من المحتمل ان تعود (آثينة) في المستقبل الى التدخل في شؤون (أيونية) وتحريض أهلها على شق عصا الطاعة ؟ •

واخيرا فان الفرس ، بعد استقرارهم مدة كافية في آسية الصغرى لم يكونوا يجهلون الحالة في شبه جزيرة اليونان • لقد اتصل ولاتهم باليونانيين واطلعوا على انظمة الحكم السائدة في المدن اليونانية وسمعوا عن مبـادىء الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية التي كانت تمجدها طبقات الشعب • ومن الواضح ان هذه الانظمة والمبـادىء ، اذا ظلت قائمـة عـلى حـدود الامبراطورية ، يمكن ان تسبب كثيرا من القلاقل والفتن بين الامم الخاضعة للحكم الفارسي • كذلك لم يكن ليخفى على هؤلاء الولاة ما كانت عليه الدول اليونانية من اختلاف وتناحر وتفكك وما كان هناك من احزاب ومنافسات ومنازعات بين سكان كل مدينة •

ربما كان صحيحا ما يرويه (هيرودوتس) من أن (دارا) ، عنـدما

ذكرت له (آثينة) لأول مرة ، قد تساءل باستغراب : « من هم هؤلاء الاثينيون ؟ » ولكن من المؤكد ان هذا الملك قد عرف بعدئذ الشيء الكثير عن هؤلاء الاثينيين • لقد كان في استطاعته ان يستفسر عن شؤون (آثينة) من الدكتاتور (هيبياس) ومن ملك اسبارطة (ديماراتوس Demaratus) اللذين كانا يعيشان كلاجئين في بلاطه • على انه لم يقتصر على المعلومات التي استقاها منهما والتي كانت الفطنة تقتضي الشك فيها ، بل ارسل ، قبل زحف جيوشه ، مندوبين موثوقين من الفرس الى مختلف المدن اليونانية لانذار سكانها ودعوتهم الى الطاعة وتقديم الرهائن وفي الوقت نفسه للتجسس واكتساب الانصار بالرشوة والوعود •

واذا كان المندوبان اللذان قدما الى (اسبارطة) و (اثينة) قد قتلا ، خلافا للتقاليد الدولية كما تذكر الروايات ، فان بقية المندوبين قد استقبلوا بالترحاب في سائر المدن واستطاعوا ان يدرسوا حالة البلاد عن كثب • ولا شك في ان نتائج هذه الاتصالات والدراسات كان من شأنها ان تشجع (دارا) على مهاجمة شبه جزيرة اليونان •

٥ ـ حالة اليونان قبيل الزحف الفارسي :

اذا دققنا النظر في تاريخ اليونان خلال الفترة التي سبقت الحرب الفارسية الاولى ، أي بين سنة ٥١٠ وسنة ٤٩٠ ، نلاحظ بأن شبه جزيرة اليونان كانت ، رغم الخطر الفارسي الذي اصبح يهددها مباشرة ، لاتزال منقسمة على نفسها ، عاجزة عن توحيد صفوفها ، غافلة عن الاستعداد لمقاومة الغارة الاجنبية • فقد كانت الحروب والمناوشات لا تنقطع بين الدول المتعددة ، المتنافرة • وأدهى من ذلك كانت المنازعات والاصطدامات بين الاحزاب المختلفة ، المتنافسة في كل مدينة من المدن • لذلك لا عجب في ان تقف بلاد اليونان من ثورة (ايونية) موقفها المخزي الذي سبق لنا ذكره •

واذا استعرضنا الدول اليونانية البارزة نجد في الشمال (تسالية) ،

التي كانت تعيش منعزلة عن جيرانها ، ترحب بمنـدوبي (دارا) وتصبـح مسرحا للدعايات الفارسية • ولم تكن (قورنت) تفكر في شيء غيرالاحتفاظ بمستعمراتها والحصول على اسواق جديـدة لمصنوعاتهـا • وبينمـا كانت (آرغوس) تتربص للانتقام من (اسبارطة) ، التي اعتدت عليها ، نرى جزيرة (أجينة) تضمر الشعور ذاته تجاه (آثينة) •

أما (اسبارطة) و (آثينة)، وهما ابرز الدول اليونانية واقواها ، فقد كانت المنافسة مستحكمة بينهما تحول دون اطمئنان احداهما الى الاخرى ولا تفسح المجال لتحسين علاقاتهما • لذلك كان من الصعب ان تتفقا على خطة مشتركة وان تتعاونا باستمرار واخلاص • اضف الى ذلك ان الاحوال الداخلية في كل منهما كانت في اواخر القرن الخامس قبل الميـلاد غامضة ومضطربة جدا •

كان يبدو على (اسبارطة) بعد سنة ٥٢٠ ، أي منذ ان تولى العرش فيها (قليئومينيس Cleomenes) من اسرة (الاجيديين) ، انهـا اخـذت تميل الى الخروج من سياسة العزلة التقليدية • فان هذا الملك ، الذي كان يطمع الى استمالة الشعب ، قد انتهز أول فرصة وهاجم مملكة (آرغوس) المجاورة التي كانت من اكبر خصوم (اسبارطة) واكثرهم عنادا والتي لم تقبل وحدها الانضمام الى الاتحاد البيلوبونزي • وقد انتصر (قليئومينيس)، بفضل الخدعة الحربية التي دبرها ، على جيش (آرغوس) واستولى على مدينتي (ميكييني) و (تيرينس) ـ ولكن العاصمـة (آرغوس) نفسها استطاعت الصمود في وجهه على ان المكانة التي نالها بعد هذا النجاح الجزئي لم تدم طويـلا ، اذ برز لـه منافس قـوي في شخص زميله الملك الثـاني (ديماراتوس Demaratus) من اسرة (اوريبونتيد) الذي تولى العرش في سنة (٥١٠) والذي كان يستند الى الحزب الارستوقراطي • وبسبب الخلاف بين الملكين اصيبت سياسة (اسبارطة) بالشلل • وتدل الاخبار على

ان جميع المحاولات التي قام بها (قليئومينيس) للتدخل في شؤون (ليبية) و (صقلية) و (آثينة) قد منيت بالفشل . وقد بلغ النزاع بين الملكين أشده في قضية (أجينة). فان هذه الجزيرة التي تعد من اقوى الدول البحرية في بحر (ايجة) كانت دوما تنافس (آثينة) وتظهر لها العداء وقد تعددت الحروب بينهما . وتروي الاخبار ان سفن (أجينة) اغارت في سنة ٤٩٨ على سواحل (آتيكة) . وكانت جميع الدلائل تشير الى ان (أجينة) لن تتأخر عن الانضمام الى الفرس ومساعدتهم في الغارة على (آثينة) . ولذلك طلبت حكومة (آثينة) من الاسبارطيين التدخل في الامر لمنع (أجينة) من التآمر مع الاعداء البرابرة . وقد قبل الملك (قليئومينيس) القيام بهذه المهمة حرصا على (مصلحة اليونان المشتركة) ، حسب قوله . وليس من المستبعد ان يكون الاثينيون قد استمالوه الى جانبهم بالمال . فذهب الى الجزيرة بنفسه للقبض على عدد من الرجال البارزين وتسليمهم كرهائن الى (آثينة) . ولكن الملك (ديماراتوس) أرسل يخبر (الأجينيين) بأن زميله لايعمل بالنيابة عن الاتحاد البيلوبونزي وهكذا فـوجيء (قليئومينيس) بمقاومـة حكومة (أجينة) فعاد خائبا ، حاقدا الىاسبارطةواخذ يحرض (لئوتيخيداس Leotychidas) وهو الوريث التالي للعرش من اسرة (اوريبونتيد) ، على التقدم بالشكوى الى المراقبين مدعيا الشك في نسب الملك (ديماراتوس). وقد احدثت الدعوى ضجة كبيرة واحتار المراقبـون في الامـر ثم قـرروا استشارة العرافين في معبد (دلفي) للكشف عن الحقيقة.وكان (قليئومينيس) قد استمال هؤلاء بالمال فأجابوا حسبما طلب اليهم . ولم ينتظر (ديماراتوس) حتى يحكم المراقبون بخلعه فهرب من اسبارطة ولجأ الى (دارا) . ولما تولى العرش مكانه (لئوتيخيداس) استصحبه (قليئومينيس) وذهب ثانية الى (أجينة) وقبض على عشرةمن ابرز المواطنينوسلمهم كرهائن الى (الاثينيين). وبفضل هذا التدبير لم تجسر (أجينة) على القيام بأية حركة معادية لآثينة عندما نزل الفرس في سهل (ماراتون) . على ان الحالة لم تستقر فياسبارطة

بعد فرار (ديماراتوس) • وقد ثبت للمراقبين بعد التحقيق ان العرافين في (دلفي) كانوا قد قبضوا الرشوة من (قليئومينيس) • فخاف هذا من ان يحال الى المحاكمة فهرب الى (تسالية) •

كذلك لم تكن الحالة في (آثينة) اقل اضطرابا مما في (اسبارطة) • فان اصلاحات (قليستينيس) وجهوده لتوطيد الديموقراطية لم تستطع ، رغم ما رافقها من نجاح ، ان تقضي سواء على انصار (هيبياس) الذين يميلون الى الدكتاتورية الفردية أو على الارستوقراطيين الرجعيين • لقد كان هؤلاء جميعا ينافسون الحزب الديموقراطي وينازعونه على السلطة وظلوا يستخدمون كل الوسائل ، مهما كانت حقيرة ، في سبيل اثارة الرأي العام ونشر الفوضى • فهم احيانا يهاجمون الحكومة بتهمة العجز عن تأمين السكان رغم معرفتهم بأن السبب في نقصان المواد الغذائية يرجع في الدرجة الاولى الى سيطرة الفرس على بحر ايجة ، واحيانا ينتقدون سياسة الحكومة الخارجية وينسبون اليها الضعف والتخاذل في قضية (ايونية) ، رغم انهم كانوا هم انفسهم يتآمرون مع الفرس ويمهدون لهم السبل لغزو بلاد اليونان• وهكذا نراهم ، عندما تحرج موقف الثوار ، يذيعون الشائعات المفزعة ويقولون بأن (دارا) لم يعد ، بعد حرق (سارديس) يفكر في شيء غير الانتقام من (آثينة) حتى انه ، حسب روايتهم ، عهد الى احد خدمه بأن يكرر على مسامعه كل يوم في أوقات الطعام هذه الجملة : « مولاي ، تذكر الآثينيين ! »

على انه لما انتصر المعارضون في الانتخابات وتولى منصب الحاكم (هيبارخوس بن خارموس) • وهو رئيس الحزب الدكتاتوري ومن أنصار (هيبياس) أسرع الى اعادة الاسطول الآثيني الذي كان ارسل لمساعدة الثوار الايونيين • وكان (هيبارخوس) يتعاون مع الارستوقراطيين أمثال (ميغاقلس) زعيم اسرة (الآلقميئونيديين) ثم (آلكيبياديس Alcibiades) وغيرهما من دعاة التفاهم مع الفرس •

عندما وصلت الاخبار عن استيلاء الفرس على مدينة (ميليتوس) التي هدمت وحرقت وحكم على اهلها بالعبودية والترحيل ، كان لذلك تأثير عميق في نفوس الاثينيين • فقد كانت (ميليتوس) تعتبر بنت (آثينة) ، وكان هناك علاقات وثيقة ومصالح متبادلة بين تجار العاصمتين • في هذا الوقت مثلت في (آثينة) الرواية الفاجعة (سقوط ميليتوس) التي عبر فيها الشاعر فرينيخوس (Phrynichos) عن عواطف مواطنيه • وقد استسلم الجمهور عند مشاهدة الرواية الى البكاء حسرة على عاقبة المدينة الزاهرة وأسفا على ضياع الفوائد التي كانت تجنيها (آثينة) من التجارة معها • ويذكر بعض الرواة ان (تميستوقلس Themistocles) ، زعيم الحزب الديموقراطي ، هو الذي دفع الشاعر الى تأليف هذه الرواية وانه أراد استخدامها كوسيلة لاثارة حماسة الشعب ولتحريضه على معارضة سياسة الحكومة التي يظهر عليها الخنوع والعجز • وقد ادرك الحكام هذا القصد فمنعوا متابعة تمثيلها وفرضوا على مؤلفها عقوبة نقدية •

يبدو ان (تميستوقلس) هذا لم يكن في بادىء الامر ينتمي الى حزب معين • ولكنه ادرك بسرعة ان مستقبل (آثينة) متوقف على نيلها السيادة في البحر • ولذلك اخذ يتقرب من طبقة التجار وأرباب الصناعة الذين كانت مصالحهم تتطلب هذه السيادة البحرية • وقد انتخب في سنة ٤٩٣ لمنصب الحاكم فانصرف الى تعزيز الاسطول قبل كل شيء •

وعدا (تميستوقلس) نرى في مقدمة الداعين الى مقاومة الفرس : (ميلتياديس Miltiades) وهو الذي كان أرسله (هيبياس) الى (تراقية) ليتولى هناك الحكم بعد موت عمه فجعل نفسه دكتاتورا • ثم رافق (دارا) في حملته على بلاد (السكيت) •• ولكنه بعد نشوب الثورة في (أيونية) انقلب على الفرس الذين أرسلوا حملة الى (تراقية) فهرب حينئذ الى (آثينة) • وقد ظلت تحوم حوله الظنون مدة من الزمن لما عرف عنه من الميل الى الحكم الدكتاتوري • الا ان مقاومته للفرس قد ساعدته على اكتساب

كثيرين من الانصار فقررت المحكمة براءته واصبح من ابرز زعماء (آثينة) أثناء الحروب الفارسية رغم توليه قيادة الحزب الارستوقراطي •

هكذا نرى السلطة في (آثينة) يتنازعها بين سنة (٥١٠) و (٤٩٠) الديموقراطيون والدكتاتوريون والارستوقراطيون • ومن الواضح ان تناوب هذه الاحزاب المتنافسة في ادارة شؤون الحكومة لم يكن ليساعد على تهدئة الحالة واستقرار النظام •

٦• ـ التمهيد للحملة الفارسية :

بعد ان عزم (دارا) على غزو شبه جزيرة اليونان أخذ، حسب عادته، يهيء بكثير من العناية جميع الوسائل السياسية والعسكرية اللازمة للنجاح •

عند البحث في المحاولات الديبلوماسية التي قام بها (دارا) لهذه الغاية ندعي بعض المؤرخين بأنه قد حرص منذ باديء الامر على تحسين العلاقات بينه وبين (قرطاجة) ، التي كانت مستعمرة لرعاياه الفينيقيين ، فتحالف معها للاستفادة من اسطولها القوي في مهاجمة اليونان من جهة الغرب • على ان (هيرودوتس) لا يذكر شيئا عن هذا التحالف بينما ينكر (آرسطو) وجوده بصراحة • وفي الحقيقة ليس في الاخبار المنقولة ما يشير الى ان القرطاجيين قد قاموا بأية حركة أثناء الحرب الفارسية الاولى • أما الحملة التي ارسلتها قرطاجة الى (صقلية) في الحرب الفارسية الثانية فهي أيضا لاتكفي لتأييد نظرية هؤلاء المؤرخين اذ ليس هناك شيء من الوثائق يثبت تفاوض الدولتين واتفاقهما على توحيد التحركات الحربية •

ان جهود (دارا) السياسية لتهيئة غزو اليونان تتجلى بالدرجة الاولى في التدابير التي اتخذها تجاه (ايونية) بعد اخماد الثورة • فقد اذاع الوالي (آرتافرينيس) بالنيابة عن الملك منع الحروب بين المدن اليونانية في آسية الصغرى • وعند حدوث أي خلاف بين هذه المدن كان يتحتم عليها مراجعة الوالي والخضوع لما يحكم به • كما تقرر مساحة الاراضي وتحديدها

وتوزيع الجزية على اساس جديد • ويذكر (هيرودوتس) ان مقدارالجزية لم يزد بذلك على السابق •

ثم جاء (دارا) بنفسه في سنة ٤٩٢ الى (سارديس) ، حيث استدعي مندوبي المدن الايونية واعلن لهم الغاء الحكم الدكتاتوري الذي كان فرض على البلاد منذ عهد (كورش) • وبالفعل فهو قد اقام حكومات ديموقراطية في كل مكان ـ عدا بعض المدن القليلة التي أبقى حكامها الدكتاتوريين مثـل (Stratis) ستراتيس و (خيواس) •

انها حقا مفاجأة كبيرة للعالم ان يقدم هذا الملك الشرقي ، الذي يمثل الحكم الفردي الاستبدادي المطلق ، على تشجيع النظام الديموقراطي الحر • بهذه السياسة الحكيمة ، التي تدل على التسامح وعـلى فهم صحيح لنفسية الشعوب ، استطاع (دارا) ان يكتسب قلوب الايونيين الذين انقادوا بعـد ذلك الى سيطرته واخلدوا الى السكينة وصاروا يتسابقون لخدمته باخلاص فتطوع الكثيرون في جيوشه وأساطيله ولم يتأخروا عن الاشتراك في الحملة على شبه جزيرة اليونان •

والخطوة الثانية في سبيل تهيئة غزو اليـونان كانت اعـادة السـيطرة الفارسية وتوطيدها في (تراقية) و (مكدونية) • وقد عهد (دارا) بهذه المهمة الى صهره (ماردونيوس) الذي سار في سنة ٤٩٢ مع اسطول كبـير بمحاذاة الشواطيء واستولى في طريقه على جزيرة (تاسوس) ثم أرغم الثوار في (تراقية) و (مكدونية) على تقديم الطاعة • ولكن أثناء ذلك أصيب الاسطول بكارثة عند رأس (آتوس Athos) اذ غرق عـدد كبـير من السفن بسبب الزوابع الشديدة • وفي نفس الوقت تعرض جيشه الى هجمات قبائل (البريج) وتكبـد بعض الخسائر • وكان فصل الشـتاء قـد قرب فاضطر (ماردونيوس) الى الرجوع الى آسية الصغرى دون ان يستمر في التقدم الى شبه جزيرة اليونان • وليس من المؤكد انه كان يقصد ذلك كما

يدعي المؤرخون اليونان الذين يصفون الحملة بأنها انتهت بالفشل • فان الهدف الاصلي كان تهدئة الحالة في (تراقية) و (مكدونية) وقد تحقق •

ان الكارثة التي أصابت الاسطول كانت درسا مفيدا للملك الفارسي • فقد ادرك بأنه من الضروري زيادة العناية في تهيئة الحملة الجديدة الى بلاد اليونان نفسها • ولذلك نراه يقضي عام ٤٩١ كله منصرفا الى هذا العمل • وقد تقرر ان ترسل الحملة رأسا عبر بحر ايجه وليس عن طريق (تراقية) و (مكدونية) • فصدرت الاوامر الى المدن على شواطىء آسية الصغرى والى الفينيقيين والمصريين بتجهيز السفن الحربية وتحضير العتاد والذخائر والوسائل اللازمة لنقل الجنود المشاة والخيالة وكانت هذه القوى تتجمع في (كيليكية) • وقد عهد بقيادتها عوضا عن (ماردونيوس) الى القائد الميدي (داتيس) والى ابن عم الملك الـوالي (آرتافرينيس) ، كما انضم اليهـا الدكتاتور (هيبياس) وليس من المحتم ان (دارا) كان ينوي اعادة هذا الرجل الى الحكم في (آثينة) • فهو انما كان يريد ، كما يبدو ، الاستفادة من مشورته واستخدام اسمه لاثارة الخلاف بين الاثينيين • ولا ننسى انه كان لا يزال في (آثينة) عدد كبير من انصار الدكتاتور السابق ينتظرون الفرصة للتعاون مع الاجنبي •

كانت الحملة تتألف من (٦٠٠) سفينة يرافقها عدد كبير من المحاربين الذين يبالغ المؤرخون اليونانيون القدماء فيجعلونهم (٢٠٠٫٠٠٠) في حين ان الباحثين الحديثين يقدرونهم بما يقارب (٥٠٫٠٠٠) • وقد سارت في ربيع سنة ٤٩٠ من (كيليكية) متجهة الى الشمال بمحاذاة شواطىء آسية الصغرى حتى بلغت جزيـرة (ساموس) فتحولت الى الجنوب الغربي في اتجاه جزيرة (ناكسوس) التي كانت قاومت السفن الفارسية عندما هاجمتها قبل سنوات بقيادة الدكتاتور (أرسطاغوراس) وارغمتها على التراجع بعد حصار دام أربعة أشهر • ولكن في هذه المرة لم يستطع سكان الجزيرة تجاه

الهجوم المفاجيء ، ان يستعدوا للدفاع عن انفسهم فأسرع اكثرهم وفروا الى الجبال بينما فرض الفرس العبودية على الباقين في المدينة كما احرقوا المعابد والبيوت • وقد ظلت (ناكسوس) مدة عشر سنوات على اقل تقدير خاضعة للحكم الفارسي •

ثم مرت الحملة الفارسية بجزيرة (ديلوس Delos) التي تعتبر من الامكنة المقدسة عند اليونانيين لوجود معبد (آبولـون) فيها • وقـد اثبت الفرس احترامهم لعقائد الاخرين الدينية فلم يتعرضوا الى الجزيرة بسوء ، بل قاموا بتقديم الضحايا للاله اليوناني •

واخيرا اجتاز الفرس بقية جزر (السيكلاد) التي كانت تقـدم لهم الرهائن كدليل على خضوعها حتى وصلوا الرأس الجنوبي لجزيرة (اوبوئة Euboca) ، حيث تقع مدينة (قارستوس Carystos) التـي رفضت الاستسلام فاقتحموها عنوة واجتاحوا أراضيها • وهنا اقترب الفرس من احد اهداف حملتهم واعني مدينة (أرتيرية Eretria) التي كانت اشتركت مع (آثينة) في مساعدة الثـوار الايونيين وفي حرق (سارديس) والتـي كان (دارا) قد اقسم بأنه لا بد ان ينتقم منها • ومن الغريب ان هذه المدينة لم تكن قد اتفقت مع (آثينة) على التعاون لمقاومة الخطر المشترك رغم انـه لا يفصلها عن مقاطعة (آتيكة) سوى برزخ ضيق • بل ان السكان كانوا هم أنفسهم منقسمين بعضهم على بعض والمنازعات كانت محتدمة بين الاحزاب المختلفة والخونة يتربصون للانضمام الى العدو • وقد قررت (آثينة) ، باقتراح من (ميلتياديس) ، الايعـاز الى مدينـة (خالكيس Chalcis) التابعة لها والواقعة في وسط جزيرة (اوبوئة) ذاتها بارسال ألفين من المحاربين لمساعدة جيرانها • ان هذه النجدة لم تكن كافية لانقاذ مدينة (أرتيرية) التي حاولت الدفاع عن نفسها واشتبك سكانها في معارك عنيفـة مع الفرس خارج الاسوار ولكنها سلمت الى العدو بعد سبعة ايام بسبب خيانة بعض

رجالها البارزين • وقد اشعل الفرس النيران في المعابد والبيوت وفرضوا العبودية على السكان جميعا • وهكذا كانت عقوبة (أرتيرية) أقسى مما اصاب سائر الاماكن التي ذهبت ضحية النزاع بين اليونان والفرس •••

« معركة (ماراتون) »

ان قادة الجيش الفارسي بتخريبهم مدينة (أرتيرية) قد اتموا الجزء الاول والسهل من مهمتهم • وقد بقي عليهم بعد ذلك تصفية الحساب مع المدينة الاخرى التي كانت قد أثارت نقمة ملكهم • على ان هؤلاء القادة ، عوضا عن التقدم الى مكان قريب من (آثينة) ومهاجمتها مباشرة ، قرروا الانتقال من (اوبوئه) الى الشاطىء المقابل ونزلوا بالجيش عند سهل (ماراتون Marathon) في شمالي (آتيكة) • ويبدو ان انتقاء هذه البقعة دون غيرها قد تم باشارة من الدكتاتور (هيبياس) الذي ربما تذكر بأن والده (بيزيستراتوس) كان قد زحف على (آثينة) عن طريق (ماراتون) وقد بين (هيبياس) للفرس ان هذا السهل يفسح المجال لاستخدام الخيالة الذين يمتازون بهم على اليونانيين • وهو كان يعتقد ايضا بأن انصاره لن يتأخروا عن اثارة الاضطرابات وعن مساعدة الجيش الفارسي في الاستيلاء على (آثينة) • ولتسهيل مهمة هؤلاء الانصار وتشجيعهم على اعمال الخيانة كان من المستحسن استدراج الجنود الآثينيين الى خارج المدينة والى مسافة بعيدة نسبيا •

اثار نزول الفرس في سهل (مارتون) هياجا شديدا في كافة انحاء البلاد اليونانية • وقد استولى الفزع على النفوس لان الجميع كانوا يعرفون قوة الجيوش الفارسية التي لم يسبق لها ان انكسرت فكيف يمكن الآن لأمة صغيرة ، مشتتة ، منقسمة ، ضعيفة ان تقف في وجه امبراطورية عظيمة ، تسيطر على القسم الاكبر من العالم ؟ ألم ير اليونانيون كيف قضى الفرس

على ثورة (ايونية) قبل بضع سنوات وماذا كانت عاقبة مدينة (ميليتوس) ؟

عندما اجتمع المواطنون الاثينيون للبحث في الموقف كانت الظواهر كلها تدعو الى الحيرة واليأس • وقد قرر مجلس الشعب قبل كل شيء ارسال احد الرياضيين المشهورين بسرعة الركض يسمى (فيديبيديس Pheidippides) الى (اسبارطة) ليطلب من حكومتها النجدة التي كانت وعدت بها •

ويذكر الرواة ان هذا الساعي قطع المسافة بين البلدين في مدة يوم واحد • على ان الاسبارطيين لم يقبلوا ، لأسباب دينية ، ان يتحرك جيشهم قبل منتصف الشهر القمري •

كانت الآراء متضاربة في (آثينة) حول الخطة التي يجب اتباعها • فقد ذهب البعض الى انه من الانسب الانتظار حتى يزحف الجيش الفارسي على المدينة فتكون المعركة بالقرب من هضبة (الآقروبول) • واقترح غيرهم الخروج من المدينة وملاقاة الفرس حيث نزلوا • انها لساعة حاسمة في تاريخ اليونان عندما قام (ميلتياديس) خطيبا في مجلس الشعب ودافع عن هذا الرأي الثاني واستطاع ان يقنع مواطنيه بضرورة الاسراع في مهاجمة العدو • ومن حسن حظ (آثينة) ان وجد هذا الرجل بين زعمائها في تلك الظروف الحرجة •

كان (ميلتياديس) ، بعد تبرئته من تهمة العمل للحكم الدكتاتوري ، قد انتخب قائدا بين القواد العشرة الذين يساعدون القائد العام • ولا يرجع السبب في نجاحه الى ما عرف عنه من مقاومة الفرس في (تراقية) فحسب ، بل كذلك إلى اشتهاره بمعارضة اسرة (بيزيستراتوس) التي كانت حكمت على والده (سيمون) بالاعدام • ويجب الملاحظة بأن نقمة الجماهير كانت في ذلك الوقت متجهة بالدرجة الاولى ضد الدكتاتور (هيبياس بن بيزيستراتوس) الذي كان يرافق الجيش الفارسي ويرشده ويطمع في

العودة الى الحكم بمساعدته • كل ذلك ساعد (ميلتياديس) على إثارة حماسه مواطنيه وتجنيد أكبر عدد ممكن منهم تطوعوا للدفاع عن بلادهم وحريتهم•

لقد قيل بحق انه لو حدثت الغارة الفارسية قبل عشرين سنة من ذلك التاريخ لما اصطدمت بالمقاومة ذاتها التي اظهرتها (آثينة) الآن • ان سكان هذه المدينة كانوا قد تطوروا كثيرا في هذه المدة القصيرةمنذ طرد (هيبياس)، وذلك بفضل النظام الديموقراطي الذي قلب اخلاقهم وزاد وعيهم السياسي ونفخ فيهم روح التضحية •

أسرع الجيش الآثيني ، الذي كان يتراوح عـدده بين (٩) و (١٠) آلاف ، الى (ماراتون) ، حيث انضم اليه ألف من المحاربين ارسلتهم مدينة (بلاتيئة Plataea) الحليفة المخلصة لآثينة • وكان القائد العام المنتخب في تلك السنة هو (قاليماخوس Callimachus) يساعده عشرة قواد يمثلون « القبائل » العشر بينهم ، الى جانب (ميلتياديس) بعض رجال (آثينـة) البارزين الذين امتازوا في الحروب أمثال (آريستديس) و (تميستوقلس) و (ستزيلاوس) •

كان هناك طريقـان من (آثينـة) الى (مارتـون) : الاولى ، وهي الرئيسية ، تمر بـين جبـال (هيميتوس Hymettus) و (بنتيليقوس Pentilicus) يبلغ طولها (٣٤) كيلو مترا وتنتهي في السهل من الجهة الجنوبية • والثانية اقصر مسافة ولكن اكثر مشقة تمتد شمالا وتصـل الى السهل من جهة الغرب مع مجرى وادي (خارادارة Charadara) وقـد سلك القائد (قاليماخوس) هذه الطريق الوغرة ونصب معسكره في الجبال عند حصن قديم مقدس يسمى (هيراقليئون Heracleion) يشرف على جنود الفرس في السهل دون ان يستطيع هؤلاء رؤيته •

يمتد سهل (ماراتون) على الشاطىء في شكل هلال تحيط به جبال (بنتيليقوس) و (بارنيس) من ثلاث جهات شمالا وشرقا وجنوباً بينما يحده

البحر من الغرب • ويبلغ طوله في اقصى الحالات (٩) كيلو مترات وعرضه (٣) كيلو مترات • ويقسمه وادي (خارادارة) الى قسمين تغمر المستنقعات اكثر اجزاء القسم الشمالي بينما يشبه القسم الجنوبي مدرجا ينحـدر من الغرب الى الشرق • وفي نهاية هذا القسم ايضا كان مستنقع صغير يغمر الارض الضيقة بين البحر والجبال •

وقد صف القائد الاثيني جنوده في الدرجات المرتفعـة من القسـم الجنوبي • وهو بانتقائه هذا الموقع الممتاز قد برهن على مهارة كبيرة في تنظيم المخطط ساعدته كثيرا على كسب المعركـة • لأن الاثينيين اصبحـوا بـذلك لا يسيطرون على الطريق الجبلية التي جاؤوا منها فحسب بل على الطريق الجنوبية أيضا • فكان من الصعب على الفرس ، الذين نصبوا معسكرهم في القسم الشمالي من السهل ، ان يتقدموا من هذه الطريـق للزحف عـلى (آثينة) دون ان يتعرضوا الى هجوم الاثينيين ويتكبدوا خسائر فادحة •

ان مصلحة الفرس كانت تقتضي الاسراع في خوض المعركة مـع اليونانيين • بعكس ذلك كان في صالح الاثينيين الانتظارفي مراكزهم الحصينة الى ان يصل الجيش الاسبارطي الذي كانوا يأملون منه الشيء الكثير •

وقد تم الاتفاق بين القواد العشرة على ان يتخلوا جميعا ، حسب اقتراح (آريستيديس) ، عن حقهم في تولي القيـادة بالتعاقب وان يعهــدوا الى (ميلتياديس) وحده بمهمة اصدار الاوامر الضرورية باسم القائد العام •

هكذا انقضت مدة اسبوع بعد نزول الفرس الى البر دون ان تبدو أي حركة من الطرفين ولكن عندما علم الفرس بواسطة جواسيسهم ان وصول الجيش الاسبارطي اصبح قريبا قرروا في صباح يوم ١٣ أيلول سنة ٤٩٠ المباشرة في الهجوم •

من الصعب وصف الحركات الحربية التي جرت وصفا دقيقـا ، لان الاخبار التي يرويها (هيرودوت) عنها ، وهي اهم مرجع لدينا ، لا تخلو

من النقص ويبدو انه قد صدر الامر الى قسم كبيرمن جنود الفرس وبالاخص فرق الخيالة بركوب السفن الى ميناء (فاليرون) • ثم السير من هناك بسرعة الى هضبة (آقروبوليس) • وما كاد يتم هذا الشحن حتى بدأ الجيش الفارسي ، المتأهب للقتال في شمال سهل (ماراتون) ،يجتاز وادي (خارادارة) ويزحف على الطريق الجنوبية المؤدية الى (آثينة) •

لقد كان القائد (ميلتياديس) ، الذي شاهد من المرتفعات تأهبات الفرس وحركاتهم ، ينتظر هذه اللحظة • فقرر ان يحشد القسم الاعظم من جنوده في الجناحين حتى اذا انكسر المركز استطاع الاطباق على العدو المتقدم وقلب انتصاره الى هزيمة •

يذكر (هيرودوت) ان اليونانيين اندفعوا من مواقعهم واخذوا يركضون حتى التحموا في القتال مع العدو وجها لوجه وبذلك تجنبوا التعرض لنبال الفرس التي كان من الممكن ان تصرع اكثرهم عن بعد • ونرى جمهور المؤرخين الحديثين يتبعون رواية (هيرودوت) • ويصفون بكثير من الاعجاب هذا الهجوم « الصاعق » من مواقع اليونانيين المرتفعة الى الطريق على الشاطىء التي سلكها الفرس — أي من مسافة (١٫٥٠٠) مترا • على ان الباحث الالماني المشهور (دلبروك) صاحب كتاب « تاريخ الحروب » قد بين بأنه من المستحيل ان يقطع المحاربون اليونانيون هذه المسافة الطويلة « ركضا » ، لا سيما اذا لاحظنا الاسلحة الثقيلة التي كانوا يحملونها • ثم يتساءل (دلبروك) « ما الفائدة في ان يركض هؤلاء المحاربون مسافة كيلو متر ونصف فلا يصلون الى جانب العدو الا وقد انقطعت أنفاسهم ؟ » أما القول بأنهم يريدون بذلك اجتناب السهام فيرد عليه بأن رماة القوس لا يستطيعون اصابة العدو بصورة مؤثرة من مسافة تزيد على (١٠٠) متر • وهكذا ان كان اليونانيون قد قاموا حقا ، كما يذكر (هيرودوت) ، بهجوم « صاعق » فلا بد ان يكون ذلك بعد وصولهم الى قرب الفرس ثم بعد انهزام هؤلاء واسراعهم الى ركوب السفن •••

وفي الواقع نجحت الخطة التي رسمها (ميلتياديس) ، اذ ان الجنود الذين حشدهم في المركز قد اشتبكوا ، رغم قلة عددهم ، مع الفرس في قتال عنيف استمر مدة طويلة وانتهى بتراجع اليونانيين • ولكن ما كاد الفرس يتقدمون لتعقب هؤلاء حتى فاجأهم الهجوم من الجناحين فرأوا أنفسهم ضمن نطاق محكم واستولى عليهم الفزع ولم يعودوا يفكرون الا في الوصول الى الشاطىء والتجوء الى السفن • وقد استفاد اليونانيون من فوضى الهزيمة فاندفعوا الى الشاطىء وقتلوا عددا كبيرا من العدو كما استولوا على سبع من سفنه • وكان بين المقاتلين الآثينيين الشاعر المشهور (اسخيلوس) ويروى ان أخاه (سينيجيروس) اظهر بطولة رائعة اذ قبض على احدى السفن وظل متمسكا بها رغم ضربات السيوف التي انهالت عليه وأدت الى قطع يده ثم موته •

ان خطـة (ميلتياديس) كانت ، كما نرى ، بسيطة جـدا • ولكن نجاحها كان يتوقف على تحقيق شروط صعبة للغاية • فقد كان يجب ان تتم الحركات جميعها بمنتهى السرعة • وكان ينبغي ان يتقدم المحاربون اليونانيون تحت وابل من النبال المتساقطة عليهم دون أي خوف أو تردد • كذلك كان لا بد من استدراج الفرس الى ساحة ضيقة حتى لا يجد فرسانهم مجـالا للحركة وللاشتراك في القتال • واذا كنا نعترف بعبقرية (ميلتياديس) وبعد نظره وحزمه واقدامه وحسن ادارته سواء في اقنـاع مواطنيه بضـرورة الخروج من (آثينة) وملاقاة العدو في (ماراتون) أو في انتقاء افضل المواقع لحشد جنوده أو في السيطرة على الجيش وتأخيره عن الاصطدام بالعدو حتى الوقت المناسب أو في كيفية توزيعه الجند بين المركز والجناحين أو في تعطيله حركة الخياله الفرس ـ اذا كنا نعترف بكل ذلك فلا بد لنا من التنويه أيضا بأن هذه الخطة البارعة لم يكن من الممكن تنفيذها لولا ما اتصف به المواطنون الآثينيون من شجاعة ومهارة في القتال • فالفضل الاول في انتصار اليونانيين يرجع الى هؤلاء المواطنين الذين عاشوا تحت الحكم الديموقراطي وأدركوا

معنى الحرية وقيمة الانقيـاد للنظام في الوقت نفسه فنضج وعيهم السـياسي واصبحوا يعرفون لماذا يقاتلون •

نال اليونانيون نصرا باهرا في معركة (ماراتون) • واصيب الجيش الفارسي رغم كثرة عدده ، بهزيمة شنيعة فبلغ عـدد القتلى من الفرس (٦٫٤٠٠) بينما لم يتجاوز عدد القتلى الآثينيين (١٩٢) • وكان بين هؤلاء القائد العام (قاليماخوس Callimachus) والقائد (ستزيلاوس) •

لم ينقطع الخطر على (آثينة) بانهزام الفرس في سهل (ماراتون)• فان عددا كبيرا من جنودهم كانوا ، كما ذكرنا ، قد ركبوا السفن قبل ابتداء المعركة • وبعـد ان التحق بهـم الآخرون اتجـه القائـدان (داتيس) و (آرتافرينيس) • مع الاسطول الفارسي الى الجنوب • وكانت الدلائـل تشير الى انهما سيحاولان النزول في ميناء (فاليرون) ومهاجمة (آثينـة) الخالية من الجنود •

يروي (هيرودوت) انه بينما اصبح الفرس في عرض البحر ، شوهد درع يلمع في الشمس على قمة جبل (بنتيليقوس Pentilicus) تلك هـي الاشارة التي كان اتفق عليها الفرس مع انصـار (هيبياس) والتـي تعلن استعداد هؤلاء لفتح ابواب (آثينة) أمام الغزاة• ولم يستطع الاثينيون معرفة الخونة الذين قاموا بهذا العمل •

وعلى كل حال قرر قادة الجيش اليوناني ان يسرعوا في العودة الى (آثينة) بعد ان عهدوا الى (آريستيديس) بالبقاء في (ماراتون) لحراسة القتلى والغنائم •

كان الاسطول الفارسي يحتاج الى مدة عشـر سـاعات لبلوغ مينـاء (فاليرون) بينما يمكن للجيش اليوناني ، اذا جد في المسير ، ان يصل عن الطريق البرية الى (آثينة) في ثماني ساعات • وفي الواقع عندما اصبح الجنود

اليونانيون في ضواحي (آثينة) كان الاسطول الفارسي قد رسا على شاطىء الميناء • ولكن الفرس لم يلبثوا حتى أقلعوا بعد ان لاحظوا عودة الجيش اليوناني فخافوا من منازلته مرة ثانية •

في اليوم التالي وصل الى (آثينة) جيش الاسبارطيين المؤلف من الفي مقاتل • ولما علم هؤلاء بأن الاثينيين قد استطاعوا وحدهم طرد الفرس دون حاجة الى مساعدتهم لم يسعهم الا ابداء الأسف لتأخرهم بسبب التقاليــد الدينية واعتقدوا بأنه ليس من اللياقة ان يعودوا الى بلدهم الا بعد زيــارة (ماراتون) والقاء نظرة على قتلى الفرس ثم تهنئة الآثينيين على انتصــارهم الرائع • ويبدو ان الجنود الاسبارطيين قد القوا تبعــة التأخر عــلى ملكهم (قلئومينيس Cleomenes) الذي لم يرافقهم لذلك في هذه الزيارة والذي اصيب في السنة التالية بنوبة جنونية فقتل نفسه •

كان من الطبيعي ان يعني الاثينيون بتمجيد ذكرى معركة (ماراتون)• فقد شيدوا في ساحة القتال نفسها آبدة للابطال الذين ماتوا في سبيل الدفاع عن الوطن ونصبوا في المدينة مسلة باسم القائد العام الشجاع • ثم اعربوا عن شكرهم للآلهة بتخصيص عشر الغنائم للمعابد•وليس غريبا ان يجد الاثينيون في ذكرى النصر مجالا واسعا لارضاء غريزة الاعجاب بالنفس فأرخوا العنان للخيال واسترسلوا في وصف ما أظهره أبطالهم من الشجاعة • وكانت اسرة (ميلتياديس) التي ارتفع شأنها في (آثينة) تبالغ كثيرا في التنويه بالدور الذي لعبه جدها •

وقد كثرت الاساطير حول المعركة مع تعاقب الاجيــال حتى اصبح من الصعب بعد مدة قصيرة التمييز بينها وبين الوقائع الحقيقية •

ولعل أروع مثال للصورة التي كان يتخيلها فيما بعد احفاد المحاربين الابطال عن معركة (ماراتون) هو الذي نجده في ثلاثة مناظر يتألف منهــا الافريز على باب السوق في (آثينة) وقد نحت هذا الافريز بعد ربع قرن

من قبل الفنان (ميقون) • نشاهد في المنظر الاول المقاتلين الآثينيين والبلاتثيين يهاجمون جنود الفرس ، وفي المنظر الثاني نرى هؤلاء الفرس المنهزمين يدفع بعضهم الآخر الى المستنقع بينما يمثل لنا المنظر الثالث السفن الفنيقية ويصور اليونانيين وهم يذبحون اعداءهم الذين يسعون للوصول الى السفن • ويستطيع الناظر ان يميز بوضوح الشخصيات البارزة مثل (قاليماخوس) و (ميلتياديس) من جهة و (داتيس) و (آرتافرنيس) من جهة ثانية ، ثم (سينيجيروس) وهو يمسك بمقدمة احدى السفن • كذلك نشاهد في هذه المناظر صورة (تيزئيوس Theseus) الملك والبطل الأسطوري الذي كان وحد (آتيكة) وارتفع الى مصاف الالهة كأنه يصعد من بطن الارض ليساعد المحاربين اليونانيين بروح منه بينما نرى صور الالهة وهي تراقب المعركة من علياء الاولمب •

على ان بعض الكتاب اليونانيين انفسهم اخذوا في القرن الرابع ينتقدون الاخبار المتناقلة عن المعركة ويعربون عن شكهم في صحة الروايات الخارقة•

ولكن مهما كان هناك من مبالغة في الروايات المنقولة فلا شك في ان معركة (ماراتون) كانت نصرا مبينا لليونانيين وتركت أثرا عميقا في نفوسهم جميعا • ان هذا النصر هو الذي نفخ فيهم روح الحماسة وشجعهم على مقاومة الغزو الاجنبي في المرة التالية • ولكن أهم نتائج هذا الظفر قد ظهرت في (آثينة) خاصة التي استطاعت وحدها صد الغزاة ونالت بذلك مكانة مرموقة بين الدول اليونانية فازدادت ثقة بنفسها وتمسكا بأنظمتها ومؤسساتها الديموقراطية وصارت تطمع الى توسيع نفوذها وبسط سيطرتها •••

الفصل الحادي عشر

الحروب الفارسية الثانية

١ - بين الحربين :

لم يكن من المنتظر ان يتحمل الفرس عار الهزيمة التي اصابتهم في (ماراتون) وان يتخلوا عن أخذ الثأر ....

وفي الحقيقة فقد عادوا بعد مرور عشر سنوات الى غزو بلاد اليونان من جديد . ورغم انه ليس هناك اي هدنة او معاهدة تفصل بين الغارتين فقد اصطلح المؤرخون على تسمية الحملة الجديدة بالحرب « الميدية الثانية » . وقبل ان ننتقل إلى وصف التأهبات لهذه الحرب وذكر حوادثها الهامة لابد لنا من القاء نظرة سريعة على حالة (آثينة) وعلاقاتها مع جيرانها في هذه الفترة.

نلاحظ قبل كل شيء انه منذ عهد (قليستينيس) ، وبصورة خاصة ، بعد معركة (ماراتون) قد حدثت تبدلات هامة في دستور (آثينة) . لقد كان هناك قبلا ، حسب اصلاحات (قليستينيس) ، شيء من التوازن بين سلطة الحاكم وسلطة مجلس الخمسمائة . وكان يبدو من تطور الفكرة الديموقراطية ان سلطة المجلس آخذة في الازدياد وانها ستصبح هي العليا . وهذا ما حصل بعد بضع سنوات من معركة (ماراتون) ، اذ طرأ تعديل جوهري على طريقة انتقاء الحكام (آرخون) ، فقد كان هؤلاء ينتخبون من صفوف الزعماء أصحاب الكفاءة ولذلك كانوا يتمتعون بنفوذ كبير . أما

النظام الجديد فقد نص على انتقائهم بالقرعة من مجموع المرشحين الخمسمائة الذين تسميهم القبائل على طريقة انتخاب مجلس الخمسمائة . وبما ان ارباب الحظ ليسوا في الغالب من ذوي الكفاءة فكان من الطبيعي ان يفقد منصب الحاكم اهميته السياسية . ومن جهة ثانية كانت ظروف الحرب قد رفعت من شأن القادة العسكريين (Polemarchoi) العشرة الذين ينتخبون بكثير من العناية بين الاخصائيين المجربين . وقد جرى تعديل هام في طريقة انتخاب هؤلاء ايضا من شأنه تقوية نفوذهم . فانه بعد ان كانت كل قبيلة تنتقي قائدا يمثلها اصبح الشعب كله يشترك في انتخاب القادة العشرة ولو ان الناخبين ظلوا يحرصون بقدر الامكان على توزيع هذه المناصب بين القبائل المختلفة .

بعد ان زادت سلطة القادة العسكريين وادرك الاثينيون بالتجربة الاضرار التي تنشأ في حالة الحرب عن تقسيم هذه السلطة بين عشرة اشخاص يتولى كل منهم القيادة مدة يوم واحد تقرر تغيير هذا النظام ، فصار مجلس الشعب عند التصويت بالموافقة على ارسال حملة عسكرية يسمى هو نفسه واحدا من القادة رئيسا لها .

٢ - حملة (باروس) ونهاية (ميلتيادیس)

يقول (هيرودوت) : « ان هزيمة الفرس في (ماراتون) قد زادت كثيرا من شهرة (ميلتيادیس) الذي كان قبل ذلك ايضا يتمتع بنفوذ كبير » . مثل هذه الشهادة ، التي تكشف عن جهود (ميلتيادیس) في ادارة الاعمال الحربية وفضله في كسب النصر ، لها قيمة تاريخية خاصة لان صاحبها ليس متهما بالتشيع للقائد الذي سبق له ان حكم في مقاطعة (تراكية) حكما ديكتاتوريا . واذا كان الآثينيون عامة قد تناسوا ، في ساعة الخطر ، ماضي الرجل وعرفوا كيف يستفيدون من مواهبه ثم لم يبخلوا عليه بالمديح والتكريم لخدماته فان رؤساء الحزب الديموقراطي الذين اصبحوا يسيطرون

على الموقف ، ظلوا خصوما ألداء له يخافون جانبه ويحذرون من ان يفرض نفسه خلفا لاسرة (بيزيستراتوس) •

هكذا كان (ميلتياديس) يحتاج دوما الى القيام بأعمال جديدة ، باهرة للمحافظة على مكانته وشهرته • فنراه في ربيع سنة (٤٨٩) ، أي بعد عدة اشهر فقط من معركة (ماراتون) يقترح على مجلس الشعب ان يعهد اليه بقيادة حملة بحرية ادعى ان المصلحة تقتضي كتمان هدفها • وقد اقتصر على التلميح بأن الحملة لها صلة بالحرب الفارسية وانها ستعود على (آثينة) بكثير من الخيرات • ومما يدل على مدى ثقة الاثينيين به موافقة المجلس على اعطائه عددا كبيرا من السفن مع ما يلزم من المال والجنود دون ان يعرف احد القصد من ذلك • وقد تبين بعد سفر الحملة ان (ميلتياديس) كان يستهدف جزيرة (باروس Paros) من جزر (السيكلاد) المشهورة بمناجم الذهب • ويبدو ان اعمال القرصنة التي اعتاد عليها الرجل في الماضي قد اوحت اليه بفكرة الهجوم على الجزيرة الصغيرة وسلب اموالها فتذرع لذلك بحجة ان سكان الجزيرة كانوا في السنة الماضية قد احسنوا استقبال الفرس وقدموا اليهم سفينة • ولكن جزيرة (باروس) قامت تدافع عن نفسها بشجاعة واضطرت (ميلتياديس) الى العودة من حيث أتى بعد ان حاصرها عبثا مدة (٢٦) يوما واصيب اثناء ذلك بجرح خطير • وهناك روايات يصعب التحقيق من صحتها تدعي بأن (ميلتياديس) لم يجرح أثناء القتال وانما في حادث اعتداء على احدى راهبات المعبد • وعلى كل حال فانه بعد رجوعه الى (آثينة) فاشلا اتهمه خصومه من الحزب الديموقراطي بأنه خدع الشعب • وجرت المحاكمة دون ان يستطيع حضورها بسبب الجرح• وقد قبلت المحكمة ان تخفف عنه العقوبة تقديرا لخدماته الوطنية السابقة فلم تحكم عليه بالاعدام بل اكتفت بجزاء نقدي يبلغ خمسين (تالنت) • على ان (ميلتياديس) مات بعد مدة قصيرة متأثرا بجراحه فظل ابنه (سيمون

Simon) ، الذي لعب فيما بعد دورا سياسيا هاما ، يدفع هذا المبلغ الضخم على اقساط عديدة •

٣ ـ القضاء على أعداء الديموقراطية :

ان جمهور الشعب في (آثينة) لم يأسف لهذه العاقبة التي انتهى اليها (ميلتياديس) كضحية لطمعه وتهوره • فقد كانت معركة (ماراتون) نصرا للحزب الديموقراطي الذي بدأ يسيطر على الحياة السياسية في (آثينة) ويسعى لاتمام الاصلاحات التقدمية •

للسير بخطى هادئة في هذه الطريق كان لا بد من استخدام جميع الوسائل للقضاء على اصحاب النفوذ المعارضين للحكم الشعبي سواء كانوا من انصار الديكتاتورية أو الارستوقراطية • ولهذه الغاية لجأ الاثينيون الى حق النفي (Ostrakismos) ، هذا السلاح المخيف الذين كان اخترعه (قليستينيس) والذي ظل مهملا حتى ذلك العهد • ولكن بعد خيانة (هيبياس) الذي رافق الفرس كدليل يقودهم الى غزو بلاده لم يبق مجال للتردد في الضرب على ايدي جميع الاشخاص المشبوهين • فكان اول من حكم عليه بالنفي (هيبارخوس بن خارموس) زعيم الحزب الديكتاتوري في سنة٤٨٨• وفي السنة التالية أبعد اثنان من انصاره • ثم نفي (ميغاقليس Megacles) زعيم اسرة (آلقمئونيد) في سنة (٤٨٦) وبعده بسنة (آلكيباديس Alcibiades) •

واخيرا لم يبق هناك من زعماء الجيل الماضي سوى (كسانتيبوس)• و (آريستيديس) ، وكلاهما من النبلاء • وكان الاول من اسرة (آلقمئونيد) ولكنه انضم الى الحزب الديموقراطي وأخلص لمبادىء الحكم الشعبي • أما (آريستيديس) ، الذي مر معنا ذكره مرات عديدة ، فكان صديقا لقليستينيس واشتهر بكرم الاخلاق والنزاهة وتولى مناصب كبيرة كمحافظ على خزانة (آثينة) وقائد وحاكم برهن فيها جميعا على كفاءته وتجرده •

الا انه كان ينتقد دوما النظام الديموقراطي • لذلك احتدم النزاع بينه وبين (كسانتيبوس) • ويظهر ان الاثينين لم يرق لهم هـذا الخلاف وارادوا التخلص من رجال السياسة القدماء جميعا فحكموا في سنة ٤٨٤ بالنفي عـلى (كسانتيبوس) ثم في سنة ٤٨٢ على آريستيديس دون ان تكون هناك اي اتهامات ضدهما •

٤ ـ شخصية (تميستوقليس) وسياسته :

ان الرجـل الذي دعا مجلس الشعب الى ابعاد هـذين الزعيمين هو (تميستوقليس Themistocles) الذي بدأ يلمع نجمه منذ عشر سنوات• وقد ظل نفوذه يتزايد دون انقطاع حتى اصبح يسيطر وحده على سياسـة (آثينة) ومن المؤسف اننا لا نعرف الشيء الكثير عن حياة هذا الرجل الذي ترك أثرا عميقا في تاريخ بلاده يكاد لا يضاهيه تأثير أي شخص آخر • ان هيرودوت يتكلم عنه بلهجة لاتخلو من الازدراء مقتصرا عـلى ذكـر بعض النوادر عنه • بخلاف ذلك نرى المؤرخ الكبير (توكيديديسThucidides) يمتدحه دون تردد ولكنه لا يتوسع في ترجمة حياته • ولا غرابة في اهمال المؤرخين للاخبـار عن الاشـخاص المعـاصرين • اضف الى ذلك ان (تميستوقليس) لم يكن من اسرة معروفة وان نهايته لم تكن مجيدة • فهو ابن رجل غريب من طبقة الصناع اسمه (نتوقليس) نالمؤخرا صفة مواطن اثيني • ولذلك نجد اسم (تميستوقليس) في الوثائق الرسمية لايضافاليه، خلافا للعادة ، اسم والده •

ان (تميستوقليس) من الرجـال الذين خلقـوا انفسهم بجهـودهم الشخصية • وهو قد توصل الى اكبر المناصب بفضل نبوغه وحده ، فصار حاكما (آرخون) ولما يتجاوز الثلاثين من العمر ثم انتخب قائدا في الثانية والثلاثين من عمره • فكان من الطبيعي ان يثير حسد الكثيرين • ولابد من الملاحظة بأن الناحية الاخلاقية لديه لم تكن نقية وعـلى درجـة من السمو

تتناسب مع ما امتاز به من ذكاء خارق • لقد اغدقت عليه الطبيعة كثيرا من المواهب النادرة : فكان خطيبا بارعا يخلب عقول السامعين ويستهوي الجماهير ويحركها • وكان داهية حذرا ومقداما جسورا في الوقت نفسه ، بعيد النظر ، سريع الخاطر ، واضح الافكار ، صحيح الاحكام • ومن جهة ثانية كان معجبا بنفسه ، كثير الغرور محبا للعظمة ، متهالكاً وراء الشهرة ،حريصا على المال ، لا يعرف رادعا ولا يتقيد بأي زاجر • فهو قد جمع كافة الصفات التي تلزم للنجاح في الحياة السياسية واستطاع ان يقوم بأعمال باهرة حتى اصبح اشهر واعظم « رجل دولة » تولى قيادة (آثينة) السياسية والعسكرية في أخطر دور من تاريخها •

كان (تميستوقليس) يرمي الى هدف صعب جدا وهو ان يخلق اسطولا للدولة ويجعل من (آثينة) اعظم قوة بحرية في العالم اليوناني • ولاشك في ان هذه الفكرة التي انبثقت متلألئة من خياله كانت تبشر بمستقبل زاهر حقا • وهو قد ادرك بثاقب رأيه الاسباب العامة والخاصة التي تجعل انشاء الاسطول شرطا ضروريا لحياة بلاده ومجدها • وبينما كان الكثيرون غيره يزعمون بان الانتصار في معركة (ماراتون) قد انقذ اليونان من كل خطر نراه ، على العكس ، يشعر بأن تلك المعركة لم تكن سوى مقدمة لنضال شاق ، طويل لا بد من التأهب له • فالفضل يرجع اليه وحده في اقناع (آثينة) بأنه لا غنى لها ، في سبيل المحافظة على كيانها ـ كما قال في احدى خطبه ـ « عن أن تنزل بمجموعها الى البحر ويستبدل جنودها الحراب بالمجاديف » •

بدأ (تمستوقليس) في بناء الاساس لهذا العمل منذ ان كان حاكما سنة (٤٩٣ ـ ٤٩٢) ، اذ قرر نقل ميناء (آثينة) من موقع (فاليرون) المفتوح وغير الصالح الى مرفأ (بيريثوس Peiraieus) العميق والحريز • ربما يبدو غريبا ان يكون الآثينيون قد غفلوا عن العناية بهذا المرفأ الطبيعي

وعن الاستفادة من مزاياه الكثيرة • ولعل السبب في ذلك هو ان ميناء (فاليرون) أقرب مسافة كما يمكن رؤيتها من هضبة (آقروبوليس) •

وقد وافق مجلس الشعب على المباشرة حالا بتحصين مرفأ (بيرئيوس)• وبعد معركة (ماراتون) طلب (تميستوقليس) الذي اصبح قائداً استئناف اعمال التحصين التي كانت قد توقفت أثناء الحرب •

ثم اخذ (تميستوقليس) يسرع في انشاء الاسطول رغم معارضة الكثيرين لفكرة اهمال الجيش البري لصالح القوة البحرية • ومما ساعده على اضعاف هذه المعارضة الحرب التي تجددت اذ ذاك بين (آثينة) وجزيرة (أجينة) وقد سبق ان ذكرنا غارة الاجينيين على سواحل (آتيكة) في سنة (٤٩٨) ثم تدخل (اسبارطة) في الامر سنة (٤٩١) ، اذ قبض ملكها (قلئومينيس) على عدد من الاشخاص البارزين في (أجينة) وسلمهم كرهائن الى الآثينيين • الا انه بعد معركة (ماراتون) ، وبعد انتحار الملك (قلئومينيس) الذي اكتشفت مؤامراته واتهم بتأخير زحف الجيش الاسبارطي الى (ماراتون) ، عاد سكان (أجينة) وطلبوا ارجاع الرهائن • وكانت (اسبارطة) قد تخلت في الصميم عن تأييد (آثينة) كرهاً لنظامها الديموقراطي وخوفا من تزايد قوتها • فلما رفضت آثينة اعادة الرهائن اعلنت (أجينة) الحرب عليها وأخذت تغزو شواطيء بلادها • وقد دامت الحرب عدة سنوات سنحت اثناءها الفرصة للاثينيين بأن يستولوا على الجزيرة بمؤازرة احد زعماء (أجينة) الديموقراطيين الذي ثار وطلب المعونة • ولكن فقدان الأسطول القوي لدى الاثينيين حال دون استثمار الفرصة• حينئذ بدأ هؤلاء يدركون وجاهة السياسة التي كان يدعو اليها (تميستوقليس) •

لم تكن تعديات (أجينة) ولا أخطار الغزو الفارسي وحدها كافية لاكتساب الرأي العام ونيل موافقته على هذه السياسة • وقد استطاع

(تميستوقليس) ان يجد حجة مقنعة للجميع عندما بدأت (آثينة) تلاقي مصاعب جسيمة في تأمين المواد الغذائية الضرورية بسبب تكاثر سكانها وظروف الحرب . ومما زاد في حراجة الموقف انقطاع ورود الحبوب من مقاطعتي (بثوتية وتسالية) اللتين اصبحتا معاديتين لآثينة ناهيك عن ان محصولهما في حد ذاته قليل لا يمكن ان يسد الحاجة . ثم ان آسيةالصغرى والمسالك الى البحر الاسود كانت في ايدي الفرس فلا سبيل الى وصول شيء من تلك الانحاء . لذلك لم يبق امام (آثينة) سوى الاتجاه الى جنوب ايطالية وجزيرة صقلية . وللوصول الى هناك واكتساب النفوذ وانشاء علاقات تجارية كان لا بد من وجود اسطول آثيني كبير . وقد بذل (تميستوقليس) عناية زائدة في سبيل توثيق الصلات مع تلك البلاد . فنراه يسمى احدى بناته (سيباريس Sybaris) ـ وهي مدينة في جنوب ايطالية ـ والبنت الثانية (الايطالية) . كذلك كانت له مخابرات وديه مع (هيرون Hyron) دكتاتور (سيراكوزة) .

على ان أهم عقبة كانت تقف حائلا دون انشاء اسطول كبير في مدة قصيرة هي قلة الاموال اللازمة . فقد كانت واردات الدولة زهيدة لاتكفي للقيام بمثل هذا المشروع . هنا اسرع الحظ الى اسعاف (آثينة) اذ اكتشفت فجأة (في سنة ٤٨٣) مناجم جديدة غنية بالفضة في جبل (لوريون Laurion) تولت الحكومة استثمارها على مقياس واسع حتى صارت تدر على الخزينة في كل سنة مائة الف ليرة ذهبية . وقد نجح (تميستوقليس) في اقناع مجلس الشعب بضرورة تخصيص هذا المبلغ كله لانشاء سفن حربية . وهكذا لم تنقض مدة سنتين حتى اصبح لدى حكومة (آثينة) ما يقارب (٢٠٠) سفينة . وسنرى كيف ان هذا الاسطول هو الذي انقذ وحدة بلاد اليونان من الغارة الفارسية الجديدة ، كما ان (آثينة) قد استطاعت بعد الخلاص من الخطر الفارسي استخدام هذا الاسطول لتكوين

« امبراطورية » انتشر فيها نفوذها فبلغت أوج عظمتها في السيطرة السياسية وازدهار الحضارة •••

٥ ـ اشتراك (آثينة) و (اسبارطة) في تهيئة وسائل الدفاع :

كانت (اسبارطة) تراقب بكثير من الغيرة والحذر ازدياد قوة (اثينة) ولكنها لم يكن لديها أي وسيلة للحيلولة دون ذلك • ولا ننسى انها كانت دوما مهددة باندلاع نار الثورة بين (الهيلوتيين) في بلادها ، كما ان العداء كان مستحكما بينها وبين جارتها (آرغوس) التي كانت تنتظر أول فرصة لمهاجمتها • وهكذا ظلت (اسبارطة) في الفتـرة بين الحربين الفارسيتين منهمكة في مشاكلها الخاصة وعاجزة عن التدخل في شؤون غيرها • على انه لما كثرت الشائعات عن تأهبات الفرس لغزو بلاد اليونان واقتـراب موعـد هجومهم ، ادرك الاثينيون والاسبارطيون معا ان هناك مصلحةمشتركة تجمع بينهما وتفرض عليهما توحيد الجهود لمجابهة الخطر الاجنبي وبالرغم من ان اسبارطة كانت لا تعتقد بامكان وصول الفرس اليها فهي لم تكن لتجهل النتائج التي يمكن ان تنجم عن غارة الفرس• فانه اذا انتصر الفرسواحتلوا (آثينة) فقدت دولة (اسبارطة) مكانتها في بلاد اليونان• وكذلك اذا نجحت (آثينة) وحدها في صد الفرس ، كما حدث في معركة (ماراتون) ، فلابد ان يتضاءل شأن (اسبارطة) •

لذلك تم الاتفاق بين الدولتين على عقد مؤتمر للبحث في التدابيراللازم اتخاذها تجاه الغزو المنتظر والسعي الى جمع كلمة اليـونانيين للقيـام بعمل مشترك • وقد وزعت الدعوات من قبل (اسبارطة) على كافة المدن اليونانية ترجو فيها ارسال مندوبين مفوضين الى معبد (بوزايدون Poseidon) عند برزخ (قورنت) ، في منتصف الطريق بين (آثينة) و (اسبارطة) الا انه لم يستجب لهذه الدعوة سوى واحدة وثلاثون مدينـة • ولما انعقـد المؤتمر اقترح (تميستوقليس) ان يتم التصافي بين الجميع فوافق الحاضرون

ووعدت مثلا (آثينة) و (أجينة) بنسيان المنازعات بينهما ، ثم أقسم المندوبون على القيام بواجب الدفاع المشترك وحددوا عدد المقاتلين الذين ينبغي ان ترسلهم كل مدينة • كذلك قرر المؤتمر تنظيم مصلحة للتجسس في سبيل الاطلاع على تأهبات الفرس وحركاتهم •

وقد برهنت (آثينة) في هذه الظروف العصيبة على منتهى ما يمكن من نكران الذات في سبيل مصلحة اليونان المشتركة • فهي لم تقتصر على التسليم لاسبارطة بتولي قيادة الجيوش البرية بل تنازلت ايضا عن قيادة الاسطول في البحر رغم انها كانت قد اصبحت اقوى دولة بحرية ولها كل الحق في التقدم على غيرها •

وهكذا تقرر ان يكون القائد الاعلى في البر (لئونيداس Leonidas) أحد الملكين في اسبارطة والقائد الاعلى في البحر (اوريبياديس Euripiades) الملك الاسبارطي الآخر •

كذلك تجلت روح الحكمة التي تمتاز بها (آثينة) في اعلانها العفو عن المنفيين الذين لم يعرف عنهم التعاون مع الفرس • وكان على رأس المنفيين العائدين (آريستيديس) الذي عهد اليه بمشاركة (تميستوقليس) في تحمل المسؤوليات الكبرى رغم الخلاف القديم بينهما •

تدل الاخبار على ان بلاد اليونان اصبحت في تلك الآونة مسرحا للشائعات المضللة التي تبالغ في وصف قوى الفرس الهائلة وتسعى الى تثبيط الهمم • وكان الرهبان العرافون في معبد (دلفي) يعملون على نشر الذعر بين الناس بتنبؤاتهم الغامضة الداعية الى اليأس • وليس مستبعدا ان يكون الفرس قد دفعوا لهم مبالغ كبيرة مقابل ذلك • على ان مؤتمر (قورنت) لم يتخاذل واستمر في موقفه الحازم فاعلن ان أعضاءه مصممون على منازلة العدو والدفاع عن حرية اليونان مهما كلف الامر • وقد قرر المؤتمر تعيين مراقبين في مختلف الاماكن للقيام بالمراقبة كما أرسل ثلاثة جواسيس الى

مدينة (ساردیس) ، حيث كان الجنـود الفرس ينتظرون انقضـاء فصـل الشتاء • وقد قبض على هؤلاء الجواسيس ولكن الملك (سرخس) أمر بأن لا يعدموا بل ان يطاف بهم على الجيش من أوله الى آخره وان يسمح لهم بالاطلاع على كل شيء ثم طلب اليهم ان يعـودوا من حيث اتوا لاخبـار اعضاء المؤتمر عن مشاهداتهم •

كان الملك الفارسي معتزا بجيشه الهائـل فاعتقـد بأن اليونانيـين اذا سمعوا وصفا دقيقا لقواه لا بد ان تخور عزائمهـم وتتلاشى روح المقاومـة لديهم • ولكن المستقبل اثبت له بأنه كان مخطئا في هذا الاعتقاد •

٦ ـ تأهبات الفرس :

نستدل من تأهبات اليونانيين ، التي وصفناها ، ان هؤلاء وفي مقدمتهـم (آثينة واسبارطة) كانوا يعتبرون الحرب مـع الفرس من اهـم الحوادث الحاسمة ليس في تاريخ اليونان فحسب ، بل في تاريخ البشرية عامة وفي الواقع كانت الغارة الفارسية تهـدد استقلالهم وحريتهـم ، فلا غرابـة اذا اصبحت بالنسبة اليهم مسألة موت أو حياة • وهذا هو السبب في اهتمـام المؤرخين اليونانيين برواية جميع الأخبار المتعلقـة بالحرب واسترسالهم في وصف التأهبات التي سبقتها وشرح وقائعها والنتائج التي ادت اليها •

أما في نظر الفرس فليس الامر كذلك • ان الحرب في اليونان لم تكن بالنسبة اليهم سوى احدى الحوادث المعتادة التي كثيرا ما تقع عـلى اطراف الامبراطورية الشاسعة • فهي حملة تأديبية طارئة يقصد منها تأمين سـلامة الحدود • واذا كانت الحملة قد انتهت بالفشل فلا يمكن ان يؤثر ذلك في كيان الامبراطورية •

ربما كان صحيحا ما يرويه (هيرودوت) من أن الملك (دارا) قـد ظهر عليه الغضب الشديد عندما بلغه خبر الهزيمة في (ماراتون) • ومن المؤكد انه صمم على اخذ الثأر لانه كان يعرف جيدا ما يحتمل ان يحدثـه

[illegible] البونانبين [illegible] اضطرابات وثورات في (مكدونيـة) و (تراكيـة)
[illegible] ية) الخاضعة لحكمه •

تشير الاخبار الى ان (دارا) بدأ منذ سنة (٤٨٩ – ٤٨٨) يعمل على [illegible] المجندين وعلى تنظيم جيوشه وتقويتها • وقد كانت هناك مشـاكل [illegible] في سائر انحاء الامبراطورية تستدعي اهتمامه وتجعله يؤجل الحملة على بلاد اليونان الى ظرف ملائم • ومن حسن حظ اليونانيين ان اشتعلت الثورة في مصر سنة (٤٨٦ – ٤٨٥) فأخذ (دارا) يتأهب للسفر الى هناك • وقد حدثت الثورة فجأة فاعطت بلاد اليونان احسن فرصـة لتهيئة وسـائل الدفاع حتى ذهب بعضهم الى ان اليونانيين القاطنين في مصر هم الذين قاموا بتدبيرها •

عندما انتهى (دارا) من تنظيم أموره واتم استعداداته للسفر عاجلة الموت في خريف سنة (٤٨٥) بعد ان حكم ٣٦ سـنة • وقـد كان ابنـه (سرخس) ، الذي خلفه على العرش ، شابا غير مجرب عصبي المزاج سريع الانفعال يظهر احياناً منتهى القسوة واحيانا غاية الحكم والكرم •

لم يكن (سرخس) يميل بطبيعته الى الحرب • وقد تردد في شن الحملة على مصر ولكنه اضطر الى تنفيذ هذا المشروع الذي كان بدأ به والده • ثم عاد الى بلاد الكلدان لاخماد ثورة قامت فيها • وهكذا لم يتفرغ الى مشروع الحملة على البونان الا في سنة (٤٨٣) • وكان عمه (آتابانيس) ينصحه بصرف النظر عن ذلك ولكن الكثيرين من جلسائه•كانوا يحرضونه على الحرب وفي مقدمتهم ابن عمه وصهره (ماردونيوس) وملك اسبارطة المنفي (ديماراتوس) وقد جاءت اليه وفود من (تسالية) و (سكيتيس) و (زانقلي) تدعوه الى مهاجمة بلاد اليونان وتتعهد له بالمساعدة •

بعد ان صمم (سرخس) على محاربة اليونان ظل مدة ثلاث سنوات يتأهب لذلك • وقد أمر بتهيئة جميع الوسائل التي تكفل نجاح الحملةفطلب

من الولاة تجنيد أكبر عدد ممكن من المقاتلين . أرسل المهندسين لانشاء المخازن على الطريق التي سيسلكها الجيش . ويدعي بعض المؤرخين انه في سبيل عزل شبه جزيرة اليونان عن جيرانها ومنع وصول النجدات اليها ، اتصل بالقرطاجيين واتفق معهم على ان يهاجموا المستعمرات اليونانية في صقلية وجنوب ايطالية . وليس مستبعدا ان يكون مثل هذا الاتصال قد تم بين الفرس والقرطاجيين ، لأنه في مصلحة الطرفين . وفي الواقع فانه عندما بدأ الفرس يهاجمون بلاد اليونان وصلت حملة قرطاجية تحت قيادة (هاميلقار) الى (هيميرا Hemera) في صقلية .

ثم اتبع (سرخس) مثال والده فأرسل مندوبين الى كافةالبلاد اليونانية، عدا (آثينة) واسبارطة ، ينادون السكان الى التسليم والطاعة . وقد استقبل هؤلاء المندوبون بالحفاوة في كثير من الدول اليونانية مثل (تسالية) التي سبق لحكامها ان تعهدوا بالمساعدة وكانوا قد بدأووا يضربون النقود حسب النماذج الفارسية . واذا كانت (تسالية) وأمثالها من الدول الواقعة على الحدود البعيدة تستطيع تبرير موقفها هذا بأنها معرضة مباشرة للهجوم الفارسي ومهملة من بقية الدول اليونانية فليس الامر كذلك مع بعض المدن الارستوقراطية مثل (طيبه) التي اعلنت انضمامها الى الفرس حرصا على مصالحها الذاتية . اما (آرغوس) فقد امتنعت عن الاشتراك في الدفاع محتجة تارة بابعادها عن القيادة وتارة اخرى بضعفها . وهي في الحقيقة انما كانت تريد الانضمام الى الفرس لبغضها اسبارطة ولكنها رأت من الأصلح ان لا تعلن ذلك قبل وصول الجيوش الفارسية الى شبه جزيرة (البيلوبونيز).

بينما كان (سرخس) يقوم بهذه التدابير الدبلوماسية انصرف قواده الى تهيئة الخطط العسكرية للحملة . وقد رأى (مردونيوس) ، بالاستناد الى تجاربه السابقة ، ان يعود الى مشروع سنة ٤٩٢ فيغزو بلاد اليونان من البر على ان يسير الاسطول بمحاذاة الشاطيء ويبقى دوما على اتصال بالجيش

ليساعده ويضمن تموينه • الا ان (ماردونيوس) أراد في هذه المرة تحاشي الكارثة التي اصابت الاسطول الفارسي سنة ٤٩٢ فقام بحفر قناة عند برزخ (آقتي Actè) تساعد على مرور السفن دون التعرض الى خطر العواصف حول رأس (آتوس) •

وقد عهد (سرخس) الى الفنيقيين والمصريين بانشاء جسر مزدوج في مضيق (هيلليسبونت Hellespont) أي الدردنيل • ولكن ما كاد يتم نصب الجسر حتى حطمته الزوابع • فقام الملك بالطقوس الدينية لتهدئة ارواح البحر كما أمر بوضع السلاسل لتقييد هذه الارواح • ثم ارسل الضباط الفرس لاقامة جسرين جديدين تحت اشراف المهندس (هاربالوس Harpalos) من جزيرة (ساموس) • وكان احداهما يتألف من (٣٦٠) سفينة والاخر من (٣١٤) سفينة القيت مراسيها بصورة محكمة وربطت جميعها بسلاسل حديدية ومدت فوقها الاخشاب والرمال ونصبت الى جانبها حواجز خشبية عالية تحميها من الرياح •

أثناء ذلك كانت مصلحة التموين الفارسية تخزن المؤن في المراكز المختلفة على الطريق •

٧ ـ المقارنة بين الخصمين :

بدأ النفير العام في صيف وخريف سنة (٤٨١ ـ ٤٨٠) • فكانت الحكومة الفارسية ، حسبما يدعيه الكتاب اليونانيون ، تجند كل الرجال في البلاد الخاضعة لها حتى اصبحت « قارة آسية خالية من سكانها الذكور » ـ على حد تعبير الشاعر (اسخيلوس) ـ ونرى (هيرودوت) يطلق لخياله العنان في وصف « القطيع البشري الهائل » الذي ساقه « ملك الملوك » لفتح العالم • فهو يرسم لنا صورة حية للجيش الفارسي المؤلف من مختلف شعوب الامبراطورية ، كالميديين والفرس بقلانسهم الصوفية وقمصانهم المتعددة الالوان ودروعهم المصنوعة من الصفائح المعدنية يحملون الرماح

والاقواس والدرقات يتقدمهم « الخالدون » ـ وهم جنود الحرس الملكي الخاص ـ بملابسهم الثمينة المزركشة بالذهب ورماحهم المصنوعة رؤوسها من الذهب والفضة • ثم هناك الاشوريون والكلدانيون بخوذهم القلزية مجهزين بالحراب والخناجر والفؤوس الثقيلة ، ثم الاحباش يلبسون جلود النمور والسباع ، ثم الليبيون والتراقيون والليديون بأزيائهم وأسلحتهم المتنوعة •

وقد حسب (هيرودوت) ان عدد المشاة كان (١٫٧٠٠٫٠٠٠) والبحارة (٥١٧٫٠٠٠) والخيالة (٨٠٫٠٠٠) يضاف اليهم (٣٢٤٫٠٠٠) من الجنود اليونانيين فيبلغ مجموع المقاتلين (٣٫٦٤١٫٦١٠) يرافقهم ما يعادل هذا العدد من الخدم والمساعدين والحمالين • على ان (هيرودوت) نفسه كان أول من ابدى استغرابه في امكان تموين مثل هذا الحشد بصورة كافية ولذلك نرى المؤرخ اليوناني (كتزياس Ctesias) ـ وهو معاصر له ـ ينقص هذا العدد الى اقل من مليون • وليس لدى المؤرخين الحديثين من المستندات ما يساعدهم على تحديد عدد جيش (سرخس) بالضبط ، لذلك فان الارقام التي يقدرونها حسب آرائهم الخاصة متباعدة جدا تتراوح بين (٧٠٫٠٠٠) و (١٠٫٠٠٠) • ولعل الاقرب الى الصحة ان يكون عدد المشاة قريبا من (٣٠٠٫٠٠٠) والخيالة (٦٠٫٠٠٠) مع الملاحظة ان هذا الجيش لم يشترك كله في المعارك بشبه جزيرة اليونان بل بقي بعضه في الطريق •

أما الاسطول الفارسي فقد استطاع (هيرودوت) ان يحدد بالضبط عدد سفنه بالاستناد الى وثائق رسمية فذكر ان هذه السفن ، التي كان اكثرها من فينيقية ومصر ، قد بلغت (١٢٠٧) • انما يجب الملاحظة بأن هذه السفن لم تكن كلها حربية بل ما يقارب نصفها فقط قد جهز لخوض المعارك بينما يستخدم النصف الاخر لنقل المؤن وللمساعدة •

وأما الجيش اليوناني فان (هيرودوت) لا يذكر شيئا عن مقداره •

ويظهر من تقديرات المؤرخين الحديثين انه كان في اوائل سنة (٤٨٠) لا يزيد على (٧٥٫٠٠٠) بينهم (٣٥٫٠٠٠) بأسلحة ثقيلة و (٤٠٫٠٠٠) بأسلحة خفيفة . ثم بعد وصول الفرس استطاعت الدول اليونانية المتحالفة تجنيد عدد آخر من المقاتلين فبلغ المجموع (١٠٠٫٠٠٠) .

وكان عدد السفن اليونانية التي اشتركت في الحرب لا يزيد على (٣٦٦) قدمت منها (آثينة) وحدها مقدار الثلثين .

عند المقارنة بين قوى الطرفين لايجوز ان نقتصر على مقدار الجنود والسفن . حقا ، ان الفرس كانوا يفوقون اليونانيين كثيرا من الوجهة العددية . اضف الى ذلك فقدان الخيالة عند اليونانيين بالمرة . كذلك يجب ان لا ننسى ما يتصف به الجنود الفرس من شجاعة ومهارة في القتال .

ولكن من جهة ثانية كانت هناك عوامل كثيرة في صالح اليونانيين . فهم كانوا يحاربون في بلادهم التي يعرفون كل بقعة منها معرفة جيدة . « لقد كانت الارض نفسها حليفة لهم » ، كما يقول شاعرهم (اسخيلوس). ثم انهم في مجموعهم من سكان الجبال الاقوياء القادرين والمدربين على القتال . وقد اعتادوا على مشاق السير في الطرق الوعرة وعلى حمل الاسلحة الثقيلة دون تعب مع التنقل بسرعة . وكانوا يشعرون بثقة كبيرة في تفوق اسلحتهم ، كما أثبتت لهم تجربة (ماراتون) كذلك كانت سفنهم تمتاز بمتانتها وسرعة حركتها ومهارة بحارتها الاشداء ، بينما كانت السفن الفينيقية والمصرية ، بمقدماتها المرتفعة واخشابها الرقيقة يمكن ان تعطب وتهشم بسهولة .

وكانت لليونانيين ثقة عظيمة بقادتهم مثل ملك اسبارطة (لئونيداس) الذي لم يكن احد يشك في انه يفضل الموت على ان يتزحزح عن مكانه ويتراجع ، ثم (تميستوقليس) الذي لا يعرف معنى لليأس ولا يجارى في دهائه وبراعة حيله واخيرا القائد الاسبارطي الوطني (بوزانياس

Pausanias) المشهور بالعناد في مواقف الشجاعة دون ان يكون ضيق الفكر .

كان اليونانيون على علم بكثرة عدد الجيش الفارسي ولكنهم في الوقت ذاته لم يكونوا يجهلون ان هؤلاء الجنود ينتسبون الى أمم عديدة تختلف في اللغة والعادات لا يشعرون برابطة عميقة تجمع بينهم كما ليس لهم من أهداف تدفعهم الى التضحية بالنفس في بلاد غريبة ، فقيرة . لذلك نرى اليونانيين يتقدمون برباطة جأش لمقاومة جيش (سرخس) العظيم وهم على يقين من انهم سوف يصدونه بفضل حماستهم الوطنية ومهارتهم العسكرية وعدالة قضيتهم ومساعدة آلهتهم ...

٨ ــ الخطة الحربية لدى الفرس واليونان :

جهز الفرس قواهم الهائلة بكثير من العناية والدقة في التنظيم .فاجتمع الاسطول في مرفأي (كيمي) و (فوسية) المتجاورين والواقعين الى الشمال قليلا من ازمير . اما فرق المشاة والخيالة والنقليات فقد احتشدت أولا في مقاطعة (قبادوسية) بالاناضول وبعد وصول الملك في خريف سنة (٤٨١) انتقلت معه الى (ساردیس) وضواحيها ، حيث قضت فصل الشتاء .

يذكر المؤرخون اليونانيون كيف انه عند مرور (سرخس) من مقاطعة (فريجية) تبرع (بيتيوس) ، وهو اغنى رجل في بلاد الامبراطورية تبلغ ثروته (٤) ملايين من الدنانير الذهبية ، للقيام بواجب الضيافة تجاه الملك والجيش كله . وكان من الطبيعي ان يعرب الملك عن تقديره وسروره لهذا الكرم . ولكن يبدو ان (بيتيوس) قد انخدع بما شمله من مظاهر العطف واعتقد بأنه يستطيع استرحام الملك باعفاء أكبر أبنائه الخمسة ، المجندين جميعا ، عن الاشتراك في الحرب .وقد غضب (سرخس) من هذا الطلب الوقح يجسر عليه أحد (عبيده) فأمر بأن يقطع هذا الابن الى نصفين ويوضع كل منهما في جهة من مدخل (ساردیس) . وهذه

القصة تبين لنا الشدة التي كان يظهرها الفرس في تجنيد الشعوب الخاضعة لحكمهم .

في ربيع سنة (٤٨٠) تحرك الجيش الفارسي باتجاه مضيق (هيلليسبونت) وعندما بلغ (سرخس) مدينة (آبيدوس) على المضيق جلس على عرش من المرمر وأخذ يستعرض الجنود . ثم جمع قوادهِ فأمر (آرتابازوس) بالعودة الى العاصمة (سوزا) للقيام بمهمة النيابة عنه ، وأوضح للاخرين الاعمال التي يجب ان يقوموا بها في بلاد اليونان .

كانت خطة (سرخس) تقضي بفصل بلاد (آتيكة) وشبه جزيرة (البيلوبونيز) عن سائر المقاطعات وعلى الاخص عن بلاد اليونان الغربية ثم تركيز قوة الفرس كلها لسحق (آثينة) و (اسبارطة) وذلك بالتعاون الوثيق والمتواصل بين الجيش والاسطول . كان الملك العظيم يعتقد بأن استعداداته الكبيرة ، المحكمة كافية لتحقيق هذا الهدف . فما اشد ضلاله . انه لم يكن يعرف شيئا عن بلاد اليونان ، لا عن جبالها ولا عن روحها . لقد كان غافلا عن الصعوبات التي ستعترضه في هذه البلاد الصغيرة والفقيرة عندما يحاول الحصول على المؤن الضرورية لجيشه الضخم . ولكنه قبل كل شيء كان يجهل ان اليونانيين ليسوا عبيدا يساقون الى الحرب بالسوط . انه لم يتعلم من تجربة (ماراتون) ...

والآن ماذا كانت خطة اليونانيين ؟ انهم ، في مؤتمر (قورنت) قد تذاكروا طويلا في تحديد خطتهم دون الوصول الى نتيجة وتفرقوا في أول فصل الشتاء قبل اتخاذ أي قرار في كيف يجب عليهم مقابلة العدو . لم يكن هناك خلاف في المبدأ الاساسي وهو التزام موقف الدفاع . الا ان كل واحد من المندوبين كان يفسر هذا المبدأ تفسيرا خاصا يتفق مع مصلحة بلده ويتعارض مع الاخر . فأين يجب محاولة سد الطريق أمام الغزاة ؟ وما هو الموقع الصالح للقيام بعمل يشترك فيه الجيش والاسطول ؟ وكيف

يمكن استدراج الفرس الى مكان ضيق لايستطيعون فيه الاستفادة من كثرة عددهم ؟ تلك أسئلة خطيرة لم يكن معروفا الجواب عليها •

ان في بلاد اليونان أربع نقاط قد اصطفتها الطبيعة نفسها لتكون خطوط دفاع • فكانت (اسبارطة) وجاراتها تفضل برزخ (قورنت) لحشد الجيوش والاساطيل اليونانية • ولكن ذلك يعني حماية شبه جزيرة (البيلوبونيز) وحدها والتخلي عن بقية بلاد اليونان وتركها عرضة للغزو والتدمير • وكان (الآثينيون) يميلون الى ملاقاة الفرس عند جبال (سيثيرون) التي تحمي مقاطعة (آتيكة) • غير ان هذه الجبال يمكن تطويقها بسهولة • ولاشك في ان افضل مكان لحماية شبه جزيرة اليونان كلها هو خط (تمبي) بأقصى الشمال • ولكن للدفاع عن الممرات الثلاثة في هذا الخط كان لابد من معونة سكان (تساليه) • وبما ان البعض من هؤلاء كانوا قد اظهروا الخضوع للفرس رأى أعضاء المؤتمر الدخول في مفاوضات جديدة مع مدن (تسالية) لاقناعها بضرورة مقاومة الاجنبي صفا واحدا • فرضي اكثر هـــذه المــدن بالاشتراك في الدفاع على شرط ان يقدم الحلفاء نجدة كبيرة • وقد قرر مؤتمر (قورنت) ، بعد عودته الى الاجتماع في أول الربيع ، ارسال عشرة آلاف من المقاتلين عن طريق البحر • ولكن لما وصل هؤلاء الى (تسالية) وجدوا بأن السكان لم يجندوا سوى كتيبة صغيرة من الفرسان وتبـين للقــادة بأن حماية خط (تمبي) تتطلب عددا أكبر من الجنود ففضلوا ان يعودوا من حيث أتوا • وهكذ وجدت مدن (تسالية) حجة جديدة تبرر بها استسلامها للفرس •

بقيت هنـــاك النقطــة الرابعــة الصــالحة للدفــاع عنــد (ترموبيلي Thermopylae) وهو ممر ضيق بين الجبال والبحر يعتبر المنفذ الوحيد الى كل بلاد اليونان الشرقية الواقعة الى الجنوب من جبل (اوتة) :

على ان محاولة المقاومة عند ممر (ترموبليي) في البر وعنــد رأس

(آرتيميزيوم) في البحر لم تقرر الا في شهر آب ، بعد انقضاء شهرين في المناقشات والمنازعات وبعد ان اصبح الفرس بالقرب من جبل (اوليمبوس)٠ والنقطتان اللتان انتخبهما اليونانيون تقعان تقريبا على خط العرض نفسه ، لا تفصل بينهما سوى مسافة صغيرة وتتمم احداهما الاخرى على أحسن وجه ٠ وهما اصلح المراكز لحماية بلاد اليونان الوسطى ، على الاخص اذا لاحظنا ان خطة الفرس تقتضي الاتصال الدائم والتعاون الوثيق بين الجيش والاسطول وانه لذلك لابد للجيش الفارسي من سلوك الطريق العريضة الوحيدة التي تمتد من (تسالية) الى مقاطعة (لوقريد) وتمر من (ترموبيلي) قرب البحر ، حيث يتقدم الاسطول عند رأس (آرتيميزيوم) الى المضيق بين جزيرة (اوبوئية) وسواحل (لوقريد) ٠ فكان من المعقول جدا ان يسعى اليونانيون الى ملاقاة الفرس عند هذين المركزين وفي الحقيقة فان الطريق من ممر (ترموبيلي) ، التي تبلغ تسعة كيلو مترات ، تضيق جدا في ثلاث نقاط ، عدا ان هناك حائطا قديما رفعه سكان (فوسيدية) في الوسط لحماية انفسهم من جيرانهم الشماليين ٠ وهكذا كان يتألف من مجموع هذه الحواجز خط حصين جدا يسهل كثيرا مهمة الدفاع وكذلك رأس (آرتيميزيوم) الواقع في اقصى الشمال من جزيرة (اوبوئية) فانه يعتبر افضل نقطة لمراقبة الاسطول الفارسي ولمنعه من اجتياز المضيق الممتد على طول الساحل الغربي للجزيرة ٠ وأخيرا فان قصر المسافة بين (آرتيميزيوم) و (ترموبيلي) من شأنه ان يسهل التعاون المستمر بين الجيش والاسطول ٠

بينما كانت شبه جزيرة (البيلوبونيز) تحتفل في منتصف شهر آب (٤٨٠) بالالعاب الاولمبية في جو رهيب من الحماسة أخذت الكتائب التي تقرر ارسالها الى (ترموبيلي) تتقدم تحت قيادة الملك (لئونيداس) لتشغل مراكزها في جبهة القتال ٠ انها كانت قليلة العدد لا تزيد على (١٣٠٠) من المقاتلين الاسبارطيين الممتازين يساعدهم (١٠٠٠ر١) من الجنود (البريوكيين) و (٢٫٨٠٠) من دول (البيلوبونيز) الاخرى ثم انضم اليهم (١٫١٠٠)

من (التسبيين) و (الثيبيين) المتطوعين أو الرهائن ، اضف الى ذلك مايقارب الالف من (الفوسيديين)و (اللوقريديين) • بالجملة لم يكن مع الملك الاسبارطي سوى (٦٫٠٠٠) من المحاربين الذين كان ثلثهم على الاقل ممن لايمكن الاعتماد على اخلاصهم •

يقول (هيرودوت) ان هذا العدد من الجنود لا يؤلف الا الطليعة التي كان مقررا ان يلحق بها القسم الاكبر من الجيش الاسبارطي بعد انتهاء الاعياد الاولمبية • ولكنه مخطىء في هذا الرأي كما يبدو من مجرى الحوادث • فقد تعمد (الاسبارطيون) ان لا يرسلوا الى (ترموبيلي) سوى هذا العدد القليل لانهم كانوا يريدون الاحتفاظ بجيشهم قريبا من برزخ (قورنت) • وهذه الخطيئة الحربية التي ارتكبتها (اسبارطة) بدافع الحيطة الانانية كانت في النتيجة ابلغ ضررا بالقضية القومية من جميع الاخطاء الكثيرة الاخرى •

كان (سرخس) ، بعد اختيار مضيق (هيلليسبونت) ، قد زحف بجيشه في اراضي (تراكية) الخاضعة لحكمه • وقد انهك السكان بما فرضه عليهم من تقديم المؤن والجنود والبحارة ولما وصل الجيش الى نهر (ستريمون) في (مكدونية) قام الكهنة بذبح الضحايا من الخيول الشهب • وعند (أنني آهودوى) أي (مفترق الطرق التسع) وئدوا تسعة صبيان وتسع بنات • وبعد ان التقى الجيش بالاسطول عند (ترمة) على حدود (مكدونيه) كان لا بد من التوقف مدة هناك لاستكشاف الطرق واصلاحها في الجبال الخطرة • ثم بدأ الجيش يزحف على شبه جزيرة اليونان وصدر الامر الى الاسطول بالتأخر مدة احد عشر يوما حتى يتفق موعد وصوله الى خليج (ماليس) مع الوقت الذي يصل فيه الجيش الى سهل (تراجيس) على شاطىء هذا الخليج • وبينما بلغ الجيش هدفه دون ان يلاقي أي صعوبات لم يسلم الاسطول من بعض الصدمات والاضطرابات • فان السفن

الفارسية وصلت في مساء اليوم الاول الى شاطىء (بليون) وكان البحارة قد انهكهم التعب ، لايستطيعون التقدم اكثر من ذلك • فاضطرت السفن ان ترسي في عرض البحر ، اذ لم يكن بالقرب من هناك أي ميناء تلجأ اليها • وفي فجر اليوم التالي قامت زوبعة هائلة استمرت ثلاثة ايام وادت الى تحطيم (٤٠٠) سفينة وغرق آلاف الرجال • ولما كانت أمثال هذه الزوبعة نادرة جدا في هذا الفصل من السنة فقد ذهب الاعتقاد باليونانيين الى ان آلهتهم لن تخذلهم • وعلى كل حال فقد خسر الاسطول الفارسي بذلك شيئا من تفوقه العددي ولم يعد (سرخس) ليستطيع ارسال قسم من اسطوله يهدد به شبه جزيرة (البيلوبونيز) ويرغم الاسبارطيين على سحب قواتهم كما كانت تقضي خطته الحربية وفي الوقت ذاته تضعضعت معنويات البحارة الفرس بسبب هذا الحادث • وعندما التجأ الاسطول الفارسي بعد ايام الى خليج (باغازيقوس) بلغ الاضطراب في صفوف البحارة منتهاه حتى ان خمسة عشر سفينة تأخرت عن المجموع وقعت خطأ بأيدي اليونانيين الذين كانوا يراقبون الامور عند رأس (آرتيميزيوم) •

٩ ـ معركة (ترموبيلي) :

بعد استراحة أربعة أيام في سهل (تراكيس) عزم (سرخس) على التقدم نحو الجنوب وكان يعلم بأن اليونانيين يتربصون له عند ممر (ترموبيلي) • وقد اضطر الميديون الذين أمرهم بالهجوم الى التراجع تجاه مقاومة اليونانيين الشديدة • كذلك فشلت الفرق الفارسية في هجومها •• وفي اليوم التالي قام الفرس بهجوم ثالث ، ولكنهم دحروا في هذه المرة أيضا • ان كثرة العدد في هذا المكان الضيق لم يكن لها أي أهمية • فكان التفوق هنا لاسلحة اليونانيين ومهارة قائدهم • وقد أمر (لئونيداس)جنوده ان يتظاهروا بالانهزام ثم ان ينقلبوا فجأة الى الهجوم • لا شك في ان اليونانيين أيضا اصيبوا في هذين اليومين بخسائر فادحة • الا انهم لم يتزعزعوا في موقفهم •

كان (سرخس) قد بدأ يفقد صبره وأخـذت تظهـر عليـه علائم الاضطراب . عندئذ عرض علية (أفيالتيس) زعيم (تراكيس) ان يرسل فرقة من جنوده تسلك الدروب السرية في الجبـال وتباغت المدافعـين من الخلف . فأسرع الملك الى الاخذ بهذا الاقتراح وسارت الفرقة في الحال واجتازت الغابات في الليل والتقت عند الفجر بالجنود (الفوسيديين) الذين عهد اليهم (لئونيداس) بحراسة الجبال والذين لم يبدوا أي مقاومة جديدة. وقد علم (لئونيداس) من احد المنهزمين ان العدو قد احاط به من الخلف. وكان لايزال في استطاعته ان يشق له طريقا وينسحب مع جيشه . ولكنه لم يفعل . وذلك أولا : لأن مهمته لم تكن قد تمت . وهذه المهمة هي ان يؤخر تقدم الفرس حتى تنتهي المعركة بين الاسطولين ... وهذه المعركة كانت لا تزال دائرة ، حسبما كان يشاهد من الجبل وقد كان قادة اليونان يعتقدون بتفوق اسطولهم ويعلقون الامال على انهسيحطم الاسطول الفارسي. ومتى تم ذلك يصبح من المشكوك فيه ، حسب رأيهم ، ان يستمر (سرخس) في زحفه لأن خطته الحربية كلها قائمة على اساس التعـاون بـين الجيش والاسطول .

وثانيا : اصر (لئونيداس) على الصمود لانه لايجوز لاسبارطي ان ينهزم مهما كانت الظروف .

يدعي (هيرودوت) بأن الملك الاسبارطي أراد انقاذ القسم الاكبر من جيشه فأبقى الى جانبه الجنود (الاسبارطيين) و (التسبيين) و (الثيبيين) وهو انما احتفظ بالاخرين لأنه كان يخاف من انضمامهم الى الفرس . ثم أمر بقية الجنود بالانسحاب . ولكن يبدو ان (لئونيداس) لم يسرح هذا القسم الكبير من الجنود وانما ارسلهم الى ملاقاة الفرقة (التراكيسية) التي جاءت تهدده من الخلف . على ان هؤلاء الجنود ما كادوا يبتعدون قليلا من قائدهم حتى لاذوا بالفرار . وبعد هذه الخيانة الثانية صمم (لئونيداس)

ان يقاتل الى النهاية فيكبد العدو اكثر ما يمكن من الخسائر قبل ان يموت هو واصحابه • وبالفعل فقد خرج (لثونيداس) من وراء الحائط وتقدم مع جنوده الى الامام أكثر مما في الايام السابقة لملاقاة الفرس • وهنا احتدمت معركة عنيفة بالسيوف • ولما صرع (لثونيداس) ازداد القتال شدة حول جثته وقتل اثناء ذلك اثنان من اخوة (سرخس) وعندما بدأت الفرقة (التراكيسية) تهاجم من الخلف استسلم (الثيبيون) ولم تنته المعركة الا بعد ان قتل الاسبارطيون و (التسبيون) كافة ، عدا جندي اسبارطي واحد وقع جريحا في محل مرتفع واستطاع بعد مدة ان يعود الى (اسبارطة) • ولكنه عندما اخذ الناس يشيرون اليه حيثما ذهب لم يحتمل ذلك فانتحر •

نصب الاسبارطيون بعد انتهاء الحرب الفارسية مسلة بالمكان الذي قتل فيه ملكهم وجنوده لتخليد ذكرى هؤلاء الابطال كتب عليها ما يلي :

« ايها الغريب ، اذا مررت باسبارطة فقل للذين هناك اننا راقدون في هذا المكان امتثالا للقوانين التي فرضوها » •

١٠ ــ معركة (آرتيميزيوم) :

حينما كانت المعركة المفجعة دائرة في (ترموبيلي) كان الصراع لايزال محتدما في البحر عند رأس (آرتيميزيوم) • فان (آرخايمينيس) قائد الاسطول الفارسي ، بعد الضربة القاسية التي اصابته بسبب الزوبعة ، كان قد وزع سفنه بين الموانىء الصغيرة في خليج (باغازيقوس) واكتفى بارسال احد مساعديه مع قسم صغير من الاسطول ليدور حول جزيرة (اوبوئية) مؤملا بذلك تطويق الاسطول اليوناني في مضيق (اوريبوس) • على ان زمام المبادرة لم يكن اذ ذاك بأيدي الفرس بل لدى (تميستوقليس) الذي ... تسليم القيادة الاسمية على الاسطول الى الملك الاسبارطي الثاني (اوريبياديس) ولكنه ظل في الواقع يقرر الخطط ويوجه الحركات بحريه كلها •

كان اليونانيون قد حشدوا (٢٨٠) سفينة الى الغرب من رأس (آرتميزيوم) و (٥٣) سفينة على الساحل الجنوبي من (اوبوئية) للحيلولة دون التفاف الفرس حول المضيق بينما أبقوا الاسطول الاحتياطي في (بوغون) • وكان (تميستوقليس) يعرف جيدا أهداف العدو واضطراب احواله الحاضرة • فاستخدم جميع الوسائل ؟ حتى الرشوة ، لاقناع رفاقه في القيادة بضرورة مهاجمة الاسطول الفارسي دون اي تأخر للاستفادة من تشتت قواه في موانىء عديدة • وبالفعل تقدم الاسطول اليوناني كله بعد غروب الشمس وباغت السفن الايونية التابعة للفرس واغرق منها ما يقارب الثلاثين • وفي الليلة ذاتها حصلت زوبعة ثانية حطمت السفن التي كان ارسلها القائد الفارسي لتطويق المضيق فزاد ذلك في اضعاف معنويات العدو • وقد رأى (تميستوقليس) ان ينتهز هذه الفرصة ، فاستدعى في اليوم التالي السفن الثلاثة والخمسين التي كانت في جنوب (اوبوئية) وهجم في المساء على السفن الكليكية وقضى عليها جميعا •

عندئذ ادرك القائد الفارسي بأن الامر لا يجوز ان يستمر هكذا وصمم على ان لا يفسح المجال لليونانيين بضرب كل قسم من قواه على حدة • وقد جمع رؤساء الاقسام في اليوم نفسه الذي كانت تدور فيه معركة (ترموبيلي) للتشاور معهم فقرر ان يبدأ الهجوم العام وقت الظهر •

تقدم الاسطول على هيئة نصف دائرة متأهبا لتطويق الاسطول اليوناني والانقضاض عليه اذا برز لمقابلته • ولكن اليونانيين التزموا الحيطة وظلوا ينتظرون الفرس أملا في ان يختل نظام سفنهم ••• كانت المعركة بين الاسطولين في منتهى العنف ولكنها لم تنته الى نتيجة حاسمة • وقد امتاز (الاثينيون) بشجاعتهم ومهارتهم وبرز بينهم بصورة خاصة (قلينياس) ابن (آلكيبياديس) • ولم تجسر السفن الفارسية ، التي كانت خفيفة وبحارتها غير مجربين ، على الاقتراب من الساحل • على ان المصريين الذين كانوا مجهزين بأسلحة ثقيلة استطاعوا ان يغنموا خمس سفن يونانية •

مع غروب الشمس توقفت المعركة بعد ان تكبد الطرفان خسائر فادحة • وفي هذا الوقت وصل الى اليونانيين خبر الفاجعة في (ترموبيلي) وصار من الواجب عليهم ان يسرعوا في الانسحاب فاتجه الاسطول في الليل الى الجنوب • وبذلك اصبحت الطريق مفتوحة أمام العدو في البر والبحر لغزو بلاد اليونان •

١١ ـ الفرس في (آثينة) :

بعد اقتحام ممر (ترموبيلي) وقتل ملك اقوى دولة يونانية استأنف (سرخس) زحفه على قلب البلاد اليونانية فاجتاز (لوقريس) و (بثوتية) دون ان يلاقي أي مقاومة • وقد انضم اهل (طيبة) وسائر البثوتيين الى جيشه • ويظهر ان القتال العنيف الذي اضطر الى خوضه في (ترموبيلي) قد اثار غيظه فدفعه الى اعمال الحرق والتخريب في بلاد (الفوسيديين) (والتسبيين) و (البلاتيين) •

كان الملك الاسبارطي (اوريبياديس) ، بعد انسحابه من (آرتيميزيوم) قد سار بالاسطول قاصدا ميناء (بوغون) في شبه جزيرة (البيلوبونيز) ، حيث تجمع الاسطول الاحتياطي • الا ان (تميستوقليس) طلب منه التوقف عند (سلاميس) للاتفاق مع الحكومات اليونانية على الخطة الواجب اتباعها•

كان (الاثينيون)العائدون من (آرتيميزيوم) يعتقدون بأن جيش (اسبارطة) وجيرانها ، الذي تأخر بسبب الاعياد الاولمبية ، قد اصبح الآن في (بثوتية) مستعدا لمقاومة الغزاة ، ولكنهم علموا بكثير من الدهشة ان الجيش البيلوبونيزي قد توقف عند برزخ (قورنت) وانه بقيادة (قلئومبروتوس) ، أخي (لئونيداس) والوصي على ابنه الصغير ، منهمك في اقامة جدار من أول البرزخ الى نهايته • وبذلك كشفت (اسبارطة) أخيرا النقاب عن اغراضها الانانية • بانها كانت تريد الدفاع عن شبه جزيرة البيلوبونيز وحدها • وهذا يعني التخلي عن (آتيكة) وتركها عرضة للغزو الفارسي •

عندئذ اجتمع (تميستوقليس) مع زملائه وتقرر اخلاء (آثينة) من سكانها وقد صدر بلاغ يعلن بأن جميع المواطنين مع نسائهم وأولادهم وما يستطيعون حمله من حوائجهم ، سينقلون بالسفن الى (سلاميس) و (أجينة) و (تريزين) وانه سيدفع الى كل فرد مبلغ من الخزينة لاعاشته •

لم يكن من السهل اتخاذ هذا القرار • ولكن (تميستوقليس) عرف كيف يقنع زملاءه ويثير روح الحماسة في نفوس مواطنيه حتى قبلوا بالخروج من أوضهم وهجرة بيوتهم • ولما وقف احد الاثينيين في مجلس الشعب واقترح الاستسلام للفرس ، الذين لا يمكن مقاومتهم حسب رأيه ، هجم عليه الجمهور وقتله في الحال بينما اخذ النساء يرجمن امرأته وأولاده حتى ماتوا جميعا •

ان قرار الجلاء عن (آثينة) كان تدبيرا سياسيا حكيما تتطلبه الظروف ويدل على قوة الروح المعنوية • ويظهر بأن العقائد الدينية قد ساعدت على تنفيذه بسهولة • فقد كان الشعب يروي عن العرافين بأن (آتيكة) سوف تخرب كلها عدا « جدار خشبي » • واستنتج الناس من ذلك بأن نجاتهم تتوقف على الالتجاء الى السفن • على ان بعض المواطنين ، الذين يفسرون الكلام تفسيرا حرفيا ، ذهبوا الى ان المقصود هو الجدار الخشبي على هضبة (آقروبوليس) فتطوعوا للبقاء هناك والدفاع عن المعابد • وكان القادة يرغبون في ذلك لان الهضبة منيعة بطبيعتها ولان مقاومتها للعدو من شأنه ان تزعجه وتعرقل تقدمه السريع •

تقدم (سرخس) في (آتيكة) وهو يخرب كل شيء في طريقه حتى نصب معسكره على مرأى من (آقروبوليس) • وقد وجد (آثينة) خالية من السكان • وتبين له ان الاستيلاء على قلعة (آقروبوليس) يتطلب ضرب الحصار حولها ومهاجمتها من كل الجهات • وكان المدافعون القلائل ، الذين

تحصنوا وراء الحواجز الخشبية ، يقذفون المهاجمين بالحجارة دون انقطاع • دام الحصار مدة اسبوعين ولكن الفرس استطاعوا اخيرا التسلق الى القلعة من بعض الاماكن الوعرة ، التي اهملت حراستها فقتلوا المدافعين كلهم ونهبوا المعابد ثم أشعلوا فيها النيران • (٢١ ايلول سنة ٤٨٠) •

وقد احتفل (سرحسيس) احتفالا عظيما باستيلائه على (آثينة) واصدر بلاغا يبشر فيه الجمهور بالنصر واخضاع بلاد اليونان كلها في اقرب وقت • ثم سار الى ساحل فاليرون حيث استعرض الاسطول الذي كان وصل الى هناك يوم دخول الجيش الى (آثينة) وعقد جميع الملك قادة الاسطول للبحث معهم في تقرير الخطة الواجب اتباعها •

١٢ ـ معركة (سالامين) :

ماذا عسى يصنع [illegible] بعد ان استولى العدو على (أثينه) واخذ يتأهب لغزو بقية البلاد [illegible]

أما مسألة الدفاع [illegible] تحتاج الى البحث بعد ان احتشدت جيوش (اسبارطة) [illegible] برزخ (فورنث) واخذت تقيم التحصينات هناك •

وأما فيما يتعلق بالاسطول [illegible] القادة اليونانيون وقرروا بأكثرية الاصوات ان ينسحب [illegible] وتنتظر هناك هجوم الاسطول الفارسي • ومزية هذه [illegible] الرأي [illegible] هي انها تضمن الاتصال الوثيق والتعاون [illegible] بالاسطول عدا انها تسمح للاسطول، اذا هو انهزم ، بأن [illegible] (البلوبونيز) في حين ان بقاءه محتشدا عند (سالامين) [illegible] للتطويق ومحكوما عليه بالفناء المؤكد •

على ان اتباع [illegible] الى مدينة (ميغارة) وعن

جزيرتي (سلاميس) و (أجينه) اللتين هاجر اليهما (الأثينيون) • فكان طبيعيا ان يبدي هؤلاء جميعا معارضة شديدة • واذا رأينا (تميستوقليس) يعمل بكل قواه لتغيير هذه الخطة فليس ذلك للسبب الذي ذكرناه فحسب وانما لاعتقاده بفساد الخطه من الوجهة الحربية أيضا •

وهنا لابد من الاشادة بالدور العظيم الذي لعبه (تميستوقليس) في تلك الساعات الحاسمة من تاريخ اليونان • فهو الوحيد بين القادة اليونانيين الذي لم تتزعزع ارادته والذي حافظ على رباطة جأشه • وقد كان مثـــالا للنشاط المتواصل والحركة الدائمة ، يتوقد حماسة ويعالج المشاكل بمنتهى الحزم ، يناضل عن آرائه بشـــدة ويعارض بعنف ولكنه لا يفقـــد الصبر والروية ولا يتأخر عن استخدام الحيل والدسائس وعن اللجوء الى المراوغة • وبالجملة فهو الذي تولى شؤون اليونانيين كافة في احرج الظروف واستطاع ان يقودهم الى النصر •

لقد ادرك (تميستوقليس) بأن مصير اليونان سيقرر في البحر حسب نتيجة المعركة بين الاحلولين • وكان لا يشك في ان افضل مكان يستطيع فيه الاسطول اليوناني التغلب عـــلى العـــدو هو مضيق (سالاميس) ، حيث لايجد الفرس متسعا للحركه والالتفاف • لذلك كان لا بد من اقناع القادة بضرورة تغيير خطتهم •

كان المعســكر اليـــوناني في منتهى ما يمكن من الحيرة والاضطراب والتردد • وكانت المباحثات تجري في جو مكهرب ، حيث تتصادم الافكار والاهواء بشدة • وقد اجتمع (تمستوقليس) على انفراد بقـــائد الاســـطول الملك الاسبارطي (أوربيباديس) واقنعـــه بضرورة بقاء الاسطول عنـــد (سالاميس) • ولما انعقد المجلس الحربي من جديد للبحث في الموضـــوع انتصب (تميستوقليس) للكلام دون ان ينتظر السماح من الرئيس • ويبدو من رواية (هيرودوت) ان المناقشه كانت حادة جدا وان الاصطدام بـــين القائد الاثيني وزميله الكورنتي كان عنيفا للغاية •

وقد أشار (تميستوقليس) الى حالة الاطفال الاثينيين الذين يرتعدون خوفا على شاطىء (سالاميس) ثم احتج على انانية البيلوبونيزيين ولما عيره القائد القورينثي بالتشرد اجاب مفاخرا بان (آثينة) ستظل دوما دولة عظيمة ما دامت محافظة على اسطولها • وفي الاخير انتقل الى التهديد وانذر المجلس بان الاثينيين سيفضلون الانسحاب بالمرة من الحرب على الالتحاق بالاخرين في برزخ (قورنت) • وبذلك نجح (تميستوقليس) في فرض ارادته ووعد (اوريبياديس) بأن الاسطول سيحارب في مضيق (سالاميس) •

في أثناء ذلك وصل الاسطول الاحتياطي من (بوغون) الى سالاميس فأصبح مجموع السفن اليونانية (٣٧٨) سفينة •

على انه لما بدأ الاسطول الفارسي يتحرك ويتأهب للقتال استولى الخوف من جديد على القادة اليونانيين واخذوا يعلنون معارضتهم لخطة (تمستوقليس) وظهر على (اوريبياديس) انه يميل الى التراجع ويرغب في اصدار الامر بالانسحاب الى البرزخ • عند ذلك لم ير (تميستوقليس) بدا من الاقدام على تدبير خطير جدا كان من المؤكد ان يؤدي الى الحكم عليه بالاعدام لو انتصر الفرس في المعركة واكتشف امره • فهو قد ابتعد عن المجلس واستدعى رجلا يثق به اسمه سيكينوس وعهد اليه بمهمة سرية • وفي اليوم نفسه قبض الفرس على هذا الرجل الذي ادعى بأنه ضل عن الطريق• ولما استجوب اعترف بأن اليونانيين في حالة شنيعة من الخوف وانهم منقسمون على انفسهم ويريدون الفرار • وقد رأى (سرخس) انه ينبغي عليه الاستفادة من هذا الوضع فقرر في الحال ارسال السفن المصرية لسد الطريق على اليونانيين في الجهة الثانية من المضيق هكذا نجحت حيلة (تميستوقليس) واضطر الاسطول اليوناني الى البقاء في مكانه لملاقاة الفرس•

اتفقت آراء القادة الذين جمعهم (سرخس) على ضرورة المباشرة سريعا بالهجوم • ولم يخالف في ذلك سوى (آرتميزية) ملكة (قارية)

التي اشارت بمحاصرة السفن اليونانية حتى تنفذ لديهـا المؤن بينما يتقـدم الجيش في البر الى (البيلوبونيز) •

والآن يجب ان نتصور موقع جزيرة (سالاميس) • فهي تمتد في البحر بين (آتيكة) و (ميغارة) يفصلها عن البر مضيق لا يزيد عرضه في الطرفين على كيلو متر واحد أو كيلو مترين • وكان الاسطول اليـوناني مرابطا قرب عاصمة الجزيرة وراء رأس (كينوزورة) الذي يمتـد نحو ساحل (آتيكة) • فـاذا اراد الفرس الهجوم كان لابـد لهـم ان يقسموا اسطولهم الى اجزاء عديدة تتقـدم الى المضيق بالتعاقب • وحينئـذ يستطيع اليونانيون المرابطون عند مدخل المضيق مهاجمة المتقدمين من الجناح •

في منتصف ليلة (٢٩ أيلول سنة ٤٨٠) تحرك الاسطول الفارسي من (فاليرون) باتجاه (سالاميس) تتقدمه السفن الفينيقية مع ملكي صيدا وصور ثم سفن مختلفة بقيادة أمير البحر الفارسي (آرخيمينيس) وفي الاخير الايونيون والقاريون • وكان الجيش الفارسي قد احتشد في (فاليرون) بينما اتخذ (سرخس) مقره في ساحل (آتيكة) مقابل الجزيرة • وفي ظلام الليل بدأت السفن تدخل المضيق • فلمـا بزغت الشمس كان ما يقـارب (٥٠٠) من السفن الفينيقية مصطفة على شاطىء (آتيكة) داخل المضيق بينما كانت السفن الاخرى لاتزال خارجة • وما كاد اليونانيون يشاهدون ذلك حتى سمعوا نفير الهجوم من سفينة (اوريبياديس) • فتقدمت السفن الآثينية للانقضاض على العدو • تلك مفاجأة مزعجة للاسطول الفارسي الذي كان يعتقد بأن اليونانيين قد لاذوا بالفرار • وقد اسرع القادة الفرس الى ترتيب صفوف سفنهم لمقابلة المهاجمين • وبينما اعترض (الاجينيون) طريق السفن الايونية في مدخل المضيق حاصر الآثينيون السفن الفنيقية التي كانت تغلغلت الى الداخل وبدأت معركة عنيفـة انتصر فيها اليونانيـون انتصـارا باهـرا •

وكان (سرخس) جالسا على الشاطيء يشاهد المعركة وهو يرتجف . فرأى « البحر مستورا بأخشاب السفن المحطمة وبالجثث والدماء وسمع اصوات الاثنين ترتفع من كل مكان » . وكانت سفنه تهرب في حالة مريعة من الفوضى . وهكذا لما اقترب الغروب كان قسم من الاسطول الفارسي قد تحطم والقسم الاخر قد تشتت وهرب . وتذكر الاخبار ان الفرس خسروا في المعركة (٢٠٠) سفينة واليونانيون (٤٠) سفينة .

وبين القصص التي تروى عن المعركة ان (آرتيميزيا) ملكة (قارية)، لما لاحظت بعض السفن اليونانية اخذت تقترب من سفينتها اقدمت على مهاجمة سفينة قارية اخرى واغرقتها . فاعتقد اليونانيون بأنها من اسطولهم وابتعدوا عنها وبذلك استطاعت النجاة . على ان القادة الذين كانوا حول (سرخس) يراقبون المعركة ظنوا بأن السفينة التي اغرقت هي يونانية فقالوا له :«مولانا، أرأيت كيف اغرقت الملكة (آرتيميزيا) سفينة للعدو ؟ » فأجاب الملك : « حقا لقد انقلب رجالي اليوم نساء ونسائي رجالا » .

كان اليونانيون يعتقدون بأن الفرس سيعيدون الكرة في اليوم التالي . وقد ظلوا في مكانهم يتأهبون القتال ولم يجسروا على تعقب الاسطول الفارسي الذي انسحب الى (فاليرون) .

ولكن المعركة كانت في الحقيقة هزيمة شنيعة للفرس لانها كسرت عزائمهم وزرعت الرعب في قلوبهم . وكانت الصدمة قاسية على الفينيقيين اكثر من غيرهم . وقد القى (سرخس) تبعة الهزيمة على عاتقهم واخذ يتوعدهم فصمموا على الفرار . وهو لم يكن يثق باخلاص الايوبيين .وكان يخشى قبل كل شيء من اندلاع الثورات في (ايونية) و (هيلليسبونت) لانه حينئذ يقطع على جيشه خط الرجعة . كذلك لاحظ بأن مهمة تموين الجيش ستصبح صعبة ، بل مستحيلة بعد ان خسر قسما كبيرا من اسطوله وبعد ان شعر بخطر انهزام القسم الاخر .

كل ذلك قد دفع الملك الفارسي الى التوقف عن القتال . فأمر الاسطول بالاتجاه الى مضيق (هيلليسبونت) لحراسة الجسر . ثم فصل (٦٠) الفا من الجنود لمرافقتـه في طريق العـودة وترك القسـم الباقي تحت قيـادة (ماردونيوس) الذي عهد اليه باستئناف الحرب في الربيع القادم وقد رأى هذا ان ينسحب في الحال الى (تسالية) لقضاء فصل الشتاء .

ولما وصل (سرخس) الى مضيق (هيلليسبونت) وجد الجسرين قد تحطما بسبب الزوابع فانتقل على السفن الى الساحل الاسيوي واعاد الجيش الذي رافقـه لينضم الى (ماردونيوس) بينما أسـرع هو مـع حاشـيته الى (ساردیس) ، حيث قضى فصل الشتاء .

كان الابتهاج عظيما في بلاد اليونان بالنصر العظيم الذي لم يكن احد يأمل به . وقد اجتمع القادة في برزخ (قورنت) لتقسيم الغنائم وتوزيـع الجوائز . فكانت الجائزة الاولى من حصة بحارة (أجينة) الذين برهنوا على منتهى الشجاعة والبراعة في معركة (سالاميس) . ونالت آثينة الجائزة الثانية . كذلك وزعت على الافراد الذين قاموا بأعمال باهرة . ويروى انه عند التصويت على توزيع هذه الجوائز طلب الى القادة ان يكتب كل منهم اسمين على قطعـة من الفخـار فكان كل واحـد يكتب اولا اسـمه ثم اسم (تميستوقليس) فكانت النتيجة ان نال هذا الرجل الفذ جميع الاصوات...

خلد اليونانيون ذكرى الابطال الذين ماتوا في معركة (سالاميس) بكتابات كثيرة نقشت على القبور والمسلات والتماثيل وهي عبارة عن كلمات قصيرة ، بسيطة تشبه ما كتبه الاسبارطيون عن قتـلى (ترموبيلي) . وقـد عثر المنقبون حديثا في جزيرة (سالاميس) على احدى هذه الكتابات التـي نقشت لتخليد ذكرى القتلى القورنتيين تقتصـر عـلى اخبـار الغريب بأن : « سالاميس » ، جزيرة آجاكس (وهو ملكها القـديم واحد ابطال حرب طروادة) تضمنا الان نحن الذين كنا نقيم في (قورنت) وبين مياهها » .

على انه في العصور التالية قد نظم كثير من الابيات الفخمة لتمجيد ابطال (سالاميس) وليس غريبا ان تلهب ذكرى هذه المعركة نفوس اليونانيين وتوحي الى الشعراء والكتاب والفنانين بموضوعات رائعة مثل رواية «الفرس» للشاعر (اسخيلوس) الذي اشترك في هذه الحرب ثم « كتاب التاريخ » الذي ألفه (هيرودوت) وكان موضوعه الاساسي النضال بين الشرق والغرب كما تجلى له في معارك طروادة و (سالاميس) و (بلاتية Platea) .

١٣ ـ الفترة بعد (سالاميس) :

يقول (اسخيلوس) : « ان هزيمة الاسطول الفارسي في البحر تعني في الوقت نفسه اندحار الجيش المرابط في البر » . وهذه الكلمة كانت صحيحة في يوم المعركة ولكنها لم تصبح حقيقة الا بعد مرور سنة ، لان اليونانيين لم يستطيعوا الاستفادة بسرعة من انتصارهم الباهر .

كان الجيش الفارسي معسكرا على شاطىء (آتيكة) وهو يفوق الجيوش اليونانية كثيرا بعدد جنوده ولم يصطدم منذ موقعة (ترموبيلي) بأي مقاومة جدية . وكان من المحتمل ان ينجح في اتمام غارته ، لو حاول ذلك . انما كان من الصعب ضمان تموينه باستمرار . ولعل هذه المشكلة كانت من أهم الاسباب التي دفعت (سرخس) الى وقف القتال . وقد كانت الاعتبارات العسكرية تحتم على اليونانيين ان يسرعوا في استثمارهم هذه الفرصة النادرة ويحاولوا توجيه ضربات جديدة الى الفرس .

وفي الواقع فقد استعد القائد الاسبارطي (قليئومبروتوس) لمهاجمة الجيش الفارسي الذي كان أخذ يتراجع . ولكنه بينما كان يقوم بطقوس تقديم الضحايا للآلهة ، قبل اصدار الأمر بالحركة ، كسفت الشمس (في الساعة الثانية بعد ظهر اليوم الثاني من تشرين الاول سنة ٤٨٠) فاعتبر ذلك دليل شؤم وعدل عن رأيه وسرح قسما من الجيش .

أما في البحر فقد حاول (تميستوقليس) منذ اليوم التالي لمعركة (سالاميس) ان يقنع القادة اليونانيين بضرورة تعقب الاسطول الفارسي الى مضيق (هيلليسبونت) وتحطيم الجسرين هناك . وكان من المنتظر ، لو تم ذلك ، ان يؤدي الى ثورة اليونانيين في (أيونية) . ولكن (البيلوبونيزيين) لم يكونوا ليوافقوا على مثل هذه المغامرة في اقاصي الارض - على حد تعبيرهم - بينما لايزال الجيش الفارسي قريبا من البرزخ . ويروى ان (تميستوقليس) ، بعد فشل محاولته هذه ، أرسل الوسيط الموثوق (سيكيتوس) ، يؤكد للملك الفارسي نواياه الحسنة ويخبره عن نجاحه في اقناع اليونانيين بأن لا يتعقبوا الاسطول الفارسي . ويظهر ان (تميستوقليس) أراد بذلك اثارة الشك في نفس (سرخس) ، الذي خدع بأقواله في المرة الاولى ، حتى يسرع في المسير الى (هيلليسبونت) خوفا من ان يسبقه اليونانيون الى هناك فيخربون الجسر ويقطعون طريق الرجعة على الجيش . على ان هذه الحيلة قد فسرت فيما بعد على وجه آخر من قبل خصوم (تميستوقليس) الذين اتهموه بأنه قصد بها التقرب الى (سرخس) قائلين بأنه ، لما حكم عليه بعد مدة بالنفي ، لجاء الى الملك الفارسي وطلب مساعدته مقابل تلك الخدمة التي كان قدمها له .

وعلى كل فقد اختلف اليونانيون حول الخطة اللازم اتباعها بعد (سالاميس) فكان (البيلوبونيزيون) يعتقدون بأن الخطر قد زال عنهم بعد انكسار الاسطول الفارسي وانسحابه وان التحصينات التي اقاموها على طول البرزخ تحميهم من الغزو الفارسي عن طريق البر وعلى العكس من ذلك كان (الاثينيون) يخشون غارة الجيش الفارسي على بلادهم مرة ثانية .

ان هذا الجيش الذي انسحب الى (تسالية) كان لايزال قويا تحت قيادة أمهر رجال الفرس العسكريين واكثرهم معرفة ببلاد اليونان وهو

(ماردونيوس) وكانت كافة الـدلائل تشير الى انه مصمم عـلى الثـأر من اليونانيين • وهو لم يعد يجهل بعد تجاربه الطويلـة نقـاط الضعف لدى اليونانيين وما بينهم من تباين في الرأي •

ازداد الخلاف بين (آثينة) و (اسبارطة) شدة أثناء هدنـة الشتاء ويمكن ان نلمس آثار هذا الخلاف في توقف الاسطول اليوناني عن كل نشاط في ربيع سنة (٤٧٩) •

فقد كان الاسطول الفارسي محتشدا اذ ذاك عند جزيرة (ساموس) ليقوم بحراسة (ايونية) • وكان يبلغ (٤٠٠) سفينة دون ان يشترك فيه الفينيقيون • وبالمقابل كان هناك (١١٠) سفينة يونانية مرابطة عند (أجينة)• وقد جاءت وفود من (خيوس) تطلب مهاجمة الفرس في (ايونية) • ولكن الاسطول اليوناني لم يقبل ان ينجول الى أبعد من جزيرة (ديلوس) لأن الاثينيين ، الذين يسيطرون على الاسطول كانوا ، حسبما يظهر ، يريدون الاقتصار على حماية سواحل بلادهم • وربما كانوا أيضا يعتقدون بأنهم اذا هاجموا الاسطول الفارسي وانتصروا عليه مرة ثانية يزداد الاسبارطيون طمأنينة بزوال الخطر على شبه جزيرة (البيلوبونيز) ويرفضون الاشتراك في الدفاع عن بقية بلاد اليونان شمال البرزخ وتصبح (آتيكة) بذلك معرضة للغزو الفارسي •

ومن جهة اخرى فقد تغيرت القيـادة في حكومة (آثينة) وخسـر (تميستوفليس) كثيرا من نفوذه • فان (الاثينيين) انتخبوا في سنة (٤٧٩) رجلين من اكبر المنافسـين له همـا (آريستيديس) و (كسانتيبوس) ، وعهدوا الى الاول بقيادة الجيش والى الثاني بقيادة الاسطول • فما هو السبب في ذلك ؟ يقول (هيرودوت) ان بطل (سالاميس) ذهب ، بعد توزيـع الغنائم ، لزيارة (اسبارطة) فاستقبل هناك بحفاوة كبيرة ، غير معتادة • وعلى العكس من ذلك قوبل بكثير من البرودة لما رجع الى بلدته (آثينة) • فان

الناس كانوا ينتقدون سلوكه ويتهمونه بالغرور، ثم يظهر ان (تميستوقليس) قد فشل في المهمة التي سافر الى (اسبارطة) من أجلها وهي ان يحصل من الدول البيلوبونيزية على وعد قاطع بالمساعدة العاجلة .

على ان (الآثينيين) ، رغم تنكرهم لشخص (تميستوقليس) ، ظلوا متمسكين بالسياسة التي رسمها بعد معركة (سالاميس) وهي تقديم الدفاع البري على الحركات البحرية ما دام الجيش الفارسي مرابطا في بلادالبونان.

لقد كان من الطبيعي ان يبادر (ماردونيوس) ، الذي لم يكن يجهل هذه الاختلافات فيحاول استثمارها . وقد اخذ يتصل أولا بالآثينيين ،الذين كانوا عرضة للخطر قبل غيرهم . فأرسل الزعيم المكدوني (اسكندر)ليعرض عليهم الوعود الخلابة قائلا انه يريد نسيان « الاخطاء » الماضية وانه مستعد لاعطائهم أراضي واسعة وتعويض الخسائر التي تكبدوها ومنحهم الاستقلال التام في شؤونهم الداخلية كل ذلك مقابل معاهدة صداقة يعقدونها معه .وقد اضطرب الاسبارطيون بسبب هذه المفاوضات واسرعوا الى ارسال مندوبين الى (آثينة) كانت مهمتهم ، في الظاهر ، ان يعلنوا عن استعداد (اسبارطة) لاسكان اولاد المحاربين الاثينيين واعاشتهم بينما كانوا ، في الباطن ، يهدفون الى معرفة نتيجة المفاوضات بين الفرس والآثينيين .

على ان (الاثينيين) ، الذين أرادوا تأكيد اخلاصهم للقضية القومية اليونانية ، لم يرضوا بدعوة الزعيم المكدوني الى مجلس الشعب الا بعد وصول المندوبين الاسبارطين وحضورهم الاجتماع . وقد رفض (الآثينيون) باحتقار ما عرضه عليهم القائد الفارسي وصرحوا بأن الاطلال الباقية من مدينتهم تدعوهم الى الانتقام . وفي الوقت نفسه رفضوا ، باعتزاز ، الاقتراح الاسبارطي ، طالبين من حلفائهم الاسراع في ارسال الجيش الى (بئوتية) .

عندئذ قرر (ماردونيوس) ان يلجأ الى القوة ولكن دون التخلي نهائيا عن الوسائل الديبلوماسية ، اذ ظل يرسل مندوبين الى (آرغوس) وغيرها

من المدن البيلوبونيزية لتحريضها • وقد تقدم في ربيع سنة (٤٧٩) الى الجنوب مع بعض الفرق المختارة من جيشه فتوغل في (بثوتية) واخذ يهيىء المراكز اللازمة للتموين وللحركات العسكرية والمواقع الصالحة للقتـــال والخطوط التي يمكن التراجع منها اذا اقتضى الامر • ثم قام بعدة غارات على (آتيكة) • فاضطر (الآثينيـــون) ، الـذين لم تصلهم النجـدة من (اسبارطة) ، الى تخلية العاصمة مرة ثانية والالتجاء الى جزيرة (سالاميس) ودخل (ماردونيوس) الى (آثينة) في حزيران ولكنه لم يخرب شيئا من البيوت التي بدأ السكان ينشئونها مجددا لأنه كان لا يزال يأمـل انضمام (الاثينيين) اليه في اللحظة الاخيرة • ولذلك عاد وأرسل اليهم وسيطا آخر وهو رجل من (هيلليسبونت) اسمه (موريكيديس) .تكلم في اجتماع عقده مجلس الخمسمائة بجزيرة (سالاميس) فكان الجواب في هذه المرة ايضـا لا يختلف عن جواب مجلس الشعب في (آثينة) بالمرة الاولى •

الا ان (الاثينيين) اصبحوا الان في موقف حرج • فقد كان لديهـم اسطولهم المظفر ولكن ماذا يفيدهم ذلك لملاقاة عدوهم في البـر ؟ انهـــم لايستطيعون الدفاع عن بلادهم دون مساعدة البيلوبونيزيين • فكان لابد من اتخاذ قرار حاسم حول الموضوع • وهكذا سافر الى اسبارطة مندوبون عن (آثينة) و (ميغارة) و (بلاتية) اجتمعوا بالمراقبين فاحتجوا عـلى سلوك البيلوبونيزيين المشين واصروا على ضرورة ارسال الجيش البيلوبونيزي في الحال الى (آتيكة) مهددين بالانفصال اذا رفض طلبهم • وبعد تردد دام عشرة أيام صدرت الاوامر الى (بوزانياس) ، الوصي عـلى الملك الشاب (بليسارخوس) خلف (قليئومبروتوس) ، بحشد الجنود والزحف لمقابلة الفرس وقد اصطحب (بوزانياس) خمسة آلاف من المواطنين الاسبارطيين يرافق كل واحد منهم عدة أرقاء (هيلوتيين) ويسير وراءهم خمسة آلاف من الجنود (البريوكيين) • فكان ذلك اعظم جيش جمعته (اسبارطة) في تاريخها ــ ولكنها لم ترسله الى ما وراء برزخ (قورنت) الا وهي مكرهة•

١٤ ـ معركة (بلاتية) :

لما علم (ماردونيوس) ، عن طريق اصدقائه في (آرغوس) بزحف الجيش الاسبارطي أسرع في العودة الى معسكره عند (ثيبة) • وقد دفعه الغضب الشديد الى تخريب (أثينة) من جديد فلم يترك فيها بيتا قائما أو جدارا مرتفعا ولم يخرج منها حتى اشعل النيران في اطلالها الباقية •

كانت (ثيبة) التي اتخذها (ماردونيوس) مركزا لحركاتـه قلعـة حصينة جمع فيها كمية كبيرة من المؤن والذخائر • ثم انتخب هو نفسه بعد البحث الدقيق المكان الذي قرر ان يخوض فيه المعركة مع اليونانيين وذلك في الميدان الذي يمتد بين نهر (اسوبوس) في الشمال وجبل (سيتيرون) في الجنوب • وتقع مدينة (بلاتية) في الجنوب الغربي من هذا الميدان • هنا يستطيع (ماردونيوس) ان يحارب دون خوف من ان يقطع اليونانيون خطوط مواصلاته مع (ثيبة) التي تحميه من الخلف • ومن المؤكد ان الفرس كانوا ينتظرون المعركة باطمئنان ، ليس استنادا الى كثرة عددهم فحسب ، بل قبل كل شيء اعتمادا على مقدرة قائدهم •

وفي الحقيقة فان (ماردونيوس) يمتاز في مهارته العسكرية على جميع القادة اليونانيين الذين جاؤوا لمحاربته• وليس صحيحا ما يذكره (هيرودوت) من مظاهر الاضطراب والفزع في المعسكر الفارسي • والقصة التي يرويها للتدليل على ذلك يبدو انها مختلقة • وخلاصـة القصة ان القائـد الثيبي (آتاجينوس) اقام حفلة فخمة لتكريم (ماردونيوس) حضرها مائـة من الضيوف كان يجلس فيها الى جانب كل ضيف فارسي واحد ثيبي • وكان بين الضيوف الثيبيين رجل اسمه (ترساندر) يدعي (هيرودوتس) بأنـه اجتمع به فيما بعد وسمعه يقول : « ان الرجل الفارسي الى جانبي قـد خاطبني باليونانية : ما دمنا قد اشتركنا في الطعام والشراب فانني اريد ان اصرح لك برأيي لعلك تستفيد منه وتذكرني في المستقبل • انظر الى هؤلاء

الفرس الذين يحتفلون هنا والى الجيش الضخم الذي تركناه على ضفة النهر • انك لن ترى احدا منهم بعد قليل • » وقد كانت الدموع تنهمر من عيني الفارسي وهو يتكلم • ولما سأله (ترساندر) :«الا يجب عليك ان تخبر (ماردونيوس) بالامر ؟ » أجاب : « أيها الغريب ، لا يستطيع الانسان ان يبدل ما قدره الاله • ان الكثيرين من الفرس يعرفون ما اعرفه ولكنهم يرافقون الجيش دون ارادتهم •• حقا ، ليس هناك شيء يؤلم الانسان اكثر من العجز عند المعرفة ••• »

خصص (ماردونيوس) من جيشه ما يقارب (١٢٥ر٠٠٠) لخوض المعركة المنتظرة بينما ترك بقية الجنود في (ثيبة) و (تسالية) للحراسة ولتأمين المواصلات • وكان بين المقاتلين (٩٦ر٠٠٠) من المشاة و (٤ر٠٠٠) من الخيالة الفرس والشعوب الشرقية الخاضعة لهم ثم (٢٥ر٠٠٠) من اليونانيين الذين انضموا الى الفرس يبلغ عدد الخيالة بينهم (١ر٠٠٠) • وقد صف هؤلاء المقاتلين على الضفة الشمالية لنهر (اسوبوس) على بعد ثمانية كيلو مترات من (ثيبة) وجعل اليونانيين في الجناح الايمن والفرس في الجناح الايسر والجنود من الشعوب الاخرى في الوسط ثم اخذ ينتظر قدوم الجيش اليوناني متبعا خطة الدفاع في مكانه لان السهل الممتد على الضفة الشمالية من النهر يساعده على الاستفادة من الخيالة التي يمتاز بها على اليونانيين • وعلى العكس من ذلك اذا تقدم الى الجنوب من النهر فان الاراضي المرتفعة ، الوعرة هناك لابد ان تعرقل حركة الخيالة •

أما الجيش البيلوبونيزي فقد تقدم الى (بئوتية) على الطريق الشرقية الممتدة بين (آثينة) و (ثيبة) والتي تصل الى قلعة (الوتيرة) وتجتاز ممر (دريوسكي فالاى) • وقد انضمت اليه أثناء مروره من (ميغارة) و(آتيكة) بعض الفرق الجديدة ، اذ جاء (آريستيديس) ومعه (٨ر٠٠٠) من الجنود الاثينيين و (٦٠٠) من البلاتيين • وبذلك بلغ مجموع المقاتلين اليونانيين

الذين كان يقودهم (بوزانياس) ما يقارب (٤٠٫٠٠٠) أي بنسبة يوناني واحد مقابل ثلاثة من الفرس • ومن أهم النقائص في هذا الجيش الصغير فقدان الخيالة بالمرة بين صفوفه الامر الذي كان يعرقل كثيرا حركاته •

استقر الجيش اليوناني على سفوح جبل (سيترون) • وكان جناحه الايمن المؤلف من الاسبارطيين قد عسكر فوق كتلة مرتفعة من الجبل تشرف على مدينة (أرتيره) وكان القلب المؤلف من سائر البيلوبونيزيين في مكان منخفض قليلا ، قريب من هذه المدينة ، بينما نزل الجناح الايسر المؤلف من الآثينيين والميغاريين الى اسفل الجبل • وكان هذا الجناح في السهل هو الذي يتعرض لهجمات العدو • وفي الواقع فقد بدأت المناوشات الاولى في أوائل آب (٤٧٩) عندما أرسل (ماردونيوس) فرق الخيالة لمهاجمة الميغاريين ، الذين انهالت عليهم النبال والرماح فدب بينهم الاضطراب وطلبوا النجدة • وقد اسرع ثلاثمائة من الجنود الاثينيين الى مساعدتهم فاحتدم القتال بعنف واصيب قائد الخيالة الفارسي (ماسيتيوس) بسهم في عينه أرداه قتيلا واضطر رجاله حينئذ الى التراجع • يقول (هيرودوتس) ان بلاد (بثوتية) كلها كانت تردد اصداء النحيب والانين التي ارتفعت عالية من معسكر الفرس أسفا على هذا القائد الممتاز • على ان الاصطدام قد كشف عن موطن الضعف في مواقع اليونانيين رغم نجاحهم • ويجب الاعتراف بأن قائد الجيش اليوناني الاعلى (بوزانياس) كان محاربا شجاعا ولكنه لا يتصف بشيء من المهارة العسكرية • وقد اضطر ، بعد التجربة الاولى ، الى تغيير مكان جنوده وعلى الاخص لانه لاحظ أيضا قلة الماء بالقرب من جيشه • فلما جاء الليل تحرك الجيش اليوناني نحو الجنوب على أرض (بلاتية) وتمركز الاسبارطيون في الجناح الايمن على مرتفع قرب نبع (غارغافية) من الصعب ان يصعد اليه الخيالة الفرس • كذلك تحصن الاثينيون في الجناح الايسر فوق تل (بيرغوس) الذي يسهل الدفاع عنه • ولكن قلب الجيش المؤلف من بقية اليونانيين ظل في السهل ، حيث كان موقفه أكثر

خطورة من السابق • اضف الى ذلك ان (بوزانياس) ، بانتقاله الى هذه المواقع الجديدة قد ترك الطريق المؤدية الى قلعة (ألوتيره) دون أي حماية رغم اهميتها الحيوية لجيشه •

ولما اطلع (ماردونيوس) على هذا الوضع اسرع الى الاستفادة من أخطاء خصمه • وهو قد ادرك ان مصلحته تقتضي الاستعجال اذ لاحظ وصول النجدات الى اليونانيين باستمرار • وقد أراد ان يضعف الجيش اليوناني بعدة مناوشات جزئية قبل المباشرة بالهجوم العام • فتقدمت مرة احدى كتائب الخيالة حتى ممر (دريوسكي فالاى) وراء خطوط اليونانيين وغنمت قافلة معها (٥٠٠) من البقر • وبلغ الخيالة الفرس كرة اخرى نبع (غارغافية) ومنعوا الماء عن الاسبارطيين • هكذا استطاع (ماردونيوس) في عدة ايام ان يزرع الفوضى في الجيش اليوناني ويضعف عزيمته • فأخذ اليونانيون الذين قطع عنهم الماء والمؤن يفكرون في التراجع ولا سيما عندما شعروا بأن العدو يتأهب للقيام بهجوم عام • وقد جمع (بوزانياس) ، الذي احتار في أمره ، مجلسا حربيا لتقرير ما يجب عمله ، فاتفقت الآراء على انسحاب الجيش في ظلام الليل الى مواقع مرتفعة في الجبال بين (بلاتية) و (هيسية) وارسال فرقة لحماية الطريق الى (آثينة) عند الممر •

تشير جميع الدلائل على ان اليونانيين لم يكونوا يريدون بانسحابهم السريع سوى تجنب هزيمة شنيعة • وليس هناك ما يؤيد دعوى (هيرودوتس) بأن تراجعهم كان مقصودا وحسب خطة مرسومة • وهو انما اخذ بهذا الرأي استنادا الى الحوادث التالية التي جعلت اليونانيين يستفيدون في النتيجة من حركة الانكفاء • وكيف نسلم بوجود خطة مرسومة ونحن نرى ان الاوامر التي اصدرها القائد الاعلى كانت غامضة تقتصر على طلب الانسحاب الى الجنوب دون ان تعين المواقع التي يجب ان تحتلها اقسام الجيش المختلفة؟ ولقد أسرع بالتراجع منذ أول الليل (الميغاريون) و (القورنتيون) الذين

شعروا أكثر من غيرهم بوطأة الهجمات الفارسية فلم يتوقفوا الا عند أسوار (بلاتية) بالقرب من معبد (هيرا) . أما (الآثينيون) فلم يتحركوا من مواقعهم الا في الاخير بعد ان علموا بانسحاب الاسبارطيين . وقد رأى (آمومفاريتوس) ، أحد القواد الاسبارطيين ، ان التراجع لايتفق مع شرفه العسكري فرفض باصرار ان يبرح مكانه واضطر الى اضاعة وقت طويل لاقناعه بوجوب الانقياد للاوامر العليا .

ولما طلعت الشمس (يوم ٢٧ آب ٤٩٧) دهش الفرس إذ لم يشاهدوا امامهم سوى فرقة (آمومفاريتوس) تسير بخطى بطيئة في السهل . ثم علم (ماردونيوس) من الخيالة الذين ارسلهم للاستكشاف ، بأن بقية اليونانيين قد انتقلوا الى مواقع اخرى فقرر ان يبدأ بالهجوم رغم نصائح (الثيبيين) ومعارضة القائد الفارسي (آرتاباز) .

اجتاز (ماردونيوس) ، على رأس الجنود الفرس ، نهر (آسوبوس) واندفع يهاجم الاسبارطيين . وكان يعرف بأنه متى كسرهم واستولى على مواقعهم يصبح من السهل عليه القضاء على الجيش اليوناني كله . ولكنه لم يلاحظ بسبب استعجاله ان فرسانه لايستطيعون الوصول الى هذه المواقع الوعرة . وعدا ذلك ارتكب (ماردونيوس) غلطة اخرى أشد خطرا وهي انه لم يصدر أي أوامر الى الاقسام الاخرى من جيشه . وهكذا فان هذه الاقسام ، عندما شاهدت الفرس يهاجمون ، اجتازت ايضا النهر في حالة فوضى تريد الانقضاض على العدو دون خطة منظمة . ولما وصل جنود (ماردونيوس) الى مكان الاسبارطيين في وادي (مولويس) قرب معبد (ديميتر) توقفوا وغرزوا دروعهم في الارض للإحتماء وراءها ثم اخذوا يمطرون الاسبارطيين بالسهام . ورغم الاصابات الكثيرة بين هؤلاء ظل (بوزانياس) دون أن يأمر بالهجوم ، ينتظر اقوال العرافين الذين كانوا يقدمون الضحايا الى الالاهة (هيرا) ويرتلون الادعية . واخيرا تقدمت

احدى الكتائب الاسبارطية لمهاجمة الفرس وتبعتها الكتائب الاخرى ٠فالتحم الطرفان في القتال بصورة مباشرة ٠ وكانت المعركة عنيفة للغاية ابدى فيها الفرس شجاعة فائقة ولكنهم ، رغم كثرة عددهم ، لم يستطيعوا مقاومة الاسبارطيين الذين يمتازون عليهم بأسلحتهم الثقيلة ودروعهم المتينة وبمهارتهم في المبارزة ٠ ولما قتل (ماردونيوس) أثناء المعركة انتشر الذعر بين الفرس فتفرقوا واخذوا يهربون ٠ وكان (آرتاباز) ، الذي عارض في مباشرة القتال ، يشاهد مصير (ماردونيوس) دون ان يتحرك مع الفرق الخاضعة لامره ٠ وعندما بدأت الهزيمة أمر جنوده الذين يبلغ عددهم (٤٠) الفا بالانسحاب الى مقاطعة (فوسيد) وسار من هناك راجعا الى بلاده ٠

كان (بوزانياس) ، على أثر الاصطدام بالفرس ، قد ارسل الى الآثينيين في الجناح الايسر يطلب منهم النجدة ٠ فتقدم هؤلاء بقيادة (آريستيديس) ولكنهم التقوا في الطريق بالمشاة الثيبيين الذين اشتبكوا معهم في القتال ٠ وقد حارب الثيبيون بمنتهى العنف ٠ على انهم ، بعد ان خسروا ثلاثمائة رجلا ، انهزموا واسرعوا في الالتجاء الى مدينتهم ٠

أثناء كل ذلك كان (الميغاريون) و (القورنتيون) متحصنين وراء أسوار (بلاتية) ٠ فلما رأوا انهزام الفرس نحو المعسكر خرجوا للاشتراك في الغنائم ولكنهم ما كادوا يتقدمون قليلا حتى هاجمهم الخيالة الثيبيون ، فاضطروا ان ينسحبوا الى مرتفعات جبل (سيتيرون) بعد ان قتل منهم (٦٠٠) رجل٠

ان مصير المعركة كان قد تقرر منذ قتل (ماردونيوس) ، ولم يبق أي شك في انتصار اليونانيين بعد انسحاب (آرتاباز) مع جنوده ٠ وقد استطاع اليونانيون ان يقتحموا بسهولة المعسكر الفارسي الحصين وان يذبحوا الجنود الذين التجأوا اليه وان يغنموا ما فيه من اسلحة وذخائر ومؤن ٠

بعد عشرة ايام من المعركة زحف الجيش اليوناني الى (ثيبة) وطلب

من السكان تسليم الزعماء الذين تعاونوا مع الفرس • ولما رفض الطلب أمر (بوزانياس) بضرب الحصار على المدينة على ان الزعماء الملاحقين رغبوا في تسليم انفسهم وكانوا يأملون في الخلاص من الموت عن طريق الرشوة • ولكن (بوزانياس)، عندما وصل الى (فورنت) أمر باعدامهم دون محاكمة•

بانتصار اليونانيين في معركة (بلاتية) تخلصت بلادهم نهائيا من الخطر الفارسي • وقد عهدت الدول اليونانية الى سكان (بلاتية) بأن يحتفلوا كل اربع سنوات مرة بذكرى يوم المعركة الذي اطلق عليه اسم (عيد الحرية)••

١٥ ـ معركة (ميكالي) :

كان الاسطول اليوناني المؤلف من (١١٠) سفينة قد انتقل ، كما ذكرنا ، في ربيع سنة ٤٧٩ من (أجينة) الى جزيرة (ديلوس) تحت قيادة الملك الاسبارطي (لئوتيخيداس) وظل مرابطا هناك لا يبدي أي حركة كل أشهر الربيع والصيف ، رغم الوفود التي كانت تتعاقب من (أيونية)وتطلب اليه تحريرها من الحكم الفارسي • وقد اشرنا الى السبب الذي دعا الآثينيين الى الاحتفاظ بالاسطول قريبا من بلادهم • على انه بعد زحف الجيش البيلوبونيزي الى (بئوتية) لمقابلة الفرس تغير موقف الآثينيين فأرسلوا عددا آخر من السفن بقيادة (كسانتيبوس) وهكذا بلغ مجموع الاسطول اليوناني (٢٥٠) سفينة واصبح قادرا على الهجوم • ومما شجع الملك (لئوتيخيداس) على التقدم وصول وفد كبير من الايونيين يقودهم احد زعماء جزيرة (ساموس) اسمه (هيجيزيستراتوس) يحملون أخبارا موثوقة عن الحال في (أيونية) • كانت الظروف ملائمة حقا لمهاجمة الفرس • فقد اندلعت الثورة في بلاد الكلدان واضطر الملك (سرخس) ان يسرع الى اخمادها وبذلك اصبح من الصعب عليه ارسال أي نجدة الى (أيونية) ، حيث لم يكن لدى القائد الفارسي (تكرانيس) سوى (٦٠) ألفا من الجنود الضعفاء بينهم كثير من الايونيين الذين كان الفرس لايثقون بهم حتى انهم

جردوا جنود (ساموس) من السلاح بينما عهدوا الى الجنود الملطيين بحراسة الطرق في الجبال لابعادهم عن صفوف القتال • ثم ذكر الوفد ان الايونيين في غاية الهيجان وانهم متأهبون للثورة لا ينتظرون الا اقتـراب الاسـطول اليوناني من بلادهم ، بل ان سكان جزيرة (خيوس) قد ثاروا فعلا • واهم خبر جاء به الوفد هو انفصال السفن الفينيقيـة عن الاسـطول الفارسي • والروايات هنا متضاربة يقول بعضها ان الفينيقيين هربوا بعد معركة (سالاميس) مباشرة ويزعم غيرها ان أمير البحر الفارسي (ماردونتيس) سمح لهم بالعودة الى بلادهم من (ساموس) • ومهما كان الامر فقد نقص عدد السفن كثيرا في الاسطول الفارسي وصار بذلك اضعف من الاسطول اليوناني •

يروي (هيرودوت) ان الملك (لثوتيخيداس) تفاءل من اسم الزعيم الساموسي الذي يفيد (دليل الجيش) فقرر ان يتقـدم الى (سـاموس) لمهاجمـة الاسـطول الفارسي ولكن (ماردونتيس) لم ينتظـر وصـول اليونانيين بل انسحب قبل ذلك والتجأ الى حماية الجيش الذي كان مرابطا تحت قيادة (تكرانيس) على الشاطىء عند جبل (ميكالي) مقابل جزيرة (لادى Lade) حيث كان الفرس قـد انتصروا قبـل (١٥) عاما عـلى الاسطول الايوني •

ان الجيش الفارسي الذي يبلغ (٦٠) الفا لم يكن ، بطبيعة الحال ، محتشدا كله في هذا المكان ، كما يزعم الرواة اليونانيون ، لأن قسما منه ظل معسكرا في (ساردیس) واذا فرضنـا ان القائـد الفارسي اصطحب معـه ما يقارب (٣٠) الفا من الجنود فلا ننسى ان معظم هؤلاء كانوا من الايونيين الذين لايمكن للفرس الاعتماد عليهم • أما القائد اليوناني فكان يمكنه ان يصطحب معه ايضا مثل هذا العدد من الجنود والبحـارة • الا ان عـدد المقاتلين الذين يستطيع الاستناد اليهم ربما لم يكن يزيد على (٦٠٠٠) •

ظن الفرس ان هدف القائد اليوناني هو تحطيم أسطولهم • فأسرعوا

الى جر السفن على الشاطىء ووضعوا الحواجز حولها واعتصموا في موقعهم الحصين ينتظرون انسحاب اليونانيين • ولكن (لئوتيخيداس) اقدم على النزول مع جنوده المتحمسين الى البر وهاجم المسكر الفارسي من الجانبين فكانت معركة حامية انضم اثناءها الايونيون والائوليون الى المهاجمين فانتشرت الفوضى في الجيش الفارسي وقتل القائدان (تكرانيس) و (ماردونتيس) كما احترقت السفن الفارسية • وكان الملطيون في الجبال يصطادون الجنود الفرس الهاربين •

يذكر المؤرخون اليونانيون ان معركة (ميكالي) قد وقعت في اليوم نفسه الذي جرت فيه معركة (بلاتية) وان الجنود اليونانيين في (ميكالي) قد بلغهم ذلك بصورة « عجيبة » فازدادوا حماسة وجرأة • على اننا ربما لا نبتعد عن الحقيقة اذا استنتجنا من سير الحوادث ان الاسطول اليوناني لم يتحرك من (ساموس) وان القادة اليونانيين لم يقدموا على مهاجمة الفرس الا بعد وصول الاخبار عن انتصار جيشهم في معركة (بلاتيــة) وخلاص بلادهم من الخطر الفارسي •

على أثر انتصار (ميكالي) قامت اكثر المدن اليونانية في بحر ايجة وفي آسية الصغرى وطردت الحكام الذين نصبهم الفرس واعلنت استقلالها اعتمادا على ان الحلف الهيلليني سيتولى حمايتها • ولكن الاسبارطيين الذين كانوا يكرهون الايونيين لم يقبلوا بانضمامهم الى الحلف ورفضوا التعهد بالدفاع عنهم • هذا الموقف كان منتظرا من (اسبارطة) التي تتمسك دوما بسياسة العزلة والتي لم يكن لها اسطول ولا مصالح تجارية والتي سبق لها ان رفضت مساعدة الايونيين في ثورتهم • وللتخلص من المشكلة اقترح الاسبارطيون ان يهجر الايونيون بلادهم وينتقلوا الى شبه جزيرة اليونان فتعطى لهم أراضي الدول التي ساعدت الفرس مثل (تسالية) و (بثوتية) • مثل هذا الاقتراح لم يكن جديدا • فقد كان تقدم به الحكيم (بياس) عند

بدء الغزو الفارسي على (ايونية) ، كما ان الاثينيين لم يتأخروا عن اتباع نصيحة (تميستوقليس) والهجرة من مدينتهم قبل سنة واحدة وفي سنة ١٩٢٣ لجأ رجال السياسة الى تدبير مماثل لحل المشاكل القومية في أوروبة الشرقية بعد الحرب العالمية الاولى ۰ الا انه كان من الصعب في تلك الظروف ارغام الايونيين على قبول مثل هذا الاقتراح الاسبارطي الذي صادف معارضة شديدة من الاثينيين ايضا الذين اعتبروا الايونيين اقارب لهم وانكروا على اسبارطة كل حق في تقرير مصيرهم ۰ وعدا ذلك احتج الاثينيون بأن مصلحة اليونانيين عامة تقتضي بقاء آسية الصغرى في ايدي اخوانهم ليكونوا جنود الطليعة ويحولوا دون تقدم الفرس الى بحر ايجة وشبه جزيرة اليونان ۰

وهكذا رضي الاسبارطيون بقبول الجزر الكبيرة (لسبوس)و(خيوس) و (ساموس) في الحلف الهيلليني بينما عقد الاثينيون معاهدات خاصة مع المدن الايونية في آسية الصغرى واخذوا على عاتقهم مهمة حمايتها ۰

١٦ ـ الاستيلاء على (سيستوس) :

ثم سار الاسطول اليوناني الذي انضم اليه عدد آخر من السفن الايونية في اتجاه (هيلليسبونت) وكان هدفه ، كما يروي (هيرودوت)، تحطيم الجسر في مضيق الدردنيل ۰ على ان هيرودوت نفسه يذكر في مكان آخر بأن هذا الجسر كان قد تهشم عند عودة (سرخس) ۰ ومن المستبعد ان يكون القادة اليونانيون يجهلون ذلك ۰ فالحملة كانت ترمي اذن الى غاية اخرى هي تأمين طريق المضايق ومن المعلوم ان (آثينة) تحرص على السيطرة في هذه المنطقة منذ تأسيس مستعمرات لها هناك كان يحكمها (ميلتياديس) ۰ ولما كان الآثينيون يؤلفون الاكثرية في الاسطول فقد ساقوا الاخرين معهم للاستفادة من الفوضى السائدة في صفوف الفرس بعد الهزائم المتتالية ولاستعادة المراكز الهامة على طريق البحر الاسود ۰ ولكن الاسطول اليوناني تأخر في الطريق بسبب الرياح المعاكسة ولم يصل الى المضايق الا

حوالي منتصف ايلول • وبذلك توفر الوقت الكافي للقائد الفارسي في تلك المنطقة كي يجمع الحاميات المتفرقة في مدينة (سيستوس) الحصينة التي تسيطر على المضايق ويتأهب لمقاومة اليونانيين •

كان الاسبارطيون يكرهون مبدئيا حروب الحصار • وعدا ذلك فانهم مع بقية البيلوبونزيين لم يكونوا يرغبون في خوض المعارك في ما وراء البحار لمصلحة (آثينة) • وقد قرر الملك (لئوتيخيداس) ان يعود بالسفن البيلوبونزية الى بلاده بحجة دخول فصل الخريف بينما اصر الاثينيون على انجاز المهمة التي جاؤوا من اجلها وبدأووا مع حلفائهم الجدد من الايونيين في حصار مدينة (سيستوس) •

وهكذا اخذت تظهر بين (اسبارطة) و (آثينة) بوادر الانشقاق الذي ادى فيما بعد الى الانفصال والاصطدام •

ابدى الفرس في (سيستوس) مقاومة عنيفة وبدأ البحارة اليونانيون يتذمرون من شدة الرياح وقسوة البرد ويطلبون العودة الى اهلهم •ولكن القائد الآثيني (كسانتيبوس) ومساعديه رفضوا الانسحاب قبل الاستيلاءعلى الحصن الا اذا جاءهم الامر من الشعب الاثيني برفع الحصار • وفي الاخير نفدت المؤن لدى الفرس فهربوا في ظلام الليل من أسوار المدينة والتحقوا بجيش (آرتابازوس) الذي كان يسير في طريقه ، على مسافة قريبة ، نحو (بيزانس) دون ان يحاول انقاذ حامية (سيستوس) ، كما ان الاثينيين الذين فرحوا بالاستيلاء على المدينة لم يقدموا على عرقلة حركة الجيش الفارسي • يظهر من هنا ان الفرس قد وصلوا (بيزانس) في اواخر شهر تشرين الثاني أي بعد ثلاثة اشهر من معركة (بلاتية) وهذا يدل على ان (آرتابازوس) لم يكن (سريعا في الفرار) كما وصفه (هيرودوت) •

ان سقوط (سيستوس) هو آخر حادث يرويه (هيرودوت) في الفصل الاخير من تاريخه عن الحروب القاسية ولو انه في الفصول السابقة قد استطرد

الى ذكر كثير من الحوادث التي وقعت بعد ذلك • وفي الواقع فقد استمرت الحرب بين الفرس من جهة واليونانيين أو بالاحرى الحلف (الديلوسي) الذي تزعمته (آثينة) من جهة ثانية حتى سنة ٤٤٩ اذ عقد بين الطرفين الصلح المعروف باسم « صلح كالياس » • الان ان (هيرودوت) كان على حق في التوقف عند سنة ٤٧٩ لان معارك (سالاميس) و (بلاتية) و (ميكالي) كانت جاسمة اصيبت فيها الحملة الفارسيةالكبرى بالفشل التام وتخلىالفرس مبدئيا عن فكرة الاستيلاء على بلاد اليونان فلم يحاولوا اعادة الكرة • وقد اقتصر الامر في السنوات التالية على بعض الغزوات قام بها اليونانيون لتحرير اخوانهم في آسية الصغرى وللقضاء على الحاميات الفارسية في (قبرص) و (تراكية) و (بيزانس) •

لذلك نستطيع ان نتبع (هيرودوت) فنعتبر الحروب الفارسية منتهية منذ الآن ونختم البحث بنظرة عامة عن نتائجها •••

١٧ ـ نتائج الحروب الفارسية :

تساءل بعض المؤرخين الحديثين : « ماذا كان يحدث لو انتصر الفرس في حروبهم مع اليونانيين ؟ » ان القصد من هذا السؤال واضح هو بياناهمية الحروب الفارسية والاشادة بمجد اليونان • لذلك نرى هؤلاء المؤرخين يسترسلون في وصف الويلات التي كانت ، على زعمهم ، سوف تصيباليونان من استعباد وتهجير وانحطاط وجمود • وهم يدعون بأنه في هذه الحالة كان يستحيل ان تزدهر الحضارة اليونانية وبالتالي كان لابد ان يتغير مجرى التاريخ البشري •

لا حاجة للتوسع في استعراض مثل هذه الفرضيات وما تتضمنه من نظرة خاصة الى التاريخ وطريقة تعليله ، بل نكتفي بذكر انموذج واحد وهو قول المؤرخ الالماني (بنكتسون) : « ان اوروبة مدينة بحضارتها الى (بوزانياس) بطل معركة (بلاتية) و (تميستوقليس) مؤسس الاسطول

الاثيني وبطل معركة (بسالاميس) ٠ ٠ اذا صرفنا النظر عن سخرية القدر التي دفعت هـذين الرجلين ، كما سنرى ، الى مشـايعة الفرس فيما بعـد فلا سبيل الى اقرار هذا الحكم السطحي الذي يجعل مقدرات الشعوب الكبيرة تابعة للمصادفات الطارئة ٠

انه من المكمن الاجابة على السؤال الخيالي السابق بما يلي ٠ لو قدر للفرس الاستيلاء على شبه جزيرة اليونان لما انقرضت الحضارة اليونانية ٠ وذلك أولا : لان هذه الحضارة نشأت وظلت تتطـور بالدرجـة الاولى في (ايونية) التي كانت تحت الحكم الفارسي منذ اكثر من نصف قرن ٠ وقد اتبع الفرس في هذه البلاد ، بعد اخضاع الثورة ، سياسـة حكيمة افسحت المجال للتطور الديموقراطي والنهضة العمرانية ؛ ولا يمكن لاحد ان ينكر بأن من ابرز فضائل الفرس التسامح تجاه الامم الاخرى واحترام عقائدها الدينية ولغتها وتقاليدها القومية ٠ ولا ننسى ان الفرس كانوا متحالفين مع كثير من الدول اليونانية وان الحملة كانت ، حسبما اراد (داريوس) ، تستهدف تأديب (آثينة) و (أرتيرية) لمساعدتهما الثوار ، ثم اعادة هيبياس الى الحكم في (آثينة) ثانيا : ليس هناك من شك في ان اليونانيين كانوا لابد ان يستعيدوا استقلالهم بعد مدة قصيرة لان حتى مصر نفسها ، رغم اعتيادها الخضوع ، قد استطاعت التحرر من الفرس ، فكيف لا يتم ذلك لليونان المشهورة بحب الاستقلال والحرية والتي ليس فيها شيء من الثروة يحرص الفرس على الاحتفاظ به ؟٠

والآن لنترك الاحتمالات الفرضية ولننظـر في الحوادث الواقعيـة ٠ فنلاحظ قبل كل شيء بأن الحروب الفارسية لم تكن لها نتائج خطيرة من الوجهة التاريخية ــ العالمية ٠ وذلك من جهة لآن الفشل الذي منيت بـه حملة (سرخس) لم يؤثر في كيان الامبراطوريـة الفارسية ٠ فقـد ظل الفرس يسيطرون على جميع البلاد التابعـة لهـم من مصر الى السـند ٠

وخسائرهم في الرجال والسفن رغم فداحتها كان من السهل تعويضها بسرعة في مملكة يزيد عدد سكانها على الخمسين مليونا وتتمتع بموارد لا تحصى • ومن جهة ثانية فان انتصار اليونان لم يبدل مكانتها الدولية ولم يقلب اوضاعها القومية •

لقد اعتاد المؤرخون الحديثون ان يتكلموا بمناسبة الحروب الفارسية عن فكرة الجامعة الهيللينية ويدعي بعضهم ان اليونانيين قد شعروا تجاه الخطر الخارجي بالوحدة القومية التي تربط بينهم فقاموا يعملون لتحقيقها • فيقول، مثلا ، الاستاذ بيوري في كتابه القيم « تاريخ اليونان » : « توضح لنا الحروب الفارسية في نتائجها بالنسبة الى بلاد اليونان حقيقة القانون العام الذي يسود المجتمعات البشرية • ذلك ان الضغط الخارجي ، سواء على امة أو على شعوب عديدة تنتسب الى عرق واحد من طبيعته ان يساعد على الاتحاد والتضامن الداخلي • ففي الامة نرى خطر العدوان الخارجي يزيد الشعور بالوحدة بين افراد المواطنين ويقوي السلطة المركزية • وفي العرق الواحد من شأن هذا الخطر ان يدفع الجماعات المتفرقة الى تكوين امة أو انشاء اتحاد • وفي هذه الحالة الاخيرة فان احتمال تحقيق وحدة تامة او دائمة يتوقف من جهة على شدة الضغط الخارجي واستمراره ومن جهة ثانية على قوة غريزة الاستقلال الفردي التي كانت حتى الان تمنع «الذرات السياسية» عن الامتزاج والارتباط » •

ليس من عادة المؤرخين الحديثين ان يحاولوا استنباط قوانين عامة للمجتمع البشري • والاستاذ (بيوري) لم يكن موفقاً هذه المرة في شذوذه عن القاعدة السائدة • وفي الحقيقة من الصعب ان نتبين ما هي العلاقة بين القانون الذي وضعه وبين الحوادث التي يسردها والتي يدعي انها توضحه وتؤيده • فانه عندما كانت المدن الايونية مهددة بادىء الامر بفقدان استقلالها قد اقترح في الواقع تكوين (اتحاد ايوني) بينها ولكن شيئاً من ذلك لم يتم• ثم لما قامت هذه المدن تحاول الخلاص من النير الفارسي وارسلت وفدا يطلب

النجدة من اسبارطة وآثينة كان الجواب مخزيا وفشلت الثورة بسبب التناحر بين الايونيين انفسهم • وقد رأينا كيف التجأ (هيبياس) الى الفرس وأراد ان يبيعهم (آثينة) في سبيل مصلحته الخاصة • وبعد ان عرف الجميع تأهب الفرس للغارة على بلاد اليونان وارسل (المؤتمر الهيلليني) الى كافة الدول اليونانية يدعوها الى الاشتراك في الدفاع لم يستجب له سوى عدد قليل منها • فقد كان الارستوقراطيون الحاكمون في (ثيبة) و (تسالية) على اتفاق مع الفرس • وكذلك (آرغوس) و (آخائية) وقد وعدت جزيرة (قورسيرة) بالمساعدة ولكنها لم تفعل وتخلص (جيلون) طاغية (سيراكوزة) من الاشتراك في الحرب باصراره على تولي القيادة العليا التي كان يعلم تمسك الاسبارطيين بها • وهو ربما كان يتمنى في الصميم انهيار (آثينة) و (قورنت) لتستطيع مدينته الاستئثار بالسيطرة التجارية • أما معبد (دلفي) الذي يعكس في المعتاد اتجاه الرأي العام في بلاد اليونان فانه كان يذيع التنبؤات الغامضة التي تحتمل التفاسير المتناقضة ويشيع روح الهزيمة وينصح بالابتعاد عن الحرب • وتدل الظواهر على ان العرافين القائمين عليه كانوا يتأهبون للانضمام الى الفرس اذا انتصروا • بل ان الايونيين انفسهم قد استطاع الفرس استمالتهم بفضل السياسة الحكيمة التي اتبعوها تجاههم بعد اخماد الثورة • ولذلك لم يتأخروا عن تقديم السفن للاسطول الفارسي وعن القتال في صفوف الفرس • واذا صرفنا النظر عن الاختلافات والمنازعات الطبقية ضمن كل مدينة يونانية نلاحظ ان الدول الصغيرة كانت ترى من مصلحتها الابتعاد عن الحرب لاعتقادها من جهة بأن كل مقاومة تجاه الفرس عقيمة لا فائدة منها ومن جهة ثانية لانها كانت تخاف من الوحدة تحت قيادة اسبارطة التي لم تكون سيادتها افضل من حالة (ايونية) تحت الحكم الفارسي •

فهل في كل ذلك ما يؤيد القانون الذي وضعه (بيوري) يبدو ان الظروف في بلاد اليونان كانت اكثر تعقيدا من ان يشملها هذا القانون وان هناك تناقضات اقتصادية واجتماعية لم تلاحظ كما ينبغي •

ان فكرة (الجامعة الهيللينية) كانت موجودة من قبل كنتيجة لوحدة اللغة والتقاليد والعادات والاشتراك في العقائد الدينية والحفلات الرياضية ولكنها لم تتحقق سياسيا اثناء الحروب الفارسية . أما بعد انتصار اليونانيين فقد ظل البعض يدعون اليها ، سواء عن اخلاص أو لغايات خاصة ، ولكنها لم يكن لها أي تأثير في التطور السياسي الذي أدى ، على العكس ، الى اتساع شقة الخلاف بين الدول اليونانية وبالاخص بين اسبارطة وآثينة .

في الواقع ان الحروب الفارسية كانت لها نتائج هامة بالنسبة الى الوضع الداخلي في بلاد اليونان . وابرز هذه النتائج ارتفاع مكانة (آثينة) وازدياد قوتها .

قدمت (آثينة) أكبر التضحيات في مقاومة الفرس فاضطر اهلها الى التخلي عن ارضهم مرتين وبرهن رجالها على منتهى الشجاعة والاخلاص والمهارة في القتال وفي ادارة الحركات العسكرية ولولا الاسطول الاثيني لما انتصر اليونانيون . على ان (آثينة) قد عرفت ايضا كيف تستثمر هذا النصر لمصلحتها فقامت بتأسيس الاتحاد الديلوسي وتولت القيادة في متابعة الحرب ضد الفرس واخذت تنازع اسبارطة الزعامة حتى انتهى الامر الى اندلاع الحرب بين الدولتين .

كذلك لاشك في ان الانتصار على الفرس قد زاد الحضارة اليونانية سرعة في تطورها . لا نقصد بذلك ان الحرب نفسها كانت من عوامل الازدهار . فالحرب دوما لا تبدع شيئا وانما تدمر وتحطم ومهما ينال المنتصر من غنائم فانها لا تعد شيئا بالنسبة الى الخسائر التي يتكبدها . الا ان انتصار اليونانيين في الحرب قد ادى الى تحرير نصف العالم اليوناني من الحكم الاجنبي والى ضمان الاستقلال للنصف الآخر . فلا غرابة اذا قوى الشعور الذاتي لدى الشعوب اليونانية التي تميل بطبيعتها الى التفاخر والاعتزاز بالنفس . ونرى الكتاب والشعراء اليونانيين يبالغون بعد الحرب في تمجيد قومهم وتفضيله على جميع الامم . وقد أخذوا يستعملون كلمة (برابرة)

بالمعنى الذي ظل شائعا حتى اليوم أي مقابل الهمج والمتوحشين بعد ان كانت في الاصل تفيد الاجانب الذين يتكلمون لغات لايفهمها اليونانيون • هـذا الاعتزاز بالنفس كان من شأنه ان يطلق القوى الكامنة من عقالها ويثير النشاط وقد ازداد اليونانيون تمسكا بأنظمتهم في الحكم واتسعت على الاخص الحركة الديموقراطية وبذلك تحررت الافكار وانتشر العمران وازدهرت الحيـاة الاقتصادية • الا ان هذا الازدهار لم يكن عاما بل اقتصر على بعض الدول اليونانية مثل (آثينة) و (قورنت) و (ميغارة) بينما ظلت (اسبارطة) و (تسالية) و (بئوتية) كما كانت في الماضي • أما (ايونية) التي كانت قبل الحروب الفارسية مركز الحركة الاقتصادية والعمرانيـة والفكرية فقـد تأخرت وخسرت مكانتها القديمة • ولعل الضربة التي اصابت هذه البـلاد بسبب الثورة الفاشلة لا تعد شيئا بالنسبة الى ما كان ينتظرها بعد تحررهـا من حكم الفرس • فهي قد خضعت لسيطرة (آثينة) وظلت تدفع لها الجزية التي كان يستوفيها الفرس • الا انه قطع عنها شريان الحياة اذ توقفت التجارة مع الشرق بسبب استمرار الحرب ضد الفرس وانتقلت الحركة التجاريـة الى الغرب بين شبه جزيرة اليونان من جهة و (اليونان الكبرى) أي ايطالية الجنوبية وصقلية من جهة ثانية • ولم تكن المدن الايونية لتستطيع مزاحمة (قورنت) و (ميغارة) اللتين يساعدهما الوضع الجغرافي وعامل العصبية على احتكار هذه الاسواق الغنية • وقد كانت هاتان المدينتان تشغلان اثنـاء الحروب الفارسية المقام الاول في تجارة العالم اليوناني ولكن سرعان ما قامت (آثينة) تنافسهما بفضل اسطولها وعظمة مرفأ (بيريئوس) الجديد •

هكذا نستطيع اخيرا ان نلاحظ بين نتائج الحروب الفارسية انتقال كثير من الايونيين الى (آثينة) والى (اليونان الكبرى) ، حيث نشطت الحركة الاقتصادية والعمرانية وبرزت (صقلية) الى الميدان فاحتلت منذ ذلك الوقت مكانة خاصة في العالم اليوناني •••

الفصل الثاني عشر

قرطاجة واليونانيون في صقلية

كان من نتائج استيلاء الفرس على المدن الايونية في آسية الصغرى ان هاجر الكثيرون من سكان هذه المدن والجزر المجاورة الى الغرب يفتشون عن موطن جديد في ايطالية أو قورسيكة أو ساردينية أو صقلية • ثم لما توقفت التجارة مع الشرق أثناء الحروب الفارسية اتجهت الانظار في شبه جزيرة اليونان نفسها الى تلك البلاد الغنية وازدادت العلاقات معها •

لقد كانت الظروف ملائمة للتوسع الاستعماري على الاخص في صقلية المشهورة بسهولها الفسيحة وأراضيها الخصبة وموانيها الممتازة • هنا قامت دول يونانية قوية وأسس عدد كبير من المدن والمرافىء وشيدت المعابد والمسارح الفخمة • وهكذا نرى هذه الجزيرة حوالي سنة (٥٠٠) قبل الميلاد تنتقل الى مرحلة جديدة من تاريخها تتصف بالحركة والنشاط وتحدث فيها اضطرابات عنيفة ووقائع حاسمة من الوجهتين الداخلية والخارجية •

١ ـ الاستعمار اليوناني في الغرب :

بدأ الاستعمار اليوناني في القسم الغربي من البحر الابيض المتوسط حوالي منتصف القرن الثامن قبل الميلاد •

يقول المؤرخ والجغرافي اليوناني (سترابون) (٦٤ قبل الميلاد ــ ١٩ بعد الميلاد) ان اقدم مستعمرة يونانية في الغرب هي (كيمي) مقابل الجزيرة

الصغيرة (ايشية) عند خليج (نابـولي) • والمباحث الاثـرية تؤيد هـذه الرواية • ونستطيع ان نرجع تاريـخ تأسيس (كيمي) الى حوالي سـنة (٧٥٠) قبل الميلاد • ربما نستغرب لأول وهلة انتقاء هذه البقعة البعيدة ، التي هي اقصى حد الى الشمال بلغه اليونانيون في ايطالية،عوضا عن الشواطىء القريبة من بلاد اليونان في ايطالية الجنوبية وصقلية • ولكن يجب الملاحظة بأن المهاجرين من (خالكيس) في جزيرة (اوبوئية) الذين انشأووا مـع غيرهم من الايونيين هذه المستعمرة كانوا يهتمون قبل كل شيء بالاسـواق التجارية • فمقاطعة (أترورية) • كانت من هذه الوجهة تمتاز على بقيـة انحاء ايطالية وعلى صقلية لان سكانها (الاتروسكيين) قد سبقوا جيرانهم في طريق الحضارة وكانوا ينتجون المعادن التي يحتاج اليها اليونانيون •

ثـم اسست حوالي سـنة (٧٣٤) اقـدم مستعمرة في صقليـة وهي (ناكسوس) على الشاطىء الشـرقي من الجزيرة • وكان المشـرف عـلى تأسيسها رجل اسمه (تئوقليس) الذي اضاف اليه المؤرخون لقب (الاثيني) رغم انه جاء من (خالكيس) ايضا • ولعل هؤلاء المؤرخين الذين عاشوا في (آثينة) وكانوا يفاخرون بالانتساب اليها صعب عليهم ان لا يجدوا لها ذكرا في تاريخ الاستعمار اليوناني فانتحلوا هـذا اللقب سيما وهم كانـوا يرجعون جميع الايونيين في الاصل الى (آتيكة) على اننا نستطيع الاستدلال من اسم المستعمرة بأن اكثر المهاجرين اليها كانوا من جزيرة (ناكسوس) في بحر ايجة • ومما يؤيد ذلك التشابه في النقـود ثم الاشتراك في عبـادة (ديونيزوس) و (آبوللون) • ويبدو ان المهاجرين الذين لاحظوا ما يتصف به سهل (لينستريفون) في صقلية من خصب عظيم في زراعة القمح قد قاموا ايضا بتأسيس مدينة (لئونتيني) في الشمال ومدينة (قاتانة) في الجنوب من (ناكسوس) للاستئثار بالسهل كله • ولما نشطت التجـارة بين هـذه المدن و (كيمي) كان من الطبيعي ان يسعى هؤلاء المستعمرون الى تأمين طريق

المواصلات فاقدموا على انشاء مرفأي (ريجيون) و (زانقلي) في الطرفين المتقابلين من مضيق (مسينة) • وقد اشترك في تأسيس (ريجيون) بعض المسينيين الذين هاجروا بعد حرب (مسينية) الاولى واستيلاء (اسبارطة) على بلادهم • وسنعود الى بيان تأثير هؤلاء المسينيين في سياسة (ريجيون) عند نشأة حكم الطغاة في صقلية •

بينما كان المستعمرون الخالكيديون منهمكين في انشاء (ناكسوس) سبقهم القورنتيون الى الاستيلاء على احسن ميناء طبيعية في صقلية حيث أسسوا مدينة (سيراكوزه) في الجزيرة الصغيرة (اورتيجية) عند مدخل الميناء وعلى الشاطىء المقابل لها المعروف باسم (آقرادينة) وقد كان مقدرا لمدينة (سيراكوزة) ، بفضل موقعها الممتاز ، ان تصبح عاصمة جزيرة صقلية كلها •

يرجع (توكيديديس) تأسيس (سيراكوزة) الى سنة (٧٣٣) قبل الميلاد • ويقول ان الرغبة في تخفيف كثافة السكان بمدينة (قورنت) هي التي دفعت الحكام الى ذلك • على ان هؤلاء الحكام من اسرة (باكخيدي) لم يكونوا يقصدون مجرد العناية برفاهية رعاياهم ، بل ان الغاية الاولى كانت الحصول على مركز تجاري لتأمين مصالحهم • كذلك قامت (ميغارة) بتأسيس مستعمرة لها في صقلية بين (قاتانة) و (سيراكوزة) اطلق عليها اسم (ميغارة هيلاية) وقد اصبحت هذه المدينة الدورية حائلا دون توسع (سيراكوزة) نحو الشمال فاتجهت لذلك ، عندما ازداد عدد سكانها ، الى الجنوب والغرب وأنشأت في سنة ٦٦٤ مدينة (آقرى) ثم في سنة ٦٤٤ مدينة (قازميني) اللتين كان سكانهما يعتبرون مواطنين سيراكوزيين ويستخدمون نقود (سيراكوزة) • أما مدينة (قامارينة) التي اسست ايضا من قبل السيراكوزيين في سنة (٥٩٩) على الشاطىء الجنوبي - الغربي فقد كانت تتمتع منذ بادىء الامر بشيء من الاستقلال الذاتي• الا ان (سيراكوزه)

لم تكن لتقنع باستمرار العلاقات العاطفية والدينية بينهما ، كما هي العادة بين المدن اليونانية ومستعمراتها ، بل ظلت تنظر اليها كأنها تابعة لها حتى انها لما قامت (قامارينه) بعد (٤٥) عاما تحاول قطع هذه العلاقات اعتبرت ذلك عصيانا وارسلت حملة لمعاقبتها ٠

ان نجاح هذه المستعمرات قد دفع سائر اليونانيين الدوريين وعلى الاخص سكان جزيرة (رودوس) ومقاطعة (آخاية) في (البيلوبونيز) الى انشاء مدن جديدة مثل (جيلة) و (آقراغاس) و (سيليوس) على الشاطىء العربي - الجنوبي من صقلية ثم (ميتابونت) و (سيباريس) و (قروتون) و (لوقرى) و (بوزايدونية) في ايطالية الجنوبية ٠ بل ان (اسبارطة) نفسها قامت بتأسيس مدينة (تارنت Tarente) ٠

وتقدم المستعمرون من مقاطعة (فوكية) في آسية الصغرى الى الشمال وأسسوا حوالي سنة (٦٠٠) مدينة (ماساليه) (أي مارسيلية اليوم) ثم استولوا على مرفأ (الآلية) في جزيرة (قورسيكة) حوالي سنة ٥٦٠ ٠

لقد لوحظ ان المستعمرات الدورية في ايطالية وصقلية أخذت تقوى وتزدهر في القرنين السابع والسادس بينما كانت المستعمرات الايونية تضعف وتتأخر ٠ ويمكن تعليل ذلك بالرجوع الى طبيعة البلاد الزراعية التي كانت تلائم الروح الاقطاعية لدى الدوريين ولكنها تتعارض مع ميل الايونيين الى التجارة ٠

وجد المستعمرون اليونانيون في هذه البلاد التي اطلق عليها اسم اليونان الكبرى أرضا واسعة ، خصبة تسكنها شعوب عديدة متأخرة وضعيفة ، مثل (الاومبريين) و (السابينيين) و (السامنتيين) و (الياليفيين) في ايطالية الجنوبية ثم (الصقل) و (الصقان) و (الأليميين) في صقلية ٠

وقد استطاع اليونانيون التغلب عليها جميعا بسهولة فاضطرت اما الى

التراجع أو الى الخضوع وهكذا اندمج الكثيرون من (الايطاليين)باليونانيين واقتبسوا عنهم اللغة والحضارة •

على ان اهم شعوب ايطالية واقواهافي القرنالسادس هم (الاتروسكيون) الذين كانوا يسكنون ايطالية الوسطى بين نهر التيبر والارنو في الاصل ولكنهم انتشروا احيانا الى مسافات بعيدة في الشمال والجنوب من ذلك •وقد اشتهروا بالثروة والمهارة في التجارة والملاحة والقرصنة• وهم بعد اناتصلوا باليونانيين في (كيمي) بقصد التبادل التجاري لم يلبثوا حتى ادركوا خطر الاستعمار اليوناني على بلادهم فأخذوا يقاومونه وتحالفوا لهذه الغاية مع القرطاجيين •

كذلك في صقلية شعر السكان الاصليون بخطر الاستعمار اليوناني الذي ارغمهم على التراجع الى داخل الجزيرة والى الزاوية الغربية منها حيث التجأووا الى الفينيقيين • ولكن هؤلاء لم يستطيعوا الوقوف في وجه اليونانيين الا بعد ان برزت قرطاجة وتولت زعامة الفينيقيين في الغرب ••

٢ ـ العلاقات بين اليونانيين والفينيقيين في صقلية :

حقا ان اليونانيين لم يكونوا يخافون احدا من سكان صقلية الاصليين ولكنهم كانوا يخشون المستعمرين الفينيقيين • وقد ظل تاريخ صقلية مدة عصور يدور حول النزاع بين اليونانيين من جهة وبين الفينيقيين تحت زعامة قرطاجة من جهة ثانية •

بدأ الفينيقيون في تأسيس مستعمراتهم على شواطىء البحر الابيض المتوسط منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد • فكانت لهم في القرن الثامن مراكز هامة في افريقية واسبانية ومالطة وساردينية • أما في صقلية فيقول (توكيديديس) ان الفينيقيين كانوا يحتلون الرؤوس البارزة والجزر الصغيرة على شواطئها قبل قدوم اليونانيين اليها • ورغم انه ليس لدينا من

شواهد اثرية لتأييد هذه الرواية فاننا نستطيع قبولها • وعلى كل حال فانه في الوقت الذي تأسست فيه المدن اليونانية في صقلية كانت هناك مراكز تجارية فينيقية في الزاوية الغربية من الجزيرة أهمها (موتيه) و (بانورموس) أي (بالرمو) في الوقت الحاضر و (صولئوس) • وتشير الظواهر الى ان الفينيقيين كانوا يحتلون كثيرا من الاماكن الاخرى ، كجزيرة (اورتيجية) حيث قامت (سيراكوزه) ، فاضطروا تجاه تقدم اليونانيين الى التخلي عنها والانسحاب الى الزاوية الغربية لانها ، كما يقول (توكيديديس) ، قريبة الى قرطاجة ، مما يدل على ان المستعمرات الفينيقية كانت تتجه نحو هذه المدينة لتساعدها وتدافع عنها • ولكن قرطاجة لم تبلغ درجة كافية من القوة تستطيع معها مجابهة التوسع اليوناني في الغرب الا حوالي منتصف القرن السادس •

يظهر ان العلاقات كانت في بادىء الامر حسنة بين الفينيقيين واليونانيين • والاخبار لا تذكر اي اصطدام بينهما في القرن السابع كله • واذا القينا نظرة على اتجاه التوسع الاستعماري نلاحظ بأن كلا من الفينيقيين واليونانيين كانوا يقصدون تجنب المناطق التي سبق واستعمرها الطرف الاخر • هكذا فاننا لا نجد اي مستعمرة يونانية في افريقية الشمالية الى الغرب من قرطاجة كما لا نعثر على مستعمرات فينيقية في ايطالية الجنوبية • هنا لابد من الملاحظة بأن الاستعمار الفينيقي لم يكن في الغالب يستهدف شيئا آخر غير التبادل التجاري • وأكثر الاماكن التي توصف بأنها مستعمرات فينيقية في اسبانية ومالطة وساردينية وصقلية لم تكن في الحقيقة سوى مراكز أو « وكالات » تجارية • ولا نعرف ان الفينيقيين قد هاجروا في جماعات كبيرة الى هذه المراكز وحاولوا الاستيلاء على الاراضي المجاورة واخراج اهلها منها او استعبادهم • بخلاف ذلك الاستعمار اليوناني الذي كان في المعتاد يرمي الى الفتح والقضاء على السكان الاصليين وهذا ما يفسر لنا مثلا مقاومة (الصقل)

و (الصقــان) و (الأليميين) في صقليــة للاستعمار اليــوناني ومحالفتهم للفينيقيين •

كذلك ندرك السبب في اســـتمرار العلاقات الحسنة بــين الفينيقيين واليونانيين حتى بعد قدوم هؤلاء الاخيرين الى صقلية اذ كانوا بعد ضعفاء لا يستطيعون الاعتداء واذ كان المجال لا يزال واسعا للمعيشة جنبا الى جنب• ولعل ابرز دليل على ذلك تأسيس مدينة (سيلينوس) بالقرب من المنطقــة الفينيقية • ونظرة واحدة الى موقع المدينة (الطوبوغرافي) تبين لنا بأنــه لم يقصد منها ان تكون حصنا أماميا لمهاجمة الفينيقيين أو مقاومتهم • فانه في هذه الحالة كان ينبغي ان تشيد في نقطة « ستراتيجية » فوق المرتفعات القائمة اما الى الشرق او الى الغرب على بضعة أميال من موقعها • ولكن يبدو انها اقيمت لتأمين العلاقات التجارية فلم ينظر ، عند انتقاء مكانها ، الى المناعة الطبيعية بل الى سهولة المواصلات ، وقد اســتفادت (سيلينوس) من التجــارة مــع الفينيقيين وازدادت ثروتها كما يستدل من الابنية الفخمة التي شيدتها منذ القرن السادس وكما يؤيد ذلك تحالفها مع الفينيقيين في الظروف الحرجة •

ان اول اصطدام يذكره المؤرخون بين الفينيقيين واليونانيين في صقلية يرجع الى حوالي سنة (٥٨٠) على ان الروايات المنقولة عن هذا الاصطدام غامضة فقد اسست في هذا الوقت مدينة (آقراغاس) وبذلك اصبح الشاطيء الجنوبي كله في قبضة اليونانيين مما شــجع قسما من ســكان (رودوس) و (كيندوس) على الهجرة الى تلك المنطقة • ثم قام هــؤلاء في سنة **٥٧٦** بقيادة الزعيم الكنيدي (نبتاثلوس) يحاولون تأسيس مستعمرة لهم عنــد (ليليبايوم Lilybaeum) في الزاوية الغربية من الجزيرة وفي مكان يسيطر على مدخل ميناء (موتية) الفينيقيــة • ولكنهم طــردوا من قبل الاليميين والفينيقيين ، كما يقول (بوزانياس) (أحد الجغرافيين في القرن الثاني بعد الميلاد) أما المؤرخ (ديودوروس) (في القرن الاول قبل الميلاد) فيروى

ان الكنيديين قد ساعدوا (سيلينوس) ضد (سيجسته) عاصمة الاليميين ولكنهم هزموا في الحرب وقتل (بنتاثلوس) • في هذه الرواية لا نجد اي ذكر للفينيقيين • وربما لانبتعد عن الحقيقة اذ تصورنا مجرى الحوادث على المنوال التالي :

أولا : محاولة الكنيديين الاستقرار في (ليليبايوم Lilybaeum)

ثانيا : اشتراكهم مع سكان (سيلينوس) في محاربة الاليميين وانكسارهم •

ثالثا : استثمار الالميين لهذا الانتصار واقدامهم بمساعدة الفينيقيين على طرد الكنيديين من (ليليبايوم Lilybaeum) •

وليس غريبا ان يسرع الفينيقيون الى مساعدة حلفائهم الاليميين لاسيما في مثل هذا الموقف ، لان نزول اليونانيين واستقرارهم في (ليليبايوم Lilybaeum) كان خطرا على (موتيه) ، اهم نقطة ارتكاز لهم في صقلية • وقد تبين من الحفريات الاثرية ان هذه المدينة وسعت وحصنت في النصف الاول من القرن السادس • والارجح ان يكون ذلك قد تم على اثر محاولة (بنتاثلوس) •

تذكر الاخبار ان الكنيديين بعد هزيمتهم وقتل زعيمهم خرجوا من صقلية يريدون العودة الى بلادهم • وفي الطريق نزلوا بجزيرة (ليبارى) الى الشمال من صقلية • وقد رحب بهم سكان الجزيرة الذين ينتسبون الى البطل الاساطيري (أيولوس) والذين لم يكن يزيد عددهم على ٥٠٠ نسمة وعرضوا عليهم الاقامة معهم فقبلوا ذلك واسسوا مدينة (ليبارى) ثم وضعوا أيديهم على الجزر الصغيرة المجاورة وجعلوها ملكا مشتركا واقاموا بينهم نظاما « شيوعيا » •

اذا رجعنا الى (بوزانياس) نجده يتكلم عن الفينيقيين دون ان يذكر

قرطاجة • الا اننا نستدل من بقيــة الحوادث بأن السيادة عــلى المستعمرات الفينيقية بصقلية ربما انتقلت في ذلك العهد الى قرطاجة التي تولت مهمــة ايقاف التوسع الاستعماري اليوناني في الغرب •

٠٣ ـ قرطاجـــة :

اسست قرطاجة من قبل الفينيقيين في سنة ٨١٤ قبل الميلاد • ومن المؤسف اننا لا نعرف شيئا عن تطورها في المدة الاولى اذ انها لم تبــرز في ميدان السياسة العامة الا حوالي منتصف القرن السادس ولكن الظواهــر تشير الى انها قد اصبحت منذ اواخر القرن الثامن اقوى المدن الفينيقية اذ نرى (توكيديديس) يذكر اتجاه انظار الفينيقيين في صقلية اليها لمساعدتهم عــلى اتقاء الخطر اليوناني •

يظهر من الاثــار ان القرطاجيين قد تأثــروا بالحضارتين المصــرية واليونانية • على ان مصنوعاتهم الخزفية لم تبلغ درجة من الاتقان تستطيع معها مزاحمة اليونانيين • وقد كانت تجارتهم تعتمد بالدرجة الاولى على تصدير السجاد والاقمشة ثم على احتكار مناجم الفضة في (طرطوشة) باسبانية التي استخدموا جميع الوسائل لمنع كل منافس حاول التقرب منها •

كان القرطاجيون ، رغم اختلاطهــم بالليبيين ، يتصفون بالخصــائص الفينيقية من عقيدة دينية قوية ومن شدة وجلد وموهبــة نــادرة للاعمــال التجارية • وهذه الموهبة هي التي نشأ عنها ايضا استعدادهم السياسي ومهارتهم الديبلوماسية •

ظلت قرطاجة مدة عصور مرتبطة بالمدينة ـ الام (صور) تظهر لها عواطف الاحترام وتشترك وفودها في الاحتفال بعيد الاله (ملقارت) وترسل الى معبده الهدايا الثمينة وعشر الغنائم الحربية • على انه بعد استيلاء (بخت نصر) في سنة (٥٧٣) على صور اصبح من الضروري ان تنتهج قرطاجة

سياسة مستقلة وتتولى الاشراف على المراكز الفينيقية في القسم الغربي من البحر الابيض المتوسط وقد اثبت القرطاجيون مهارة سياسية كبيرة في توحيد المستعمرات الفينيقية وبسط سيطرتهم على قبائل (ليبية) فأسسوا دولة قوية فرضت سيادتها على سارديني وعقدت المعاهدات التجارية مع كثير من البلاد وتحالفت مع الاتروسكيين للحيلولة دون التوسع اليوناني •

يستدل من الاخبار ان قرطاجة قد قامت بنشاط عسكري كبير في النصف الثاني من القرن السادس وخاضت غمار حروب طويلة في ساردينية وقورسيكة وصقلية تكللت في الغالب بالنجاح • الا ان بداية هذه الحروب لاتزال غامضة • هناك رواية تقول بأن (قرطالو) ابن القائد (مالخوس) قد حمل عشر الغنائم من صقلية كهدية الى معبد الاله (ملقارت) في (صور) دون ذكر أي تاريخ • ويذهب بعض المؤرخين الحديثين الى انه من اقرب الإحتمالات ان يكون ذلك قد حدث قبل سقوط (صور) في ايدي الاشوريين (سنة ٥٧٣) • فاذا صح هذا الاستنتاج وجب ان يكون (مالخوس) نفسه هو الذي انتصر على الكنيديين ، جماعة (بنتاثلوس) أو على الاقل استفاد مباشرة من هزيمة هؤلاء فتابع الحرب ضد اليونانيين ونال انتصارات جديدة• وتبين من تاريخ (جوستينوس) ان قيادة الجيوش القرطاجية كان يتولاها بين سنة (٥٨٠ ــ ٥٥٠) (مالخوس) ثم انتقلت بين (٥٥٠ ــ ٥٢٠) الى (ماجو) وبعد ذلك خلفه اولا ابنه (هسدروبال) الذي مات في (سارديني) ثم ابنه الثاني (هاملقار) الذي قتل بمعركة (هيميرة) في صقلية سنة (٤٨٠)• لذلك يمكن ان يكون الاصطدام الاول الذي نعرفه بين اليونانيين والفنيقيين في صقلية انما حدث بعد انتقال السيادة على المستعمرات الفينيقية الى قرطاجة• والارجح ان تكون هذه المستعمرات قد خضعت طوعا لحكم قرطاجة ان لم تكن هي التي استنجدت بالقرطاجيين وطلبت اليهم حمايتها من الخطر اليوناني•

انتقل (مالخوس) بعد انتصاره في صقلية الى (ساردنية) • وكان

اليونانيون وعلى الاخص سكان المدن في القسم الغربي من صقلية يحرضون على استعمار هذه الجزيرة ليس لمصالحهم التجارية فحسب بل في الدرجة الاولى للحيلولة دون وقوعها في ايدي القرطاجيين . ولا شك في ان تأسيس مدينة (الالية) في جزيرة (قورسيكة) من قبل الفوكيين كان خطوة اولى في هذه السبيل . وقد اراد (مالخوس) ان يسبقهم . الا أنه اصطدم بمقاومة شديدة من قبل سكان (ساردنية) الاصليين وهزم في حروبه معهم . فأدى ذلك الى عزله والحكم عليه بالنفي مع بعض الضباط . ولا ننسى هنا تأثير الوضع الداخلي في قرطاجة على السياسة الخارجية . فقد كان الحكم فيهـا (بلوتوقراتيا) أي ان السلطة كانت في ايدي طبقة صغيرة من كبار التجار وأرباب المال . وكان هناك خلاف بين التجار واصحاب الاراضي ـ أولئك يدافعون عن سياسة الفتح والاستعمار في الشرق بينما يريد هؤلاء الاحتفاظ بقواهم في شمالي افريقية واسبانية .

لم يخضع (مالخوس) للحكم بالنفي بل قلب الحكومة واستولى عـلى السلطة . ولكنه عوضا عن ان يبدل الدستور ويعلن نفسه ملكا على دولة عسكرية ، كما كان منتظرا ، اكتفى بقتل عشرة من أعضاء مجلس الشيوخ وابقى نظام الحكم على ماكان عليه . فلم تمض مدة طويلة حتى قبض عليه وحكم عليه بالاعدام . في هذا الحادث تتجلى لنا المشكلة السياسية التي كانت تجابهها قرطاجة . فقد ادرك رجال الحكم ان الاحتفاظ بالسيطرة التجارية وتوسيعها يتطلبان جيشا قويا قادرا على الهجوم اذا اقتضى الامـر ـ عـلى شرط ان يظل هذا الجيش آلة مطيعة في ايدي طبقة التجار . ولكن اذا طمع قادة الجيش في ان يكون لهم رأي في توجيه سياسة الدولـة او الى فرض سلطتهم فان هذا الجيش يصبح خطرا على الطبقة الحاكمة ، كما حدث مع (مالخوس) . وقد اهتدى (ماجو) الذي تولى القيادة العامة بعد (مالخوس) الى طريقة لتجنب هذا الخطر وذلك بأن يؤلف الجيش ليس من المواطنين

القرطاجيين بل من الجنود الغرباء المأجورين وان يتولى القيادة احد (السوفيت) الثلاثة الذين ينتخبون في كل سنة من الجمعية العامة لادارة شؤون الدولة تحت اشراف مجلس الشيوخ • وفي الواقع فقد كانت جيوش قرطاجة في العصور التالية تتألف من الجنود المرتزقة بقيادة ضباط قرطاجيين • ولم ينكشف خطر هذه الجيوش وضعفها الا فيما بعد •

اثناء هذه الانقلابات الداخلية في قرطاجة بدأت غارة الفرس على (ايونية) فهاجر عدد كبير من الفوكيين الى (الآلية) • مستعمرتهم الجديدة في (قورسيكة) • وقد جاء هؤلاء في سفن حربية واخذوا يقومون بأعمال القرصنة • وبعد ان استمرت هذه الحال مدة خمس سنوات شعر القرطاجيون والاتروسكيون بالاضرار التي تصيب تجارتهم فعقدت محالفة بينهما لاعادة الأمن واشتركت اساطيلهما سنة (٥٤٠) في مهاجمة الفوكيين واخراجهم من (الالية) • وتم الاتفاق بين الدولتين على تقاسم مناطق النفوذ فاستولى الاتروسكيون على (قورسيكة) والقرطاجيون على (ساردينية) كما عقدت قرطاجة معاهدة تجارية مع (ماسالية) • وبذلك تلاشت اطماع اليونانيين في التوسع نحو الغرب •

وقد انسحب الفوكيون الى (ريجيون) ثم اسسوا مدينة (آلية) أو (فلية) على الشاطىء الغربي من ايطالية الجنوبية •

بعد ثلاثين سنة اضطرت قرطاجة الى صد تحرش يوناني جديد جاء من مدينة ، معروفة بكرهها للمغامرات الاستعمارية فيما وراء البحار ، هي (اسبارطة) • وبطل المغامرة هو (دوريئوس) ابن ملك اسبارطة (الكسندريدراس) ولد من زوجته الاولى ولكن بعد الابن الاخر (قليئومينيس) من زوجته الثانية • ولما انتقل الملك الى (قليئومينيس) أنف (دوريئوس) ان يعيش تحت حكم اخيه فطلب السماح له بتأسيس مستعمرة ووافقت حكومة اسبارطة على ذلك وجهزته بما يلزم • وقد ذهب الى (ليبية)

ونزل عند مصب نهر (كينيبس) ، أي في منطقة تحت نفوذ قرطاجة . الا انه لم تمض مدة سنتين حتى طرد من قبل السكان الليبيين الذين حرضهم القرطاجيون وساعدوهم على محاربته . ثم ما كاد يعود الى اسبارطة حتى قرر الذهاب الى صقلية لاحتلال الارض التي تروي الاساطير ان (هراقليس) كان نالها من (اريكس) وهي تقع عند جبل (أريكس) في منطقة الأليميين حلفاء قرطاجة . وقد حاربه الاليميون بمساعدة القرطاجيين فقتل هو وأربعة من قواده ورجع بقية اصحابه من حيث أتوا .

وتذكر الاخبار ان (دوريئوس) في طريقه الى صقلية نزل على شواطىء ايطالية اثناء الحرب بين مدينتي (سيباريس) و (قروتون) . ثم تختلف الروايات حول اشتراكه في القتال فبينما ينكر اهل (قروتون) ذلك نرى اهل (سيباريس) يؤكدونه . ومهما كان الامر فان هذه الاخبار تبين لنا بأن مغامرته قد حدثت في سنة (٥١٠) . وهنا يجدر بنا ان نعود الى المدن اليونانية في ايطالية الجنوبية وصقلية ونلقي نظرة على تطور شؤونها الداخلية .

٤ . ـ التطور السياسي في (اليونان الكبرى) :

ليس لدينا اي معلومات عن طريقة الحكم بالمستعمرات اليونانية في ايطالية الجنوبية وصقلية وعن العلاقات بينها اثناء القرنين الثامن والسابع والنصف الاول من القرن السادس .

واذا رأينا بعض المؤرخين يتكلمون مثلا عن عهد الملوك في(سيراكوزة) ويذكرون اسم احد ملوكها القدماء وهو (بولليس) فان ذلك يشبه الاساطير .

لايستبعد ان تكون بعض المدن قد اتبعت نوعا من النظام الديموقراطي في المدة الاولى من نشأتها اذ كان المستعمرون عند استقرارهم يقسمون الاراضي الى حصص متساوية ويشتركون في ادارة الشؤون العامة دون

تمييز بينهم • ولكن عندما يأتي اليهم مهاجرون آخرون أو يخضع لهم سكان البلاد الاصليون الذين ينتقلون الى المدينة فانهم لا يمنحون هؤلاء أو اولئك حقوق المواطنين • وبمرور الزمن تنحصر الامتيازات الاقتصادية والاجتماعية والسلطة السياسية في احفاد المستعمرين الاولين الذين يؤلفون حينئذ طبقة خاصة قليلة العدد ويصبح نظام الحكم ارستوقراطيا • ثم اذا تطورت الحياة الاقتصادية وتجمعت الثروة في ايدي القلائل وازدادت الفوارق الاجتماعية يبدأ النضال بين الطبقات وتكثر الفتن ويختل النظام فينتهز هذه الفرصة بعض الافراد الطموحين الذين يدعون حب الاصلاح وانصاف جمهور الشعب ويفرضون بالقوة سيطرتهم • بذلك ينشأ الحكم الفردي الذي يسميه اليونانيون (Tyrannie) ونعربه احيانا بحكم الطغاة واحيانا بالدكتاتورية رغم انه في الاساس لم يكن دوما يتضمن الظلم والطغيان• على ان التطور لا يتبع في كل الحالات هذه السبيل بل كثيرا ما تتعقد الاوضاع بتأثير عوامل اخرى طارئة وظروف خاصة •

اذا نظرنا الى المستعمرات اليونانية في ايطالية الجنوبية وصقلية نلاحظ انها كانت جميعا خاضعة في منتصف القرن السادس للحكم الارستوقراطي• ومن الممكن ان يكون هذا النظام قد انتقل اليها منذ أول تأسيسها من شبه جزيرة اليونان وهي لاشك كانت تقتبس اشياء كثيرة عن المدن ــ الامهات وتقتدي بها في امور عديدة • ولكن الظروف المحلية كانت تدفعها احيانا في اتجاهات متباينة •

واذا كانت المستعمرات قد انتقلت مثل اكثر المدن في شبه جزيرة اليونان نفسها ، من الحكم الارستوقراطي الى الدكتاتوري فالديموقراطي ، الا ان هناك بعض الاختلافات في اشكال هذه الانظمة ومدة استمرارها ودرجة تطورها فانهيار الحكم الارستوقراطي في المستعمرات لم يكن نتيجة النزاع بين الاغنياء والفقراء اليونانيين فحسب بل يجب ان نضيف ايضا ، على

الاخص في صقلية ، الخصومة بين المستعمرين اليونانيين من جهة والسكان الاصليين من جهة ثانية • لذلك نرى الطغاة اليونانيين في صقلية لا يستخدمون سلطتهم لازالة الفوارق الاقتصادية ـ الاجتماعية وتحسين حالة الشعب ، كما في شبه جزيرة اليونان ، وانما يعتمدون على الارستوقراطيين لتوطيد حكمهم الشخصي ثم يؤلفون الجيوش وينصرفون الى المغامرات الحربية في سبيل اشغال الشعب وتوجيه افكاره الى الفتوحات الخارجية عوضا عن معالجة الاوضاع الداخلية • فالروح الاستعمارية لدى اليونانيين في صقلية قد جعلت حكامهم الدكتاتوريين يظهرون كقادة حربيين وليس كزعماء شعبيين •

تذكر الاخبار أسماء بعض « الطغاة » الذين ظهروا في صقلية وايطالية الجنوبية في القرن السادس ، مثل (فالاريس) الذي يقال بأنه حكم مدة ١٦ سنة في (آقراغاس) بمنتهى القساوة والبطش حتى ثار عليه الشعب بقيادة زعيم اسمه (تيليماخوس) وهو جد الدكتاتور (تيرون) الذي سنتكلم عنه• ثم نسمع عن الدكتاتور (خارونداس) في (قاتانه) الذي تنسب اليه جملة من الانظمة السياسية والاجتماعية تشبه دستور (ليكورغوس) او اصلاحات (صولون) والذي يقال بأنه كان تلميذا لمشرع آخر ظهر بمدينة (لوقرى) في ايطالية الجنوبية هو (زالوقوس) • على اننا لا نعرف شيئا واضحا عن حياة هؤلاء الحكام واعمالهم كما لانستطيع ان نحدد بالضبط الزمن الذي نشأوا فيه •

كانت المستعمرات اليونانية في ايطالية الجنوبية اكثر تقدما في تطورها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي من المستعمرات في صقلية التي كانت شديدة التمسك بالاوضاع المتوارثة والتقاليد القديمة •

على ان اليونانيين في المستعمرات عامة كانوا ، كما في بلادهم الاصلية، منقسمين على انفسهم يحسد بعضهم بعضا • فكانت الاختلافات والمنازعات

لا تنقطع بين مدينة واخرى • ويبدو ان هجرة الكثيرين من الايونيين بعد الغارة الفارسية الى اليونان الكبرى قد زادت الاوضاع تعقيدا • وقد اشتدت الخصومة في الدرجة الاولى بين (سيباريس) وجارتها (قروتون) • فان (سيباريس) التي انتقل اليها عدد كبير من سكان (ميليتوس) اخذت تزدهر اقتصادياً وتتقدم عمرانيا حتى اصبحت في طليعة المدن اليونانية • وقد انتشرت فيها الاراء الحديثة والمبادىء الديموقراطية في حين ان سكان (قروتون) كانوا يتبعون تعاليم (فيثاغوراس) ومدرسته التي تدعو الى النظام الارستوقراطي المحض • هذا التباين في النظريات بالاضافة الى المزاحمة الاقتصادية هو الذي ادى الى توتر الحالة فانفجار الحرب بينهما في سنة (٥١١ - ٥١٠)• وقد انتصر أهل (قروتون) الذين اجتاحوا مدينة (سيباريس) فقتلوا سكانها ودمروها تدميرا تاما • هذا الحادث الفظيع اثار موجة من الاستياء والألم في كل العالم اليوناني وعلى الاخص في (ميليتوس) التي اعلنت الحداد العام •••

٥ - حكم الطغاة في صقلية :

أما في صقلية فلم تنقلب الاوضاع السياسية الا في اوائل القرن الخامس ، اذ قام حكم الطغاة مكان النظام الارستوقراطي • وكان اول دكتاتور فرض سيطرته هو (قلياندروس) في مدينة (جيلة) حوالي سنة (٥٠٥) • وتشير الاخبار الى ان والده (بانتاريس) كان نال جائزة في سباق العجلات في (اوليمبية) سنة ٥١٢ • فهو ، حسبما نعلم ، أول يوناني من صقلية جهز فرقة رياضية على حسابه للاشتراك في الالعاب الاوليمبية • وقد اقتدى به الكثيرون من الحكام واصحاب الجاه فيما بعد • والذي يهمنا من الخبر هو ان (قلياندروس) كان من اسرة معروفة بالثروة والوجاهة•

بعد ان حكم (قليندروس) مدة سبع سنوات قتله احد المواطنين ولا نعلم هل كان ذلك بدافع شخصي أم عن عقيدة سياسية • وعلى كل

حال فان الدكتاتورية ظلت سائدة اذ انتقل الحكم الى أخيه (هيبوقراتس)
ويبدو ان (هيبوقراتس) كان لايزال شابا اذ نعلم بأنه عندما قتل في الحرب
بعد سبع سنوات أي في عام ٤٩١ خلف ولدين دون سن الرشد . وقد
امتاز (هيبوقراتس) بالنشاط والحزم والدهاء وكان يطمع الى بسط سيطرته
على جزيرة صقلية كلها ولا يتورع عن استخدام جميع الوسائل ، مهما
كانت منافية للاخلاق ، في سبيل تحقيق اغراضه . وهو في كل ذلك كان
قدوة للطغاة الذين خلفوه .

وقد خاض هذا الطاغية غمار حروب كثيرة لاخضاع الصقل ، سكان
الجزيرة الاصليين وللاستيلاء على المدن اليونانية المجاورة لمدينة (جيلة)
مثل (ناكسوس) و (لئونتيني)و (قاللبيوليس) و (زانقلي) التي فرض
عليها جميعا العبودية ، كما يقول (هيرودوت) .

ان اهم مدينه كان (هيبوقراتس) يطمع في امتلاكها هي (سيراكوزة).
وقد انتصر على السيراكوزيين في معركة كبيرة عند نهر (هيلوروس) ورغب
في دخول المدينة سلما دون ان يضطر الى حصارها او مهاجمتها . ولهذه
الغاية اراد ان يستفيد من نقمة جمهور الشعب على الحكام الارستوقراطيين
فعسكر مع جيشه على احد المرتفعات حول المدينة وظل ينتظر استسلامها .
وفي هذه الفترة لاحظ ان الكهنة اخذوا ينقلون كنوز المعبد لاخفائها فأشاع
بأنهم حاولوا سرقتها وأسرع الى اعادتها حيث كانت ، متظاهرا بحماية
الاموال المقدسة ليكتسب رضى الالهة وعواطف الشعب معا .

على ان الغنيمة افلتت من يده بعد ان اصبحت قريبة التناول اذ تدخلت
المدينة الام (قورنت) ومستعمرتها الاخرى (قورسيره) في الامر وتوسطتا
في عقد الصلح مقابل تنازل (سيراكوزة) عن مدينة (قامارينة) المهمة .
وليس في الاخبار ما يساعدنا على معرفة الاسباب التي دفعت (قورنت) الى
التدخل أو اكتشاف السر في اتفاق (قورسيرة) مع المدينة الام. هذه المرة

رغم المنازعات الدائمة بينهما . كما اننا لا نعرف الوسائل التي استخدمتها (قورنت) للضغط على (هيبوقراتس) وارغامه على قبول الوساطة . ومهما كان الامر فقد تخلصت (سيراكوزة) ، ولو مؤقتا .

قضى (هيبوقراتس) بقية ايامه في محاربة الصقل واستولى على احدى مدنهم (أجريجنتوم Agrigentum) بخدعة حقيرة ثم قتل أثناء هجومه على مدينة (هيبلة Hybla) في سنة (٤٨٥) .

ان فرض سيادة (هيبوقراتس) على مدينة (زانقلي) الواقعة في الجانب الصقلي من مضيق (مسينة) كان من العوامل المساعدة على ظهور طاغية آخر حوالي سنة ٤٩٤ في مدينة (ريجيون) الواقعة على الجانب الايطالي من المضيق وهو (آناكسيلاووس) ابن (كريتينيس) .

يمكن اعتبار (ريجيون) كمدينة صقلية رغم وجودها على شواطىء ايطالية . وذلك لان الجبال القريبة جدا من البحر تفصلها عن بقية الاراضي الايطالية ولان الشاطىء الضيق حولها لم يكن ، قبل انتشار زراعة البرتقال في الازمنة الحديثة ، ينتج شيئا من المحصول . فكانت معيشة السكان تتوقف على التجارة عبر المضيق . على ان (ريجيون) لم تكن لتستطيع الاستفادة من هذه التجارة الا بالاتفاق مع مدينة (زانقلي) على الشاطىء المقابل ، إذ بينما تسيطر (ريجيون) ، بفضل موقعها المرتفع ، على المضيق فان (زانقلي) تملك ميناء طبيعية ممتازة لابد للسفن من الالتجاء اليها تبعا لمجرى التيارات. ان المدينتين تتمم احداهما الاخرى مما جعلهما تتمسكان مدة عصور بروابط الصداقة لتأمين المصلحة المشتركة . ولكن هذا الوضع تبدل بعد خضوع (زانقلي) لسيطرة (هيبوقراتس) الذي نصب فيها طاغيـة تابعا له اسمه (سكيتيس). وقد اعتقد سكان (ريجيون) الذين شاهدوا نجاح(هيبوقراتس) واتساع فتوحاته انهم لايستطيعون مقاومته والقضاء على نفوذه في (زانقلي)

الا اذا قام لديهم ايضا دكتـاتور قوي • وبذلك تمهدت الطريـق لانفراد (آناكسيلاووس) بالسلطة •

يرجع (آناكسيلاووس) باصله الى المهاجرين المسينيّين الذين كانوا، رغم قلة عددهم في (ريجيون) بالنسبة الى بقية السكان الخالكيديين ، يؤلفون الطبقة الارستوقراطية المسيطرة وتدل اعماله على انه كان يمتـاز بالحزم والدهاء ويتقن الاساليب الديبلوماسية • وقد اخذ منذ توليه الحكم يتأهب للاستيلاء على (زانقلي)• ولم تمض مدة سنة حتى سنحت له فرصة اعتقد بأنها تحقق له هدفه دون القيام بمغامرة حربية • فانه في عام (٤٩٣) انتهت ثورة ايونية بالفشل واخذ الكثيرون من السكان يبحثون عن بلاد اخرى يهاجرون اليها • وكان (هيبوقراتس) الذي انهمك في محاربة الصقل قد شعر بقلة اعوانه اليونانيين فرأى ان يستفيد من المهاجرين الايونيين ، ولذلك أوعز الى حليفه او بالاحرى وكيله (سكيتيس) بدعوة هؤلاء الايونيين الى السكنى في صقلية • والسبب في توسيط (سكيتيس) هو ان (قدموس) كان يحكم جزيرة (قوس) القريبة من شواطىء (ايونية) ويتمتع بشيء من الزعامة بين الايونيين رغم علاقاته الحسنة مع الفرس وانقياده لهم • ويظهر بأنه ترك جزيرة (قوس) لاعتقاده بأنه سيجد مجالا أوسع للعمل في صقلية مع والده • ان الدعوة التي حملها (قدموس) لا تدل على شيء من الشفقة والكرم الخالص ، اذ لم تكن تعرض على الايونيين السكني في (زانقلي) وانما تقترح عليهم انتزاع الارض عند (قالي آقتي) من اصحابها الصقل بالحرب • لذلك لم يستجب لها الا البعض من سكان جريرة (ساموس) الذين جاؤوا في سفن حربية ونزلوا عند (لوقرى) في جنـوب ايطاليـة لقضاء فصل الشتاء والاستعداد لتنفيذ المشروع • هنا أسرع (آناكسيلاووس) للاتصال بهم واقترح عليهم ان يستولوا على (زانقلي) نفسها التي كانت خالية من الجنود لانشـغال (سكيتيس) بالحرب ووعدهم بالمسـاعدة • وقـد

استحسن الساموسيون الاستلاء على المدينة العامرة عوضا عن محاربة الصقل وتأسيس مستعمرة جديدة ، فهاجموا (زانقلي) واستطاعوا دخولها دون صعوبة ولما بلغ ذلك (هيبوقراتس) زحف بسرعة مع جيشه والقى الحصار على المدينة • الا انه بعد ان اطلع على مؤامرة (آناكسيلاووس) وعرف قوة الساموسيين الذين كانت سفنهم الحربية تساعدهم على المقاومة طويلا في مواقعهم الحصينة بطبيعتها ، رأى من الافضل ان يفاوض هؤلاء فأظهر لهم استعداده لمحالفتهم والتخلي عن وكيله (سكيتيس) • وبالفعل فقد حكم بالسجن على هذا بتهمة التهاون في المحافظة على المدينة واتفق مع الساموسيين على اعطائهم « زانقلي » ومقاسمتهم أموال أهلها • هنا يحتار المتأمل اذا أراد الموازنة من الوجهة الاخلاقية بين سلوك (آناكسيلاووس) و (الساموسيين) و (هيبوقراتس) ، فلا يسعه الا ان يقول : وافق شن طبقة •

لقد كانت خيبة (آناكسيلاووس) عظيمة • ولكنه ظل مصمما على بلوغ هدفه وقد سنحت له الفرصة بعد سنتين عندما قتل (هيبوقراتس) في الحرب • وحدثت بعض الاضطرابات في (جيلة) قبل ان يتولى (جيلون) الحكم مكانه • فاستولى (آناكسيلاووس) في هذه الفترة على (زانقلي) ولم تمض مدة طويلة حتى اخرج منها الساموسيين الذين كانوا نقضوا العهد معه وأسكن مكانهم المسينيين الذين هاجروا من بلادهم بعد فشل ثورة الهيلوتيين على اسبارطة في سنة (٤٩٠/٤٨٩) •

٠٦ ـ (مسينيون) :

يقول (هيرودوت) ان (آناكسيلاووس) ، بعد استيلائه على (زانقلي) بدل اسمها الى (مسينيون) تخليدا لذكرى اجداده الذين كانوا هاجروا في الاصل من (مسينية) في شبه جزيرة البيلوبونيز • وقد احتفظت المدينة حتى اليوم بهذا الاسم (مسينة) الذي اطلق ايضا على المضيق بين ايطالية وصقلية•

أما (توكيديديس) فيذهب الى ان تغيير الاسم قد حدث بعد اخراج

الساموسيين واكراما للمهاجرين المسينيين الذين سكنوا مكانهم • والموضوع في ذاته لا اهمية له • ولكنه رغم ذلك أثار نقاشـا طويـلا بين المؤرخين الحديثين • ونريد ان نستطرد هنـا الى تلخيصه كمثال لطريقـة البحث والجدل لدى هؤلاء المؤرخين •

نبدأ بالمؤرخ الالماني المشهور (بيلوخ) • فانه بعد ان ذكر تبديـل (آناكسيلاووس) لاسم المدينة اضاف هذه الملاحظة : « ان النقود المنقوشة بالحروف الساموسية والمكتوب عليها كلمة (مسينيون) تثبت بأن تغيير اسم المدينة قد تم عند الاستيلاء عليها ، كما يقول (هيرودوت) بحق ، بينما يدعي (توكيديديس) ان الامر لم يحدث الا بعد طرد الساموسيين • وانا انما اردت الاشارة الى ذلك لفائدة اولئك الذين يعتبرون كل كلمة وردت عند (توكيديس) كأنها وحي منزل ••• » كان طبيعيا ان لايسكت الخصوم على مثل هذا التحدي الصريح والتهكم الجارح • ان حجة (بيلوخ) قوية اذ تستند الى النقود القديمة التي عثر عليها في (مسينه) والتي يمكن ان يستدل لأول وهلة ، بأن تبديل الاسم قد جرى قبل اخراج الساموسيين وقدوم المسينيين • على ان المعارضين قاموا ايضا يدرسون هـذه النقـود ويجمعون غيرها سواء في (مسينة) أو (ريجيون) أو (ساموس) واخذوا يقارنونها ويصنفونها حسب الزمن والوزن والنقوش • وهكذا فقد عثر على انواع متعددة من النقود كلها من صنع الساموسيين ولكن بعضها لم تنقش عليه كلمة (مسينيون) وبعضها كتب عليه اسم المدينة حسب اللهجةالدورية (مسانيون) • ثم ان قسما منها جعل على اساس الوزن (الآتيكي) دون أي نقوش كتابية وقسما آخر يختلف في الوزن وعليه صورة عجلة سباقلتخليد ذكرى الجائزة التي نالهـا (آناكسيلاووس) في الالعاب الاوليمبيـة سـنة (٤٨٠) • وقد تبين من كل ذلك :

أولا : ان هناك نقودا بالنقوش الساموسية ضربت في (ريجيون) قبل

هجرة الساموسيين الذين استولوا على (زانقلي) أي ان (آناكسيلاووس) كان يستخدم في صك النقود بعض الفنانين الماهرين الذين جاؤوا كأفراد مستقلين من (ساموس) الى بلده • ومن المعروف ان بعض الاشخاص من هذه الجزيرة قد هاجروا الى مختلف البلدان قبل دعوة الساموسيين العامة للسكنى في صقلية • نذكر بين هؤلاء النحات (فيثاغوراس) الذي عاش في (ريجيون) •

ثانيا : النقود التي هي من صنع الفنانين الساموسيين والتي عثر عليها بكثرة في (ريجيون) و (مسينه) على السواء ، دون ان تحمل اسم أي مدينة ، انما تشير الى توحيد المدينتين تحت حكم (آناكسيلاووس) ولكنها لا تبرهن على اقامة المهاجرين الساموسيين في (مسينة) •

ثالثا : يمكن ان تكون النقود المنقوش عليها كلمة (مسينيون) قد صنعت من قبل هؤلاء الفنانين أما في (مسينة) نفسها أو في (ريجيون) ثم نقلت الى هناك دون ان تكون لها أي علاقة بالمهاجرين الساموسيين • وليس غريبا ان يكتب الفنانون الساموسيون اسم المدينة حسب لهجتهم لاسيما وان اكثرية السكان في (ريجيون) وفي (مسينة) كانت اذ ذاك من الايونيين رغم ان الطاغية (آناكسيلاووس) نفسه من أصل دوري •

رابعا : ان النقود التي نقشت عليها عجلة السباق قد كتب على بعضها اسم المدينة باللهجة الايونية (مسينيون) وعلى البعض الاخر باللهجةالدورية (مسانيون) مما يدل على ان لغة السكان اخذت تتغير تدريجيا • ولعل ذلك يرجع الى استمرار هجرة (المسينيين) الى المدينة وازدياد عددهم علىالاخص بعد سنة ٤٦٠ اذ هاجرت جماعة كبيرة منهم على اثر سقوط حصن (ايتومي) الذي سنتكلم عنه فيما بعد •

خامسا : ان النقود الساموسية على اساس الوزن (الآتيكي) ودون أ نقوش كتابية لم يعثر الا على القليل منها في (مسينة) وفي مصر فقط

وأقرب الاحتمالات ان تكون قد ضربت في (ساموس) نفسها ونقلها المهاجرون معهم •

هنا يتبين لنا ان النقود الاثرية لا تكفي وحدها وفي جميع الظروف للكشف عن الاوضاع الاقتصادية والسياسية اذ ان ضربها من الامور الفنية في الدرجة الاولى • ونتائج البحث التي استعرضناها لا تنقض ولا تؤيد ما ذهب اليه (توكيديديس) من ان تغيير الاسم لم يتم الا بعد اخراج الساموسيين كما انها لا تنفي تعليل (هيرودوت) لهذا التغيير • وفي الحقيقة فان الفرق بسيط بين الروايتين اللتين لاتناقض احداهما الاخرى •ونستطيع القول بأن (آناكسيلاووس) قد بدل اسم مدينة (زانقلي) الى (مسينيون) تخليدا لذكرى بلاد اجداده واكراما للمهاجرين من هذه البلاد معا • وفي هذه الحالة يجب ان يكون الامر قد وقع بعد اخراج الساموسيين من المدينة، كما ذكر (توكيديديس) دون ان نرفض قول (هيرودوت) بأن (آناكسيلاووس) أراد بذلك تمجيد موطن اجداده لأن عبارة « بعداستيلائه على المدينة » لا تحدد الوقت بالضبط • ولا ننسى ان الفترة بين استيلاء (آناكسيلاووس) على المدينة وطرده الساموسيين منها لا تتجاوز الاربع أو الخمس سنوات ولذلك لا تستحق ان تعلق عليها اهمية كبيرة •••

٧ ـ (جيلون) :

لما قتل (هيبوقراتس) في الحرب اراد انصاره تولية ولديه اللذين لم يكونا ، كما ذكرنا ، قد بلغا سن الرشد • لكن جمهور الشعب في مدينة (جيلة) ، الذي ذاق مرارة الطغيان ومل المغامرات الحربية المتوالية في عهد (هيبوقراتس) ، رفض ذلك وقام يحاول تأليف حكومة ديموقراطية ،فادى الاختلاف الى حدوث اضطرابات •

في هذه الفوضى برز الى الميدان قائد الخيالة في الجيش (جيلون) ابن

(دينومينيس) الذي ينتسب الى اسرة ذات مكانة كبيرة وشهرة واسعة في بلاد اليونان والذي كان يطمع الى الدكتاتورية منذ مدة طويلة •

يروي المؤرخون أن (جيلون) توصل في مدينة (هيميره) الى ان يجمع في شخصه أعلى سلطة مدنية وعسكرية أي ان يتولى منصب « القائد ذي الصلاحية الذاتية » الذي نصادفه كثيرا في تاريخ صقلية أثناء العصور التالية • ولا نعرف كيف تيسر له ذلك في مدينة لم يكن من مواطنيها • على ان (جيلون) لم يكن ليقنع بسلطة ، مهما كانت واسعة ، ما دامت مقيدة بنصوص دستورية • ولتحقيق مطامعه طلب من سكان (هيميرة) السماح له باتخاذ حرس خاص • ومن المعروف ان الطامحين الى الدكتاتورية في بلاد اليونان كانوا يعتبرون تأليف هذا الحرس كمرحلة اولى تساعدهم على فرض سيطرتهم ، كما مر معنا في ترجمة حياة (بيزيستراتوس) مثلا • وكاد (جيلون) ان ينال مبتغاه لولا قيام الشاعر (ستزيخوردس) يحذر مواطنيه من الخطر الذي يهددهم • حينئذ عاد (جيلون) الى بلده وانضم الى جيش (قلياندروس) ثم (هيبوقراتس) • وقد برز في المعارك الكثيرة فعهد اليه بقيادة الخيالة وظل في هذا المنصب الرفيع يتمتع بثقة الطاغية حتى النهاية •

تظاهر (جيلون) بادىء الامر بالدفاع عن حق ولدي (هيبوقراتس) واستطاع بقوة الجيش ان يتغلب على خصوم الحكم الدكتاتوري • الا انه بعد اعادة الهدوء كشف النقاب وفرض نفسه خلفا لهيبوقراتس وبسط سيطرته على (جيلة) وجميع البلاد التابعة لها •

وقد برهن (جيلون) على مقدرة كبيرة مدة حكمه وذاع صيته واصبح بعد انتصاره على القرطاجيين في معركة (هيميره) من ابرز الشخصيات ليس في صقلية وحدها بل في بلاد اليونان عامة •

كان لابد لجيلون ، في سبيل توطيد حكمه ، من ان يتبع ، مثل جميع

الطغاة ، سياسة الحروب والفتوحات • على ان تجاربه في عهد (هيبوقراتس) كانت قد كشفت له الصعوبات التي تعترض هذه الطريق • فرأى انه للتغلب على الصقل والاستيلاء على (سيراكوزه) واستعادة (مسينة) لابد له من حلفاء يستند اليهم • وقد كانت العلاقات حسنة دوما بين (جيلة) و (آقراغاس)• فاستفاد من ذلك واسرع الى مفاوضة (تيرون) طاغية هذه المدينة وتحالف معه ثم في سبيل توثيق هذا الحلف تزوج (ديماريتا) بنت (تيرون) كما انه زوج (تيرون) نفسه ببنت أخيه الثاني (بوميزيلوس) • ثم أخذ يستعد قبل كل شيء لتحقيق مشروع (هيبوقراتس) في الاستيلاء على (سيراكوزه) وقد سنحت له الفرصة في سنة (٤٨٥) اذ تم الاتصال بينه وبين اصحاب الاراضي الارستوقراطيين الذين طردهم الشعب من (سيراكوزه) والتجأوا الى (قازميني) فجاؤوا الآن يطلبون مساعدته رغم معرفتهم بأن تدخله سيؤدي الى ضياع استقلال مدينتهم • وبالفعل زحف (جيلون) على (سيراكوزه) ودخلها دون ان يجد مقاومة فاعاد الى الملاكين الاقطاعيين أراضيهم ولكنه لم يخرج من المدينة بل اتخذها عاصمة له وعهد بادارة (جيلة) الى أخيه (هيرون) •

بدأ (جيلون) أعماله في (سيراكوزة) باقامة الحصون حولها • ثم أنشأ سداً يربط بين جزيرة (اورتيجية) وبقية المدينة • وقام بتوسيع المرفأ وتأسيس مصانع للسفن • ولزيادة عدد السكان ارغم نصف المواطنين في (جيلة) على الانتقال الى العاصمة الجديدة كما أمر بتخريب مدينة (قامارينة) التي عارضته ونقل جميع سكانها الى هناك أيضا • ثم أراد جلب سكان (ميغارة خيلاية) فقام الارستوقراطيون يقاومونه ورضي جمهور الشعب بالتسليم فلما استولى على المدينة بالقوة أحسن معاملة الارستوقراطيين واسكنهم في (سيراكوزه) بينما حكم ببيع افراد الشعب كأرقاء على شرط ابعادهم عن صقلية • كذلك فعل مع سكان (لئونتيني)• ولتعليل هذا السلوك (المعكوس)

صرح (جيلون) ان العوام لا خير فيهم ولا يمكن الركون اليهم . فهو ، خلافا لغيره من الدكتاتوريين اليونانيين الذين يتظاهرون عادة بالدفاع عن الجمهور ، كان يريد الاعتماد على الطبقات الغنية التي يرتبط مع افرادها بروابط الصداقة الشخصية . ويبدو انه كان يطمح الى ان يصبح ملكا يحيط به الاشراف ويزينون بلاطه .

بهذه الاساليب القاسية والتدابير الغاشمة انقلبت « سيراكوزة » في مدة قصيرة الى مدينة كبيرة لا يضاهيها في اتساعها وعدد سكانها سوى (آثينة) وحدها بين جميع المدن اليونانية اذ ذاك . ولم تمض خمس سنوات حتى بلغ اسطولها (٢٠٠) سفينة وصارت تملك أعظم جيش في بلاد اليونان .

بينما استولى (جيلون) على (سيراكوزة) كان حليفه وحموه (تيرون) قد اقدم على احتلال مدينة (هراقلية مينوه) التابعة لسيلينوس ثم استولى على (هيميره)التي طرد منها طاغيتها (تيريللوس) . وكان (آناكسيلاووس) طاغية (ريجيون) قد تحالف مع (تيريللوس) هذا وتزوج ايضا بابنته كما انه تقرب من (سيلينوس) وذلك لتأليف كتلة تستطيع مقاومة (جيلون) و (تيرون) . وبما ان (سيلينوس) كانت حليفة القرطاجيين فمن المحتمل جدا ان يكون (آناكسيلاووس) قد استهدف الاستناد الى هؤلاء ونيل مساعدتهم عند الحاجة .

وفي الحقيقية فانه بعد هجوم (تيرون) المفاجيء واستيلائه على (هيميرة) نرى (تيريللوس) و (آناكسيلاووس) يطلبان النجدة من قرطاجة . وقد قدم (آناكسيلاووس) أولاده كرهائن الى القائد القرطاجي (هاملقار) لتأكيد الحلف . ولكن من المؤسف اننا لا نجد في الاخبار المنقولة اي اشارة الى الوقت الذي جرت فيه بالضبط هذه الحوادث التي ادت الى معركة (هيميره) . وبسبب هذا النقص فقد تضاربت اراء المؤرخين الحديثين في

الحكم على اهمية هذه المعركة المشهورة التي نريد ، قبل الانتقال الى وصفها، استعراض بعض المقدمات المتعلقة بها .

٨ ـ مقدمات عن معركة (هيميرة) :

ان الباحث لا بد ان تستولي عليه الدهشة عند مطالعة ما كتبه بعض المؤرخين الاوروبيين في هذا الموضوع . ما هو مثلا رأي (مومسن) أكبر المؤرخين الالمان حوالي منتصف القرن التاسع عشر ؟ يدعي بأنه ليس من المصادفة وقوع الهجوم القرطاجي على صقلية في وقت واحد مع هجوم (سرخس) على اليونان . ان الحملتين ، حسب رأيه ، مرتبطتان احداهما بالاخرى تبعا لخطة واسعة كانت تستهدف القضاء على اليونانيين في الشرق والغرب . وهو يقول : « انها خطة مدبرة من اعظم المشاريع السياسية قد قذفت في الوقت نفسه بالجحافل الاسيوية على شبه جزيرة اليونان وبالجحافل الفنيقية على صقلية لمحو الحرية والحضارة ، بضربة واحدة ، من وجه الارض ... »

وهذا (غلوتس) الذي الف احدث الكتب الفرنسية واحسنها عن تاريخ اليونان يبدأ الحديث في شؤون صقلية بالاشارة الى ان اليونانيين قد تعرضوا من الغرب الى هجوم عنيف كما في الشرق فاستطاعوا صده ايضا . وهو بعد ان يذكر استنجاد (تيريللوس) بالقرطاجيين يقول : « على ان السبب المحتم للنضال الحاسم بين اليونانيين و « الساميين » هو على الارجح الاتفاق المعقود بين الفرس والفينيقيين الغربيين . والقصد انما كان القيام بجهد مشترك لايقاف اليونانيين في الغرب كما في الشرق ... »

وهناك كثيرون من المؤرخين الغربيين الذين ما زالوا ، عند البحث في حروب اليونانيين سواء مع الفرس او القرطاجيين ، يتكلمون عن النضال بين همجية « الشرق » وحضارة « الغرب » ، وان كانوا لا يدعون مثل (مومسن) وجود رابطة بين غارة الفرس وحملة قرطاجة .هكذا نرى الاستاذ (ويلكن)

في كتابه « التاريخ اليوناني » قد وضع للفصل الخاص بمعركة (هيميره) العنوان التالي : « حروب الحرية لليونانيين الغربيين » • وقد أنكر (بيلوخ) العلاقة بين الحملتين ولكنه ايضا يذهب الى انه في معركة (هيميرة) قد انقذت حرية اليونانيين الغربيين • ولعل الاستاذ الالماني (برفي) هو المؤرخ الوحيد الذي جاهر ، رغم آرائه الرجعية ، بحقيقة الحرب في صقلية فصرح بأن (جيلون) عند اشتباكه في القتال مع القرطاجيين لم يفكر في توحيد اليونانيين أو الدفاع عن حريتهم وانما كان يطمع في بسط سيطرته على جزيرة صقلية كلها واخضاع « البرابرة » واليونانيين على السواء لحكمه الشخصي •

من المؤلم ان ما نجده لدى معظم المؤرخين الغربيين من مخالفة ظاهرة للحقيقة عند تفسير الحوادث التاريخية او تأويلها أو التعليق عليها ، بل عند عرضها ، ليس ناشئا عن جهل أو خطأ في الاجتهاد وانما هو ، في الغالب ، تزوير مقصود يرمي الى اهداف سياسية ـ استعمارية • ولا غرابة اذا رأينا رجال السياسة الغربيين ما فتأووا يرددون في خطبهم وبياناتهم عبارة « الدفاع عن الحرية والحضارة » عند شن الحروب على الامم الشرقية كلما قامت تطالب باستقلالها وتحاول الخلاص من المستعمرين الاجانب ـ لا غرابة في ذلك لان هؤلاء الساسة ليسوا سوى تلامذة اولئك الاساتذة المؤرخين ! أو ربما كان الامر على العكس : فليس الاساتذة العلماء سوى خدمة مأجورين وعبيد مطيعين للساسة الحكام !

لنستطيع تكوين رأي صحيح ، على قدر الامكان ، حول الموضوع يجدر بنا أن نستأنف استعراض الحوادث التاريخية حسبما نقلت الينا من قبل الرواة القدماء • وهنا يجب ان لايغيب عن الذاكرة ما مر معنا من ان الفينيقيين قد اضطرهم اليونانيون الى الاقتصار على ثلاث مدن في الزاوية الغربية من الجزيرة ثم قاموا بعد ان تعرضوا هناك ايضا الى الخطر اليوناني

وتولت قرطاجة الزعامة عليهم يدافعون عن انفسهم فحدثت حروب عديدة بين الطرفين انتهت بايقاف التقدم اليوناني نحو الغرب . اذن فالنزاع بين اليونانيين والقرطاجيين في صقلية كان قائما منذ زمن طويل ولا علاقة له بالمرة مع الحروب الفارسية . ثم ان اليونانيين في صقلية ، كما في جميع الاماكن الاخرى لم يكونوا يؤلفون جبهة واحدة . وقد رأينا كيف اصبحت السيطرة في ايدي طائفة من الطغاة الذين كان كل واحد منهم يسعى الى توسيع ممتلكاته ويعتدي على جاره حتى تألفت اخيرا كتلتان متنافستان تهاجم احداهما الاخرى . وعندما شعرت احدى الكتلتين بضعفها استنجدت بالقرطاجيين الذين كانوا منذ القديم حلفاء مدينة (سيلينوس) المنضمة الى هذه الكتلة . ولم يخطر في بال (تيريللوس) و (آناكسيلاووس) ان في استنجادهما بالقرطاجيين أي خيانة للقضية الهيللينية كما ان (جيلون) و (تيرون) لم يفكرا لحظة في توجيه هذه التهمة الى خصميهما . لقد كان كل فريق انما يسعى وراء مصلحته الخاصة . أليس من العجيب اذا استجاب القرطاجيون لدعوة حلفائهم ، ان يقال بأنهم هاجموا صقلية للقضاء على الحرية والحضارة بالاتفاق مع الفرس ؟ . بل انه ليس هناك اي دليل على ان القرطاجيين ارادوا انتهاز هذه الفرصة للاستيلاء على صقلية كلها كما يدعي مثلا (بنكتسون) لايستبعد ان تكون قرطاجة انما استجابت لطلب النجدة طمعا في الاستفادة من الخلاف بين اليونانيين وتوطيد مركزها في صقلية . فهل يجوز انتقادها على ذلك ؟ ألا يجب ، بالعكس ، اتهامها بالتقصير في الدفاع عن مصالحها لو انها لم تحاول استثمار الموقف ؟

لننظر ماذا يذكر الرواة القدماء عن العلاقة بين الغارةالفارسية والحملة القرطاجية . ولنرجع أولا الى (هيرودوت) ، فهو اقدم مؤرخ يونانيانتقل الينا كتابه . ورغم ما يشتمل عليه هذا الكتاب من القصص الاساطيرية والاخبار الضعيفة والاراء الخاطئة فانه المرجع الاساسي لتاريخ اليونان القديم

وبالاخص للحروب الفارسية وحوادث صقلية ، لان (هيرودوت) الذي عاش في القرن الخامس وسكن في ايطالية الجنوبية وسافر الى صقلية وغيرها، قد اتصل بكثير من الاشخاص الذين اشتركوا بأنفسهم في تلك الحروب والحوادث أو سمعوا اخبارها من المشتركين مباشرة وكان يسأل اصحاب المعرفة في كل مكان عن الوقائع المشهورة ويروي اقوالهم باخلاص في اكثر الاحيان • ويبدو انه لم يكن يتقصد تجوير الاخبار الا في بعض الامورالتي تتعلق ببلاده الاصلية (قارية) في آسية الصغرى أو بأسرة (آلقميثونيدى) التي ينتسب اليها صديقه (بريكلس) والتي نلمس فيها تعصبه وابتعاده عن الحياد العلمي •

ان (هيرودوت) لايذكر شيئا عن الاتفاق بين الفرس والقرطاجيين وهو يرى ان حملة (هاملقار) قد جاءت مفاجئة وانما يمكن تعليلها بالرجوع الى الوضع في صقلية • لاشك في ان سكوت (هيرودوت) عن ذكر الاتصال بين الدولتين ليس برهانا كافيا لنفي الامر في ذاته • الا ان سكوته ممايسترعي الانتباه ويدل على ان الناس في عصره لم يكونوا يبحثون في هذا الموضوع •

ثم ان (هيرودوت) يروي بالتفصيل المفاوضات التي جرت بين (جيلون) من جهة وبين المندوبين الاسبارطيين والاثينيين الذين ارسلهم اليه المؤتمر (الهيلليني) من جهة ثانية • وقد ذكرنا قبلا ان هذا المؤتمر طلب من كافة الدول اليونانية الاشتراك في صد الغارة الفارسية فلم يستجب له الا اقلية صغيرة • وكان (جيلون) قد رضي بالمساهمة في الحرب وارسال اسطوله وجيشه ولكن على شرط ان يتولى هو القيادة العامة فلما رفض اقتراحه بشدة امتنع عن كل مساعدة • وبما ان هذه المفاوضات قد جرت في ربيع سنة ٤٨٠ أي قبل بضعة اشهر فقط من تاريخ معركتي (سالاميس) و (هيميره) فمن الغريب جدا ان لا يشير (جيلون) أثناء المفاوضات الى الخطر الذي كان يهدد صقلية نفسها ويعتذر عن المساعدة باضطراره الى

مقاومة القرطاجيين • والمؤرخون اليونانيون يدعون بأن تأهبات القرطاجيين استغرقت ثلاث سنوات فليس من المعقول ان لا يكون (جيلون) قد سمع بذلك • والظواهر تدل على انه لم يكن يريد نجدة اليونانيين من الاساس وهو انما اشترط تسليمه القيادة العامة ليتخلص من الامر •

وفي الواقع فان (جيلون) قد ارسل ، عوضا عن المساعدة ، وكيله (قدموس) الى (دلفي) مع مبلغ كبير من المال وكلفه بأن يراقب الحوادث هناك فاذا انتصر الفرس سلم المال الى (سرخس) واعلن له الخضوع بالنيابة عنه • وكان (قدموس) هذا ، كما نعلم ، على صلات حسنة مع الفرس منذ عهد حكمه في جزيرة (قوس) تحت اشرافهم •

هذا مثال من اعمال ابطال الحرية ، تلك الحرية التي يتكلم عنها (مومسن) •

اذا رجعنا الى المؤلفين الذين ظهروا بعد (هيرودوت) مباشرة وبحثوا في تاريخ اليونان وصقلية مثل (آنتيوخوس) و (توكيديديس) و(هيللانيقوس) فاننا لا نجد لديهم ايضا اي اشارة الى الاتفاق بين الفرس والقرطاجيين •

على ان وقوع معركتي (سالاميس) و (هيميرة) في وقت واحد ومتقارب كان من شأنه اغراء المؤرخين الى الافتراض بوجود صلة بين الحادثين • وأول مؤرخ ابدى هذه الفرضية هو (ايفوروس) الذي عاش في عهد الاسكندر المقدوني وألف كتابا في التاريخ العام انتقلت الينا اجزاء كبيرة منه بواسطة المؤرخين المتأخرين الذين اعتمدوا عليه • ويبدو من هذه المقاطع ان الكتاب كان يشتمل على خليط من الحوادث وتفاسير عقلية للاساطير القديمة •

يدعي (ايفوروس) الذي يدافع عن فكرة الجامعة الهيللينية ، ان (سرخس) أرسل وفدا الى قرطاجة يطلب اليها مهاجمة اليونانيين في صقلية للحيلولة دون اقدامهم على مساعدة اخوانهم في شبه جزيرة اليونان • ويظهر

من كلامه كأن القرطاجيين كانوا رعايا للفرس مثل الفينيقيين لايستطيعون مخالفة أوامر (سرخس) • ونحن نعلم ان (قمبيز) بعد استيلائه على مصر ، كان قد اراد اخضاع قرطاجة لحكمه باعتبارها من ممتلكات (صور) ولكن الفينيقيين في اسطوله امتنموا عن محاربة ابناء جنسهم فاضطر الىالتخلي عن ارسال الحملة • وفي الواقع فقد كانت قرطاجة مستقلة منذ مدة طويلة وهي لم تكن خاضعة للفرس بل ربما كانت تريد محاربتهم واخراجهم من بلاد فينيقية لو تستطيع ذلك ••••

ثم مما يسترعي النظر ان يتعرض (آرسطو) الى الموضوع فيذكر في (كتاب الشعر) كمثال المصادفات والاقترانات التي لا تدل على أي معنى وقوع معركتي (سالاميس) و (هيميره) في وقت واحد • وكان (آرسطو) معاصرا (لايفوروس) ويعرف عن تاريخ اليونان وصقلية على الاقل بقدر ما يعرفه هذا • ومن المحتمل جدا ان يكون قد تقصد انتقاء هذا المثال لمعارضة (ايفوروس) •

يتبين من كل ذلك ان ادعاء (ايفوروس) بوجود علاقة بين الغارة الفارسيه والحملة القرطاجية لايستند الى شواهدتاريخية أوحوادث مؤكدة• فليس قوله سوى فرضيه يمكن ان تكون صحيحة أولا • وفي الحقيقية ليس من المستبعد ان يكون القرطاجيون علموا بواسطة الفينيقيين أو غيرهم ان (سرخس) يتأهب لغزو اليونان فقرروا ارسال حملتهم الى صقلية في نفس الوقت او بالعكس ربما كان الفرس هم الذين اطلعوا على تأهبات القرطاجيين فأرادوا الاستفادة من ذلك وقاموا بغارتهم في الوقت ذاته • والاحتمال الثاني هو الارجح • لان الفرس كانوا على حق في خوفهم من اقدام (جيلون) على مساعدة اليونانيين في شبه الجزيرة باسطولهالضخم وجيشه القوي في حين انه لم يكن من المنتظر ان ترسل الدول اليونانية أي نجدة الى صقلية• وملاحظة الفرس لهذا الوضع انما يبرهن على مهارتهم السياسية •

فالعلاقة اذن تقتصر على محاولة كل من الفرس والقرطاجيين على ان تكون الحملة في زمن واحد ـ دون ان يكون هناك تفاهم مباشر او اتفاق بين الطرفين • والفرق كبير بين مثل هذا (التوافق) وبين ما يدعيه(مومسن) عن الخطة السياسية العظيمة التي دبرها (برابرة) الشرق والغرب للقضاء على الحرية والحضارة • ونحن انما اردنا توضيح الموضوع بشيء من التفصيل لان المؤرخين الغربيين قد اعتادوا عند البحث في معركة (سالاميس) أو معركة (هيميرة) ان يشيروا الى الاتفاق بين الفرس والقرطاجيين كانه حقيقة ثابتة مقتصرين على الاستشهاد برواية (ايفوروس) دون التصريح بأنها مجرد فرضية ودون بيان ملابساتها •

ان اهم عنصر تستند اليه فرضية (ايفوروس) هو وقوع المعركتين في وقت واحد • على ان هذا الامر نفسه ليس متفقا عليه بين الرواة ولا يخلو من فائدة اذا دققنا في المصادر التي اعتمد عليها المؤرخون لتعيين تاريخ معركة (هيميره) •

هنا نعثر أولا على قصائد الشاعر المشهور (بينداروس) الذي ولد حوالي سنة ٥١٨ ومات في سنة (٤٤٦) • فهو قد عاش زمن الحرب الفارسية ولم يتأخر عن تمجيد انتصارات الاثينيين رغم ان بلدة (ثيبة) انضمت الى الفرس وحاربت في صفوفهم ضد الحلفاء اليونانيين وكان (بينداروس) حسب عادة الشعراء القدماء ، يتنقل بين قصور الامراء والارستوقراطيين ويمدح الذين يغدقون عليه المال • وقد سافر الى (سيراكوزة) وقضى مدة من الزمن في بلاط (هيرون) الذي خلف اخيه (جيلون) في الحكم واشتهر بسخائه تجاه الشعراء • هناك نظم (بينداروس) عدة قصائد في تمجيد اعمال (جيلون) و (هيرون) • ونراه في احدى هذه القصائد يقارن معركة (هيميره) بمعركتي (سالاميس) و (بلاتيئة) ويقول ان انتصار (جيلون) لا يقل شأنا عن انتصارات الحلفاء اليونانيين ان لم يكن اعظم منها • ولعل

هذه المقارنة الشعرية هي التي استنتج منها المؤرخون فيما بعد الاقتران الزمني ٠

فذهب بعضهم الى ان معركة (هيميرة) جرت في اليوم نفسه مثل (سالاميس) (أي في ٢٣ ايلول سنة ٤٨٠) وادعى آخرون انها وقعت في وقت واحد مع معركة (بلاتيئة) أي في آب سنة (٤٧٩) ٠ وهناك رواية ثالثة ترجع معركة (هيميرة) الى سنة ٤٨١ ٠ وكان (هيرودوت) الذي يذكر الروايات المختلفة ، يميل الى هذه الاخيرة ٠ ثم جاء بعض المؤرخين الصقليين برواية رابعة تقول ان انتصار (جيلون) كان في نفس اليوم الذي انكسر فيه اليونانيون عند (ترموبيلي) ٠ والمقصود من هذه الرواية واضح هو تمجيد طاغية (سيراكوزة) الذي تغلب وحده على القرطاجيين بينما لم يستطع الحلفاء اليونانيون منع التقدم الفارسي ٠ كذلك نلاحظ لدى المؤرخين الذين يرجحون سنة ٤٨١ انهم يهدفون الى الحط من شأن معركة (سالاميس) مدعين بأن انتصار (جيلون) قبل سنة من هذه المعركة قد شجع اليونانيين وصار مثالا لهم يقتدون به كما انه منع القرطاجيين من الانتقال الى شبه جزيرة اليونان والاشتراك مع الفرس في القتال ٠

يتبين لنا من كل ذلك ان المؤرخين القدماء كانوا يعجبون بالمصادفات والاقترانات الزمنية التي يجدون فيها معنى رمزيا فلا يتأخرون لذلك عن اختراعها اذا اقتضى الامر عند فقدان الاخبار الموثوقة ٠ ثم ان الاختلافات حول تاريخ معركة (هيميره) يمكن تعليلها بالرجوع الى العصبيات المحلية والاهداف الحزبية لدى المؤرخين ٠ وهكذا لا سبيل لنا الى تعيين تاريخ المعركة بالضبط فنقتصر على القول بأنها حدثت في زمن متقارب مع معركة (سالاميس) ٠

٠٩ ـ معركة (هيميرة) :

يدعي (هيرودوت) ان الحملة القرطاجية كانت تتألف من(٣٠٠ر٠٠٠)

جندي و (٢٠٠) سفينة حربية و (٣٠٠٠) سفينة نقل.ان المبالغة المتطرفة ظاهرة في هـذه الارقام كما في روايتـه عن ضخامـة الجيش الفارسي . والمؤرخون الحديثون يقدرون عدد المحاربين القرطاجيين بما لا يزيد عـلى الثلاثين الفا من الجنـود المأجورين : الليبيين والاسـبانيين والساردينيين والليكورغيين والغوليين .

كان القائد العام (هاملقار) يعرف صقلية معرفة جيـدة ولـه اقارب واصدقاء فيها اذ ان امه من (سيراكوزة) كما انه كثيرا ما نزل ضيفا عـلى (تيريللوس) في السنين الماضية .

اتجه القرطاجيون الى مستعمرتهم (بانورموس) القريبة من (هيميرة). وقد اصطدموا في الطريق بزوبعة شديدة فقدوا فيها عددا من السفن يقال انها كانت تحمل الخيل والعجلات الحربية . عـلى انه يمكن الشـك في اصطحاب (هاملقار) للخيالة لان الدلائل تشير الى اعتماده عـلى حلفائـه اليونانيين بأن يقدموا له ما يحتاجه من الفرسان .

يروى ان (هاملقار) صرح ، عند وصوله الى (بانورموس) ، بأنه يمكن اعتبار الحرب قد انتهت وهو يقصد بذلك ان جيشه قد تخلص ، ولو ببعض الخسائر ، من الخصم الوحيد الذي كان يخافه أي زوابع البحر . وفي الحقيقة فمن الغريب ان لايقوم (جيلون) الذي يملك اسطولا كبيرا ، بأي محاولة لاعتراض القرطاجيين في البحر أو منع نزولهم الى البر . ولعله احتفظ باسطوله لمراقبـة (آناكسيلاووس) والحيلولـة دون انضمامـه الى القرطاجيين أو بالعكس ربما كان (آناكسيلاووس) هو الذي وقف(لجيلون) بالمرصاد ومنع اسطوله من الحركة . على ان جميع المصادر لا تتعرض بالمرة الى نشاط (آناكسيلاووس) واعماله اثناء الحرب من أولها الى آخرها .

بعد استراحة ثلاثة ايام في (بانورموس) زحف (هاملقار) ومعـه

(تيريللوس) على (هيميرة) وكان الاسطول الحربي يسير بمحاذاة الشاطيء بينما ارسلت سفن النقل الى (ساردينية) لجلب المؤن

تقع (هيميرة) على بعد ميل واحد من البحر فوق مرتفع بسيط على الضفة الغربية من نهر (هيميراس) (الذي يسمى اليوم فيومي غراندي) وهناك الى الغرب والجنوب من المدينة مرتفعات اخرى حشد (هاملقار) جنوده عليها • أما معسكر القيادة فكان في الميناء حيث تجمع الاسطول •

كان (تيرون) قد جمع جيشه في المدينة واستعد للمقاومة وراء حصونها • وقد اقدم (هاملقار) منذ وصوله على مهاجمة المدينة مع قسم مختار من جيشه لاختبار قوة خصمه • فخرج (تيرون) لملاقاته ولكنه هزم بعد ان تكبد خسائر جسيمة واضطر الى الاحتماء وراء الحصون وقد ادرك بأنه لن يستطيع الصمود طويلا بعد ان شاهد تأهبات (هاملقار) لاحكام الحصار وتنظيمه الغارات على ضواحي المدينة للحيلولة دون تسرب المؤن اليها • فأسرع وارسل ساعيا الى (جيلون) يطلب منه النجدة • وكان (جيلون) ، في انتظار هذا الطلب ، قد استعد للامر فسار في الحال من (سيراكوزة) بجيش كبير يبلغ (٥٠٫٠٠٠) من المشاة و (٥٫٠٠٠) من الخيالة ومنذ اول وصوله الى الضواحي الجنوبية من (هيميرة) ساعده الحظ اذ باغت فرقة من القرطاجيين كانت تغزو في تلك الناحية فأسر الكثيرين منها كما انه قبض على ساع يحمل رسالة من (هاملقار) الى حلفائه سكان (سيلينوس) يطلب فيها ارسال الفرسان ويحدد لهم الموعد ومكان الاجتماع • ويروي (ديودوروس) ان (هاملقار) كان يريد تقديم الضحايا لالهة اليونانيين ايضا في سبيل استرضائها واكتساب عواطف اليونانيين من جنوده وحلفائه وزغب في ان يشترك فرسان (سيلينوس) في الاحتفال ويقوموا بالمراسيم والطقوس كما يجب • هنا رأى (جيلون) فرصة نادرة لتدبير خدعة حربية تكفل له النصر • وذلك انه انتقى عددا من الفرسان

الشجعان وارسلهم عوضا عن السيلينونتيين فلما وصلوا الى المعسكر على الشاطيء حيث كان (هاملقار) يقوم بتقديم الضحايا باغتوه واستطاعوا قتله كما اشعلوا النيران في السفن ٠ وعندما شاهد (جيلون) النيران وعرف نجاح الخدعة هاجم الجيش القرطاجي على المرتفعات بينما خرج (تيرون) مع جنوده من المدينة وبدأ ايضا الهجوم من الخلف ٠ وبتشتت الجنود القرطاجيين واستسلام الكثيرين منهم نال (جيلون) انتصارا حاسما ٠

أما رواية (هيرودوت)التي يقول انه سمعها من القرطاجيين فتختلف عن ذلك وهي تتلخص في انه بعد وصول (جيلون) واشتباك الجيش في القتال رأى (هاملقار) الذي كان يقيم الصلوات ويقدم الضحايا ، ان سير المعركة ينذر بانكسار جيشه ، فرمى بنفسه في النار كضحية لارضاء الآلهة ان ما ترمز اليه هذه القصة من روعة التفاني يجعلنا نتمنى بان تكون صحيحة، رغم ان تضحية (هاملقار) بنفسه لم تغير نتيجة القتال بل ربما عجلت في انهزام القرطاجيين بعد فقدان قائدهم ٠

مثلما بالغ (هيرودوت) في وصفه لعظمة معركة (سالاميس) ونتائجها كذلك فعل المؤرخون الصقليون بالنسبة الى (هيميرة) ٠ فهم يذكرون ان عدد الاسرى كان عظيما حتى ان الكثيرين بين سكان (آقراغاس) استطاع كل واحد منهم ان يشتري (٥٠٠) عبدا ٠ ويقولون ان السفن القليلة التي تمكنت من الفرار قد غرقت جميعا عدا واحدة نقلت خبر الهزيمة الى قرطاجة ٠ ثم يدعون ان الذعر قد استولى على سكان قرطاجة الذين اعتقدوا بان (جيلون) سيأتي لغزوهم فوضعوا حرسا على اسوار المدينة يراقب البحر في الليل والنهار ٠

على ان (جيلون) لم يفكر ابدا في غزو قرطاجة ٠ بل انه لم يحاول حتى التعرض الى مستعمراتها في صقلية التي كانت حصينة يصعب الاستيلاء عليها ٠ وفي الواقع فهو لم يتأخر عن عقد الصلح الذي طلبه القرطاجيون

بشروط معتدلة للغاية تقتصر على دفع غرامة حربية تبلغ (٢٫٠٠٠) تالنتا وعلى بناء معبدين ينقش فيهما نص المعاهدة • ثم ان القرطاجيين قدموا من انفسهم تاجا من الذهب هدية الى (ديماريتة) زوجة (جيلون) التي يقال بأنها توسطت في تخفيف شروط الصلح • من هذه الهدية ضربت قطع النقد التذكارية المعروفة باسم (ديماريتيون) وهي بقيمة عشر دراخمات وتعتبر من اجمل النقود اليونانية الاثرية •

لا شك في ان معركة (هيميرة) كانت نصرا عظيما بالنسبة الى(جيلون)• وهذا النصر ساعد كثيرا على توطيد حكمه في (سيراكوزة) وتوسيع نفوذه في صقلية واذاعة صيته في بقية البلاد اليونانية • وقد عرف (جيلون) كيف يستثمر نجاحه فأحسن استقبال الوفود التي جاءت من المدن المعادية له ، بل انه تحالف مع (آناكسيلاووس) نفسه الذي زوج بنته من (هيرون) كما انه قدم الهدايا الثمينة الى الاله (ابو للون) في معبد (دلفي) والى الاله (زفس) في (اوليمبية) واجزل العطاء للشعراء الذين قاموا يمجدونه • وعندما جمع مجلس الشعب في (سيراكوزة) وطلب منه ابداء الرأي في حكمه اخذت الجماهير تهتف باسمه وتطلق عليه القاب المنقذ والمصلح والملك • ونرى (بينداروس) ايضا يردد هذه الالقاب • ولكن ليس في الوثائق الرسمية ، مثل النقود والنقوش على الهدايا في المعابد ، ما يثبت بأنه اتخذ لقب ملك بل ظل يسمى القائد ذا الصلاحية الذاتية • وكذلك اخوه (هيرون) الذي خلفه في الحكم •

١٠ ـ (هـــيرون) :

مات (جيلون) عام ٤٧٨ أي بعد سنتين فقط من انتصاره في (هيميرة) فدفن باحتفال عظيم • وانتقل الحكم ، حسب وصيته ، الى اخيه (هيرون) دون اي صعوبة •

يتصف (هيرون) بالقساوة والطمع ولكنه يمتاز ايضا بالذكاء والحزم

والدهاء السياسي وكان يميل الى الفنون الجميلة ويكرم الشعراء وقد اظهر كثيرا من الحكمة في اتباع السياسة نفسها التي سار عليها (جيلون)واستطاع ان يوسع نفوذه في البلاد المجاورة ويفرض سلطته الشخصية على الشعب •

انه كان ، مثل اخيه ، متمسكا بالتقاليد الدورية ـ الارستوقراطية • يتجلى لنا ذلك في قصره الفخم الذي كان يقصده كبار الشعراء من جميع البلاد اليونانية ، نذكر بينهم الى جانب (بينداروس) ، (باكخيليديس) و (سيمونيديس) و (أسخيلوس) الذين اقامـوا مـدة طويلة ضيوفا في (سيراكوزة) ونظموا القصائد الكثيرة في تمجيد (هيرون) • كما اننا نراه يشجع الشاعر الصقلي (أبيخاروموس) على تأليف رواياته الهزليةوتمثيلها• كذلك نلاحظ الاتجاه الارستوقراطي في عنايته الزائدة بمظاهر الفروسية وبالمباريات الرياضية فكان اكثر الناس حماسة للاشتراك في الالعاب الاوليمبية• واخيرا فاننا لا نجد من يضاهيه في كثرة الهدايا الثمينة التي كان يرسلها الى معبد (دلفي) •

على ان اهم حادث اذاع صيته في بلاد اليونان كافة هو اقدامه على نجدة مدينة (كيمي) فقد اراد الاتروسكيون في سنة ٤٧٤ الاستيلاء على هذا المرفأ المزدهر على شواطىء بلادهم • ولكن (هيرون) انتصر عليهم في المعركة البحرية تجاه المرفأ وقذف كما يقول (بينداروس) في قصيدة ، بشبابهـم الى اعماق البحر وانقذ اليونانيين من خطر العبودية •

ويظهر ان الاتروسكيين قد فقدوا ، بعد هذه الهزيمة ، سيطرتهم في البحر • ورغم انهم استطاعوا في السنوات التالية توسيع ممتلكاتهم في مقاطعة (قامبانيه) فان نفوذهم لدى الشعوب الايطالية اخذ يتقلص • وفي الواقع فقد بدأت هذه الشعوب تتحرك في ذلك العهد وتسعى للتخلص من الاستعمار اليوناني وسيطرة الاتروسكيين • وقد هاجم اليابيغيون في سنة ٤٧٣ مدينة (تارنت) وانتصروا عليها رغم مساعدة (ريجيون) لها • ثم برز اللوكانيون

وصاروا يكثرون من الغارات على المدن اليونانية . واخيرا تقدم السابلليون في سهل (قامبانية) ونجحوا سنة (٤٢١) في الاستيلاء على (كيمي) ..

ان انتصارات (جيلون) و (هيرون) ومظاهر العظمة والمجد في بلاطهما لم تكن لتخفي ضعف الاساس الذي قام عليه الحكم الدكتاتوري . فان استمرار هذا الحكم يتوقف قبل كل شيء على وجود الشخصيةالقوية . وهذه نادرة ، كما هو معروف . واذا كان هذان الطاغيتان قد حاولا الاستناد الى الطبقة الارستوقراطية فان سياستهما العمرانية كانت تعجل في انهيار هذه الطبقة التي ادى عجزها تجاه الحركة الشعبية الى ظهور الدكتاتورية . ورغم احتقار (جيلون) و (هيرون) للعوام فان اقدامهما على توسيع مدينة (سيراكوزة) وزيادة عدد سكانها وانشاء مدن جديدة كبيرة مثل (أتنة Etna) وتأسيس مصانع ضخمة للسفن ومنح حقوق المواطنين لكثيرين من الجنود المأجورين والغرباء ــ كل ذلك ، بالاضافة الى التطور الاقتصادي الطبيعي ، كان من شأنه تقوية جماهير الشعب والقضاء على سيطرة الارستوقراطيين . وهكذا فانه بعد زوال الطغاة البارزين الاقوياء في صقلية مثل (آناكسيلاووس) الذي مات سنة ٤٧٦ و (تيرون) الذي مات سنة ٤٧٢ اخذت تنمو الحركة الديموقراطية في كل المدن . كذلك بعد موت (هيرون) في عام ٤٦٦ لم يستطع خلفه الاخ الرابع والاصغر (ترازيبول) ان يبقى في الحكم اكثر من سنة واحدة اذ اندلعت الثورة في (سيراكوزة) واعلنت الديموقراطية . الا انه ، بالنظر الى أوضاع صقلية الخاصة ، لم يكن من السهل توطيد النظام الديموقراطي .

وقد ظهرت بعض المحاولات بالمدن اليونانية في صقلية لاقامة انظمة جديدة تلائم هذه الاوضاع مثل محاولة الفيلسوف (أمبيدوقلس) في (آقراغاس) . ولكن يبدو ان طبيعة الدوريين كانت تناقض الروح الديموقراطية ، فنرى (امبيدوقلس) ، الذي عرض عليه سكان (آقراغاس)

الملك يفقد الامل في الاصلاح ويهاجر من بلده التي تسمى اليوم باسمه •
وهو قد وصف مواطنيه احسن الوصف بكلمته المشهورة التي يقول فيها :
ان الاقراغانتيين يتهافتون على النعيم كأنهم سيموتون غـدا ويعتنون بتشييد
الأبنية كأنهم سيعيشون أبدا •

والاثار الباقية تؤيد هذه الكلمة • فقد كشفت الحفريات الحديثـة
في (آقراغاس) ، كما في (سيراكوزة) و (سيلينوس) و (هيميرة) على
كثير من الابنية التي تمتاز بالضخامة والفخفخة نذكر بينها على الاخص معبد
(أوليمبيون) في (آقراغاس) •

في صقلية ايضا قام السكان الاصليون يسعون الى التحرر وطرد اليونانيين
من بلادهم وقد ظهر بين الصقل حوالي سنة (٤٥٠) زعيم اسمه (دوكيتيوس)
تولى قيادة الحركة الوطنية واتخذ مدينـة (باليكي) في داخـل الجزيـرة
عاصمة لدولة اتحادية ولكن السيراكوزيين والاقراغانتيين استطاعوا التغلب
عليه بعد حروب طويلة •••

الفصل الثالث عشر

سيطرة آثينة وتشكيل الحلف الديلوسي

١ ـ سيطرة آثينة :

خلافا لما ذهب اليه بعض المؤرخين ، لم تكن نتيجة الحروب الفارسية تأسيس جامعة هيللينية شاملة أو جزئية ، لمدة طويلة أو قصيرة ، بل احتدام التنافس واتساع الاختلاف بين (اسبارطة) و (آثينة) .

وسيدور بحثنا في هذا الفصل حول الاسباب التي أدت باسبارطة الى أن تفقد ما كان لها من السيطرة بينما استطاعت آثينة ، رغم ما أصابها أثناء الغارة الفارسية من جروح مؤلمة وخسائر فادحة ، أن تنهض بسرعة وتزداد قوة ونشاطا وتصبح أكثر الدول اليونانية نفوذا وسطوة .

تتجلى نهضة (آثينة) قبل كل شيء في اقدامها على حماية اليونانيين في آسية الصغرى وجزر بحر ايجةوقيامها بتأليفاتحاد جديد منهم هو (الاتحاد الديلوسي) الذي تولت زعامته في سبيل محاربة الفرس ولكنها استخدمته في الوقت نفسه لتوسيع ممتلكاتها . ومن المهم ان ندرس نشأة هذا الاتحاد وتطوره ونتبين كيف انقلب الى (امبراطورية) تابعة لآثينة . فانه بفضل هذا الاتحاد تمكنت آثينة من أن تحتل المكانة الاولى في بلاد اليونان عوضا عن اسبارطة التي تقاعست عن متابعة الحرب ضد الفرس والتي تعاقبت عليها الازمات والنكبات وتضعضع نفوذها مدة من الزمن .

ان تبدلات هامة قد حدثت في سياسة آثينة الداخلية بعد الحروب الفارسية ، فأقصي (تميستوقليس) عن القيادة وانتقلت ادارة الحكومة الى

الحزب الآرستوقراطي تحت رئاسة (كيمون) الذي اشتهر بانتصاراته الحربية ولكنه فشل في سياسته القائمة على التقرب من اسبارطة فاضطر الى التخلي عن الحكم للحزب الديموقراطي • من صفوف هذا الحزب برز (بريكلس) الذي انفرد بالزعامة خلال ثلاثين عاما بلغت فيها آثينة أوج التقدم والازدهار • وسنفرد فصلا خاصا لوصف ذلك العهد الذي اشتهر في التاريخ باسم (عصر بريكلس)•

٠٢ ـ (بنتيقونتائتيا) :

تعتبر الفترة بين نهاية الحروب الفارسية وبداية الحروب البيلوبونيزية من العهود التي تمثل لنا مجرى التاريخ اليوناني أحسن تمثيل• فهي تتصف بنشاط الحياة الاقتصادية وازدهار الحضارة كما انها حافلة بالمنازعات الحربية والتقلبات السياسية • ونرى طلاب الجامعات في المعتاد يخافون من أن يطلب اليهم اثناء الفحوص البحث أو الكتابة عنها وذلك أولا لمجرد صعوبة العنوان الذي أطلق عليها وهو (بنتيقونتائتيا) على أن هذه الكلمة لاتفيد سوى (الخمسينية) • وقد نحتها المؤرخ المشهور (توكيديديس) الذي لاحظ عند المباشرة في تأليف كتابه عن (الحروب البيلوبونيزية) ، بأن المؤرخين قبله قد اقتصروا على وصف الحروب الفارسية والعهود السابقة لها ولم يتعرضوا الى الحوادث التي جرت خلال الخمسين سنة التالية أي من عام ٤٧٩ حتى عام ٤٣١ فاضطر الى تلخيصها تحت هذا العنوان •

لم يكن المؤرخون القدماء يهتمون الا بالحروب العظيمة التي يعتبرونها وحدها جديرة بأن تتخذ موضوعا للتأليف • هكذا انتقى (هيرودت) الحروب الفارسية وبعده (توكيديديس) الحروب البيلوبونيزية • أما فترة نصف القرن بين هاتين الحربين التي لا يشك المؤرخون الحديثون في انها لا تقل عنهما خطورة ، ان لم تزد ، فقد ظلت مهملة • واذا كان (توكيديديس) قد أدرك أهمية الحوادث التي جرت في هذه الفترة وانتقد المؤرخ المعاصر

له (هيللانيقوس) ، لان بحثه في كتابه « تاريخ آثينة » كان مختصرا وبعيدا عن الدقة ، فهو نفسه أيضا لم يستطع أن يحدد بالضبط اوقات الكثير من تلك الحوادث ٠ لذلك يصطدم الباحثون اليوم بمصاعب كبيرة عند دراسة هذه الفترة وعلى الاخص المرحلة الاولى منها بين سنة ٤٧٩ وسنة ٤٦٥ فيقتصرون في الغالب على ترتيب الحوادث خلالها حسبما تعاقب بعضها بالنسبة الى الآخر دون تعيين الايام والسنين ٠ مثلا : عندما نرجع الى (توكيديديس) نجده يروي مغامرات (بوزانياس) و (تميستوقليس) دون أن يبين متى أخرج الاول من (بيزانس) ومتى مات ثم في أي سنة حكم بالنفي على الثاني وفي أي سنة التجأ الى الفرس ٠ وهو لا يحدد تاريخ الاستيلاء على جزيرة (سكيروس) أو ثورة (ناكسوس) أو معركة (اوريميدون) أو الحملة على مصر أو عودة (كيمون) من المنفى أو هدنة الخمس سنوات ٠ كذلك نراه عند استعراض التعديلات التي طرأت على دستور (آثينة) في هذا العهد لا يعين لنا أوقاتها ٠ ولولا أن (آرسطو) قد ذكر هذه التعديلات مع أسماء الحكام (آرخون) الذين تمت في عهودهم لما استطعنا ان نعرف شيئا عن ذلك ٠

ان تحديد الوقت بالنسبة الى حوادث خطيرة مثل نفي (تميستوقليس) أو ثورة (ناكسوس) أو معركة (اوريميدون) ليس من الامور الثانوية بل عليه بالدرجة الاولى يتوقف تعليل هذه الحوادث وتقدير قيمتها وتأثيرها ٠

ازاء فقدان الوثائق التاريخية المضبوطة لا مفر لنا من الرجوع الى مختلف المصادر الاخرى وفي جملتها أخبار الرواة المتأخرين ومقارنتها ثم المحاولة عن طريق الاستدلال ، لمعرفة المراحل الإساسية التي أدت الى سيطرة آثينة ٠

٩٣ ــ تحصين (آثينة) :

لم تكن مدينة (آثينة) في خريف سنة ٤٧٩ ، بعد تهديمها مرتين من

قبل الفرس ، سوى كتلة من الانقاض ، بينما انقلبت أريافهـا الى صحراء لا يرى فيها سوى بعض جذوع الاشجار المقطوعة • على انه لم يسلم من الدمار في كل بلاد (آتيكة) سوى عدد قليل من البيوت التي كان قد حجزها عظماء الفرس لسكناهم •

لذلك كانت المهمة الاولى التي تنتظر الآثينيين بعد عودتهم الى الوطن اثر معركة (بلاتيئـة) ، هي المبـاشرة في التعمـير • ونرى الزعيمـين (تميستوقليس) و (آريستيديس) ، رغم ما بينهما من اختلافات ، يتعاونان في سبيل تنظيم العمل وانجازه •

ليس مستبعدا أن يكون بعض الآثينيين قد خطرت لهم فكرة التخلي عن (الآقروبوليس) والانتقال الى (بيريئوس) • مثل هذه الفكرة تتفق كل الاتفاق مع السياسة التي رسمها (تميستوقليس) والتـي ترمي الى جعـل (آثينة) دولة بحرية • ألم تبرهن معركة (سالاميس) على أن الفضل الاول في صد الغارة الفارسية يرجع الى الاسطول ؟ وهل من شك في أن سكان (آتيكة) لا يستطيعون تأمين معيشتهم الا عن طريق الملاحة والسيطرة على البحار ؟

ان الآراء كانت متفقة على ضرورة العناية بالاسطول • وواضح أن نقل العاصمة الى (بيريئوس) مما يساعد كثيرا على ذلك • كم من مرة تمنى الآثينيون لو أن بلادهم كانت جزيرة ! لقد كانوا يعتقدون بأنهم في هـذه الحالة يمكنهم تحدي العالم أجمع دون أي خوف • ولكن ما دامت (آثينة) قائمة في مكانها فهي معرضة للخطر من البر ولا مناص من تحمل النفقات الكبيرة في سبيل تحصينها وحراسة الحدود بينها وبين (ميغارة) و (بئوتية)•

ترجع مشكلة (آثينـة) الى موقعهـا عنـد (الآقروبوليس) : فهي بعيدة عن البحر وفي الوقت نفسه قريبة منه • لو كانت المسافة بينها وبـين الشاطىء أعظم مما في الواقع لما صعب على السكان التخلي عنها بعد أن خربت

أثناء الحروب الفارسية • على أن قربها من البحر وسهولة الاتصال بينها وبين المرفأ الجديد كان من شأنهما تشجيع السكان على التمسك بالمدينة القديمة • ولا يجوز أن ننسى هنا تأثير العوامل العاطفية بين جمهور الشعب• فان التقاليد المتوارثة وذكرى الاجيال الماضية والعقائد الدينية كلها كانت تدفع الآثينيين الى البقاء حيث تقيم آلهتهم وحيث دفن أجدادهم وعاش أباؤهم وحيث قضوا أيام طفولتهم وشبابهم •

هكذا تقرر اعادة بناء (آثينة) وفي الوقت نفسه انشاء مدينة جديدة عند ميناء (بيريئوس) تكون مرتبطة بالعاصمة • وسنرى كيف تم هذا الارتباط باقامة « الاسوار الطويلة » في عهد (بريكلس) •

ليس أدل على الروح الوطنية السائدة بين الآثينيين من اتفاقهم على المباشرة باقامة سور حصين حول المدينة قبل بناء البيوت الخاصة• وقد تطوع جميع الافراد من رجال ونساء ، وشيوخ وأطفال لانجاز هذا العمل بأسرع ما يمكن • ويبلغ طول السور الجديد (٩) كيلومترات أي انه يحيط ببقعة أوسع بكثير من المدينة القديمة التي كانت قد بدأت تضيق بسكانها •

يبدو مستغربا لاول وهلة هذا الاستعجال في تحصين (آثينة) • فمن جهة كان الخطر الفارسي قد زال لمدة طويلة عن اليونان بعد انتصارهم الحاسم في معركة (بلاتيئة) • ومن جهة ثانية برهنت التجارب على أن السور القديم لم تكن له أي فائدة تجاه الجيوش الفارسية الكبيرة•• فما هو اذن ، القصد من بناء السور الجديد ؟ تدل الظواهر على ان (تميستوقليس) هو الذي اقترح ذلك وأنه كان يريد به تأكيد حق (آثينة) في ادارة شؤونها بنفسها وتأمين استقلالها عن حلفائها حتى تستطيع أن تتبوأ المكانة اللائقة بها وتنفرد بالسيطرة في بلاد اليونان • وعلى كل حال فان المدن المجاورة وبالدرجة الاولى (قورنت) و (ميغارة) و (أجينة) التي كانت تعرف قوة أسطول (آثينة) وتخشى مزاحمتها التجارية قد نظرت الى الحادث من هذه الوجهة

فاضطربت له أشد الاضطراب وأسرعت تطالب اسبارطة ، زعيمة الحلفين البيلوبونيزي والهيلليني ، بالتدخل في الامر والحيلولة دون اقامة السور .

كان الاسبارطيون قد شعروا في بادىء الامر بشيء من الاطمئنان لاعتقادهم بأن (آثينة) لن تستطيع النهوض بسرعة بعد كل ما أصابها من التخريب والخسائر وأنها ستظل مدة طويلة عاجزة عن منافستهم في السيطرة. ولكن اقدام الآثينيين على بناء السور وما أبداه جيرانهم من مخاوف ثم حرص اسبارطة على الاحتفاظ بالزعامة ، كل ذلك جعل حكومة (لاقيديمونية) ترسل وفدا الى (آثينة) للمطالبة بعدم تحصين المدينة . لم يكن في استطاعة أعضاء الوفد بطبيعة الحال أن يجاهروا بالدوافع الحقيقية لطلبهم ولذلك اضطروا الى تبريره بحجة سخيفة ، مفضوحة فادعوا بأن بناء السور يهيىء مركزا حصينا يمكن للفرس الاستفادة منه اذا هم أغاروا مرة أخرى على بلاد اليونان وأنه من واجب الآثينيين ليس أن يكفوا عن تحصين مدينتهم فحسب بل أن يشتركوا أيضا في تهديم جميع الحصون الواقعة خارج شبه جزيرة (البيلوبونيز) .

عندما اجتمع مجلس الخمسمائة في (آثينة) للبحث في هذا الطلب شرح (تميستوقليس) للاعضاء ، بصورة سرية ، الخطة التي يرى اتباعها . فتقرر اخبار الاسبارطيين بأن وفدا من (تميستوقليس) نفسه ومن (آريستيديس) و (هابرونيخوس) سيذهب لمفاوضة الحكومة الاسبارطية. وبالفعل سافر (تميستوقليس) في الحال الى اسبارطة . لكنه أخذ هناك يتهرب من مباشرة المفاوضات بحجة أنه لا بد له قبل ذلك من انتظار وصول المندوبين الآخرين . وكان قد اتفق مع حكومة (آثينة) على أن لا يلحق به زميلاه الا بعد أن يبلغ السور ارتفاعا معينا يكفي للدفاع . هكذا كانت الايام تنقضي دون أن تبدأ المفاوضات . وفي اثناء ذلك كان سكان (آثينة) جميعا يواصلون العمل ليل نهار لاتمام بناء السور .

لقد كان طبيعيا أن يتذمر رجال الحكم في اسبارطة من تأخر المفاوضين الآثينيين وأن يحتجوا على استمرار التحصن • الا أن (تميستوقليس) لم ينفك عن المماطلة ، فكان يتظاهر أكثر من الاسبارطيين بالقلق لتأخر رفيقيه كما أنه أنكر بشدة صحة الاخبار عن أعمال البناء وطلب من حكومة اسبارطة ارسال بعض الاشخاص الموثوقين الى (آثينة) ليتأكدوا بأنفسهم من مخالفة هذه الشائعات للواقع • فلما قبل هذا الاقتراح أوعز (تميستوقليس) الى الآثينيين سرا بأن يحتفظوا بهؤلاء الاشخاص كرهائن لديهم حتى يعود مع رفيقيه الى (آثينة) • وكان (آريستديس) و (هابرونيخوس) قد وصلا اذ ذاك الى اسبارطة وأخبرا (تميستوقليس) عن انتهاء بناء السور • حينئذ برز (تميستوقليس) أمام مجلس الشعب الاسبارطي فكشف القناع عن وجهه وصرح بما يلي : « لقد برهن الآثينيون بمواقفهم في الحروب الفارسية على أنهم ليسوا أقل من سائر الدول اليونانية اقداما وشعورا بالمسؤولية وأنهم قاموا بواجباتهم مختارين دون أن يحتاجوا الى وصاية أحد • وهم قد قرروا الآن باختيارهم أيضا ، اعادة بناء السور وانتهوا من هذا العمل اعتقادا منهم بأن في ذلك أكبر خدمة لانفسهم ولحلفائهم الهيللينيين ولا شك في أنه لا يمكن لاي دولة أن تساهم بنصيب كامل لصالح المجموع الا اذا اعترف لها بالمساواة في التسلح •••• » ثم استخلص من ذلك بأنه يجب اما تهديم جميع الحصون في بلاد اليونان دون استثناء شبه جزيرة (البيلوبونيز) واما الاعتراف بحق (آثينة) في بناء السور •

ازاء هذه المفاجأة لم يجد الاسبارطيون مفرا من الرضى بالامر الواقع• ورغم أنهم لم يظهروا شيئا من استيائهم بهذه المناسبة فقد أخذوا منذ ذلك الوقت يراقبون تطور الحالة في (آثينة) بكثير من الارتياب والحسد •

تلك هي قصة سور (آثينة) كما رواها (توكيديديس) • ويبدو أن القصد منها الكشف عن الاختلاف بين الآثينيين والبيلوبونيزيين ، ثم الاشارة

الى دهاء (تميستوقليس) ومهارته السياسية • على أن في هذه القصة الكثير من نقاط الضعف • فليس من المعقول مثلا أن يكون حكام اسبارطة ، رغم اشتهارهم بضعف السياسة ، على درجة من السذاجة تجعلهم ينخدعون بأقوال (تميستوقليس) ويصبرون على تسويفه ويقنعون بحججه • وقد انتبه الى ذلك احد المؤرخين القدماء أنفسهم وهو (تيوبومبوس) الذي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد فذهب الى أن (تميستوقليس) استمال المراقبين الاسبارطيين بالرشوة حتى تظاهروا بتصديقه • ونرى بعض المؤرخين الحديثين مثل (بيلوخ) قد أنكروا القصة من أساسها بدعوى أن بناء سور يبلغ طوله (٩) كيلو مترات لايمكن أن يتم في بضعة أسابيع •

على أن هذه الانتقادات لا تكفي لاتهام (توكيديديس) باختراع القصة كلها • فقد أثبتت الحفريات بأن سور (آثينة) قد أقيم بعد الحروب الفارسية مباشرة بأعظم ما يمكن من السرعة اذ استخدمت في بنائه حجارة المقابر وأعمدة المعابد المهدمة التي تظهر عليها آثار الحرق • أما نجاح (تميستوقليس) في مفاوضاته مع الاسبارطيين فلا شك في أنه من جهة يرجع الى ما اتصف به هذا الرجل من الدهاء والمهارة ولكن من جهة ثانية يجب كذلك ملاحظة الحالة الداخلية في اسبارطة والوضع السياسي في بلاد اليونان • فالعلاقات بين (آثينة) و (اسبارطة) كانت لاتزال حسنة اذ لم تمض بعد مدة طويلة على اشتراكهما في مقاتلة الفرس • ولذلك يشير (توكيديديس) الى أن الاسبارطيين لم يعارضوا في بناء السور الا بعد اصرار حلفائهم القورنثيين والميغاريين والاجينيين • ثم ان (تميستوقليس) كان لايزال يتمتع بمكانة سامية في اسبارطة لما قام به من خدمات كبيرة أثناء الحرب كما دلت على ذلك الحفاوة البالغة التي استقبل بها عند زيارته الاولى لاسبارطة • واخيرا فقد كان في اسبارطة حزبان تتعارض سياستهما يميل أحدهما الى مسالمة (آثينة) ولا يعارض في ازدياد سطوتها البحرية

لاعتقاده بأن مصلحة اسبارطة تقضي عليها بالتزام العزلة والمحافظة على نظامها المتوارث الذي لابد أن يتعرض الى الانهيار اذا هي حاولت التوسع واضطرت الى الاحتكاك مع غيرها وتشتيت قواها • ويبدو أن المراقبين كانوا من هذا الحزب ولذلك لم يحاولوا معاكسة (تميستوقليس) •

٤ • ـ انشاء (بيريئوس) :

ما كاد (تميستوقليس) يعود من (اسبارطة) حتى دعا مواطنيه الى انجاز الاعمال الاساسية في مرفأ (بيريثوس) التي كانت ، في نظره ، أهم بكثير من اعادة بناء (آثينة) وتحصينها • فان الاسطول الآثيني كان يحتاج قبل كل شيء الى مركز حصين يلجأ اليه عند الضرورة كما كان ينبغي تأسيس المصانع الكبيرة للسفن • وكانت الطبيعة نفسها قد هيأت ثلاث موانىء ممتازة عند رأس (بيريثوس) لا ينقصها سوى بناء الارصفة والمخازن وتشييد مدينة جديدة الى جانبها لسكنى البحارة والعمال والتجار والموظفين •

عهد بتنظيم أعمال البناء الى المهندس الملطي (هيبوداموس) الذي اشتهر بآرائه التجددية في العمران والاجتماع • فوضع مخططا لساحة السوق الكبيرة وللشوارع الرئيسية الثلاثة التي تخترق المدينة بصورة متوازية وتمتاز باتساعها وامتدادها مسافة طويلة على خط مستقيم بينما تقاطعها الشوارع الفرعية بصورة عمودية • وقد اتبعت هذه الخطة فيما بعد عند تأسيس كثير من المدن الجديدة التي أطلق عليها اسم « المدن الهيبوداموسية » •

ان أول عمل في (بيريثوس) أيضا كان تحصين المدينة بسور حولها يبلغ طوله (١٠) كيلومترات • وكانت العناية بهذا السور أعظم مما في (آثينة) فجلبت له قطع الحجارة الضخمة ، المنحوتة واستخدمت قضبان الحديد لربطها بعضها ببعض بصورة متينة • وكان سمك السور يتراوح بين (٣ ـ ٨) أمتار ولكن ارتفاعه ظل دون المقدار الذي أراده (تميستوقليس) • يظهر من أخبار المؤرخين القدماء أن (تميستوقليس) قد بذل جهودا

عظيمة في سبيل تنظيم (بيريثوس) وتقدمها فاستصدر قانونا باعفاء أصحاب المهن من الضرائب تشجيعا لهم على الاقامة في هذا المرفأ وزيادة عدد سكانه. ثم فرض على كل واحد من كبار الاغنياء بأن يصنع سفينة ويتولى تجهيزها والانفاق على بحارتها . وقد سميت هذه الفريضة (تريارخيا) أي « ضريبة السفن » . كذلك استصدر قانونا خاصا يحتم على الحكومة صنع عشرين سفينة في كل عام . وأخيرا فهو الذي قام بتأسيس « شرطة المرافىء » وتنظيمها .

مثل هذه الاعمال تكفي لتخليد اسم (تميستوقليس) في تاريخ اليونان واعتباره المؤسس الحقيقي لسيطرة (آثينة) وازدهارها .

٥ ـ ترميم المعابد :

يتبين مما سبق أن الآثينيين قد وجهوا اهتمامهم في بادىء الامر الى الضرورات العملية كما يقتضي التفكير الواقعي . وهذا يناقض ، حسبما يبدو ، ما اشتهر عنهم من التمسك بالتقاليد الدينية . فما هو السبب في اهمالهم معابد الآلهة التي تهدمت والتي كان ينبغي اعادة بنائها قبل أي شيء آخر ؟ ذلك اولا : لان اليونانيين كانوا قد أقسموا قبل معركة (بلاتيئة) بأنهم لن يزيلوا أطلال المعابد بل سيتركونها كشواهد تذكر الاجيال التالية بفظائع « البرابرة » . ثم ان هذه المعابد كان يجب تشييدها من أحسن أنواع الحجارة والمرمر وتزيينها بالتماثيل والنقوش .

وكل ذلك يتطلب نفقات كبيرة ويحتاج الى زمن طويل .

وفي الواقع فقد انقضت مدة (٣٠) عاما قبل أن يباشر ببناء المعابد الجديدة في عهد (بريكلس) . أثناء ذلك كان لابد من الاقتصار على بعض الترميمات الموقتة في الاماكن المخصصة للطقوس الدينية .

٦٠ ـ حملة (تسالية) :

بينما قامت (آثينة) تضمد جروحها فترمم الخرائب وتبني الحصون كانت الحالة العامة في بحر ايجة تتطوربسرعةوتمهد السبيللانتقال السيطرة في بلاد اليونان من الاسبارطيين الى الآثينيين ٠

كانت الامبراطورية الفارسية ، رغم الهزائم والخسائر التي أصيبت بها في (سالاميس) و (بلاتيئة) و (ميقالي) لا تزال شديدة البأس قادرة على القتال ٠ واذا كان الملك (سرخس) قد اضطر الى الاسراع في العودة لاخماد الثورة في بلاد الكلدان فهو قد احتفظ بمراكز حربية هامة في آسية الصغرى و (بيزانس) و (تراكية) ، حيث ترك حاميات قوية يستطيع الاستناد اليها لمحاولة الغارة من جديد على بلاد اليونان ٠

لذلك كان يجب على اليونانيين ، اذا أرادوا اتقاء هـذا الخطر أن يستثمروا انتصاراتهم الاخيرة وينتهزوا الفرصة الثمينة التـي سنحت لهـم للاستيلاء على هذه الحصون ٠ ان مصلحة اليونانيين كانت تحتم عليهم متابعة الحرب والانتقال من موقف الدفاع الى الهجوم ٠ والحملة على (سيستوس) تثبت ادراك (آثينة) لهذه الضرورة ٠

كان الآثينيون في السنوات التالية كثيرا ما يذكرون اثناء الجدال تعرضهم لاهوال الشتاء بالدردنيل في سبيل الاستيلاء على حصن (سيستوس) بينما كشف الاسبارطيون وأصدقاؤهم البيلوبونيزيون عن أنانيتهم بالانسحاب من القتال ٠ وعندما أسرع الاسبارطيون في ذلك الوقت الى ارسال حملة بقيادة الملك (لئوتيخيداس) الى (تسالية) بحجة وجود بعض الفرس فيها ومعاقبة حكامها لتعاونهم مع الجيش الفارسي لم يعتبر الآثينيون ذلك مسـاهمة في الحرب بل اتهموا اسبارطة بأنها كانت تسعى وراء مصالحها الخاصة اذا أرادت طرد أسرة (آلووادي) من البلاد ومساعدة الحزب الموالي لها على تولي مقاليد الحكم ٠

على أن حملة (تسالية) قد انتهت بالفشل • ويرجع (هيرودوت) السبب في ذلك الى أن الملك (لئوتيخيداس) قبل الرشوة من أسرة (آلووادى) • مثل هذا التعليل مألوف لدى المؤرخين اليونانيين يكررونه دوما كلما اضطر أحد القواد الى التراجع •ويبدو أن التجارب قد جعلت هؤلاء المؤرخين يعتادون على اساءة الظن ويعتقدون بأن فساد الاخلاق هو الاصل• لا شك في أن ملوك (اسبارطة) لم يكونوا في الغالب يترفعون عن أخذ الرشوة ولكن ليس هناك من دليل على أن (لئوتيخيداس) قد فعل ذلك أثناء حملة (تسالية) • فهو قد نال بعض الانتصارات في بادىء الامر • الا أنه لم يكن لديه شيء من الخيالة ليستطيع ملاحقة الفرسان (التساليين) الذين كانت السهول الواسعة تساعدهم على الانسحاب أمام الجيش الاسبارطي عندما يتقدم ثم مهاجمته بغتة من حين الى آخر اذا توقف أو تراجع • كذلك يجب أن لا ننسى موقف الفلاحين (التساليين) الذين كانوا يفضلون حكم الامراء (الآلووادبين) على سيادة الارستوقراطيين الاقطاعيين أنصار (اسبارطة) •

هكذا فقد فشلت الحملة واستدعي (لئوتيخيداس) الى اسبارطة وحكم عليه بالنفي •

٠٧ ـ الاستيلاء على (بيزانس) :

ان التهمة التي وجهت الى الاسبارطيين بأن حملتهم على (تسالية) لم تكن تستهدف سوى تأمين مصالحهم الخاصة يمكن توجيهها الى (الآثينيين) أيضا بمناسبة اصرارهم على حصار (سيستوس) حيث كانوا قد أسسوا مستعمرة لهم منذ عهد (ملتياديس) الاكبر وهو عم القائد المشهور (ملتياديس)• فالسيطرة على المضائق تعتبر من أهم الامور بالنسبة الى (آثينة) التي تتوقف معيشة سكانها على استيراد الحبوب من (تراكية) والبحر الاسود • ولكن المؤرخين اليونانيين الذين هم في الغالب من أصل آثيني أو نشأووا في (آثينة)

لم يكونوا بطبيعة الحال يشيرون الى هذه الناحية بل يصفون سياسة الآثينيين بأنها انما ترمي الى محاربة الفرس وتحرير سائر اليونانيين من الحكم الاجنبي • ولا شك في أن الظواهر كانت تؤيد دعوى الآثينيين • أضف الى ذلك انحياز اليونانيين في آسية الصغرى الى جانب (آثينة) ومطالبتهم ببذل جميع الجهود للحيلولة دون وقوعهم مرة ثانية تحت النير الفارسي •

حقا ان الرأي العام ببلاد اليونان كلها كان يدعو في ذلك الوقت الى متابعة الحرب ضد الفرس • ولم تكن اسبارطة لتستطيع مخالفة هذا التيار دون ان تسيء الى سمعتها وتفقد سيطرتها • ومن ناحية أخرى فقد كان في (اسبارطة) نفسها حزب على رأسه الوصي (بوزانياس) يعارض الحزب الذي تكلمنا عنه قبلا ويميل الى المغامرات الحربية • ويبدو أن (بوزانياس) الذي ذاع صيته كبطل معركة (بلاتيئة) كان يسعى الى نيل انتصارات جديدة تساعده على توطيد مركزه واعلاء سمعة الملكية في (اسبارطة) التي طغت عليها سلطة المراقبين •

تضافرت هذه العوامل فدفعت الاسبارطيين الى الاشتراك في تجهيز حملة جديدة لمهاجمة الفرس في صيف عام (٤٧٨) • كانت الحملة مؤلفة من (٢٠) سفينة (بيلوبونيزية) و (٣٠) سفينة (آثينية) ثم بعض السفن التي قدمها (الايونيون) في آسية الصغرى وجزر بحر ايجة • وقد عهد بالقيادة الى (بوزانياس) •

سارت الحملة أولا الى (قبرص) واستطاعت بسهولة أن تطرد الحاميات الفارسية من المدن اليونانية في الجزيرة • على أن العدد القليل من المقاتلين تحت امرة (بوزانياس) لم يكن كافيا لمهاجمة المستعمرات الفينيقية واخضاعها• وعلى كل حال فان مثل هذه المحاولة لا فائدة منها حتى لو قدر لها النجاح في بادىء الامر لان الاسطول الفينيقي كان على مسافة قريبة من الجزيرة

يمكنه نجدة هذه المستعمرات كلما ساعدته الظروف بينما يتعذر على اليونانيين الاحتفاظ بقوة كبيرة هناك •

اتجهت الحملة بعد ذلك الى البوسفور واستولت على مدينة (بيزانس) قبل انتهاء فصل الصيف • تلك كانت ضربة مؤلمة للفرس • فقد جاء الهجوم اليوناني بغتة ولم يترك للفرس مجالا لتنظيم الدفاع بل ان الكثيرين من عظمائهم ، وبينهم بعض أفراد الاسرة المالكة ، لم يجدوا الوقت للانسحاب من المدينة فوقعوا أسرى بأيدي اليونانيين • ولكن أهم من ذلك كانت النتائج (الستراتيجية) • فانه بسقوط هذا الموقع الممتاز انقطعت من جهة المواصلات بين فارس وحامياتها في (تراكية) ومن جهة ثانية أصبح اليونانيون يسيطرون سيطرة تامة على الطريق الى البحر الاسود ويستطيعون استيراد ما يحتاجونه من المواد الغذائية •

٠٨ ــ عاقبة (بوزانياس) :

ان النجاح الباهر الذي أحرزه (بوزانياس) باستيلائه على (بيزانس) كان له تأثير كبير في اظهار حقيقته والكشف عن مطامعه وبذلك أصبح عاملا في انهياره السريع •

تولى (بوزانياس) ابن (قلئومبروتوس) الوصاية على ابن عمه (بليستارخوس) الذي كان لا يزال طفلا عندما قتل والده (لئونيداس) في معركة (ترموبيلي) سنة (٤٨٠) • فلما عهد اليه بقيادة الجيوش اليونانية في معركة (بلاتيئة) ارتكب كثيرا من الاخطاء في ادارة الحركات العسكرية • ولكن الانتصار الحاسم الذي ناله اليونانيون في النتيجة جعل الناس ينسون هذه الاخطاء ويمجدون بطولة القائد الاسبارطي وشجاعته • وتدل الحوادث على أن (بوزانياس) أراد استثمار الشهرة التي نالها في سبيل الحد من سلطة المراقبين وتقوية نفوذ الملكية مقتديا بعمه الملك

(فلثومينيس) • على أن تحقيق هذا الهدف يتطلب مهارة سياسية لا نجد لها أثرا لدى (بوزانياس) • فهو كثير الغرور ، شديد الاعجاب بنفسه ،يتصف بالقساوة ولا يعرف كيف يستميل اليه القلوب • وقد أثار استياء اليونانيين جميعا عندما أهدى الى معبد (دلفي) ، بعد معركة (بلاتيئة) ، آنية ذات ثلاث قوائم نقشت عليها الكتابة التالية : « قدم (بوزانياس) ، قائد الهيللينين، الذي حطم العدو الفارسي ، هذه الهدية الى الاله (آبولون) للذكرى ! »• كذالك قدم بعد الاستيلاء على (بيزانس) الى الاله (بوزايدون) كأسا من البرونز كتب عليها : « بوزانياس ، رئيس بلاد اليونان الشاسعة » فاعتبر الحلفاء ذلك اهانة لهم جميعا • وبينما قامت حكومةاسبارطة تحاول التخفيف من النقمة العامة فأسرعت الى ازالة الآنية من معبد (دلفي) والاستعاضة عنها بلوحة تقتصر على تعداد أسماء الدول التي اشتركت في الحرب ، أخذ (بوزانياس) يزداد شططا في سلوكه • فقد ارتدى في (بيزانس) الثياب الفارسية وأحاط نفسه بحرس خاص من الاسرى الفرس والمصريين • وشاعت الاخبار عن تبادله الرسائل مع (سرخس) وعرف بأنه ، في رسالة جملها الضابط المكلف بمراقبة الامراء الفرس الذين فك أسرهم ، قد طلب الزواج من بنت الملك الفارسي وعرض عليه مقابل ذلك أن يعمل جهده في سبيل اخضاع اليونانيين لحكم الفرس•وفي الواقع تدل أعمال (بوزانياس) على أنه كان يطمع في فرض سيطرته الفردية على بلاد اليونان كافة وأنه لم يتأخر لذلك عن الاتصال بالفرس وطلب مساعدتهم • ولكنه قبل أن يتم له الامر بدأ يحكم كأنه أمير فارسي فيهين الضباط في معيته ويضطهد الناس ويستبد في ادارة شؤونهم •

لقد كان طبيعيا أن تصل الاخبار عن هذه الامور الى المراقبين في اسبارطة وأن تثير القلق والخوف لديهم • فاضطروا الى استدعاء (بوزانياس) في الحال للتحقيق معه • ولما تبين لهم أن قسما من الانتقادات الموجهة اليه

صحيح قرروا عزله من منصب القيادة • على أن تهمة الخيانة والتآمر مع الفرس لم تتوفر الادلة الكافية لاثباتها ، فأطلق سراحه ولم يمنع من الرجوع الى (بيزانس) بصفته الشخصية •

ارتكب المراقبون خطيئة كبيرة بغفلتهم عن تعيين قائد جديد أو وكيل على الاسطول اليوناني أثناء غياب (بوزانياس) • ثم فطنوا الى ذلك في ربيع سنة ٤٧٧ فأرسلوا قائدا اسبارطيا اسمه (دوركيس) لكن الحالة كانت في هذه الفترة قد تبدلت • فان الاستياء الذي أثاره (بوزانياس) بين الحلفاء كان قد دفع هؤلاء الى تكليف (الآثينيين) بتولي القيادة • هكذا اضطر (دوركيس) الى أن يعود من حيث أتى • ولم يسع (اسبارطة) الا أن تقبل بالامر الواقع رغم ما في ذلك من اهانة لها ، لان أعمال (بوزانياس) قد أضر بسمعتها وجعلها لا تستطيع الدفاع عن حقها في الزعامة • ومن جهة ثانية فان الحزب المحافظ المعارض لجميع المغامرات الخارجية انتهز هذه الفرصة للانسحاب نهائيا من الحرب ضد الفرس •

لم يكد (بوزانياس) يعود الى (بيزانس) حتى استأنف مؤآمراته السابقة • فجمع حوله عددا من المغامرين وقبض على مقاليد الحكم في (بيزانس) ثم استولى على (سيستوس) • الا أن الآثينيين ، الذين اعترف لهم الايونيون بالزعامة والذين نجحوا اذ ذاك في تأليف « الاتحاد الديلوسي» لم يسكتوا على هذا التحدي بل أرسلوا حملة بقيادة (كيمون) استطاعت بسهولة أن تسترجع هذين المركزين الخطيرين • فانسحب (بوزانياس) الى مدينة (كولوناي) في الشمال من طروادة • ولما بلغ حكومة (اسبارطة) أنه أخذ هناك يتصل من جديد بالفرس استدعته للمثول أمام المحكمة ولكن في هذه المرة أيضا لم تتوفر البراهين لادانته فأطلق سراحه •

كان من الصعب على (بوزانياس) أن يتخلى عن مطامعه في فرض سيطرته على بلاد اليونان • وقد تبين له بعد تجاربه السابقة أنه لا يمكنه نيل

مساعدة الفرس الا اذا انفرد بالسلطة في (اسبارطة) وأصبح له شأن بين أمته • فرأى أن يبدأ العمل بقلب نظام الحكم الاسبارطي وأن يستفيد لهذه الغاية من الهيلوتيين المضطهدين فصار يتصل بهم ويقطع لهم الوعود بتحريرهم اذا انضموا اليه وقاموا بالثورة •

مثل هذه المؤآمرة لم تكن لتخفى على المراقبين الاسبارطيين • الا أنه كان لا بد من الحصول على الوثائق اللازمة لاثبات الجرم • وبينما كان المسؤولون يفتشون عن ذلك جاء أحد الخدم الذين يثق بهم (بوزانياس) وقدم الى المراقبين كتابا كان سيده كلفه بايصاله الى (آرتابازوس) الوالي الفارسي في (ساردیس) ثم صرح هذا الخادم أنه تذكر وهو يتأهب للسفر أن (بوزانياس) كان قد عهد الى أشخاص عديدين قبله بمثل هذه المهمة • وأن أحدا منهم لم يرجع • فخاف أن يكون في الكتاب ايعاز بقتله لئلا يفشي السر بالمستقبل ولذلك أقدم على فضه واطلع على مضمونه الذي جاء مؤيدا لما ذهب اليه •

على أن المراقبين لم يكتفوا بهذه الوثيقة الخطيرة بل أرادوا أن يعترف (بوزانياس) نفسه بصحتها فطلبوا من الخادم أن يعود الى المكان على الشاطىء الذي كان قد قرر الابحار منه وأن يراسل سيده من هناك ويدعوه الى مقابلته • ولم يكن من شك في أن (بوزانياس) سيسرع في تلبية الدعوة لخطورة المهمة الموكولة الى الخادم • وقد تخبى المراقبون في مكان الاجتماع وسمعوا الحديث بين الرجلين عن الكتاب الى الوالي الفارسي • ثم برزوا أمام (بوزانياس) وطلبوا اليه مرافقتهم الى (اسبارطة) • كان الطريق يمر بالقرب من معبد الآلهة (آثينة خالكيديكوس) • فانتهز (بوزانياس) الفرصة والتجأ الى حرم المعبد للخلاص من حكم الاعدام المحقق • ولما كانت التقاليد الدينية لاتسمح بالقبض عليه داخل الحرم اضطر المراقبون الى اصدار الامر ببناء جدار عال حول المعبد وتركوا (بوزانياس) مسجونا حتى أشرف على

الهلاك من الجوع ثم سحبوه وهو في الرمق الاخير الى الخارج لئلا يموت في المعبد ويدنسه • على الرغم من ذلك اعتبر هلاكه ضمن الحرم تجاوزا على حرمة الآلهة واضطرت حكومة اسبارطة الى تقديم تمثالين الى المعبد للتكفير عن هذا الاثم •

هكذا انتهت مغامرات (بوزانياس) دون أن يكون لها نتائج هامة • ويمكن القول بأن سيرته لاتختلف كثيرا عن سيرة كل اسبارطي يخرج من بلاده ويجد نفسه في بيئةجديدةفيتعذر عليهمؤالفتها لفساد طريقة«الترويض»

٠٩ ـ زعامـة (آثينـة) :

يقول (توكيديديس) أن سلوك (بوزانياس) كان من أهم العوامل التي دفعت اليونانيين في آسية الصغرى وبحر ايجه الى الانضواء تحت زعامة (آثينة) • ثم يذكر بأن الآثينيين والايونيين ينتسبون الى أصل واحد وأن الشعور بصلة الرحم ساعد كثيرا على التقارب بينهما •

وقد بدأ هذا التقارب ، كما رأينا ، منذ معركة (ميكالي) ، اذ رفضت (اسبارطة) قبول الايونيين في الحلف الهيلليني والدفاع عنهم بينما اندفعت (آثينة) الى الاتفاق معهم وتعهدت حمايتهم • ثم توثقت العلاقات بينالطرفين عندما اشتركا في حصار (سيستوس) • ولكن لا شك في أن الخطوةالحاسمة نحو الاتفاق لمتتم الا بعد الاستيلاء على(بيزانس)وافتضاحنوايا (بوزانياس)• فلما اضطرت حكومة اسبارطة الى استدعائه دون ان تعين قائدا مكانه اجتمعت كلمة الايونيين على تسليم القيادة الى الآثينيين •

وفي الحقيقة فقد كان لابد من انتقال القيادة ، عاجلا أو آجلا ، الى (آثينة) حتى لو أحسن (بوزانياس) التصرف ولم تكن هناك صلة القربى بين الايونيين والآثينيين • ذلك لان متابعة الحرب ضد الفرس كانت تتوقف على وجود أسطول قوي • ومعـروف أن (آثينة) وحدهـا تملك هــذا

الاسطول • واذا كانت (آثينة) قد رضيت أثناء الغارة الفارسية بتولي الاسبارطيين القيادة العليا في البحر أيضا ، لمعرفتها بأن ذلك هو السبيل الوحيد لضمان الدفاع المشترك ، فلم يكن من الممكن أن تقبل بهذا الامر دوما وعلى الاخص بعد أن انقلبت الاوضاع وانضم الايونيون الى جانبها • وانها لم تعد بحاجة الى البيلوبونيزيين الذين لم يكونوا يرغبون في تحمل ما تتطلبه الحرب البحرية من جهد وتضحيات فاقتصروا على ارسال (٢٠) سفينة يمكن الاستغناء عنها بسهولة • ثم أليس من السخف أن يعهد بقيادة الاسطول الى ضباط قضوا حياتهم كلها في التدرب على الحروب البرية ولا يعرفون شيئا بالمرة عن شؤون البحر وحركات السفن ؟

كانت (اسبارطة) قبل الحروب الفارسية أقوى دولة في بلاد اليونان كافة لا ينازعها أحد الزعامة والسيطرة • وقد خرجت من هذه الحروب وهي أعظم نفوذا وأسمى مكانة • ان هالة من المجد لا مثيل لها كانت تحيط بذكرى الابطال الثلاثمائة الذين صمدوا بقيادة الملك (لئونيداس) في وجه جحافل العدو الهائلة عند (ترموبيلي) وآثروا أن يموتوا جميعا على أن يتزحزحوا عن مكانهم • كان اليونانيون كلهم يشيدون بفضل النظام الاسبارطي وشجاعة الجنود الاسبارطيين وما يمتازون به من اطاعة واحترام للرؤساء وقيام بالواجب في صمت وتجرد •

على أن هذه المظاهر البراقة لم تكن لتخفي مع مرور الزمن نقاط الضعف الكامنة في أسس الدولة الاسبارطية وقد أشرنا الى تردد الاسبارطيين وتقاعسهم عن ارسال جيشهم الى خارج شبه جزيرة البيلوبونيز • ذلك لان الطبقة الآرستوقراطية المسيطرة كانت تخشى انهيار نظام الحكم القائم على القهر والاستعباد اذا أقدمت الحكومة على مغامرات حربية • كان الاسبارطيون يتمسكون بالتقاليد القديمة ، البالية ويعارضون كل اصلاح • وكانت سياستهم محدودة ، ضيقة لا تتعدى مصالحهم في شبه جزيرة (البيلوبونيز) • وقد

ظلت (اسبارطة) متخلفة عن السير في طريق التطور والتقدم ومجاراة سائر الدول اليونانية فأصبحت عاجزة عن مؤالفة شروط الحياة الجديدة . وهي لم يكن لها أسطول ولا صناعة ولا تجارة . وبسبب اقتصارها على الزراعة كانت لا تملك شيئا من الثروة ولا تستطيع تحمل النفقات الكبيرة التي تتطلبها الحرب البحرية .

على العكس من ذلك كانت تمتاز (آثينة) بروح المغامرة والاقدام والتجدد . وكانت سياستها تدل على بعد النظر ومراعاة الظروف وصحة الحكم . وهي لم تتأخر عن تقديم أكبر التضحيات لصد الغارة الفارسية وقد أنشأت في بضع سنوات أعظم اسطول في بلاد اليونان كان له الفضل الاول في احراز النصر . هذا الاسطول كان دوما مستعدا لمتابعة الحرب ضد الفرس .

ان (اسبارطة) بتقاعسها فقدت السيطرة . أما (آثينة) فانها باقدامها نالت « امبراطورية » .

١٠ ـ الاتحـاد الديلوسي :

ان (آثينة) التي كانت تملك وحدها أسطولا كبيرا قادرا على حماية بلاد اليونان من غارة فارسية جديدة والتي رضيت أن تتعهد بالدفاع عن اليونانيين في آسية الصغرى وبحر ايجة والتي اتفقت كلمة الايونيين على الاعتراف بقوتها وتسليمها القيادة بعد فضيحة (بوزانياس) ـ ان (آثينة) قد أثبتت مهارة سياسية كبيرة في استثمار هذه الظروف المواتية فأسرعت الى تأليف الاتحاد الديلوسي وبذلك وضعت الحجر الاساسي لسيطرتها .

كان طبيعيا أن يصبح هذا الاتحاد منظمة سياسية مستقلة الى جانب (الحلف الهيلليني) وان تستند اليه (آثينة) لمجابهة (الاتحاد البيلوبونيزي) الذي تسيطر عليه (اسبارطة) .

يبدو أن الاقتراح بتأليف الاتحاد قد قدم من قبل الجزر الكبيرةالثلاث: (خيوس) و (ساموس) و (لسبوس) • ولا غرابة في أن يرحب الآثينيون بمثل هذا الاقتراح وأن يقوموا بتهيئة جميع الوسائل اللازمة لنجاحه •

في ربيع سنة (٤٧٧) جاء ممثلون عن المدن الحليفة الى (آثينــة) لاقرار ما اتفق عليه قبلا بصورة غير رسمية • ولا بد أن تكون المفاوضات وحفلة القسم قد تمت قبل صيف سنة (٤٧٧) ، اذ نرى (آرسطو) في كتابه (دستور آثينة) يذكر بأن الاتحاد كان في زمن الحاكم (تيموستينيس) (أي في المدة بين ١٥ تموز ٤٧٨ و ١٥ تموز ٤٧٧) • واذا كانت المــدن المنتمية الى الاتحاد قد بلغ عددها في سنة (٤٢٥) أكثر من (٤٠٠) ، كما تبين من السجلات الرسمية القديمة ، فمن المؤكد أنهــا لم تكن في بادىء الامر تزيد على خمس هذا العدد • وتدل الظواهــر عــلى أن معظم الجزر الواقعة على شواطىء آســية الصغــرى من (لسبوس) الى (رودوس) ، والقسم الاكبر من جزر (السيكلاد) الايونية مع مدن (اوبوئية) ـ عــدا (فاريستوس) ـ ثم بعض الحصون في (تراكية) و (الهيليسبونت) ،وربما جزيرتي (تاسوس) و (ساموطراس) أيضا ، قد انضمت الى الاتحاد منذ أول تأليفه •

كانت الدول اليونانية في تلك العصور تنظم علاقاتهــا السياسية عــلى أساس ديني • وأقدم مظهر للحقوق الدولية لدى اليونانيين هو حق الضيافة بين العشائر والقبائل والدول • فقد كان جميع الاجــانب القاطنين في غــير بلدهم ، حتى المنفيين منهم ، يعتبرون تحت حماية الاله (زفس المضياف) أو (كينية) ولكن اذا اتفقت دولتان على أن تعتمد كل منهما بعض الافراد من رعاياها المغتربين للمفاوضة باسمها وتأمين الصلات المتقابلــة فان هــؤلاء يصبحون « ضيوفا » يتمتعون ، خلافا لســائر الاجانب ، ببعض الحقــوق والامتيازات الخاصة في الاعمال التجارية والضرائب والمثول أمام المحاكم

ينالون مختلف الالقاب الشرف كما يتحملون مسؤولية معنوية تجاه المدينة التي هم ضيوفها فيتحتم عليهم حماية مصالحها والتوسط بينها وبين حكومة بلادهم ٠ والسفراء الذين يرسلون بمهمات خاصة يقصدون قبل كل شيء هؤلاء « الضيوف » ٠

ثم هناك مؤسسات دولية أخرى قديمة أيضا لدى اليونانيين هي « الاحلاف » أي « الاتحادات » ذات الصبغة الدينية التي تتألف من عدة قبائل أو مدن تشترك في تقديس أحد الآلهة الكبار وتعيش بالقرب من معبده فتتفق فيما بينها على الدفاع عن هذا المعبد وكنوزه وعلى معاقبة كل من ينتهك حرمته ثم المساهمة في تقديم الضحايا اليه وتنظيم حفلات الاعياد الخاصة به٠ أثناء هذه الحفلات الدينية تحرم الحروب ويعلن السلم ٠ وكثيرا ما كان يجتمع بهذه المناسبة مندوبون عن الدول « المتحالفة » ويبحثون في المسائل السياسية التي تهم بلادهم ٠ بذلك اكتسبت هذه المؤسسات الدولية طابعا سياسيا بالاضافة الى صفتها الدينية ٠ وأقدم « حلف » من هذا النوع نال أهمية سياسية كبيرة في العصور الاولى من التاريخ اليوناني هو حلف(دلفي- ترموبيلي) الذي تألف من اندماج حلفين نشأ أحدهما حول معبد الاله (أبوللون) في (دلفي) والآخر حول معبدالالاهة (ديميتر) في(ترموبيلي) وكان الحلف الموحد يضم اثنتي عشرة قبيلة لكل منها صوتان في الجمعية العامة التي تعقد جلساتها مرة بالربيع من كل سنة في (ترموبيلي) ومرة بالخريف في (دلفي) وتعتبر مقرراتها الزامية لجميع الحلفاء ٠

أما النوع الثالث لتنظيم العلاقات بين الدول في اليونان فهو ما يسمى (سماخيا) أي « الاتحادات » القائمة على معاهدات ومحالفات سياسية وعسكرية ٠ مثال ذلك (الاتحاد البيلوبونيزي) بزعامة (اسبارطة) الذي مر معنا ذكره ٠ وهكذا أيضا الاتحاد الجديد الذي تزعمته (آثينة) ٠

الا أن هناك فروقا هامة بين هذين الاتحادين ٠ فالاتحاد الجديدتألف

من مدن بحرية ولذلك كثيرا ما يطلق عليه اسم « الاتحاد البحري » •ولكن الاسم الذي اشتهر به هو « الاتحاد الديلوسي » • ذلك لان الدول المشتركة فيه أرادت توطيد دعائمه باعطائه صفة دينية فاتفقت على أن تجعل مركزا له معبد (آبوللسون) و (آرتميس) في جزيرة (ديلوس) الـذي يقدسه الايونيون جميعا منذ القديم • ولا يستبعد أن يكون السبب في انتقاء هذه الجزيرة الصغيره لا يرجع الى مكانتها الدينية فحسب ، بل كذلكوبالدرجة الاولى ، الى موقعها المتوسط وطابعها الحيادي من الوجهة السياسية •

يقول (توكيديديس) أن القصد من تأليف الاتحاد هو الانتقام من الفرس للخسائر التي أحدثتها غارتهم في بلاد اليونان • ولكن جميع الدلائل تشير الى أن هدف (آثينة) وحلفائها لم يكن ، منذ باديء الامر يقتصر على أخذ الثأر • ان الغاية الاصلية هي تحرير اليونانيين في آسية الصغرى من النير الفارسي والحيلولة دون هجوم جديد على بلاد اليونان •

لتحقيق هذه الغاية لا بد من أسطول قوي ومال كثير • وقد تم الاتفاق على أن تقدم كل دولة عددا معينا من السفن لتأليف هذا الاسطول الذييجب أن يحتشد في ميناء (بيريئوس) ويكون تحت قيادة (آثينة) الا أن معظم المدن التي انضمت الى الاتحاد لم تكن تملك الوسائل الضرورية لصنعالسفن وتجهيزها والمحافظة عليها • لذلك تقرر أن تدفع هذه المدن مبلغا من المال وأن تقوم (آثينة) بتقديمالسفنعوضا عنها•ويبدو ان الجزر الكبيرة:(خيوس) و (ساموس) و (لسبوس) و (ناكسوس) قد تعهدت منذ باديء الامر بتجهيز العدد المطلوب من السفن بينما اختارت المدن الاخرى دفع ما يترتب عليها من المال •

لاشك في أن (آثينة) كانت تفضل لحلفائها المساهمة المالية • وذلك لانها بهذه الطريقة تستطيع ان تهيىءلسكانها سبل العمل والعيش وأن تنشىء أسطولا اقرب الى الانسجام والتجانس كما يسهل جمعه عند الحاجة • وفي

الوقت نفسه اعتقدت المدن التي اختارت المساهمة المالية بأنها قد أحسنت صنعا لانها تخلصت بذلك من مصاعب ومتاعب جمة وضمنت سلامتها دون ان تحتاج الى الاشتراك في القتال • ولكنها أدركت فيما بعد خطأها اذا انقلبت المساهمة المالية الى جزية وأخذت (آثينة) تتصرف بالاموال كما تريد وتستخدم الاسطول لاغراضها الخاصة •

تعتبر المساهمة المالية من أهم الاسس التي قام عليها (الاتحاد الديلوسي)• هنا يظهر لنا الفرق الجوهري بينه وبين (الاتحاد البلوبونيزي) •

ان آراء المؤرخين الحديثين ما زالت متضاربة حول مجموع المبلغ السنوي الذي فرض على أعضاء الاتحاد وكيفية توزيعه • يقول الرواة القدماء أن الحلفاء اتفقت كلمتهم على أن يعهدوا الى (آريستيديس) بتحديد هذا المبلغ وبيان ما يجب على كل مدينة أن تدفعه • فقد كانوا جميعا يثقون بنزاهته وعدالة حكمه ، ومن أكبر دواعي الفخر لهذا الرجل السياسي أنه ادى مهمته بصورة مرضية نالت الاستحسان العام ولم تترك أي مجال للانتقاد او الاعتراض • ويظهر أن (آريستيديس) قد حسب النفقات اللازمة لاسطول مؤلف من (٢٠٠) سفينة أثناء سبعة أشهر من السنة ، وهي المدة التي تساعد فيها الاحوال الجوية على القيام بالحركات البحرية ، فتوصل الى مبلغ (٤٦٠) تالنتا • ثم بحث بمنتهى ما يمكن من الدقة والحياد في الثروة التي تملكها المدن المنتمية الى الاتحاد وعلى الاخص قيمة أراضيها العقارية فاستند الى ذلك عند تحديد حصة كل منها • ومن المحتمل جدا ان يكون (آريستيديس) قد استعان بالتخمينات التي اعتمدها الفرس عند فرض الجزية والتي كانت تقوم أيضا على أساس قيمة الاراضي • ومن المفيد أن نذكر بهذه المناسبة أن الجزية المفروضة في زمن الفرس على ولاية « آسية الصغرى » كانت تبلغ (٥٢٠) تالنتا •

وقد تقرر أن تودع خزينة الاتحاد في معبد (ديلوس) وأن ينتقى

عشرة من الموظفين الآثينيين لاستلام المبالغ من المدن وصرف النفقات وتسجيل الحسابات أطلق عليهم اسم (الخزنة الهيللينيين) •

كذلك تم الاتفاق على أن يعاد النظر في تحديد الحصص المفروضة مرة كل أربع سنوات •

كان العرف في بلاد اليونان يقضي باقتطاع مقدار العشر من الاموال التي تودع في المعابد كحصة للاله وقد عثر مؤخرا على قسم كبير من الجداول التي سجلت فيها مبالغ العشر المدفوعة الى معبد (ديلوس) •ومن تدقيق هذه السجلات يتبين لنا أن تعديلات كثيرة قد طرأت على مقدار المساهمة المالية لكل مدينة اما بالنظر الى أوضاعها الخاصة أو بسبب ازدياد عدد المدن المنتمية الى الاتحاد • ولكن مجموع المبلغ ظل حتى سنة (٤٢٥) كما حدد (آريستديس) في البداية أي قريبا من (٤٦٠) تالنتا رغم التقلبات الاقتصادية وارتفاع الاسعار في مدة الخمسين سنة •

ثم تقرر أيضا ان يجتمع مجلس الاتحاد في (ديلوس) من حين الى آخر • وليس لدينا أي معلومات عن صلاحيات هذا المجلس • يذهب المؤرخ الانكليزي (غروت) في مؤلفه الكبير عن تاريخ اليونان الى أن مجلس الاتحاد كان يقوم بوظيفتين : الاولى : النظر في المبالغ التي يجب على كل مدينة تقديمها الى الصندوق المشترك والثانية : اصدار الحكم في حالة تخلف احدى المدن عن القيام بواجباتها • وهو يفترض بأن (آثينة) لم يكن لها في المدة الاولى القوة الكافية لارغام الحلفاء على تنفيذ أي أمر دون موافقة المجلس ، فيقول : « نستطيع التأكيد بأن كل الاعمال كانت في بادىء الامر تقرر باجماع الآراء والانقياد الاختياري للسلطة الموحدة » • على أنه ليس هناك في الاخبار المنقولة ما يدعم هذا الافتراض • ربما يمكننا الاستنتاج من بعض المقاطع في كتاب (توكيديديس) بأن المجلس كان له شيء من حق الاشراف على سياسة الاتحاد العامة وابداء الرأي في معاقبة الدول المعارضة

أو الثائرة . ولكننا لانجد بين أقوال القدماء أي اشارة الى ان مجلس الاتحاد كان يقوم بمهمة محكمة للتمييز يحق لها اعادة النظر في المبالغ المفروضة من الآثينيين أو في التدابير التي يتخذها قادة (آثينة) ضد المدن المتخلفة .

لقد كان لكل مدينة ، صغيرة كانت أو كبيرة ، صوت واحد في المجلس ولكن بما أن أكثر المدن الصغيرة كانت خاضعة لنفوذ (آثينة) لا تجسر على مخالفتها فقد أصبح من السهل على الآثينيين أن يسيطروا على الاتحاد ويتصرفوا بأمواله ويستخدموا الاسطول لاغراضهم الخاصة .

انه من الطبيعي أن يكون الاتحاد تحت زعامة (آثينة) التي تقدم القسم الاكبر من السفن وتشرف على جمع الاموال وتتولى السلطة التنفيذية . وقد تجلت هذه الزعامة منذ أول تأسيس الاتحاد . فان الايونيين هم الذين لجأوا الى (آثينة) وطلبوا اليها استلام القيادة . وكانت الحرب مع الفرس لا تزال مستمرة والحماسة بين اليونانيين في آسية الصغرى وجزر بحرايجة على أشدها . في تلك الظروف لم يكن المجال يتسع لوضع دستورا أو نظام للاتحاد ومناقشة بنوده وتوضيح نصوصه وتحديد شروطه وتثبيت كل ذلك في وثيقة مكتوبة . ان الموقف كان يستلزم عقد محالفة دفاعية وهجومية معاً . وقد جرى تبادل القسم بين (آثينة) كطرف والايونيين كطرف ثان . لذلك نرى المؤرخين القدماء كثيرا ما يهملون اسم الاتحاد ويذكرون عوضا عنه « الآثينيين وحلفاءهم » وأثناء القسم القيت قطع ضخمة من الحديد في أعماق البحر كرمز لاستمرار التحالف حتى تبرز هذه القطع على وجه الماء ، اي الى الابد . على أنه لم يتعرض أحد أثناء المفاوضات الى البحث فيما اذا كان يجوز للمدن التي تنضم الى الاتحاد أن تخرج منه متى شاءت . فقد كانت هذه المدن مستقلة استقلالا تاما وهي انما انضمت الى الاتحاد بمحض اختيارها . والذي يتبادر الى الذهن لاول وهلة هو أنه يحق لها الانسحاب

منه عندما تعتقد بأن أهذافه قد تحققت أو أنه قد انحرف عن غايته الاصلية أو أن مصالحها قد تغيرت .

من المحتمل جدا أن يكون حق الانفصال قد أغفل ذكره عن قصد لانه لو نفي صراحة ربما استحال تأليف الاتحاد بالمرة . على أن هذا الاهمال لايخلو من أخطار . وبالفعل فانه عندما أرادت جزيرة (ناكسوس) ثم جزيرة (تاسوس) الانسحاب من الاتحاد اعتبرت (آثينة) ذلك عصيانا وأقدمت على معاقبتهما أشد العقاب . ولدينا مثال من التاريخ الحديث هو دستور الولايات الاميريكية المتحدة الذي تقصد واضعوه أن لايتعرضوا في نصوصه الى حق الانفصال خوفا من اخفاق المشروع فكانت النتيجة الحرب الاهلية سنة ١٨٦١ .

هكذا تم تأليف الاتحاد بسرعة لمجابهة الحالة الحرجة بعد الحزوب الفارسية دون ملاحظة النتائج التي يمكن أن يؤدي اليها المستقبل . فعرفت (آثينة) كيف تستفيد منه وتستخدمه لفرض سيطرتها في بلاد اليونان مدة من الزمن .

المراجع

١ ــ باللغة العربية :

١) **ويل دورايت :** قصة الحضارة ــ المجلد الثاني : « حياة اليونان » (في ثلاثة أجزاء) (ترجمة محمد بدران والدكتور زكي نجيب محمود) لجنة التاليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٥٣ ·

٢) **آرسطو :** دستور الآثينيين ــ ترجمة الأب أوغسطينوس بربارة ، اللجنة الدولية لترجمة الروائع ·

٣) **التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ــ** (ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي) ، مكتبة النهضة المصرية ــ القاهرة ١٩٤٠ ·

٤) **الفريد زيمرن :** الحياة العامة اليونانية في آثينة في القرن الخامس ــ (ترجمة عبد المحسن الخشاب) ، لجنة البيان العربي ــ القاهرة ١٩٥٨ ·

٥) **الدكتور عبد اللطيف احمد علي :** التاريخ اليوناني ــ دار النهضة العربية القاهرة

٦) **الدكتور سليم عادل عبد الحق** ــ الفن اليوناني وآثاره المشهورة في الشرق ــ دار الآثار السورية ــ دمشق ١٩٥٠ ·

٧) **محمود سلام زناتي** ــ المرأة عند قدماء اليونان ــ الاسكندرية ١٩٥٧ ·

٢ ــ باللغات الأجنبية

1) **G. Glotz :** Histoire grècque (4 vol.) Paris 1938 - 1945.

2) **André Bonnard :** La civilisation grècque Lausanne 1954.

3) **J. B. Bury :** A History of Greece - London 1951.

4) **M. Rostovtzeff :** Greece - New York 1963.

5) **H. Bengtson :** Griechische Geschichte - Munchen 1960.

6) **U. Wilcken :** Griechische Geschichte - Munchen 1962.

ثبت الموضوعات

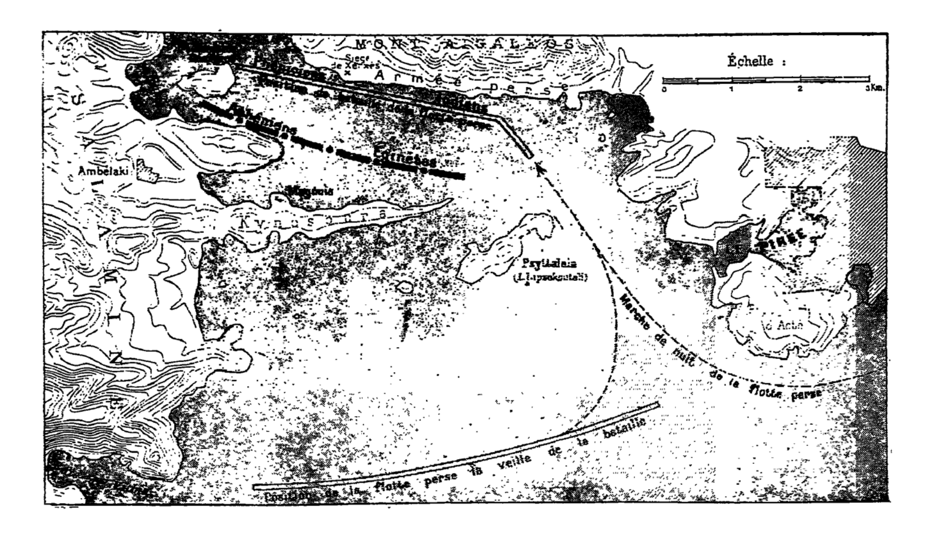
الصفحة

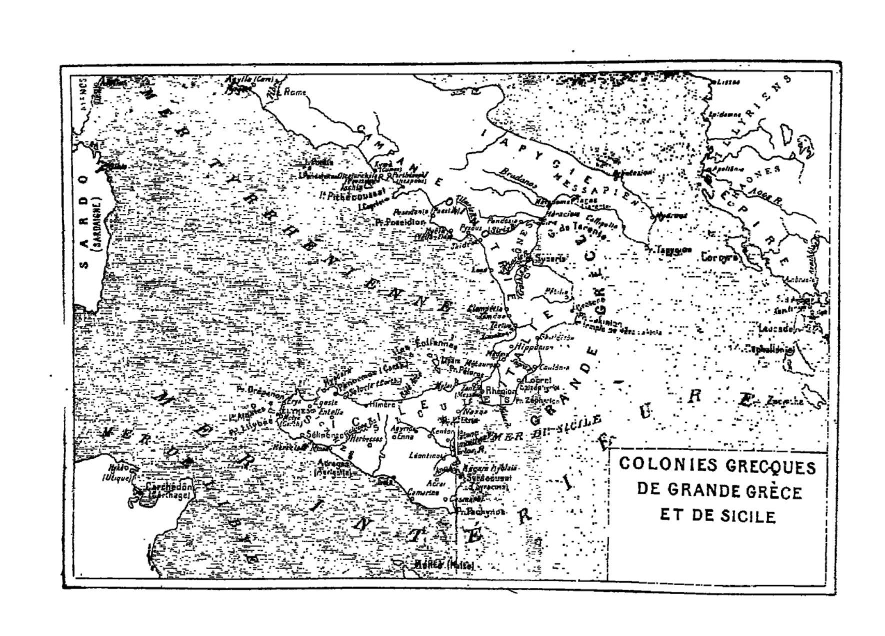
الصفحة

الصفحة

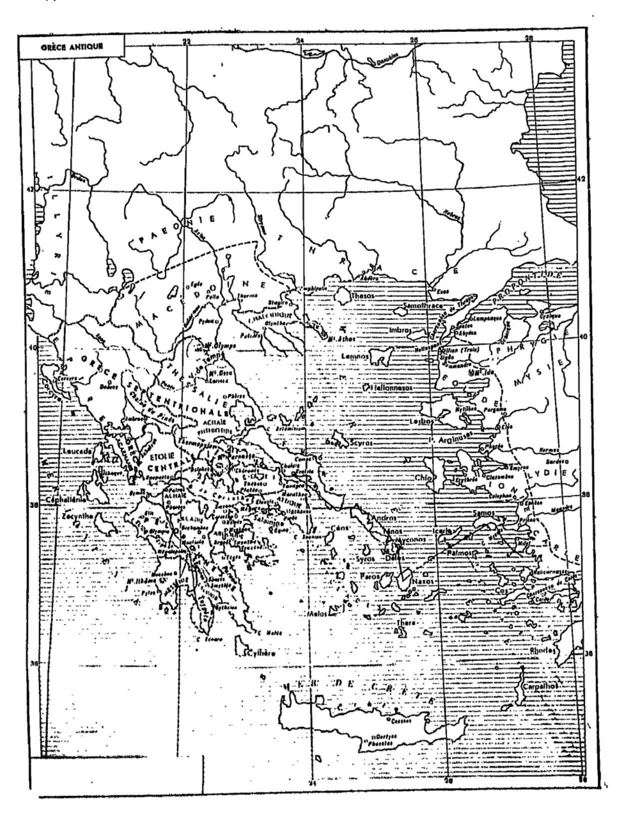
الصفحة

* * *


MONT AIGALEOS
Siège de Xerxès
Armée perse
Échelle :
0
1
2
3 Km.
Éginètes
Ambelaki
Psyttaleia
Marche de nuit de la flotte perse
de la flotte perse la veille de la bataille



COLONIES GRECQUES
DE GRANDE GRÈCE
ET DE SICILE


GRÈCE ANTIQUE
MACÉDOINE
PAEONIE
THRACE
ILLYRIE
THESSALIE
GRÈCE SEPTENTRIONALE
GRÈCE CENTRALE
ETOLIE
Thasos
Samothrace
Imbros
Lemnos
Lesbos
Scyros
Chio
Samos
Andros
Ténos
Myconos
Syros
Délos
Paros
Naxos
Mélos
Théra
Icarie
Patmos
Cos
Rhodes
Carpathos
Cythère
Céos
Leucade
Céphallénie
Zacynthe
PHRYGIE
MYSIE
LYDIE
Mt Athos
Mt Olympe
Hellespont
Arginuses
Halicarnasse
Cnossos
Phaestos
Gortyne

